

الأنوار القدسية

في معرفة قواعد الصوفية

الأنوار القدسية

في معرفة قواعد الصوفية

الإمام عبد الوهاب الشعراني

طبعة مصححة ومدققة بعناية

محمد خير طعمه حليبي

دار المعرفة

بيروت - لبنان

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright© All rights reserved
Exclusive rights by **Dar El-Marefah** Beirut - Lebanon.

ISBN 9953-85-024-0

الطبعة الاولى

1427 هـ - 2006 م



DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

جسر المطار - شارع البرجاوي - ص.ب: ٧٨٧٦ - هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٥٨٨٣٠ - فاكس: ٨٣٥٦١٤ بيروت - لبنان
Airport Bridge, P.O.Box: 7876, Tel: 834301, 858930, Fax: 835614, Beirut-Lebanon
E.mail: info@marefah.com
<http://www.marefah.com>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة الإمام الشعراني

هو: عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن موسى الشعراني، الأنصاري، الشافعي، المصري، (أبو المواهب، أبو عبد الرحمن) فقيه، أصولي، صوفي، مشارك في أنواع العلوم، ولد في قلقشندة، بمصر في ٢٧- رمضان - ٨٩٨هـ - ١٤٩٣م.

ونشأ بساقية أبي شعرة من قرى المنوفية، من ذرية محمد ابن الحنفية، مات أبوه وهو طفل، فحفظ القرآن وأبا شجاع، والأجرومية، وهو ابن سبع أو ثمان، ثم انتقل إلى جامع الغمري سنة ٩١١هـ بمصر، واجتهد وحفظ عدة متون منها: الألفية، والتوضيح، والتلخيص، والشاطبية، وقواعد ابن هشام، بل حفظ الروض إلى القضاء، وعرض ما حفظ على علماء عصره، وأخذ عن الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري، قرأ عليه ما لا يحصى من الكتب الستة، وقرأ على القسطلاني، والشهاب الرملي وغيرهم كثير.

كان عاملاً زاهداً يديم الصوم ويفطر على أوقية من الخبز، ويجمع الخروق ليستتر بها. وكان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على النبي ﷺ، مبالغاً في الورع، حسده طوائف فدرسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع وعقائد زائفة، ومسائل تخالف الإجماع وأقاموا عليه القيامة، وشنعوه وسبّوه ورموه بكل عظمة، فخذلهم الله وأظهره عليهم، وكان مؤثراً ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه، متحملاً للأذى، موزعاً أوقاته على العبادة ما بين تصنيف وإفادة واجتماع بزوايته نحو مائة، فكان يقوم بهم نفقة وكسوة، وكان عظيم الهيبة يسمع لزوايته دويّ كدويّ النحل، وحُبب إليه الحديث، فلزم الاشتغال به والأخذ عن أهله، ومع ذلك لم يكن عنده جمود المحدثين ولا لدونة النقلة، بل هو فقيه النظر، صوفي الخبر، له دربه في

أقوال السلف ومذاهب الخلف، وكان ينهى عن الحط على الفلاسفة، وتنقيصهم، وينفر ممن يذمهم، ويقول هؤلاء عقلاء ولم يزل مقيماً على ذلك معظماً في الصدور إلى أن نقله الله تعالى إلى دار كرامته بالقاهرة سنة ٩٧٣هـ - ١٥٦٥م ودفن قرب زاويته.

من مصنفاته التي تزيد على ثلاثمائة كتاب - كما قال الكتاني:

- ١ - مختصر الفتوحات.
- ٢ - سنن البيهقي الكبرى.
- ٣ - مختصر تذكرة القرطبي.
- ٤ - الميزان.
- ٥ - البحر المورود في المواثيق والعهود.
- ٦ - كشف الغمة عن جميع الأمة.
- ٧ - المنهج المبين في أدلة المجتهدين.
- ٨ - البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير.
- ٩ - مشارق الأنوار القدسية في العهود المحمدية.
- ١٠ - لوائح الأنوار واليوافيت والجواهر في عقائد الأكابر.
- ١١ - الجواهر المصون في علوم الكتاب المكنون.
- ١٢ - طبقات ثلاث.
- ١٣ - مفحم الأكباد في مواد الاجتهاد.
- ١٤ - لوائح الخذلان على من لم يعمل بالقرآن.
- ١٥ - حد الحسام على من أوجب العمل بالإلهام.
- ١٦ - البراق الخاطف لبصر من عمل بالهواتف.
- ١٧ - رسالة الأنوار في آداب العبودية.
- ١٨ - كشف المران عن أسئلة الجان.

- ١٩ - فرائد القلائد في علم العقائد والجواهر .
- ٢٠ - الدرر والكبريت الأحمر في علوم الكشف الأكبر .
- ٢١ - الاقتباس في القياس .
- ٢٢ - فتاوى الخواص .
- ٢٣ - الجواهر المصنوع والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم .
- ٢٤ - الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة .
- ٢٥ - لواقح الأنوار في طبقات الأخبار .
- ٢٦ - المقدمة النحوية في علم العربية .
- ٢٧ - شرح جمع الجوامع للسبكي في أصول الفقه .
- انظر شذرات الذهب : ٣٧٢ / ٨ - ٣٧٣ - ٣٧٤ .
- معجم المؤلفين : ٢١٨ / ٦ .

* * *

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد المتأدبين، وسيد السالكين، اللهم فصل
وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين.

وبعد: فهذه رسالة عظيمة لم ينسج أحد فيما أظن على منوالها، ولا نصح
نفسه وإخوانه بمثالها، سميتها: «الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية» وربتها
على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

فالمقدمة: في بيان عقيدة القوم وبيان سندهم بتلقيين الذكر والبأس الخرقه
وآداب الذكر.

الباب الأول: في ذكر نبذة في آداب المريد في نفسه.

والباب الثاني: في ذكر نبذة من آداب المريد مع شيخه.

والباب الثالث: في ذكر نبذة من آداب المريد مع إخوانه وأصحاب شيخه.

والخاتمة: في بيان آداب لا تختص بالشيخ والمريد بل هي عامة مع جميع
الخلق.

وقد ضمنت كل باب ما تَقَرُّ^(١) به أعين الناظرين من قول السلف والخلف
إلى عصرنا هذا، فأكرم بها من رسالة كلها نصح وأدب لا أظن أن فيها كلمة
واحدة يرمى بها، أعيدها بالله تعالى من شر كل عدو أو حاسد يَدُسُّ فيها ما ليس
من كلامي لينفّر الناس من مطالعتها، كما وقع لي ذلك في كتاب «العهد» وفي
مقدمة كتاب «كشف الغمة عن جميع الأمة» فإن بعض الحسدة لما رأى إقبال

(١) قرأت عينه: سرّ ورضي.

الناس على هذين الكتابين غار من ذلك فاستعار له نسخة من كل كتاب ودسَّ فيها ما ليس من كلامي وسلكه في غضونها حتى كأنه المؤلف! ثم أعطى ذلك لبعض المتهورين في دينهم وقال: اطلع العلماء على هذا الكلام المخالف لظاهر الشريعة الذي ألفه فلان؟! فلا يعلم عدد من استغابني إلا الله تعالى مع أنني بحمد الله سنِّي محمدي، وما ألفت شيئاً من الكتب إلا بعد تبحري في علوم الشريعة واطلاعي على مذاهب المجتهدين وأدلتهم، فكيف أخالفهم؟ وأعرف بعض جماعة يظنون أنني أعتقد ما دسوه في كتبي من العقائد الزائفة إلى وقتي هذا، وما منهم أحد يجالسنني قَطُّ، فالله يغفر لهم أجمعين.

فإياك أن تصغي لقولهم فإني بريء من جميع ما دسوه، وبينني وبينهم يوم القيامة.

وكان من الباعث لي على تأليف هذه الرسالة، طلب النصح لنفسي ولإخواني حيث تحلَّسنا بحلاس^(١) الأشياخ ومشينا على مراسمهم الظاهرة، وظن كل واحد منا نفسه أنه صار من أشياخ الطريق، فوضعت هذه الرسالة كالميزان التي يوزن بها المحق والمبطل، فمن وافق حاله ما فيها فليحمد الله، وإلا فليستغفر من دعاويه الكاذبة.

وقد بلغنا أن الذئب الذي اتهم بأنه أكل يوسف عليه الصلاة والسلام، كان من حلفه أنه قال: «وَأَلَا أَكُونُ مِنْ مَشَايِخِ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا أَكَلْتُ يَوْسُفَ»، فكيف يصح لأحدنا دعوى الطريق وهو في النصف الثاني من القرن العاشر الذي استعاذ الذئب أن يكون واحداً من أشباهنا فيه!!؟.

وقد أدركنا بحمد الله جملة من أشياخ الطريق أول هذا القرن، وكانوا على قدم عظيم في العبادة والنسك والورع والخشية وكفَّ الجوارح الظاهرة والباطنة عن الآثام، حتى لا تجد أحدهم قط يعمل شيئاً يكتبه كاتب الشمال، وكان للطريق حرمة وهيبة، وكان الأمراء والملوك يتبركون بأهلها، ويقبلون بطون أقدامهم، لما يشهدونه من صفاتهم الحسنة، فلما ذهبوا زالت حرمة الطريق وأهلها، وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم: ما دريتم ما جرى؟

(١) حُلِّسَ بالشيء: أُلْعِبَ به.

فلان الآخر عمل شيخاً!!؟؟ كأنهم لا يسلمون له ما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها والتلذذ بمطاعمها وملابسها ومناكحها، والسعي على تحصيلها، حتى أنني قلت لبعض التجار: لم لا تجتمع بالشيخ الفلاني فقال: إن كان شيخاً فأنا الآخر شيخ! فإنه يحب الدنيا كما أحبها، ويسعى في تحصيلها كما أسعى، بل هو أشد مني سعيًا على الدنيا، لأنه يسافر إلى الروم في طلبها وأنا لم أسافر، وربما أكل الدنيا بصلاحه وأنا لم أكلها بصلاحي، فأنا أحسن حالاً منه فأردت أن أجيب عنه فرأيت الحس يكذبني.

وقد رأيت بعيني السلطان الغوري، وهو يقبل يد سيدي محمد بن عنان، ورأيت السلطان طومان باي الذي تولى بعده يقبل بطن رجله، وطلعت مرة مع سيدي الشيخ أبي الحسن الغمري للسلطان الغوري في شفاعته، فقام للشيخ وعضده من تحت إبطه وقال: يا سيدي عززني في هذا النهار، فإني ومملكتي كلها لا نفي حق طريقك.

وكان آخر الأشياخ الذين أدركناهم، سيدي الشيخ علي المرصفي رحمته الله، فلما توفي في جمادى الأولى سنة ثلاثين وتسعمائة، انحل نظام الطريق في مصر وقراها، وجلس كثير للمشيخة بأنفسهم من غير إذن من أشياخهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واعلم يا أخي أن جميع ما ذكرته لك في هذه الرسالة من أخلاق المريدين، إنما هو كالقطرة من البحر، فليعرض كل من نظر فيها أحواله على ما ذكرته من الآداب فيها، فإن وجد نفسه متخلقاً بها فليحمد الله تعالى، وإن وجد نفسه عارياً عنها، فليأخذ في أسباب التخلق بالسلوك على يد شيخ ناصح.

وإن كان قد جلس للمشيخة فليعزل نفسه منها، نصيحةً لنفسه ولإخوانه، فإن من جلس للمشيخة بغير إذن من شيخه ضلّ وأضلّ، وإنما لم نذكر شيئاً من أخلاق الكمل في هذه الرسالة لعزّة وجودها وعزّة المتخلق بها.

فلذلك ذكرنا أخلاق المريدين فقط لأنها هي الطريق المسلوكة الآن، وهيئات أن يصل أحدنا الآن إلى مقام مريد، فالحمد لله رب العالمين، ولنشرع في مقدمة الرسالة، فأقول وبالله التوفيق:

مقدمة: تشتمل على جملة من عقائد القوم^(١) وبيان موافقتها لعقائد أهل السنة والجماعة، وعلى بيان سند القوم في تلقينهم الذكر، وعلى سندهم في إلباسهم الخرقة للمريد وعلى بيان جملة من آداب الذكر.

اعلم يا أخي أن القوم أجمعوا على أن الله إله واحد لا ثاني له، منزّه عن صاحبة والولد، مالك لا شريك له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود مفتقر إليه في وجوده، فالعالم كله موجود به.

وهو تعالى موجود بذاته، لا افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، بل وجوده مطلق مستمر قائم بنفسه، ليس بجوهر فيقدر له المكان، ولا يعرض^(٢) فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مقدّس عن الجهة والأقطار، مرثي بالقلوب والأبصار، استوى تعالى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده.

كما أن العرش وما حواه به استوى له الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول، ولا دلت عليه العقول، لا يحده زمان، ولا يقله مكان.

وهو الآن على ما عليه كان، خلق المتمكن والمكان وأنشأ الزمان وقال: «أنا الواحد الحي الذي لا يؤده»^(٣) حفظ المخلوقات ولا يرجع إليه صفة لم يكن عليها من صفة المصنوعات، تعالى أن تحلّه الحوادث أو يحلها، أو تكون قبله أو يكون قبلها، بل يقال: كان ولا شيء معه، لأن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فلا نطلق عليه تعالى ما لم يطلقه على نفسه فإنه أطلق على نفسه: الأول والآخر، لا القبل والبعد.

فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يرام، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، خلق العرش وجعله حد الاستواء، وأنشأ الكرسي وأوسع الأرض والسماء، اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتباً في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلق، وخلق ما خلق.

(١) القوم: جماعة الصوفية.

(٢) العرض: ما يطراً ويزول.

(٣) آده الحمل: أثقله.

أنزل الأرواح في الأشباح أمناء، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلقاً وسخر لها ما في السموات والأرض جميعاً منه، فلا تتحرك ذرة إلا عنه.

خلق الكلّ من غير حاجة إليه ولا موجب أوجب ذلك عليه، لكن علمه بذلك سبق، فلا بد أن يخلق ما خلق.

فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، يعلم السرّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئاً خلقه؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١).

علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما علمها، فلم يزل عالماً بالأشياء لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء بعلمه، أتقن الأشياء وأحكمها، يعلم الكليات والجزئيات على الإطلاق فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون، فعّال لما يريد، فهو المرید للكائنات في عالم الأرض والسموات، لم تتعلق قدرته تعالى بإيجاد شيء حتى أراده، كما أنه لم يردّه سبحانه حتى علمه.

إذ يستحيل أن يريد ﷻ ما لم يعلم، أو يفعل المختار المتمكن من ذلك الفعل ما لا يريده كما يستحيل أن توجد هذه الحقائق من غير حيّ، كما يستحيل أن تقوم هذه الصفات بغير ذات موصوفة بها.

فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حرّ، ولا برد ولا حرّ، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا بر ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عَرَض، ولا صحة ولا مرض، ولا قرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلمة ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا سهاد^(٢) ولا رقاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من جميع المتضادات والمختلفات والمتماثلات، إلا وهو مراد للحق تعالى.

(١) سورة تبارك، الآية: ١٤.

(٢) السهاد: الأرق.

وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده فكيف يوجد المختار ما لا يريد، لا راداً لأمره، ولا معقب لحكمه، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالى لهم أن يريدوه ما أرادوه، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله إيجاده وأرادوه ما فعلوه ولا استطاعوه ولا أقدرهم عليه، فالكفر والإيمان، والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمته وإرادته، ولم يزل ﷻ موصوفاً بهذه الإرادة أزلاً والعالم معدوم، ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبر، بل أوجده عن العلم السابق، وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجده عليه من زمان ومكان وأكوان وألوان، فلا مرید في الوجود على الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(١) وأنه تعالى كما علم ما حكم وأراد فخصّ، وقدر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك وسكن، أو نطق في الورى، من العالم الأسفل والأعلى، لا يحجب سمعه البعد، فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب، فهو البعيد، يسمع كلام النفس في النفس، وصوت المماساة الخفية عند اللمس يرى السواد في الظلماء والماء في الماء، لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور وهو السميع البصير.

تكلم سبحانه، لا عن صمت متقدم ولا سكوت متوهم بكلام قديم أزلي كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته، كَلَّمَ به موسى عليه الصلاة والسلام، سماه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل والفرقان، من غير تشبيه ولا تكييف، إذ كلامه تعالى من غير لهاة^(٢) ولا لسان، كما أن سمعه من غير أصمخة^(٣) ولا أجفان، كما أن إرادته من غير قلب ولا جَنَان، كما أن علمه من غير اضطراب ولا نظر في برهان، كما أن حياته من غير بخار تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة ولا النقصان.

فسبحانه سبحانه من بعيد دان، عظيم السلطان عظيم الإحسان، جسيم الامتتان، كل ما سواه فهو عن وجوده فائض، وفضله وعدله الباسط والقابض،

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٢) اللّهُاء: اللّحمة المشرفة على الحلق أو الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم. والجمع لهوات.

(٣) الصّماخ: قناة الأذن التي تفضي إلى الطبلية. والجمع أصمخة.

أكمل صنعَ العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه، لا شريك له في ملكه ولا مدبر معه فيه، إن أنعم فنعمَ فذلك فضله، وإن أبلى فعذب فذلك عدله، لم يتصرف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيث^(١)، ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيتصرف بالجزع لذلك والخوف، كل ما سواه فهو تحت سلطان قهره، ومتصرف عن إرادته وأمره، فهو الملهم نفوسَ المكلفين للتقوى والفجور أي لتعمل بالتقوى وتجتنب الفجور، فهو المتجاوز عن السيئات من شاء هنا وفي يوم النشور، لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله، لقدّم صفاته كلها، وتنزّهها عن الحدوث.

أخرج العالم قبضتين، وأوجد لهما منزلتين، فقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي، ولم يعترض عليه معترض هناك إذ لا موجود كان ثم سواه، فالكل تحت تصرف أسمائه، فقبضة تحت أسماء بلائه وقبضة تحت أسماء آلائه، لو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقيماً لما كان في ذلك من شأن، لكنه سبحانه لم يرد ذلك فكان كما أراد فمنهم الشقي والسعيد، هنا وفي يوم الميعاد، فلا سبيل إلى تبدل ما حكم عليه القديم وقد قال تعالى في حديث فرض الصلاة: «هي خمس وهي خمسون، ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد لتصرفي في ملكي وإنفاذ مشيئتي في ملكي».

وذلك لحقيقة عُميت عنها البصائر ولم تعبر عليها الأفكار ولا الضمائر إلا بوهب إلهي، وجود رحماني، لمن اعتنى الله به من عباده، وسبق له ذلك في حضرة إلهاده، فعلم حين أعلم أن الألوهية أعطت هذا التقسيم وأنها من دقائق القديم، فسبحان من لا فاعل سواه، ولا موجود بذاته إلا إياه. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢) ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ (٣) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤).

وكما شهدنا لله تعالى بالوحدانية وما يستحقه من الصفات العلية، كذلك نشهد لسيدنا ومولانا محمد ﷺ بالرسالة إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً

(١) الحيف: من الجور والظلم. ومن التنزيل: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ﴾ [النور: ٥٠].

(٢) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً، وأنه ﷺ بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه وأدى أمانته، ونصح أمته، وقد ثبت أنه ﷺ، وقف في حجة الوداع على كل من حضره من الأتباع، فخطب وذكر وخوف وأنذر، ووعد وأوعد، وأمطر وأرعد وما خصّ بذلك التذكير أحداً دون أحد عن إذن الواحد الصمد، ثم قال: «ألا هل بلغت؟». فقالوا جميعاً: «قد بلغت يا رسول الله» فقال ﷺ: «اللهم اشهد».

ونؤمن بكل ما جاء به رسول الله ﷺ مما علمنا ومما لم نعلم، فما علمنا وتحققنا مما جاء به وقرر:

أن الموت عن أجل مسمى عند الله إذا جاء لا يؤخر فنحن مؤمنون بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك، كما آمنا وأقررنا وصدقنا أن سؤال منكر ونكير في القبر حق، وأن عذاب القبر حق والبعث من القبور حق والعرض على الله تعالى حق، والحوض حق، والميزان حق، وتطايير الصحف حق، والصراط حق، والجنة والنار حق، وفريقاً في الجنة وفريقاً في السعير حق، وأن كرب ذلك اليوم على طائفة حق.

وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر حق، وأن شفاعة الأنبياء والملائكة وصالحي المؤمنين حق، وشفاعة أرحم الراحمين حق، فتشفع أسماء الحنان والرحمة، عند أسماء الجبروت والثقمة.

وكذلك نؤمن بأن إيمان أهل النار كفرعون وغيره غير مقبول ولا نافع، وأن جماعة من أهل الكبائر من الموحدين يدخلون جهنم ثم يخرجون بالشفاعة حق، وأن كل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله تعالى عُلِمَ أو جُهِلَ حق.

وكذلك نؤمن بأن التأييد للمؤمنين في النعيم المقيم حق، والتأييد للكافرين والمنافقين والمشركين والمجرمين حق، فهذه عقيدة القوم ﷺ أجمعين، وعقيدة عليها حيناً وعليها نموت، كما هو رجاؤنا في الله ﷻ.

فنسأل الله من فضله أن ينفعنا بهذا الإيمان، ويثبتنا عليه عند الانتقال إلى الدار الحَيَوَان، ويحلِّنا دار الكرامة والرضوان، ويحول بيننا وبين دارِ سراييل^(١)

(١) السُّرْبَال: القميص أو الدرع أو كل ما يلبس. ج سراييل.

أهلها القطران^(١)، ويجعلنا من العصاة التي تأخذ كتبها بالآيمان، وممن ينقلب من الحوض وهو ريان، ويرجّح له الميزان، ويثبت منه على الصراط القدامان، إنه المنعم المحسان آمين اللهم آمين.

فأمعن يا أخي النظر في هذه العقيدة فإنها عظيمة، وإن حفظتها عن ظهر قلب كان أولى، والله يتولى هداك.

* * *

(١) القَطْرَان: عصارة شجر الأرز والأبهل تطبخ ثم تطلى بها الإبل. وفي التنزيل: ﴿سَرَّيْلُهُمْ مِن قَطْرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] لأنه شديد الاشتعال.

المقدمة/بيان سند التلقين^(١) الصوفي

وأما بيان مستند القوم في تلقينهم كلمة: لا إله إلا الله للمريدين، وبيان ما قاله الأشياخ في آداب الذكر، وبيان عزة التلقين، وبيان فوائد تتعلق بالذكر، فاعلم رحمك الله: أنه ورد تلقين رسول الله ﷺ لأصحابه كلمة: «لا إله إلا الله» جماعة وفرادى وتسلسلت السلسلة من كل منها لجماعة مع اتصال سندهم.

فروى الإمام أحمد والبخاري والطبراني وغيرهم بإسناد حسن «أن رسول الله ﷺ كان يوماً مجتمعاً مع أصحابه فقال: هل فيكم غريب؟ - يعني أهل الكتاب - قالوا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله. قال شذاد بن أوس: فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا: لا إله إلا الله.

ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا أبشروا فإن الله تعالى قد غفر لكم».

فهذا دليل الأشياخ في تلقينهم الذكر لجماعة معاً.

وأما دليل تلقينهم الذكر فرادى فلم أره في شيء من كتب المحدثين التي اطلعت عليها ولكن روى سيدي يوسف العجمي شيخ السلسلة في رسالته بسنده المتصل عن علي بن أبي طالب ؓ قال: «قلت يا رسول الله، دلني على أقرب الطرق إلى الله ﷻ وأسهلها على العباد، وأفضلها عند الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «يا علي، عليك مداومة ذكر الله ﷻ سرّاً وجهراً»، فقال علي ؓ: كل الناس ذاكرون يا رسول الله، وإنما أريد أن تخصني بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «مه يا علي، أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي، لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، لرجحت لا إله إلا الله».

(١) التلقين: من لقّن أي ألقى الكلام إليه ليعيده. والتلقين عند القوم تلقي الذكر عن الرجال بالإذن.

قلت: ويشهد لهذا الحديث ما رواه ابن حبان والحاكم وغيره مرفوعاً، أن موسى عليه الصلاة والسلام، قال: «يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به، قال: يا موسى قل لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا! قال: قل لا إله إلا الله، قال: يا رب إنما أريد شيئاً تخصني به، قال: يا موسى لو أن السموات السبع، والأرضين السبع، في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله».

وهو نظير سؤال علي لرسول الله ﷺ على حد سواء، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يا علي لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله».

قال سيدي يوسف: ثم إن علياً عليه السلام طلب التلقين من رسول الله ﷺ فقال: كيف أذكر؟ فقال رسول الله ﷺ: «أغمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات ثم قل أنت لا إله إلا الله ثلاث مرات، وأنا أسمع»، فقال رسول الله ﷺ ثلاث مرات لا إله إلا الله، مغمضاً عينيه رافعاً صوته وعليّ يسمع، ثم قال علي عليه السلام: لا إله إلا الله، ثلاث مرات مغمضاً عينيه، رافعاً صوته والنبي ﷺ يسمع».

قلت: ولم أجد هذه الكيفية التي علمها رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام في شيء من الأصول، والله أعلم.

قال سيدي يوسف العجمي رحمه الله: وإنما أمر ﷺ بغلق الباب لما أراد أن يلقي جماعة من أصحابه كما تقدم وقال: هل فيكم غريب؟ يعني أهل الكتاب، لينبه على أن طريق القوم مبنية على الستر، بخلاف الشريعة المطهرة فلا ينبغي لأحد من أهل الطريق أن يتكلم بالحقيقة عند من لا يؤمن بها، خوفاً أن ينكرها فيمقت!!

قلت: ومن هنا أنكر بعض المحدثين كون الحسن البصري تلقن كلمة لا إله إلا الله من علي بن أبي طالب عليه السلام لعدة ثبوت ذلك من طريق مشهورة، بل أنكر بعضهم اجتماع الحسن البصري بعلي بن أبي طالب عليه السلام، فضلاً عن أخذه عنه الطريق، والحق أنه اجتمع به ولقنه الذكر وألبسه الخرقة. وروى الحافظ ابن حجر وتلميذه الحافظ جلال الدين السيوطي وقالوا: إن إسناده صحيح، ورجاله ثقات إن الحسن البصري كان يقول: سمعت علياً عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ: «أمتي كالمنطر لا يُدرى أوله خير أم آخره» وفي رواية أخرى عن الحسن البصري قال:

سمعت علياً بالمدينة وقد سمع صوتاً فقال: ما هذا؟ فقالوا: قتل عثمان بن عفان!!

فقال: اللهم إني أشهدك أنني لم أرضَ ولم أبالِ.

وفي مسند الحافظ ابن مبيدي عن الحسن البصري قال: صافحت علي بن أبي طالب عليه السلام. قال الجلال السيوطي رحمته الله: فقد ثبت عندي وعند جماعة من الحفاظ ثبوت رواية الحسن عن علي بن أبي طالب عليه السلام. قال الجلال السيوطي: وكذلك هي عبارة شيخنا الحافظ ابن حجر، قال: ويؤيد هذا وجوه:

الأول: أن المثبت مقدم على النافي.

الثاني: أن الحافظ ذكر أن الحسن البصري كان يصلي خلف عثمان بن عفان عليه السلام، فلما قتل كان يصلي خلف علي عليه السلام حين قدم على المدينة، وكان يجتمع بعلي عليه السلام في كل يوم خمس مرات، وأطال الشيخ جلال الدين في ذلك في جزء له ألفه في بيان صحة لبس الخرقة القادرية والرفاعية والسهروردية فراجعه والله أعلم.

قلت: فعلم أن سند التلقين ولبس الخرقة كان السلف يتناولونها فيما بينهم من غير ثبوت من طريق المحدثين، إحساناً للظن بسلفهم، حتى جاء الحافظ ابن حجر، والجلال السيوطي، ومن وافقهما فصححوا سماع الحسن من علي عليه السلام وأوصلوا السند بهما، فلا تستغرب يا أخي توقّف بعض المحدثين في اتصال السند بلبس الخرقة فإنه معذور في ذلك، لعسر استخراج ذلك من كتب المحدثين على غالب الصوفية.

فرحم الله الحافظ ابن حجر والجلال السيوطي في تبيينهما اتصال السند بذلك.

وسأتي إن شاء الله تعالى في الكلام على سند لبس الخرقة أن الشيخ محيي الدين ابن العربي، لم يطلع على اتصال سندها من طريق النقل الظاهر فأخذها من طريق الخضر عليه السلام، لما اجتمع به حتى اعتمد عليه في السند، والحمد لله رب العالمين.

إذا علمت صحة سند القوم، واتصاله بالتلقين، من النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب عليه السلام، فكذلك لقن عليه السلام الحسن البصري، والحسن البصري لقن حبيباً

العجمي، وحبیب العجمي لقن داود الطائي، وداود الطائي لقن معروفاً الكرخي، ومعروف الكرخي لقن السري السقطي، والسري لقن أبا القاسم الجنيد، والجنيد لقن القاضي رويم، ورويم لقن محمد بن خفيف الشيرازي، وابن خفيف لقن أبا العباس النهاوندي، والنهاوندي لقن الشيخ فرج الزنجاني، والزنجاني لقن القاضي وجيه الدين، والقاضي وجيه الدين لقن أبا النجيب السهروردي، والشيخ أبو النجيب لقن الشيخ شهاب الدين السهروردي والشيخ شهاب الدين لقن الشيخ نجيب الدين برغوش الشيرازي، وابن برغوش لقن الشيخ عبد الصمد النظري، والشيخ عبد الصمد لقن الشيخ حسن الشمسيري، والشمسيري لقن الشيخ نجم الدين، والشيخ نجم الدين لقن الشيخ محمود الأصفهاني، والشيخ محمود لقن الشيخ يوسف العجمي الكوراني، والشيخ يوسف لقن الشيخ حسن التستري المدفون في قنطرة الموسكي بمصر المحروسة، والشيخ حسن لقن الشيخ أحمد بن سليمان الزاهد، والزاهد لقن الشيخ مدين، والشيخ مدين لقن الشيخ محمد ولد أخته، وسیدی محمد لقن الشيخ محمد السروري، والشيخ علي المرصفي، وهما تَوْبًا وَلَقْنَا الْعَبْدَ الْفَقِيرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدَ الْوَهَّابِ بْنِ أَحْمَدَ الشَّعْرَانِي، مؤلف هذه الرسالة.

ثم إني تلقنت على سيدي محمود الشناوي، تلميذ هذين الشيخين الآخرين، وتَوْبَنِي وَأَذَنَ لِي فِي تَلْقِينِ الذِّكْرِ وَتَرْبِيَةِ الْمُرِيدِينَ، تَشْبُهًا وَتَبَرُّكًا بِطَرِيقِ الْقَوْمِ، ولي طريق أخرى أقرب سندا من هذه، وهو أنني تلقنت على شيخ مشايخ الإسلام زكريا الأنصاري، وتلقن هو على سيدي محمد الغمري، تلميذ سيدي أحمد الزاهد، رفيق سيدي مدين، فبينني وبين الشيخ الزاهد رجلا فقط، فأنا مساوٍ من هذا الطريق لسيدي محمد السروري، شيخ شيعي الشيخ محمد الشناوي، لكن لم يأذن لي في تربية المریدين، سوى شيعي الشيخ محمد الشناوي رحمه الله تعالى.

ولي طريق أخرى بيني وبين رسول الله ﷺ رجلا فقط، وذلك أنني أخذت عن سيدي علي الخواص، وهو أخذ عن الشيخ سيدي إبراهيم المتبولي، وهو أخذ عن رسول الله ﷺ يقظة ومشافهة، بالكيفية المعروفة بين القوم، في عالم الروحانيات، ثم إن سيدي علياً الخواص لم يمت حتى أخذ عن النبي ﷺ من غير واسطة، كما أخذ شيخه سيدي إبراهيم المتبولي، فبينني وبين رسول الله ﷺ رجل واحد.

وهذه طريق انفردت بها في مصر الآن، كما أوضحت ذلك في كتاب «المنن والأخلاق»، «وفي العهود المحمدية»، والله أعلم.

ولما لقنني شيخي الشيخ محمد الشناوي ﷺ أشد هذا البيت:

أهيمُ بليلى ما حييت وإن أُمْتُ أوْكلُ بليلى مَنْ يهيمُ بها بعدي
ثم قال لي: قد جرت سنةُ الأشياخ أنهم يذكرون للمريد سند التلقين بعد تلقينه، وسند إلباسهم الخرقة للمريد قبل إلباسه.

وأخبرني أيضاً: أن ثَمَّ جَماعَة ببلاد اليمن لهم سند بتلقين الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ فيلقنون المريد ذلك، ويشغلونه بالصلاة على رسول الله ﷺ فلا يزال يكثر منها حتى يصير يجتمع بالنبي ﷺ يقظة ومشافهة، ويسأله عن وقائعه كما يسأل المريد شيخه من الصوفية، وأن مريدهم يترقى بذلك في أيام قلائل، ويستغني عن جميع الأشياخ، بتربيته ﷺ له.

قال: وعلامة صدقه في تلك الطريق اجتماعه بالنبي ﷺ كما ذكرنا، فإن لم يحصل له به جمعية فهو بطل.

قال: وممن وصل بذلك الشيخ أحمد الزواوي الدمنهوري، وكان ورده في الصلاة على رسول الله ﷺ كل يوم خمسين ألف صلاة، بلفظ: «اللهم صلّ على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم» وممن وصل من هذه الطريق أيضاً الشيخ نور الدين الشنواني، منشاء المجلس المتعلق بالصلاة على النبي ﷺ بجامع الأزهر ﷺ، وكذلك ممن وصل من هذه الطريق الشيخ محمد بن داود المنزلاوي، والشيخ محمد العدل الطناجي، والشيخ جلال الدين السيوطي، وجماعة ذكرناهم في مقدمة كتاب «العهد المحمدية» من المتقدمين والمتأخرين ﷺ أجمعين.

وأخذتها أنا بحمد الله عن الشيخ نور الدين الشنواني.

وقال: إن من شرطها أكل الحلال، وعدم الاشتغال بشيء آخر معها سوى ما أذن له فيه شرعاً، فالحمد لله رب العالمين.

بيان آداب الذكر

وأما بيان آداب الذكر وبيان ثمرة التلقين فاعلم يا أخي:

أن كل عبادة خلت عن الأدب فهي قليلة الجدوى، وأجمع الأشياخ أن العبد يصل بعبادته إلى حصول الثواب ودخول الجنة، ولا يصل إلى حضرة ربه، إلا إن صحبه الأدب في تلك العبادة، ومعلوم أن مقصود القوم، القرب من حضرة الله الخاصة، ومجالسته فيها من غير حجاب، وأما الثواب فحكمه حكم علف الدواب، قال تعالى: «أنا جليس من ذكرني»^(١) يعني ذكرني على وجه الأدب والحضور.

والمراد انكشاف الحجب للعبد، إنه بين يدي ربه ﷻ، وهو تعالى يراه، فمتى دام على العبد هذا الشهود فهو جليس الله تعالى، فإن غاب عن ذلك المشهد، خرج من حضرته فافهم، فليس المراد بحضرة الحق تعالى مكاناً مخصوصاً في الأرض والسماء كما قد يتوهم، فإن الحق تعالى لا تحويه السموات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فلا يزال العبد يكثر من الذكر باللفظ حتى يصير الحق تعالى مشهوده، وهناك وضع الفتح لأن الذكر لله حقيقة، هو استصحاب شهود العبد أنه بين يدي ربه، والذكر باللسان إنما هو وسيلة إليه، فإذا حصل له الشهود استغنى في طلب الحضور عن ذكر اللسان، فلا يذكر باللفظ إلا في محل يقتدى به فيه لا غير، لأن حضرة شهود الحق تعالى حضرة بهت وخرس، يستغني صاحبها عن الذكر، إذ هو بمنزلة الدليل، فإذا حصلت الجمعية بالمدلول، استغنى العبد عن الدليل.

وأجمعوا على أنه لا ينبغي لشيخ أن يلحق المريـد تلقين السلوك، ولذلك المريـد علاقة دنيوية، لأنه يعرضه بذلك للخيانة، وأجمعوا على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله ﷻ، حتى لا يكون للمريـد شغل إلا به وحده، وما أذن فيه.

وقالوا: إن الذكر منشور الولاية، أي مرسوم من الله للعبد بالولاية، كمراسيم ملوك الدنيا بالوظائف، والله المثل الأعلى فمن وفق لدوام ذكر الله تعالى فقد أعطي المرسوم بأنه ولي الله ﷻ، ومن يسلب عن الذكر فقد عزل عن الولاية.

وأجمعوا على أن الفتح في الليل، أقرب منه في النهار، وقالوا: كل من لم يذكر الله من غروب الشمس إلى الصباح في مجلس واحد، ما عدا وقت الصلاة

فلا يجيء منه شيء في الطريق.

وقالوا: من لم يحصل له من الذكر حال التقوى، وحضور مع الله، فليس له قطع المجلس، لأن من لم يحضر، فكأنه لم يذكر.

وقالوا: الذكر سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم من الجن والإنس، به يدفعون الآفات التي تطرقهم.

وقالوا: إن البلاء إذا نزل بقوم وفيهم ذكر حاد عنهم البلاء.

وكان ذو النون المصري يقول: «من ذكر الله تعالى حفظه الله من كل شيء».

وكان الكتاني يقول: «من شرط الذكر أن يصحبه الإجلال لله والتعظيم له وإلا لم يفلح صاحبه في مقامات الرجال»، وكان يقول: «والله لولا أنه تعالى فرض عليّ ذكره لما تجرأت أن أذكره إجلالاً له، مثلي يذكر الحق تعالى ولم يغسل فمه بألف توبة مما سواه قبل ذكره».

وأجمعوا: على أن الذكر إذا تمكن من القلب، صار الشيطان يصرع إذا دنا من الذاكر كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما باله، فيقال: إنه دنا من ذاكر فصرع، وقد عد الأشياخ للذكر ألف أدب ثم قالوا: ويجمع هذه الآداب كلها عشرون أدباً، من لم يتحقق بها فبعيد عليه الفتح، خمسة منها سابقة على الذكر، واثنى عشر حال الذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر.

فأما الخمسة السابقة:

فأولها: التوبة النصوح^(١)، وهي أن يتوب من كل ما لا يعنيه من قول أو فعل أو إرادة، وكان ذو النون المصري يقول: «من ادعى التوبة وهو يميل إلى شهوة من شهوات الدنيا فهو كاذب».

الثاني: الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر، وتعطير ثيابه وفمه بالبخور والماورد.

الثالث: السكون والسكوت ليحصل له الصدق في الذكر، وذلك أن يشغل قلبه بالله، الله الله، بالفكر دون اللفظ، حتى لا يبقى خاطر مع الله الله، ثم يوافق

(١) التوبة النصوح: التوبة الخالصة.

اللسان القلب، يقول: «لا إله إلا الله» يفعل ذلك كلما أراد الذكر.

الرابع: أن يستمد عند شروعه في الذكر بهمة شيخه، بأن يشخصه بين عينيه ويستمد من همته، ليكون رفيقه في السير.

الخامس: أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من رسول الله ﷺ لأنه واسطة بينه وبينه. والإثني عشر التي تكون حال الذكر:

فالأول: الجلوس على مكان طاهر كجلوسه في الصلاة في التشهد الأول.

الثاني: أن يضع راحتيه^(١) على فخذه، واستحبوا جلوسه للقبلة إن كان يذكر وحده، وإن كانوا جماعة تحلقوا^(٢).

الثالث: تطيب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة.

الرابع: أن يكون ملبسه حلالاً.

الخامس: اختيار الموضع المظلم من خلوة أو سرداب.

السادس: تغميض العينين، وذلك أن الذاكر إذا أغمض عينيه تسد عليه طرق الحواس الظاهرة شيئاً فشيئاً، وسدها يكون سبباً لفتح حواس القلب.

السابع: أن يخيل شخص شيخه بين عينيه ما دام ذاكراً، وهذا عندهم من أكد الآداب لأن المرید يترقى منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له.

الثامن: الصدق في الذكر بأن يستوي عنده السر والعلانية فيه.

التاسع: الإخلاص وتصفية العمل من كل شوب، وبالصدق والإخلاص يصل العبد إلى مقام الصديقية.

العاشر: أن يختار من صيغ الذكر لفظة «لا إله إلا الله» فإن لها أثراً عظيماً عند القوم لا يوجد في غيرها من سائر الأذكار، فإن فنيته شهواته وأهوائه كلها فحينئذ يصلح أن يذكر الله تعالى بلفظ الجلالة فقط من غير نفى، وما دام يشهد شيئاً من الأكوان فذكر الله تعالى بالنفي والإثبات واجب عليه في اصطلاحهم^(٣).

(٣) اصطلاحهم: أي اصطلاح القوم.

(١) راحتيه: مثني الراحة، وهي الكف.

(٢) تحلقوا: أي جلسوا حلقة.

الحادي عشر: إحضار معنى الذكر بقلبه على اختلاف درجات المشاهد في الذاكرين بشرط أن يعرض على شيخه كل شيء يرقى إليه من الأذواق ليعلمه طريق الأدب فيه.

الثاني عشر: تفرغ القلوب عن كل موجود حال الذكر سوى الله يقول: لا إله، فإن الحق تعالى غيور لا يحب أن يرى في قلب الذاكر غيره إلا بإذنه، ولولا أن للشيخ مدخلاً عظيماً في تأديب المريد ما ساغ للمريد أن يخيل شخصه في عينيه لا في قلبه، وإنما شرطوا نفي كل موجود من الكون من القلب ليتمكن له تأثير قول: لا إله إلا الله بالقلب، ثم يسري ذلك المعنى إلى سائر الجسد، وأنشدوا:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكَّنَا
وأجمعوا على أنه يجب على المريد أن يذكر بقوة تامة، بحيث لا يبقى منه متسع ويهتز من فوق رأسه إلى أصبع قدميه، وهي حالة يستدلون بها على أنه صاحب همة، فيرجى له الفتح عن قريب إن شاء الله تعالى.

وأجمعوا على أنه يجب على المريد الجهر بالذكر بقوة تامة، وأن ذكر السر والهويني لا يفيد رقياً.

قالوا: ويجب عليه في طريق سرعة الفتح أن يصعد لا إله إلا الله من فوق السرة من النفس التي بين الجنين ويوصل لا إله إلا الله القلب للحمي الكائن بين عظم الصدر والمعدة، ويميل رأسه إلى الجانب الأيسر مع حضور القلب المعنوي فيه.

قالوا: ويكون الجهر في الذكر برفق خوفاً أن يتربى له فتاق في بطنه فيتعطل جهره بالكلية.

قالوا: وليحذر الذاكر من اللحن^(١) في قوله لا إله إلا الله، فإنها من القرآن فيمد على لام النفي بقدر الحاجة، وتحقق الهمزة المكسورة بعدها ولا يمد عليها أصلاً، ويمد على اللام التي بعدها مداً طبيعياً، وينطق بالهاء بعدها مفتوحة بغير مد بالكلية، ثم ينطق بالهمزة من حرف الاستثناء مكسورة مخففة بغير مد أيضاً،

(١) اللحن: الخطأ.

ولا يمد على لام الألف بعدها مداً ثم ينطق بالجلالة فيمد على اللام، ويقف على حرف الهاء بالسكون إن وقف، وكذلك ينبغي اجتناب المد على حرف الهاء من إله، فيتولد منه ألف وذلك تحريف للقرآن وكذا النطق بالهاء من الجلالة، مضمومة ممدودة حتى ينشأ منها واو.

قال سيدي علي بن ميمون شيخ سيدي محمد بن عراق رحمهما الله: «وهذا اللحن كله قد أخذته فقراء العجم والروم، وأتباع السنة المحمدية والسلف هو المطلوب».

وقال سيدي يوسف العجمي رحمهما الله: «وما ذكروه من آداب الذكر محله في الذاكر الواعي المختار، أما المسلوب الاختيار فهو مع ما يرد عليه من الأسرار، فقد يجري على لسانه: الله، الله، الله، أو هو هو هو، أو لا لا لا أو آه آه آه أو عا عا عا أو آ آ آ أو ه ه ه أو ها ها ها أو صوت بغير حرف أو تخبيط، وأدبه عند ذلك التسليم للوارد، فإذا انقضى الوارد، فأدبه السكون من غير تقؤل».

قالوا: وهذه الآداب تلزم الذاكر باللسان، أما الذاكر بقلبه فلا يلزمه شيء من ذلك، والله أعلم.

وأما الثلاثة آداب التي بعد الذكر:

فأولها: أن يسكت بعد سكون وتخضع ويحضر مع قلبه مترقباً لوارد الذكر فلعله يرد عليه وارد فيعمر وجوده في تلك اللحظة، أكثر مما تعمّره المجاهدة والرياضة مدة ثلاثين سنة، فربما ورد عليه وارد الزهد فيصير زاهداً، أو وارد تحمل الأذى من الخلق فيصير صابراً، أو وارد الخوف من الله فيصير خائفاً، وهكذا.

قال الإمام الغزالي: «ولهذه السكته آداب أحدها: استحضار العبد أن الله تعالى مطلع عليه، وأنه بين يدي الله تعالى، ثانيها: جمع الحواس بحيث لا يتحرك منه شعرة، كحال الهرة عند اصطيد الفأرة، ثالثها: نفي الخواطر كلها وإجراء معنى: الله الله على القلب قال: وهذه الآداب لا يثمر للذاكر المراقبة إلا بها».

الثاني: أن يحبس نفسه مراراً بقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة أنفاس وأكثر، حتى يدور الوارد في جميع عوالمه فتثور بصيرته، وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان،

وتكشف عنه الحجب، وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم.

الثالث: منع شربه الماء البارد عقيب الذكر فإن الذكر يورث حرقة وهيجاناً وشوقاً إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم من الذكر، وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة. فليحرص الذاكر على هذه الثلاثة الآداب، فإن نتيجة الذكر إنما تظهر بها والله أعلم.

وأما بيان ثمرة التلقين، فاعلم أن للتلقين ثمرة عامة وثمره خاصة، ولكل منهما رجال:

فالثمرة العامة: الدخول بالتلقين في سلسلة القوم فيصير كأنه حلقة من حلقة السلسلة الحديد، فإذا تحرك في أمر تحرك معه سائر السلسلة، فإن كل ولي بينه وبين رسول الله ﷺ كأنه واحد من حلقة السلسلة، بخلاف من لم يتلقن، فإن حكمه حكم الحلقة المنفصلة إذا تحرك في أمر يدهمه لا يتحرك معه أحد لعدم ارتباطه بأحد.

وسمعت سيدي علي المرصفي رضي الله تعالى عنه يقول: «حكم تلقين الشيخ للمريد حكم النواة التي تغرس في أرض يابسة ينتظر ريّها بالمطر، فمرادها واستمدادها وانعلافها وخروج ورقها، راجع إلى شدة شربها وخفتها، بحسب الري لا إلى غرس الشيخ فللشيخ البذر وللحق تعالى الإنبات، وربما غرس شيخ غرساً في المريد ومات، وكان خروج الثمرة على يد شيخ آخر بعده، إما لضعف همة المريد أو عدم توالي معاني الذكر على قلبه ولسانه».

فإنهم قالوا: إن توالي الذكر بعد التلقين كتوالي المطر على النواة بعد غرسها، وذلك لأنه يسرع بالفتح والإنتاج.

فعلم أنه لا يكفي المريد بعد التلقين أن يحضر مع الفقراء مجلس الذكر صباحاً ومساءً فقط كما عليه غالب المريدين في هذا الزمان فإن حكم ثمرة ذلك الذكر، كمن يقطر على النواة قطرة ماء أول النهار وقطرة ماء آخره، مع تخلل الشمس والرياح بينهما، ومثل ذلك لا يروي أرض النواة.

بل ربما لم يصل إلى النواة منه طراوة، فيطول زمن فتحه، وربما مات ولم يفتح عليه بشيء، وربما لام هذا المريد الشيخ على تلقينه، وقال ولو في نفسه: ما كان لي حاجة بهذا التلقين لأنه لم يحصل لي به فائدة، وغاب عنه أن وظيفة

الشيخ إنما هو غرس النواة، وعلى المريد كثرة الذكر، والأعمال المرضية، ثم إن أبطأ فتح المريد فذلك إلى الله لا إلى الشيخ.

فحكم هذا المريد البارد الهمة كحكم القطن الذي يقدح فيه الزناد، فإن كان جافاً علق فيه القبس وإلا طفى كل قبس نزل فيه من شرر النار فافهم.

ثم إذا تلقن المريد وحصل منه معصية أو سوء أدب فالواجب عليه إعادة التلقين ليخرج الشيطان من مدينة جسده وقلبه إذ التلقين يخرج الشيطان، وسوء الأدب يدخله.

وسمعنا سيدي محمد الشناوي يقول: «حكم المريد إذا وقع في سوء أدب بعد التلقين، حكم الحبة إذا سوست وذابت واستحالت إلى طبع العذرة^(١)، فلا يرجى منها بعد ذلك إنبات ولا خروج ورق، فضلاً عن الثمرة، بل تتلف تلك الحبة التي بذرها الشيخ بالكلية».

وهذا الأمر قد كثر في مريدي هذا الزمان وما منهم أحد يجدد التلقين على شيخه فعدموا النفع وصاروا أجساداً بلا أرواح كأنهم خشب مسندة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما ثمرة التلقين الخاصة: الذي هو تلقين السلوك بعد الدخول في سلسلة القوم، فصورته: أن الشيخ يتوجه إلى الله تعالى ويفرغ على المريد من قوله له: قل: لا إله إلا الله، جميع ما قسم له من علوم الشريعة المطهرة فلا يحتاج بعد هذا التلقين إلى مطالعة كتاب من كتب الشريعة حتى يموت.

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رحمته الله يقول: «لما لقنني شيخي السري رحمته الله أفرغ في جميع ما كان عنده من علوم الشريعة، وكان يقول: ما نزل من السماء علم وجعل الحق تعالى للخلق إليه سبيلاً، إلا وجعل لي فيه حظاً ونصيباً»، وكان يقول: «يحتاج من يتصدر لأخذ العهود وتلقين الذكر وإرشاد المريدين أن يكون متبحراً في علم الشريعة لأن له في كل حركة ميزاناً شرعياً».

ومن قال من المتمشixin في هذا الزمان: إن هذا الأمر ليس هو بشرط في التلقين لكونه هو لا يقدر عليه، قلنا له: قد نسبت أشياء الطريق من السلف إلى

(١) العذرة: الغائط.

الجهل، وهذا يقع في كثير ممن برز للمشيخة بغير حق فيقول عن كل شرط رآه في مقام من المقامات: هذا ليس بشرط، خوفاً أن يفضح نفسه بين الناس ولو أنه كان متادباً لقال: هذا الأمر لا نقدر عليه، ثم يطلب له شيئاً ببلد له ليوصله إليه، كما درج عليه الصادقون.

وأما بيان فوائد الذكر وبيان كيفيته وبعض ما ورد في الحث عليه:

فاعلم رحمك الله، أن فوائد الذكر لا تنحصر لأن الذاكر يصير جليس الله تعالى لا يرى فيه بينه وبين ربه واسطة، فلا يعلم أحد قدر ما يتحفه الحق تعالى من العلوم والأسرار كلما ذكر، لأنها حضرة لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد، فيقال لمن ادعى أنه حضر بقلبه في ذكره مع ربه: ماذا أتحتفك وأعطاك في هذا المجلس؟ فإن قال: ما أعطاني شيئاً، قلنا له: وأنت الآخر لم تحضر معه شيئاً، فاتخذ شيئاً يزيل عنك الموانع المانعة لك عن الحضور، فإن لم يتخذ له شيئاً قلنا له: أكثر من الذكر ولو بغير حضور.

وكذلك قال صاحب الحكم: «لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله تعالى فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور، إلى ذكر مع غيبة، عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز».

وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب، وجاذب الخير، وأنيس المستوحش، ومنشور الولاية، فلا ينبغي تركه، ولو مع الغفلة، ولو لم يكن من شرف الذكر إلا أنه لا يتوقت بوقت لكان ذلك كفاية في شرفه قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾^(١).

قالوا: وما ثمَّ أسرع من فتح الذكر، وهو جامع لشتات صاحبه، وإذا غلب الذكر على الذاكر، امتزج بروح الذاكر حبُّ اسم المذكور، حتى أن بعض الذاكرين وقع على رأسه حجر فقطر الدم على الأرض وكتب: «الله الله».

واعلم يا أخي أنه لا يجد أنس الذكر إلا من ذاق وحشة الغفلة، فأما

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

المستغرق فلا يجد أنساً ولا وحشة، ولا يخاف من سبع أو حية، وبعد ذكر ما نبهناك عليه من فائدة الذكر، فلنورد إليك شيئاً من فضله لأن القلب يقوى بالاطلاع على الدليل.

فروى الشيخان وغيرهما مرفوعاً: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق^(١)، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا: بلى، قال: ذكر الله».

وروى الشيخان مرفوعاً: يقول الله ﷻ: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني».

وفي رواية: «أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه».

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: «آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت: أي الأعمال أحب إلى الله تعالى، قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله».

وفي الصحيح مرفوعاً: «أن لكل شيء صقالة^(٢)، وأن صقالة القلوب ذكر الله، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع».

وروى ابن حبان في صحيحه مرفوعاً: «ليذكرن الله قوم في الدنيا على الفُرش الممهدة يدخلهم الله الدرجات العلى».

وروى الشيخان مرفوعاً: «مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله، مثل الحي والميت». وروى الإمام أحمد والطبراني: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي المجاهدين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم ذكراً لله، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول: أكثرهم لله ذكراً، فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص، ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله ﷺ: أجل».

وروى الطبراني مرفوعاً «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم

(١) الورق: الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة.

(٢) صقالة: أي تهذيب وتنميق.

يذكروا الله فيها» وروى الطبراني أيضاً مرفوعاً: «من لم يذكر الله فقد برىء من الإيمان».

وقال الشيخ أبو المواهب: من نسي الله تعالى فقد كفر به، حديث الطبراني: يقول الله ﷻ: «يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني».

قال: وهذا النسيان يطلق على نسيان غفلة الجهل بالله والإشراك به، وعلى نسيان غفلة الإعراض عن الحق، وطريقه مذموم، فإن قيل: فأيهما أنفع، الذكر منفرداً، أو جماعة؟ فالجواب: الذكر منفرداً أنفع لأصحاب الخلوة، والذكر جماعة، أنفع لمن لا خلوة له، فإن قلت فأيهما أنفع الذكر جهراً أو سراً؟ فالجواب: الذكر جهراً أنفع لمن غلبت عليه القسوة من أصحاب البداية، والذكر سراً أنفع لمن غلبت عليه الجمعية من أصحاب السلوك، فإن قلت: فهل الاجتماع على الذكر أفضل أم هو بدعة كما يزعمه بعضهم؟

قلنا: هو مستحب يحبه الله ورسوله، وأي عبادة أفضل من عبادة قوم يجتمعون على ذكر الله، ويجالسونه بذكرهم، فإن قلت: فما الدليل على أن الاجتماع على الذكر أفضل؟ فالجواب: إن من الدليل على ذلك ما رواه مسلم والترمذي مرفوعاً: «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم»^(١) الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده».

وروى البخاري مرفوعاً: «إن لله ملائكة يطوفون في الطريق، يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله ﷻ، تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا» الحديث. وروى الإمام أحمد بإسناد حسن مرفوعاً: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله ﷻ، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلَ سيئاتكم حسنات».

وروى الترمذي بإسناد حسن مرفوعاً: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله ﷻ، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: حلق الذكر».

(١) غشيتهم الرحمة: أي غطتهم وحوتهم.

وروى ابن حبان في صحيحه مرفوعاً، يقول الله ﷻ: «سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم، فقيل: من أهل الكرم يا رسول الله؟ قال: أهل مجالس الذكر في المساجد، فاذكر الله حتى يقولوا مجنون».

وروى أبو داود مرفوعاً: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغد حتى تطلع الشمس، أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس، أحب إلي من أن أعتق أربعة».

قال علماؤنا: وتخصيص الرقبة بولد إسماعيل لأن كل رقبة من ولد إسماعيل بائنتي عشرة رقبة من سائر الرقاب. وروى الإمام أحمد بإسناد حسن، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: «قلت يا رسول الله، ما غنيمة مجالس الذكر؟ قال: غنيمة مجالس الذكر الجنة».

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: وهذا الحديث وأمثاله ملحق بدرجة الأمر، لأن كل فعل مدحه الشارع، أو مدح فاعله لأجله أو وعد عليه بخير عاجل أو آجل، فهو مأمور به، لكنه ﷺ تردد بين الإيجاب والندب، والأحاديث في ذلك كثيرة.

وأجمع العلماء سلفاً وخلفاً، على استحباب ذكر الله تعالى جماعة في المساجد وغيرها، من غير تكبر، إلا إن شوش ذكرهم بالذكر على نائم أو مصل أو قارئ، أو نحو ذلك، مما هو مقرر في كتب الفقه.

وقد شبه الإمام الغزالي، ذكر الإنسان وحده، وذكر الجماعة، بأذان المنفرد وأذان الجماعة، قال: «فكما أن أصوات المؤذنين جماعة، تقطع جرم الهواء أكثر من صوت مؤذن واحد، كذلك ذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيراً في رفع الحجاب من شخص واحد».

وأما من حيث الثواب فلكل واحد ثواب نفسه وثواب سماع رفيقه، ووجه كون الذكر جماعة أكثر تأثيراً في رفع الحجب الكثيفة، كون الحق تعالى شبه القلوب بالحجارة، ومعلوم أن الحجر الكبير لا ينكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين على قلب واحد، لأن قوة الجماعة أشد من قوة الشخص الواحد، ومن هنا اشتراطوا في الذكر، أن يكون بقوة تامة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً^(١) فكما أن الحجر لا ينكسر إلا بقوة، كذلك الذكر لا يؤثر في جمع شتات قلب صاحبه إلا بقوة.

فإن قيل: أيها أفضل ذكر لا إله إلا الله، أو زيادة محمد رسول الله؟ فالجواب: الأفضل في ذكر السالكين، ذكر لا إله إلا الله، دون محمد رسول الله، حتى يحصل لهم الجمعية مع الله تعالى بقلوبهم، فإذا حصلت، فذكر محمد رسول الله مع ذلك أفضل.

وبيان ذلك أن محمداً رسول الله إقرار، والإقرار يكفي في العمر مرة واحدة، والمقصود من تكرار التوحيد كثرة الجلاء لحجب النفوس، على أن قول العبد لا إله إلا الله، امتثال لقول رسول الله: «قل لا إله إلا الله» هو عين إثبات رسالته، ولهذا اقتصر في بعض الروايات على قول لا إله إلا الله فقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».

فلم يقل في هذه الرواية وأن محمداً رسول الله لِتَضْمَنَ هذه الشهادة، الشهادة له ﷺ بالرسالة، فإن قيل: فأيهما أفضل الذكر أو تلاوة القرآن من حيث إنه ذكر وتلاوة؟ فالجواب: الذكر أفضل للمريد، وتلاوة القرآن أفضل للكامل، الذي عرف عظمة الله تعالى، ومرادنا بالذكر والقرآن ما لم يقيده الشارع بوقت، فإن وُقِّتَ ذلك كان الذكر أفضل في موضعه، والتلاوة في موضعها أفضل.

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: «تارة يكون القرآن أفضل، وتارة يكون الذكر أفضل»، وكان يقول: «اختلف العلماء في أيهما أفضل، قول العبد: الله الله أو لا إله إلا الله؟ فذهب قوم من الصوفية إلى أن ذكر الجلالة أفضل للمبتدئ، وذهب جمهور الصوفية والمحدثين والفقهاء، إلى أن لا إله إلا الله أفضل للمبتدئ والمنتهي، وذهب قوم إلى أن لا إله إلا الله ذكر المبتدئ، وقول الله الله فقط ذكر المنتهي، ولكل من المذاهب الثلاثة وجه. وأما سند القوم بالباسم الخرقه للمريد، فروينا عن الحافظ ضياء الدين المقدسي، والحافظ ابن مبيد، وحافظ العصر الشيخ جلال الدين السيوطي أن الحسن البصري وأويساً القرني كانا يُلبَّسان الخرقه لأصحابهما، وكان الحسن البصري يخبر بأنه لبس

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

الخرقة من يد علي بن أبي طالب عليه السلام، وأويس القرني يخبر بأنه لبس الخرقة من يد عمر بن الخطاب ومن يد علي بن أبي طالب، وهما لبساها من يد رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ لبسها من يد جبريل عليه السلام، بأمر من ربه ﷻ.

وأعلم يا أخي أن بعض المحدثين لم يزل يطعن في صحة سند لبس الخرقة من حيث اتصال سندها في كل عصر، حتى جاء الشيخ جلال الدين السيوطي رحمته الله فصحح تبعاً لجماعة من الحفاظ طريق سندها، وسماع الحسن البصري من علي عليه السلام كما مر بيانه في سند تلقين النوم، حتى أن الشيخ الكامل الراسخ محيي الدين ابن العربي رحمته الله كان يلبس الخرقة للمريد ويقول: «هذا بسبب التبرك بفعل السلف ولم أجد في ذلك دليلاً».

وذكر في الباب الخامس والعشرين من الفتوحات ما نصّه: «كنت لا أقول بلباس الخرقة التي يفعلها الصوفية وما كنت أعرف الخرقة إلا الصحبة والأدب لا غير، قال: ولهذا لا يوجد إلbasها متصلاً برسول الله ﷺ ولكن لما رأيت الخضر عليه الصلاة والسلام بمكة يلبسها للأولياء، قلت بها من ذلك الوقت، فلبستها من يده تجاه الحجر الأسود، وألبستها للناس بعد ذلك، وكذلك لبستها من يد عيسى عليه السلام في بعض الوقائع، قال: والسر في إلbasها أن الشيخ إذا أراد أن يكمل فقيراً والشيخ في وقت غلبة حاله عليه، ينزع ذلك الثوب الذي عليه ويلبسه للمريد الذي يريد تكملته، فيسري فيه ذلك الحال فيكمل حاله في الأخلاق إذ ذاك، فهذا هو اللباس المعروف بين العارفين، كالخلعة من الملك».

وأما من ألبسها بغير حال، فإنما ذلك من باب التشبه والتبرك لا غير، إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق:

ذكر الشيخ المرسى أبو العباس رحمته الله: «يجب على من يلبس المريدين الخرقة من طريق السلوك أن يعين رجال سنده إليها لأنها حينئذ رواية، والرواية يجب تعيين رجال سندها، وأما أصحاب الجذبات الإلهية فلا يجب عليهم تعيين مشايخهم إن ألبسوا المريد الخرقة لأنها هداية من الله، وفتحهم من عين المنّة لا واسطة فيه».

إذا علمت ذلك فقد لبست الخرقة المباركة من سيدنا ومولانا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري المدفون تجاه وجه الإمام الشافعي، في شباك الشيخ نجم الدين

الـخوشاني وأرخى لي العذبة، وذلك في المحرم سنة أربع عشرة وتسعمائة، وهو لبسها من يد سيدي الشيخ محمد الغمري المدفون بالمحلة الكبرى، وهو لبسها من يد سيدي أحمد الزاهد، وهو لبسها من يد سيدي حسن التستري، وهو لبسها من يد سيدي يوسف العجمي، وهو لبسها من يد سيدي الشيخ حمود الأصفهاني، وهو لبسها من يد الشيخ عبد الصمد النظري، وهو لبسها من يد الشيخ نجيب الدين علي بن برغوش، وهو لبسها من يد الشيخ شهاب الدين السهروردي، وهو لبسها من يد عمه النجيب السهروردي، وهو لبسها من يد عمه القاضي وجيه الدين، وهو لبسها من يد أبيه محمد الشهير بعمويه، وهو لبسها من يد الشيخ أحمد الدينوري، وهو لبسها من يد أبي القاسم الجنيد، وهو لبسها من يد أبي جعفر الحداد، وهو لبسها من يد أبي عمرو الإصطخري، وهو لبسها من يد شقيق البلخي، وهو لبسها من يد إبراهيم بن أدهم، وهو لبسها من يد موسى بن يزيد الراعي، وهو لبسها من أويس القرني، وهو لبسها من يد عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، حين أمرهما النبي ﷺ بالاجتماع به.

ولبسها الإمام عمر والإمام علي ؑ من يد رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ لبسها من يد جبريل، كما مرّ أول الكلام، وجبريل ؑ لبسها من الحقّ جلّ وعلا، كما رأيته في رسالة الشيخ عبد الرحمن القوسي تلميذ أبي عبد الله القرشي.

وروى بسنده المتصل إلى رسول الله ﷺ: «أنه رأى ليلة الإسراء صندوقاً من نور ففتحه جبريل فإذا فيه خروق حمر وخضر وسود، فقال: يا جبريل ما هذا؟ فقال: هذه خرق، تكون لخواص أمتك» انتهى. ولم أجد ذلك لغيره، فالحمد لله ربّ العالمين.

انتهت المقدمة ولنشرع في أبواب الكتاب فنقول:

ذكر آداب المريـد^(١)

في ذكر نبذة من آداب المريـد في نفسه وذكر ما قاله الأشياخ في ذلك. فأقول وبالله التوفيق:

اعلم يا أخي أن جميع آداب المريـد يعسر حصرها وضبطها في عبارة على

(١) المريـد: هو من لا إرادة له دون مولاه.

وجه التفصيل، ولكن نذكر لك طرفاً صالحاً من ذلك على أن وظيفة الشيخ أنه يستخرج للمريد ما هو كامن فيه لا غير، فإن الله تعالى قد بثّ في كل روح جميع ما يتعلق بصاحبها من المحامد والمذام، فما أمره شيخه أو نهاه عنه إلا وهو كامن في روحه، وليس مع الشيخ شيء يعطيه للمريد خارجاً عنه، فإن حكم المريد في ابتداء أمره، حكم النواة الكامن في النخلة التي هي هنا عبارة عن الصدق في الطريق أو الكذب فيها.

فإن كان صادقاً تفرّعت ثمرة صدقه وأصدقت حتى تشرف على جميع جيرانه ويأكلون من ثمرتها، بل تنتشر إلى جميع أهل بلده أو إقليمه ويتفنون بها، ويظهر صدقه وصلاحه للخاص والعام، حتى أنه لو أراد كتمان صلاحه عنهم لا يقدر.

وإن كان المريد كاذباً في محبته للطريق تفرعت شجرة كذبه ونُصِبَ ونفاقه حتى تشرف على جميع جيرانه وبلده وإقليمه، ويظهر لهم كذبه ونفاقه وريأؤه، حتى لو أراد أن يتظاهر بصورة الصادق لا يقدر على ذلك، لأن أفعاله الرذيلة تكذب دعواه، ويفتضح وترفضه الطريق، حتى تلحقه بفقهِ العوامّ عقوبة له على كذبه على طريق الله ﷻ، وربما أعطاه الله تعالى رائحة من الصدق ثم سلبها منه.

فقال الناس كلهم فيه: فلان سلب عن طريق الفقراء، وما بقي فيه رائحة من روائح أهلها، فيصير يُرْخي له عذبةً ويُربّي له شعرة، ويلبس الصوف، ويتحلى بحلاس^(١) الفقراء والناس يرونه عرياناً من الأدب لا يكاد سلبه يخفى على أحد من الناس.

فابن أمرك يا أخي على الصدق في طلب طريق أهل الله تعالى وإلا رفضك الطريق ولو على طول، والله يتولى هداك.

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق: من شأن المريد أن يصدق في محبة الشيخ لأنه دليله في السلوك به في الغيب كدليل الحجاج في الليالي المظلمة ومن لازم المحبة الطاعة، ومن لازم عدم المحبة المخالفة، ومن خالف دليله تاه وانقطع سيره وهلك.

ومَحَكُ الصدق في محبة الشيخ: أن لا يصرفه عنه صارف ولا ترده السيوف

(١) بحلاس: ثياب.

والمتالف، وقد ادعى بعضهم الصدق في محبة الشيخ وإخوانه في الطريق، وأنه لا يصرفه عنهم صارف ولو هجره بغير حق وشاع ذلك بين الخاص والعام، فقام يوماً وأنشد على رؤوس الفقراء:

لو عذَّبوني كلَّ يوم وليلة على غير ذنب سرنـي ورضيت
فقال له شخص من حدَّاق المريدين: تكذب؟! فتشوش وجلس وظهر أثر ذلك في وجهه، فأجمع الفقراء على كذبه وقالوا له: كيف تقول ما قلت؟ وتتكدر من قول بعض الناس لك: تكذب؟! وإذا كنت لا تحتـمل نقطة واحدة فكيف تحتـمل التعذيب كل يوم وليلة على غير ذنب؟! فاستغفر المدَّعي واعترف بكذبه.

فاصدق يا أخي في محبة الشيخ تنل كل خير والله يتولى هداك.

ومن شأنه أن لا يدخل في عهد شيخ حتى يتوب من سائر الذنوب الظاهرة والباطنة، كالغيبة، وشرب الخمر، والحسد، والحقـد، ونحو ذلك، كما أنه ينبغي له أن يُرضي سائر الخصوم في العَرَض والمال، فإن حضرة الطريق هي حضرة الله ﷻ.

ومن لم يتطهر من سائر الذنوب باطناً وظاهراً، لا يصحُّ له دخولها، فحكمه حكم من دخل الصلاة وفي بدنه أو ملبوسه نجاسة لا يُعفى عنها، أو لبعد لم يصبها الماء فإن صلاته باطلة ولو كان شيخه من أكبر الأولياء لا يقدر أن يسير به في طريق أهل الله خطوة إلا إن طهره قبل ذلك.

وهذا الباب قد أغلقه غالب الناس فيأخذون العهد على المريـد وعليه الذنوب الظاهرة والباطنة، فضلاً عن حقوق العباد في المال والعَرَض، فلا يصح له نِتَاج^(١) في الطريق.

وسمعت سيدي علي الخواص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «طريق أهل الله تعالى كدخول الجنة، فكما لا يصح لأحد من أهل الجنة دخولها وعليه حق لآدمي، كما ورد في الصحيح، فكذلك دخول طريق الله ﷻ» انتهى.

ثم ضابط التوبة الرجوع عما كان مذموماً في الشرائع إلى ما كان محموداً

(١) النتاج: ثمرة الشيء.

فيه، كل تائب بحسب مرتبته، فإنه ربما كان ما يحمد عليه إنسان يستغفر منه إنسان آخر، من باب: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

فاعلم أن من كان مصرًا على ارتكاب المخالفات، وأكل الشهوات، وملازمة المحرمات، فبينه وبين الطريق كما بين السماء والأرض.

ثم لا يخفى أن النفس من شأنها الدعاوى الكاذبة، فربما ادعت الصدق في التوبة وهي كاذبة، فلا يقبل في ذلك إلا بشهادة شيخه له بالصدق في كل مقام ادّعاء في التوبة، حتى يصل إلى مقام يتوب كلما غفل عن شهود ربه طرفة عين، ثم يترقى في مقامات التعظيم لله تعالى أبد الآبدين، ودهر الدهرين لا يقف في التعظيم على مقام، ولا قرار، وهذا غاية ما قالوه في التوبة.

فهي التوبة عن الكبائر، ثم الصغائر ثم المكروهات، ثم من خلاف الأولى، ثم من رؤية الحسنات، ثم من رؤية أنه صار معدوداً من فقراء الزمان والله أعلم. ومن شأنه: ملازمة المجاهدة لنفسه فلا يصطلح معها أبداً.

وقد كان الشيخ أبو علي الدقاق رحمته الله يقول: «من زين ظاهره بالمجاهدة، زين الله باطنه بالمشاهدة، ومن لم يجاهد نفسه في بدايته لا يشم من الطريق رائحة». لأن من خصائص طريق أهل الله تعالى أن العبد إذا لم يعط الطريق كله لا تعطه الطريق بعضها.

وكان أبو عثمان المغربي رحمته الله يقول: «من ظن أنه يفتح عليه بشيء من هذه الطريق بغير مجاهدة، فقد رام المحال».

وكان أبو علي الدقاق يقول: «من لم يكن له في بدايته قومة لم يكن له في نهايته جلسة».

وكان الحسن العراري يقول: «بنيت طريق القوم على ثلاثة أشياء، أن لا يأكل مريدها إلا عند الفاقة^(١)، ولا ينام إلا عند الغلبة، ولا يتكلم إلا عند الضرورة الشرعية».

وكان سيدي إبراهيم بن أدهم رحمته الله يقول: «لا ينال الرجل درجة الصالحين

(١) الفاقة: الفقر.

حتى يكون فيه ست خصال: المجاهدة للنفس والذل لها، والسهر ومحبة التقليل من الدنيا، والفرح بإدبارها، وقصر الأمل».

وكان الشبلي رحمته الله، يضرب نفسه بقضبان الخيزران إذا جاءه النوم حتى ربما فئت الحزمة كلها قبل الفجر، وكان كثيراً ما يكتحل بالملح حتى لا يأخذه النوم، وكان كثيراً ما يضرب يديه ورجليه في الحائط، إذا لم يجد شيئاً يضرب به نفسه، وكان يقول: «ما هالني شيء إلا وركبته».

قلت: وهذه الأمور لا ينبغي لأحد الاعتراض على أربابها لأنها من باب ارتكاب أخف المفسدتين عندهم، فهم يرون احتمال شدة الألم أخفّ عليهم من احتمال الغفلة عن الله بنوم أو غيره، عكس ما عليه غيرهم والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يتكلم ولا يسكت إلا بضرورة أو لحاجة شرعية وسد باب الكلام اللغو جملة، وقد عدوا قلة الكلام من أحد أركان الرياضة وكان بشر بن الحارث يقول: «إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم، فإن في الكلام حظ النفس، وإظهار صفات المدح».

وقد كان الإمام أبو بكر الصديق رحمته الله يضع كثيراً الحجر في فيه^(١) حتى يقل كلامه، فكان كلما أراد أن يتكلم لغواً تذكر بالحجر، وقيل إنه وضع الحجر في فيه كذا سنة، وقال رسول الله ﷺ: «هل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» والحمد لله رب العالمين.

ومن شأنه: كثرة الجوع بطريقه الشرعي، وهو معظم أركان الطريق، فكما أن الشارع جعل معظم الحج عرفة، كذلك أهل الله جعلوا الجوع هو الطريق.

أركان الطريق

وأركان الطريق أربعة أشياء: الجوع، والعزلة، والسهر، وقلة الكلام، وإذا جاع المرید تبعه الأركان الثلاثة بالخاصية، إذ الجوعان من شأنه أن يقل من كلامه، ويكثر سهره، ويحب العزلة عن الناس.

وأنشدوا:

(١) في فيه: في فمه.

بيت الولاية قَسَمْتُ أَرْكَائِهِ سَادَاتُنَا فِيهِ مِنَ الْأَبْدَالِ
مَا بَيْنَ صَمْتٍ وَاعْتِزَالٍ دَائِمٍ وَالْجُوعِ وَالسَّهْرِ النَّزِيهِ الْغَالِي
وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقَشِيرِيُّ يَقُولُ: «إِنَّمَا أَسَاسُ بَابِ الطَّرِيقِ الْجُوعُ لِأَنَّهُمْ لَمْ
يَجِدُوا يَنْبِيعَ الْحِكْمَةِ تَحْصُلُ لَهُمْ إِلَّا بِهِ».

وَقَدْ كَانُوا يَتَدَرَّجُونَ فِي تَقْلِيلِ الْأَكْلِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَكْلِ لُقْمَةٍ
وَاحِدَةٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَبَعْضُهُمْ وَصَلَ إِلَى تَمْرَةٍ أَوْ لَوْزَةٍ أَوْ زَبِيبَةٍ.

وَكَانَ أَبُو عَثْمَانَ الْمَغْرِبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَأْكُلُ كُلَّ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَكْلَةً وَاحِدَةً.

قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ فِي «الْفَتْوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ»: «وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا
خَلَقَ النَّفْسَ قَالَ لَهَا: مَنْ أَنَا؟ فَقَالَتْ لَهُ: فَمَنْ أَنَا؟ فَأَسْكَنَهَا فِي بَحْرِ الْجُوعِ أَرْبَعَةَ
آلَافَ سَنَةٍ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: مَنْ أَنَا؟ فَقَالَتْ: أَنْتَ رَبِّي».

وَكَانَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّسْتَرِيِّ لَا يَأْكُلُ إِلَّا بَعْدَ خَمْسَةِ عَشْرِ يَوْمًا، وَكَانَ إِذَا
دَخَلَ رَمَضَانَ لَا يَأْكُلُ حَتَّى يَرَى هَلَالَ شَوَالٍ، وَكَانَ يَفْطُرُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ
عَلَى الْمَاءِ فَقَطْ لِيُخْرِجَ مِنَ الْوَصَالِ فِي الصُّومِ وَيَقُولُ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الدُّنْيَا جَعَلَ
فِي الْجُوعِ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ، وَجَعَلَ فِي الشَّبَعِ الْجَهْلَ وَالْمَعْصِيَةَ» وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ
تَعَالَى إِذَا جَاعَ قَوِيًّا، وَإِذَا شَبِعَ ضَعْفًا.

وَكَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ يَقُولُ: «مِفْتَاحُ الدُّنْيَا الشَّبَعُ، وَمِفْتَاحُ الْآخِرَةِ
الْجُوعُ» يَعْنِي أَعْمَالُهَا.

وَكَانَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ يَقُولُ: «الشَّبَعُ نَارٌ، وَالشَّهْوَةُ مِثْلُ الْحَطَبِ، يَتَوَلَّدُ مِنْهُ
الْإِحْرَاقُ وَلَا تَنْطَفِئُ نَارُهُ حَتَّى يَحْرِقَ صَاحِبُهَا».

وَكَانَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْكُلَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، فَلْيَبْنِ لَهُ
مَعْلَفًا».

وَكَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَفْرَّ^(١) الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ فَلْيَقْهَرْ
شَهْوَتَهُ» وَأَقَاوِيلُ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَمِنْ شَأْنِهِ: مَعَانِقَةُ الْأَدَبِ عَلَى الدَّوَامِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَمَعَ أَوْلِيَائِهِ وَإِخْوَانِهِ فَلَا

(١) يَفْرُّ: يَهْرَبُ.

يسامح نفسه قُط في سوء أدب، وكان أبو علي الدقاق رحمته الله يقول: «يصل العبد بعبادته إلى الجنة ولا يصل إلى حضرة ربه إلا بالأدب في العبادة، ومن لم يراع الأدب في طاعته فهو محجوب عن ربه بسبعين حجاب».

وكان رحمته الله لا يستند إلى شيء قط من مخدة أو جدار إلا لضرورة ويقول: «إن ذلك من سوء الأدب».

وكان عبد الله بن الجلا يقول: «من لا أدب له فلا شريعة له، ولا إيمان، ولا توحيد» أي كاملاً.

وكان ابن عطاء يقول: «لا يكون المريد أديباً حتى يستحي من الله تعالى أن يمدّ رجله بين يديه في ليل أو نهار».

وكان الحريزي يقول: «ما مُدَّتْ رجلي في الخلوة منذ عشرين سنة» وكان يقول: «الأدب الشرعي مع الله تعالى في كل أمر أولى لكل عاقل، ولم يرد في الشرع التصريح بعين ذلك الأدب في عين ذلك الأمر».

وكان يقول: «إذا كان من يعاشر ملوك الدنيا بغير أدب يعرضُ نفسه للقتل فكيف من يسيء أدبه مع الحق تعالى ويجترأ على محارمه؟» وكان يقول: «ترك الأدب موجب للطرد، فمن أساء الأدب على البساط رُدَّ إلى الباب ومن أساء الأدب على الباب، رُدَّ إلى سياسة الدواب».

وكان الإمام الشافعي رحمته الله يقول: «قال لي الإمام مالك رحمته الله: يا محمد اجعل علمك ملحاً وأدبك دقيقاً».

وكان عبد الرحمن بن القاسم رحمته الله يقول: «صحبت الإمام مالكا رحمته الله عشرين سنة، فكان منها ثماني عشرة سنة في تعليم الأدب، وستان في تعليم العلم، فليتنى جعلت العشرين كلها أدباً».

وكان الشبلي رحمه الله تعالى يقول: «من علامة أهل حضرة الله أن لا يقع أحدهم في سوء أدب ولو انبساطاً، فواردات الحق تعالى في السر أو في العلانية، فإن حضرة الحق تعالى حضرة أدب وبهت وجلال وخوف، فلا يناسبها الانبساط لعدم المجانسة، بل لو قُدِّر أن ولياً مكث في الحضرة عمر نوح، فلا يزداد إلا هيبة على ممر الأيام والدهور، وذلك لعدم تكرار تجليات الحق تعالى،

فكل تجلٍّ ورد على العبد فهو جدير، لا يُعطي صاحب تلك الحضرة إلا الأدب والهيبة فافهم».

وكان أبو الحسين النوري رحمته الله يقول: «من لم يتأدب للوقت فهو مقت».

وكان ذو النون المصري رحمته الله يقول: «من ترخَّص بترك الأدب رجع من حيث جاء». وكان سيدي محمد الشناوي رحمته الله يقول: «حكم المريد عند دخوله في الطريق حكم الجديد النقة^(١)، وحكمه عند وقوعه في سوء أدب بعد ذلك حكم النصف الذي خرج زغل^(٢) فهو يُرمَى به ولا يقبله أحد» والله تعالى أعلم.

مخالفة النفس

ومن شأنه: مخالفة هوى نفسه فلا يوافقها قط فيما تهواه، وقد أجمع الأشياخ على أن رأس مال المريد نفسه، ومن أطلق عنان نفسه فيما تهواه فقد أهلكها.

وكان أبو حفص رحمته الله يقول: «من لم يتهم نفسه على دوام الحالات، ولم يخالفها في جميع شهواتها، لم يجرَّها إلى مكروهاها في سائر الأوقات، فهو معذور في سائر الحالات».

وكان أبو بكر الطهسنانى يقول: «أعظم حجاب بينك وبين ربك موافقة نفسك».

وكان ابن عطاء يقول: «من طلب عوضاً من الله على عبادته استحق الطرد والمقت^(٣)».

وكان ابن شيبان يقول: «ما أكل عبد شهوة إلا حجب عن شهود ربه، قال: ولقد مكثت عشرين سنة، أشتهي أكلة عدس فلم يتفق لي أكلها، ثم إنني أكلتها وخرجت فأخذني أعوان السلطان وقالوا: هذا كسر جرار الخمر مع جماعة السلطان بالأمس، فضرّبوني مائة خشبة، ثم مرّ عليّ أستاذي أبو عثمان المغربي فقال: ماذا صنعت حتى وقع لك هذا؟ فقلت: أكلت شهوة! فقال الشيخ:

(١) النّقة: من الشيء: خياره.

(٢) الزغل: الغش.

(٣) المقت: البغض أشد البغض.

أطلقوه فأطلقوني، وقال لي: نجوت إن شاء الله مجّاناً».

وكان السري السقطي رحمه الله يقول لي: «أكثر من أربعين سنة ونفسي تطالبني أن أغمس جزرة في دبس فلم أطعمها ذلك، وكان يقول: مَنْ صدق في ترك شهوة كفاه الله موتها».

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود حذر وأنذر قومك أكلَ الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا، عقولها محجوبة عني».

وفي رواية: «يا داود إن أهون ما أنا صانع بعبدتي إذا أثر هواه على طاعتي أن أحرمه لذيق مناجاتي».

وكان إبراهيم الخوَّاص رحمه الله يقول: «مِن اتباع الهوى أن يعبد العبد ربه لطلب ثواب أو خوفاً من عقاب فلا صاحب هذا القصد على مرور الزمان إلا إدباراً».

وفي بعض الكتب الإلهية يقول الله تعالى: «ومن أظلم ممَّن عبدني لجنّة أو نار، لو لم أخلقهما ألم أكن أهلاً لأن أطاع؟».

قلت: ومن اتباع الهوى إثارة النوم على قيام الليل في مثل ليالي الصيف، وذلك دليل على عدم محبة الله تعالى، ومن لا يحب الله فهو عدو الله، لأن الله تعالى قد أوحى إلى داود عليه السلام: «يا داود كذَّب من ادَّعى محبتي فإذا جنَّه الليل نام عني». فشهد الحق على أن من ينام غير غلبة بأنه كاذب في محبته.

التوبة^(١) الصادقة

وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول: «من علامة صدق العبد في التوبة عن ذنب أن يجد في قلبه بعدها لذة لا يقدر قدرها، فمن لم يجد في قلبه لذة بعدها فهو كاذب في تركها، ولعله يرجع إلى الذنب عن قريب».

ومن شأنه: أن يلازم على عدم الإخلال بأركان الطريق وشروطها، ومتى انهدم ركن منها أو شرط تبعه الباقي، وقد تقدم أن أركان الطريق أربعة: الجوع، العزلة، الصمت، والسهر، وما زاد على هذه الأربعة فهو من التوابع، وقالوا: من

(١) التوبة: الرجوع عن كل فعل قبيح إلى كل فعل مباح أو عن كل وصف دني إلى التحقق بكل وصف سني. أو عن شهود الخلق إلى الاستغراق في شهود الحق وشروطها الندم والإقلاع ونفي الإصرار.

ضَيِّعَ الأصول حرم الوصول، فاعلم ذلك.

من شروط الشيخ معرفته بعلوم الشريعة

ومن شأنه: أن لا يتتلمذ إلا لشيخ قد تَضَلَّعَ^(١) من علوم الشريعة، وذلك ليكفيه عن الاجتماع على غيره، وقد أخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمته، أنه قال يوماً لشيخه سيدي محمد السروي: «مرادي أن أزور الشيخ فلان؟ فعبس الشيخ في وجهه وقال: يا محمد إذا كنت لا أكفيك فكيف اتخذتني شيخاً لك؟! قال: فمن ذلك اليوم، ما زرت غيره حتى مات».

فَعُلِمَ أن من جرى عليه المقدور، ودخل في عهدة شيخ لم يتضَلَّعَ من علوم الشريعة، فلا حرج عليه في الاجتماع بغيره، كما هو حال أكثر مشايخ هذا الزمان، وعلى ذلك يحمل كلام أبي القاسم القشيري رحمته في قوله: «وَيَقْبُحُ على المرید أن ينتسب إلى مذهب أحد غير شيخه، بل يقلد شيخه فقط».

فإنه يبين محمول على شيخ قد تبحر في علوم الشريعة فلا يقبح على المرید الانتساب إلى غيره بل ذلك واجب عليه.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف في مسألة يقول لأبي حمزة البغدادي رحمته: «ما تقول في هذه المسألة يا صوفي؟» فمهما قال له اعتمده.

وكفى بذلك منقبة لمشايخ الصوفية.

وكذلك بلغنا عن القاضي أحمد بن شريح أنه كان يعترف بفضل أبي القاسم الجنيد ويجلس في حلقاته ويقول إذا سئل عن كلامه: «إنني لم أفهم منه شيئاً، ولكن صولة^(٢) الكلام ليست بصولة مبطل».

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رحمته يقول: «لو علمت أن الله تعالى علماً تحت أديم^(٣) السماء أشرف من هذا العلم الذي بأيدي الصوفية لسعيت إليه».

(١) تَضَلَّعَ: امتلأ.

(٢) صَوْلَةٌ: السطوة والإقدام.

(٣) أديم كل شيء ظاهره.

وكان يقول: «ما نزل علم من السماء وجعل الله تعالى للخلق إليه سبيلاً إلا وجعل لي فيه حظاً أو نصيباً».

وكان أبو القاسم القشيري رحمته الله يقول: «قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحداً منهم لم يتصدر قط للطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة ووصوله إلى مقام الكشف الذي يستغني به عن الاستدلال، وما انتسب مرید إلى غيرهم وقرأ عليه العلوم دونهم إلا لجهله بمقامهم، فإن حجج القوم أظهر^(١) من حجج غيرهم لتأييدها بالكشف».

ولم يكن منهم أحد في عصر من الأعصار إلا وعلماء ذلك الزمان يتواضعون له ويعملون بإشارته، ويطلبون منه تفريج كربهم في الشدائد، ولولا شهود العلماء من الصوفية أموراً تؤذن بعلو مقامهم عليهم، لكان الأمر بالعكس». وقد بسطنا الكلام على ذلك في قواعد الصوفية الكبرى والله أعلم.

شيخ السلوك لا يكون إلا واحداً

ومن شأنه: أن لا يكون له إلا شيخ واحد، فلا يجعل له قط شيخين لأن مبنى طريق القوم على التوحيد الخالص، وقد ذكر الشيخ محيي الدين في الباب الأحد والثمانين ومائة من «الفتوحات المكية» ما نصّه:

«اعلم أنه لا يجوز لمرید ألا يتخذ له إلا شيخاً واحداً لأن ذلك أعون له في الطريق، وما رأينا مریداً قط أفلح على يد شيخين، فكما أنه لم يكن وجود العالم بين إلهين، ولا المكلف بين رسولين، ولا امرأة بين زوجين، فكذلك المرید لا يكون بين شيخين».

هذا كله في مرید تقيّد بشيخ بقصد سلوكه الطريق، وأما من لم يتقيد فهو متبرك بالشيخ فقط، فمثل ذلك لا يمنع من الاجتماع بأحد.

وقد كان سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: «من ابتلي بصحبة شيخين فأكثر، فليجعل شيخه الحقيقي في حاشية قلبه، بجانب محبة رسول الله ﷺ، لأنه نائب عن رسول الله ﷺ في نصح أمته وإرشادهم إلى طرق الهدى».

(١) أظهر: أبين وأبرز.

وقد كان أبو يزيد البسطامي رحمه الله يقول: «من لم يكن له أستاذ واحد فهو مشرك في الطريق، والمشرك شيخه الشيطان».

وكان أبو علي الدقاق رحمه الله يقول: «إنما كان الإنسان لا يقدر على سلوك طريق القوم بغير شيخ لأنها طريق سلوك في الغيب، أو غيب الغيب، والشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس لا ينتفع أحد بثمرها ولو أورقت، بل ربما لا تثمر أبداً، وانظروا يا أخي إلى سيد المرسلين على الإطلاق كيف كان جبريل عليه السلام واسطة بينه وبين الله تعالى في الوحي تعرف أن اتخاذ الشيخ واجب لا يستغني المرید عنه».

قال أبو يزيد: «ولقد أخذت طريقي عن شيخي نفساً بنفس».

ثم لا يخفى أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، إنما لم يكونوا يتقيدون بشيخ واحد، بل كان أحدهم يأخذ عن مائة شيخ رحمهم الله كانوا مطهرين من الأدناس^(١) والرعونات، فكان كل واحد منهم كاملاً لا إلى من يسلكه، فلما كثرت الأمراض واحتاجوا إلى علاجها أمرهم الشيوخ بالتقيد على شيخ واحد لئلا يتبدد^(٢) حال المرید وتطول عليه الطريق، فاعلم ذلك.

قطع العلائق الدنيوية

ومن شأنه^(٣): أن يجعل رأس ماله حذف العلائق الدنيوية، فإن كان له علاقة دنيوية فقل أن يفلح، لأن تلك العلاقة تجره إلى وراء، ومن هنا قالوا: «من شرط التائب بُعْدهُ عن إخوان السوء، الذين كانوا أصحابه في المعاصي قبل أن يتوب منها، لأن القرب منهم ربما جرّه إلى الرجوع إلى فعل ما كان تاب منه».

وكان الإمام القشيري رحمته الله يقول: «يجب على المرید أن يكون عمله دائماً في فراغ القلب من الشواغل، ومن أعظمها الخروج عما بيده من المال، لأنه يميل به عن طريق الاستقامة لضعفه فليس له أن يمسك المال إلا بعد كماله في الطريق، قال: وقد أعجز الشيوخ عن أن يسيروا بمرید ومعه علاقة، فسيروهم به ضعيف

(١) الأدناس: الأوساخ.

(٢) تبدد: تفرق.

(٣) أي المرید.

ربما يفنى العمر ولم يصلوا به إلى مقام الكمال الذي يريده».

ومن هنا قالوا للمريد: تفقه في دينك أولاً، ثم تعال ادخل الطريق وذلك ليقُلَّ التفاته إلى غير الطريق، فربما شرع في مجلس ذكر مثلاً فصار درسه يدعوه إلى مطالعته، والحضور مع الطلبة، وكثرة الجدال، وذلك يفرق عن المعنى المقصود في الطريق، من دوام المراقبة لله تعالى وحده، على أن غالب دقائق العلوم يدخلها حظوظ النفس، ومبنى الطريق كلها على مخالفة النفس والله أعلم.

صدق الحال عند المريد

ومن شأنه: أن يكون له شاهد من حاله في كل مقام ادعاه أو تظاهر به، فإن ادعى المحبة لله كان لونه يميل إلى الاصفرار، وإن ادعى الزهد في الدنيا، كان مجانباً^(١) للأشرار، وإن ادعى الجوع كان جسمه مائلاً إلى الإضمار^(٢).

قال الشريف الأحمدي: «وقد كنا في مجمع من الفقراء في تربة البهنسا نزور الصالحين، وإذا شاب قد أقبل علينا مضمراً، ولونه أصفر، وعليه لوائح الصلاح، فأنشد منشد الفقراء لما رآه:

من الشوق مضنى ما يزال مسقماً له عند تغريب النجوم أنينُ
فصاح الشاب وضرب يده عموداً فانفلق فحرك شوق كل من كان هناك».

فاعلم أن كل فقير لم يعانِ الجوع والمجاهدة، لازمه الجمود وكثافة الحجاب ولو سمع القرآن لا يكاد يتعظ بشيء من زواجه لغلظ حجابيه، والله أعلم.

الأخذ بالأحوط في الدين

ومن شأنه: أن يأخذ بالأحوط في دينه، ويخرج من خلاف العلماء إلى وفاقهم ما أمكن، مبادرة على وقوع عباداته صحيحة على جميع المذاهب أو أكثرها فإن رُخصَ الشريعة إنما جعلت للضعفاء وأصحاب الضرورات والأشغال، وأما القوم^(٣) ليس لهم شغل إلا مؤاخذه نفوسهم بالعزائم، ولذلك قالوا: إذا

(١) مجانباً للأشرار: مبتعداً عنهم.

(٢) الإضمار: الإخفاء.

(٣) القوم: الصوفية.

انحط الفقير عن درج الحقيقة إلى رخص الشريعة فقد فسخ عهده مع الله تعالى ونقضه .

كتمان الأحوال

ومن شأنه: أن يخفي أحواله التي تكون بينه وبين الله تعالى ما أمكن، حتى يرسخ في مقام مراعاة الله تعالى وحده دون أحد من خلقه، فلا يكاد أحد يأخذ من الفقير الصادق مقاماً، ولا يعرف له حالاً من شدة كتمانته .

وقد ورد فقير على سيدي محمد الشرييني فأنشد بين يديه:

وكم من فتى يرمي مرامي بعيدةً وهو بين أطناب الخيام مقيم
فصاح الشيخ وقام وقبض على ذلك المنشد وصار يقول: «من أين علمت ذلك؟» .

وقد أجمع أهل الطريق على أنه إن لم يكن المريد غير ملاحظ للحق في الباعث على أعماله لا يجيء منه شيء، وأجمعوا أيضاً على أن كل مريد أحب الظهور أن يطلع الناس على كمالاته فهو مقطوع به، لا سيما إن صار الناس يتبركون به فإنه يهلك بالكلية .

ومن شأنه: أن يُوطَّن^(١) نفسه على تحمل الشدائد في الطريق، وأنه لا ينصرف عنها إلى غيرها إذا أصابته الأسقام والآلام، والفاقات والبلايا المتلاحقة، وأنه لا يترخص عند هجوم الفاقات والضرورات أبداً وكثيراً ما يحصل للمريد نفرة الخلق منه إذا دخل طريق القوم ويتسلطون على عرضه بالبهتان والزور، فيأتيه الشيطان ويقول له: كنت غنياً عن طلب هذه الطريق، وكم سنة لك وأنت في راحة من الناس، ولا يذكرونك إلا بخير، ولا يقعون في إثم بسببك؟ . فيفسخ ذلك المريد عهده ويرجع عن الطريق، فيحصل له التمزيق، فلا يصير يصلح للطريق ولا لغيرها .

فليثبت المريد على الطريق ولا يتزلزل بالحق بالمحن فيها فإن ذلك من الشيطان والله أعلم .

(١) يوطَّن نفسه على الشيء: يحملها عليه .

الملازمة للشيخ

ومن شأنه: إن كان له شيخ أن يلازمه، وإن جاهد على أن تكون خلوته تجاه باب الشيخ ليقع بصره عليه كلما خرج فذلك دليل سعادته، فربما صيرته نظرة من النظرات ذهباً إبريزاً^(١) أغنته عن المجاهدة.

كما وقع لسيد يوسف العجمي أنه خرج يوماً من الخلوة فلم يجد أحداً من الفقراء يقع بصره عليه، فوقع بصره على كلب على باب المسجد، فانقادت إليه جميع الكلاب في مصر وصارت تمشي معه حيث مشى!؟. وتقف معه حيث وقف!؟، وصار الناس ينذرون البقر وغيرها للكلاب، فأرسل الشيخ وراء ذلك الكلب وقال له: اخساً فتفرقت عنه الكلاب لوقته وقال: «لو أن تلك النظرة وقعت على آدمي لصار إماماً يقتدى به».

قالوا: وينبغي له أن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق فإن السفر للمريد سُمّ قاتل.

وكان الإمام القشيري رحمته الله يقول: «إذا أراد الله بمريد خيراً ثبتته في موضع إرادته وأدام عليه طريق مجاهداته، وإذا أراد به شراً رده إلى حالته قبل التوبة وأشغله بالدنيا عنه».

وكان يقول أيضاً: «الخير كل الخير في العكوف^(٢) على عتبة الشيخ، وإذا أراد الله بعبد شراً شتته في مطاوح^(٣) غريبة، قبل أن يتمكن في أمور ربه، وغاية أمره في سياحته حجاب يُحصّلها خالياً عن الآداب المطلوب فيها أو زيادة مواضع يرتحل إليها أو لقاء أشياء من غير أن يتقيد بأحد منهم بالترية».

فمثل هذا لا يكلف المشي على مراسم الطريق، لأن الله تعالى لم يرد أن يرقيه إلى مقامات الرجال، إذ لو أراد له ذلك لقيده على خدمة شيخ يبايعه على السمع والطاعة في المبسط والمكره والله أعلم.

طب النفس

ومن شأنه: مكايده خواطره، ومعالجة أخلاقه، ونفي الغفلة عن قلبه بمداومة

(١) الإبريز: الذهب الخالص.

(٢) العكوف: الإقامة والملازمة.

(٣) المطاوح: ج مطاح وهو المسلك الوعر المهلك.

الذكر، إما لكثرة تلاوة القرآن والصلاة، فلا يعوّل^(١) المرید الصادق عليه، لأن القرآن إنما هو ورد الكمال، وكذلك الصلاة، وأما المرید فإنما عمله الدائم في تنظيف ظاهره وباطنه عن الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله ﷻ كالغضب وعز النفس والكبر والعجب والحسد ونحو ذلك، فإذا تطهر المرید من هذه الصفات فهناك يصلح له تلاوة القرآن ومجالسة الحق جل وعلا، والوقوف بين يديه في الصلاة وغيرها، هذا ما درج عليه السلف الصالح.

سمعت سيدي علي المرصفي ﷺ يقول: «قد عجز الشيوخ فلم يجدوا للمرید دواء أسرع في جلاء قلبه من مداومة ذكر الله ﷻ، فحُكِّمُ الذاكر كمن يجلي النحاس المصدىء بالحصى، وحُكِّمُ غير الذاكر من سائر العبادات كمن يجلي النحاس بالصابون، فهو وإن كان ساعياً في الجلا بالصابون لكن يحتاج ذلك إلى طول زمن، وقد أنشد سيدي عمر في كلمة التوحيد:

تهذبُ أخلاقُ النَّدَامَى فيهتدي بها لطريق العزم مَنْ لا له عزمٌ
ويكرُمُ مَنْ لم يعرفِ الجودَ كَفُّهُ ويحلُمُ عند الغيظ من لا له حلمٌ
إلى آخر ما قال والله أعلم».

ومن شأنه: إذا كان مقيماً في زاوية أو سوق أن يجعل رأس ماله الاحتمال والصفح عن كل من أتى إليه بمكروه بطيبة نفس، ويتلقى كل ما يستقبله من أهل الزاوية أو السوق وغيرهم بالرضا والتسليم فإن لم يستطع فبالصبر لا أنزل من ذلك، فإن لم يصبر على جفاء^(٢) الإخوان لا يصلح للطريق فليخرج إلى العامة ويترك طريق القوم.

وسمعت سيدي علي المرصفي ﷺ يقول: «كان أبو زيد لا يقيم إلا في موضع ينكر الناس عليه فيه ويؤذونه ويحتقرونه ليروض نفسه بذلك وكلما عظموه وشكروه كلما هرب من مخالطتهم». ولعل ذلك كان في بدايته ﷺ.

ومن شأنه: إذا لم يجد أحداً يتأدب به في بلده من الشيوخ يهاجر من بلده إلى من هو منصوب لإرشاد المریدين في ذلك الزمان، ولو كان بينه وبينه مسيرة

(١) يعوّل عليه: يعتمد عليه ويتكل.

(٢) الجفاء: الإعراض والغلظ والبعد.

سنة وأكثر، لا سيما إن كان مبتلياً بحب حَدَثٍ^(١) أو امرأة أو جاه، فإنه يجب عليه السفر جزماً ليخلصه من تلك الورطة فإن كل ما يتوصل به إلى الواجب فهو واجب.

واجب المريد بعد وفاة شيخه

ومن الواجب عليه إذا مات شيخه أن يتخذ له شيخاً يريه زيادة على ما رباه به الشيخ الأول، فإن الطريق لا قرار لها ولما مات الشيخ محمد السروي شيخ شياخي الشيخ محمد الشناوي وكان شيخه قد أذن له في إرشاد المريدين وتلقينهم اجتمع بسيدي علي المرصفي وتلقن عليه وقال له سيدي علي:

«أنت بحمد الله قد بلغت مبلغ الرجال فلا تحتاج إلى تلقين، فقال: لا أحب أن أمكث ساعة واحدة بلا أستاذ مع أنني من جملة من كان تلقن عليه وأذن لي في الإرشاد ثم قال لي: «يا ولدي تلقن أنت الآخر على شيخ شيخك ليكون أنا وإياك من جملة تلامذة سيدي علي» ففعلت.

وهذا الأمر لا يقع إلا من الصادقين في الطريق، أما غير الصادقين فلا تسمح نفوسهم بعد الإذن لهم من شيوخهم أن يتلقنوا على أحد وذلك من أكبر علامات الخذلان^(٢)، وهو من أول دليل على أن شيخهم غشهم في الإذن لهم فإن الفقير الذي صح الإذن له لا يكون له نفس ولا يوافقها في حظ فهو يربي الناس ويرشدهم ويرى نفسه دونهم مع رضا الله عنه.

امتحان المريد

ومن شأنه: إذا سافر إلى شيخ ليأخذ عنه الطريق فقابله الشيخ بالجفاء والتعبيس في وجهه أن يصبر ولا يتزلزل، بل يجلس مطروح النفس على بابه حتى يرحمه شيخه ولو مكث على ذلك الجفاء سنة أو أكثر لا يبرح عنه، فإن الطريق عزيزة عند أهلها لا يجوز لهم الترخص فيها لكل من ورد عليهم، وإنما يمتحنونه السنة وأكثر قبل أن يجيبوه للأخذ عنهم وقالوا: كل مريد لم يمتحنه شيخه قبل

(١) الحَدَث: الصغير السن.

(٢) الخِذلان: التخلي عن العون والنصرة.

الأخذ لا يفلح في الغالب، لأنه يدخل الطريق بغير أدب ولا تعظيم لها فرفضته الطريق ولو على طول، بخلاف من دخلها مع التعظيم وشدة الشوق.

وفي القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾^(١) الآية. وحكم المريد إذا جاء مهاجراً إلى أن يطلب الطريق كذلك بجامع أن كلا منهما دلالة على الهدى.

وقد أخبر شيخنا الشيخ محمد الشناوي الأحمدي ﷺ تعالى: «أنه لما طلب الطريق سافر من بلاد الغربية إلى فارس كور ليأخذ الطريق عن الشيخ أبي الخمايل، فلم يلتفت إليه الشيخ ولا بشراً في وجهه ولا تذكره في وقت عشاء ولا غداء، فمكث على ذلك الحال خمسة شهور فلما رأى الشيخ شدة رغبته أدناه وقرّبه وقال له: يا محمد أنا أحب الخير لك ولغيرك، وإنما أردت امتحانك بما وقع، لتدخل الطريق بالتعظيم لها ولأهلها».

وكان شيخنا يقول: «والله لو زاد الشيخ في الجفاء سنين عديدة لصبرت له ولم أبرح عن بابه».

وكان الشيخ أبو الخمايل ﷺ يقول: «لقنت الذكر لنحو عشرة آلاف نفس، فما عرفني وصح معي غير ابن الشناوي، فانظر يا أخي فعل الصادقين واقتد بهم والله يتولى هداك».

ومن شأنه: أن لا يلتفت بقلبه إلى شيء خرج عنه من أمور الدنيا إذا دخل في الطريق، بل الواجب عليه أن يربط الدنيا كلها في صرة ويرميها في بحر الإياس^(٢)، وليتساوى عنده الذهب والتراب في عدم الترجيح والميل فيكون الذهب عنده كالتراب، وذلك حتى لا ينافس أهل الدنيا ولا يزاحمهم على تلك الجيفة فمن نافسهم وزاحمهم نجسته كلاب الدنيا، يعضّه وخربسته والهبهة عليه، وأشغلوا فكره وكدروا وقته فانقطع عن السير.

وكان أبو القاسم القشيري ﷺ يقول: «كل مريد بقي في قلبه ميل لشيء من عَرَض الدنيا وشهواتها، فاسم الإرادة له مجاز لا حقيقة، وقبيح بالمريد أن يخرج

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

(٢) الإياس: من اليأس وهو انقطاع الرجاء.

من رأس فتنته في دينه، ثم يرجع إليها بعد ذلك ويكون أسير دينار ودرهم أو دار ووظيفة، بل الواجب على المريد أن يكون وجود الدنيا وعدمها عنده سواء وذلك حتى لا يضايق أحداً عليها ولو مجوسياً.

وأيضاح ذلك أن رزق الله تعالى الذي قسمه لعبده لا يعرفه عبده إلا بأكله أو شربه أو لبسه مثلاً، وأما قبل ذلك فلا علم له به حتى يزاحم عليه، ويتقدير علمه بأنه رزقه فلا ينبغي له منازعة أحد فيه لأنه لا يقدر أحد أن يأخذه منه ولا يأكل منه لقمة، وأيضاً فأهل المنازعة على الدنيا إنما هو من شدة الحرص، فصاحبه يحرص أن يكون كل شيء له دون غيره ولا ينبغي ذلك من فقير إنما يقع ذلك من أبناء الدنيا فإن أحدهم كالأعمى الذي يصدم الحيطان فكل شيء أحسن به قبض عليه ومن كان كذلك فهو لا يصلح للطريق، فإياك يا أخي والالتفات لشيء من الدنيا التي تشغلك عن الله ثم إياك إن طلبت، أن تكون من القوم والله يتولى هداك.

أكبر القواطع على المريد

ومن شأنه: أن يَعْصُ بصره عن رؤية الصور المستحسنة ما أمكن، فإن النظر إليها كالسهم الذي يصيبه في قلبه فيقتله لا سيما إن نظر بشهوة فإنه كالسهم المسموم الذي يذيب جسم الإنسان في لمحة.

وكان أبو القاسم القشيري رحمته الله يقول: «من أكبر القواطع على المريد مصاحبة الأحداث والنسوان والمساكنة إليهم بميل القلب ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع القوم: ذلك عبد أهانه الله وخذله بل عن مصالح نفسه شغله! ولو بألف ألف كرامة أهله^(١)، ولو لم يكن إلا أنه شغل قلبه بمخلوق فأدخل فيه الشيطان وحرّم دخول محبة الحق قلبه، قال: وأقبح من ذلك كله تهوين مثل ذلك على القلب».

وهذا الواسطي رحمته الله يقول: «إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف» يريد بهم الشباب المُرَدُّ^(٢) الذين تميل النفوس الغوية^(٣) إليهم.

(١) أهله: أي صيّره أهلاً له.

(٢) الأمرد: الغلام الذي طرّ شاربه، وبلغ خروج لحبته ولم تبد.

(٣) الغويّة: الضالة.

وكان فتح الموصلي رحمه الله يقول: «صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال وكلهم أوصوني عند فراقهم بإياهم وقالوا لي: اتق معاشرَةَ الأحداث».

قال القشيري رحمه الله: «ومن ارتقى عن حالة الفسق من المريدين، وأشار إلى أن ذلك من باب محبة الأرواح لا الأشباح، قلنا له: «هذا من دسائس النفوس والشياطين، فربما خيّل الشيطان إلى أحدهم أن ذلك لا يضر، وأن كل جميل في الوجود إنما جماله من جمال الحق تعالى، وقلنا له: إن الذي ادعيت أنك تشهد جماله هو الذي حرّم عليك ذلك الشهود».

وقد سئل سيدي الشيخ علي الموازني الشاذلي عن النظر إلى الأمرد الجميل هل يجوز ذلك للسالك؟ فقال:

«ما دام عند الإنسان الفرق بين الصور الجميلة وغير الجميلة فهو في محو الطبيعة والشهوة، فلا يجوز له النظر إلى الصور الجميلة المحرمة شرعاً».

فإذا صار يشهد جمال الخنفساء والضفدعة كجمال أحسن الصور الإنسانية على حدّ سواء فلا يمنع من رؤية ما ذكر، لأنه حينئذ ذهب تمييزه وصار مستغرقاً مع الخالق لا مع المخلوق، وهذا أمر عزيز الوجود في غالب مريدي هذا الزمان فالحذر أولى بكل عاقل.

وسمعت سيدي محمد الشناوي يقول: «لا ينبغي لمريد أن يجالس الأمرد الجميل ولا يسكن هو وإياه في خلوة واحدة ما أمكن، فليحذر العاقل من مجالسة الأحداث إلا في حلقة الذكر أو الدرس بحضرة الشيخ أو الإخوان الصالحين مثلاً لكن مع غضّ البصر، قال:

وقد بلغنا أن الفقراء الماضين كان أحدهم لا يعرف بطلوع لحية الأمرد إلا إن أعلمه الناس بذلك، ووقع ذلك لسيدي محمد بن عنان مع الشيخ مازن بذلك وقال: «خدمت الشيخ نحو عشر سنين فطلعت لحيتي وكملت ولم يشعر بذلك حتى أخبره الناس بذلك، فنظر إلى وجهي من ذلك الوقت».

إعطاء العهد للنساء

قد صنف سيدي محمد الغمري كتاباً سماه «العنوان في تحريم معاشرَةِ الشباب والنسوان» وخط فيه على المطاوعة أشدّ الحطّ، وكذلك على الفقراء

الأحمدية الذين يأخذون العهد على النسوان ويصير أحدهم يختلي بهن في غيبة أزواجهن وتقول له: يا أبي، ويقول لها: يا بنتي، وقال: إن ذلك خارج عن قواعد الشريعة، وإن من استحل ذلك أخطأ. واستدل بقوله تعالى للصحابه في حق زوجات النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾^(١) وقال: كيف يدعي جاهل وجاهلة ونفوسهما عافة على محبة الحرام كالذباب على العسل إن مثل ذلك لا يضره ويضر الصحابة فليحذر الفقير من ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن شأنه: أن لا يقنع بحكايات أهل الطريق دون منازل مقاماتهم، ويصير يحكي المقامات حتى كأنه نزلها، فإن ذلك من أكبر القواطع على المريد وهو من النفاق والخيانة في الطريق.

ثم بتقدير أنه يحفظ مثل رسالة «القشيري» أو «عوارف المعارف» عن ظهر قلب فهو صاحب علم لا صاحب سلوك فلا ينتج على يديه أحد إذا تصدر للمشيخة، وهذا الأمر قد وقع فيه جماعة كثيرة من أهل عصرنا فالتمس على غالب الناس أمرهم وعدوهم من أهل الطريق لجهل الناس بمراتب أهل الطريق.

وأعرف شخصاً جاءني من مدة يطلب الطريق إلى الله تعالى، فرددته مراراً فقال: استخرت الله تعالى، وما انشرح صدري إلا أنني أخذ عنك الطريق، فلم أقبله لعلمي بأنه لا فتوح له على يديّ بقرائن وعلامات أعرفها، ففارقني وادعى أن بعض الشيوخ الماضين جاءه في المنام ولقنه وأذن له أن يسلك الناس، فجمع له بعض العوام وجلس مجلس الشيوخ الصادقين، وصار بعض من يجتمع له يقول: ما في البلد شيخ إلا شيخنا؟! مع أنه لم يذق من مقامات الشيوخ شيئاً، وقد أرشدته مرات إلى أنه لم يأخذ الطريق عن أحد فلم يفعل، فالله يغفر له.. آمين.

ومن شأنه: ألا يتصدر للإلقاء درس في علم الظاهر والباطن حتى يشهد له شيخه بالإخلاص فيه، وكذلك لا يجعل له مريد، فلو أن كل مريد تصدر للإلقاء درس، أو لتعليم الطريق قبل خمود نار بشريته، والإذن له من شيخه، فقد قطع به وضل وأضل، وحجبت عنه الحقائق وعدم الخلق الانتفاع به.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

وذلك لأن محبة الجاه والصيت الحسن قد أضلته فصارت مرآته منطمسة النور، فلا يعرف الحق من الباطل، ولا يدرك أحوال الطريق بذاتها، ومثاله مثال من جلس في بيت مظلم، وأخذ يتفكر فيما فيه من الأمتعة والهيئات فإنه يبين يعجز عن إدراك كنهه^(١) وحقيقته، فإذا دخل له مصباح أدرك جميع ما فيه من غير تفكير.

فعلم أن كل شيخ جعل مريده واعظاً أو إماماً أو مدرساً فقد غشه إلا أن يكون له حال قاهر تحفظ مريده من الآفات، وهذا عزيز في فقراء هذا الزمان؟

وربما رأى الشيخ أن ذلك المريد لا يجيء منه شيء في الطريق فتركه، وما يهواه من المباحات أدباً مع الله الذي لم يقسم له أن يكون من أهل الطريق لا غشاً لذلك المريد والله أعلم.

الشرعية^(٢) والحقيقة^(٣)

ومن شأنه: أن يحافظ على آداب الشريعة والمشى على ظاهرها ما أمكن فإن الترقى كله في امثال أمر الشارع، وأما علم الحقيقة فحكمه حكم من يقول: السماء فوقنا والأرض تحتنا والنار حارة والثلج بارد، ولكن يجب عليه أن لا يدع الشريعة تعترض عليه في شيء من أحواله، وهذا أمر قد أغفله غالب من شم رائحة التوحيد من أهل هذا الزمان فيصير يتعدى حدود الله في مأكله وملبسه وكلامه وفعله ويقول: إن الله تعالى قد خلق ذلك لي؟! وبعضهم ترك التوبة من سائر الذنوب وقال: ليس لي فعل حتى أتوب منه فهلك مع الهالكين وهو لا يشعر. وبعضهم صار يأكل حراماً ويفطر في بيوت المكاسين في مثل شهر رمضان ويقول: الكل لله تعالى ليس لأحد معه ملك وأنا عبده، والعبد يأكل من مال سيده؟! وهذا كله زندقة لرفضه الشرائع، ولو أنه كان يؤمن بها لما تجرأ على ذلك.

أثر الولائم على المريد

وكان سيدي إبراهيم المتولي لا يذهب بأحد من جماعته قط إلى وليمة عند

(١) الكنه: جوهر الشيء وحقيقته.

(٢) الشريعة: تكليف الظواهر وتكون بالعبادة.

(٣) الحقيقة: شهود الحق في تجليات المظاهر.

أحد من الولاة، ويقول: ارجعوا لا تهلكوا مثلي، وكذلك أدركت جماعة من شيوخ الطريق كانوا يتورعون عن الأكل من طعام كل متهور في مكسه وكانوا ينكرون على من يرونه يأكل من مثل ذلك لا سيما سيدي الشيخ علي المرصفي رحمته الله، كان يزرع كل فقير أكل عند أمير، وكان للطريق وأهلها حرمة في زمنه رحمته الله، فلما مات انحلت عرى الطريق، وتهدمت قواعده في مصر وقراها، وصار بعض المشايخ ومن نسب إلى العلم يجلسون على موائد الظلّمة المكاسين والكُشّاف^(١) ومشايخ العرب وأعوانهم، وبعضهم سداه ولُحمته^(٢) من طعامهم ولباسهم، وكذلك أولاده وعياله.

وبعضهم صار يسأل هؤلاء الظلّمة، فإذا لم يعطوه ما طلب منهم غضب عليهم، ومزق أعراضهم في المجالس، ولو أن هؤلاء شموا رائحة من الطريق لم يستحل أحد منهم مقدار سمسم من مال هؤلاء في أوقات الضرورات، فضلاً عن أوقات الاختيار ووجود السعة في الرزق، من جوالي أو سموح أو زراعة أو غير ذلك وقد رأيت من عمل له عرساً في زاوية، وصار يرسل قاصده للولاة فيساعدونه بالعسل والأرز والبسيلة^(٣) ومن لم يعطه شيئاً يغضب عليه، مع أنه لابس عمامة صوف، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مجاهدة النفس

ومن شأنه: مجاهدة نفسه دائماً في ترك الشهوات، فقد قالوا: من وافق شهوته عُذِمَ: صفوته^(٤)، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: «يا داود حذر وأنذر قومك أكل الشهوات، فإن قلوب أهل الشهوات، عني محجوبة، يعني من جهتهم».

اللهم إلا أن يجاهد العبد نفسه إلى الغاية، فإن الحق تعالى ربما تفضل عليه بعدم الحجاب عنه مع أكل الشهوات المباحة، نعيماً معجلاً مما له في الآخرة، من غير نقص من نعيمه الأخروي، صدقة من صدقات الحق تعالى على العبد،

(١) الكُشّاف: أحد الأعضاء في عملية الكشف.

(٢) السدى: وهو ما يمد طولاً في النسيج للثوب. اللُحمة: خيوط النسيج العرضية يلحم بها السدى.

(٣) البسيلة: بقل زراعي حولي من القرنيات الفراشية ضرره كثيرة وتطبخ قرونه وبذوره.

(٤) صفوه وصفائه وخلؤه من الكدر.

وقد عدوا من فسق العارفين تبسطهم في الدنيا وشهواتها حال كمالهم لأن بذلك تضل أتباعهم ويكون وزرهم عليهم، والله أعلم.

حفظ العهد مع الله تعالى

ومن شأنه: حفظ عهده مع الله تعالى، على ملازمة التوبة من كل ذنب فإن نقض العهد من أعظم الذنوب وهو معدود من أنواع الردة عن بعض دينه، فيوشك أن يرتد عن دينه كله وقد ورد: «المعاصي بريد الكفر» أي مقدمته، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ يرى أقواماً من أمته يوم القيامة، قد أخذ بهم ذات الشمال فيقول: يا رب أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري، فيقول ﷺ: «سحقاً سحقاً».

قال بعض العلماء: وهؤلاء لم يرتدوا عن أصل الدين، وإنما ارتدوا عن فعل شيء من فروعه، بدليل إنه ﷺ يشفع فيهم، إذا سكن الغضب الإلهي وموافقة له.

الخير كله في الاتباع والشر في الابتداع

قال الإمام أبو القاسم رحمه الله: «لا ينبغي لمريد أن يعاهد الله تعالى على فعل شيء مما لم يكلفه الله تعالى به، فإن في مكروهات الشريعة ما يغني عن ذلك».

ثم إنه قد لا يعان على ما عاهد ربه عليه من ذلك، لعدم دخوله تحت شرعه الأصلي، فإنه تعالى ما ضمن المعونة إلا لمن هو تحت أمره المشروع على السنة رسله، وفي القرآن العظيم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾^(١) فالخير كله في قدم الاتباع والشر في الابتداع.

ومن شأنه: أن يكون قصير الأمل وذلك حتى يجد في الطاعات ويجتنب المخالفات، فإن من كان طويل الأمل لازمه التسويف بالخيرات، والوقوع في المخالفات، وتقول له نفسه: «إذا قرب أجلك فتب إلى الله تعالى عن جميع المخالفات السابقة، وكأنك لم تذنّب قط، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له»؟! وهذا من أكبر خداع النفس، والواقع فيه أكثر من الكثير.

ومن هنا قالوا: إن الفقير ابن وقته، لا نظر له إلى ماض، ولا آت، لأن

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

نظره إليهما تفويت للوقت الحاصل، وقد قالوا: كل من نظر إلى عمله بالتسويق، خسر عمره وفاته الزرع، فخسر الدنيا والآخرة والله غفور رحيم.

ومن شأنه: أن لا يكون له النفقات إلى معلوم وظيفه، أو خراج^(١) رزقه، أو أجرة بيت، ولا يعلق خاطره بشيء من ذلك، ويجب عليه في الطريق مجاهدة نفسه، حتى يصير لا النفقات له إلى شيء دون الله تعالى. ومن لا يجاهد نفسه كذلك فلا يجيء منه شيء في الطريق، إذ لا النفقات إلى مضاد للرقى.

وفي كلام سيدي أحمد الرفاعي رحمته الله: «متلفت لا يصل، ومتسلل لا يفلح، ومن لم ير في نفسه النقصان، فكل أوقاته نقصان».

وكان أبو القاسم القشيري رحمته الله يقول: «ظلمة الركون إلى المعلوم، تطفىء نور الوقت».

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: «من جلس بين فقراء الزاوية، والتفت إلى معلوم دنيوي، وقف عن السير، وأفسد ضعفاء فقراء الزاوية، وكان عليه وزر ذلك، فيجب عليه الخروج من الزاوية. فإن وَقَفَهَا أو ما يهدى إليها إنما هو بالأصالة لمن ترك الدنيا، واشتغل بعبادة الله تعالى، فلمحبّة الواقف أو المهدي في الله تعالى وقف أو أهدى، حتى لا يلتفت إلى الفقير لغير ما هو بصده، وكل فقير أكل من ذلك مع عدم اشتغاله بالله، فقد أكل حراماً بشرط الواقف فإنه لو رآه غير مشغول بالله لم يوقف عليه شيئاً، بل كان يقول له: اخرج واحترف مع السوق والله أعلم».

ومن شأنه: أن لا يقبل وَقَفاً من امرأة، ولا شيخ قد طعن في السن، من أرباب الصنائع، ولو أتوه به من غير سؤال، لأن من شرط الطريق أن لا يصح دخولها إلا إن كان شريف الهمة، ومن رضي أن يكون تحت مِئَةٍ^(٢) امرأة أو عاجز عن الكسب، فهو دنيء الهمة، ومرتبته دون مرتبة تلك المرأة، أو العاجز، فهو بعيد عن الطريق.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: «إذا رأيت المريد يقرأ على قبور الموتى، ويأخذ من النساء على ذلك معلوماً، فانفضوا أيديكم منه، ومن ترخص

(١) الخراج: هو ما يخرج من غلة الأرض.

(٢) المِئَةُ: الإحسان والإنعام.

وعمل برخصة الشريعة في ذلك، من غير حاجة، فهو من أبناء الدنيا، وأبناء الدنيا لا يفلحون في طريق الآخرة» قال: وليس لشيخ أن يأخذ على هذا المريد عهداً، ولا أن يلقنه ذكراً فإن فعل ذلك، فهو كالاستهزاء بالطريق.

قال القشيري رحمته الله: «وقد تعددت وصايا جميع الأشيخ في سائر الأقطار إلى مرديهم أن لا يأخذوا وفقاً من النسوان، فإن في ذلك من المفسد ما لا يخفى، أقل ما في ذلك أن المريد يصير يميل إلى من أحسن إليه بحكم الطبع والشهوة، فيتلف قلبه بالكلية، والله غفور رحيم».

التباعد عن مجالسة الغافلين

ومن شأنه: التباعد عن مجالسة أبناء الدنيا من التجار والمباشرين ونحوهم، فإن مجالستهم سُمّ قاتل للمريد، لضعفه ولكثرة غفلتهم عن الله تعالى، واشتغالهم بأمور الدنيا من مطعم وملبس ومنكح، وغير ذلك فيسرق طبع المريد منهم محبة العلائق الدنيوية، والمريد إنما عمله على حذف العلائق، وإن قُدِّرَ أنهم ينتفعون بالفقير، فهو نقص له، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَ أَغْفَلْنَا قَلْبُهُم عَنْ ذِكْرِنَا وَأَتَّبَعَهُ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (١).

وما رأينا أحداً من المريدين خالط أبناء الدنيا إلا مات قلبه، وعُدِمَ الليل إلى مجالس الذكر والخير، وسهر الليالي، ولم يصر له داعية إلى مثل ذلك.

وكان سيدي محمد الغمري رحمته الله إذا رأى مريداً يكثر الجلوس على باب المسجد مع أبناء الدنيا، يخرج من زاويته، ويقول: «إنما جعلت الزاوية للعبادة وكفّ البصر عن رؤية الشهوات، فمن جلس على باب الزاوية فلا فرق بينه وبين الجالس في السوق».

والله إنني لأتأثر على الفقير إذا رأيته قد تصرّمت^(٢) حباله عن مجالس الخير، أكثر مما يتأثر هو على فوات ذلك، وأتكدر من جلوس الفقير على باب الزاوية لعلمي بأن ذلك يشتت القلب ويميته فالله يغفر لنا ولجميع من لم يقبل من الإخوان نصحناء، إنه غفور رحيم.

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) تصرّمت: تقطعت.

المريد لا يتميز عن إخوانه

ومن شأنه: إذا كان مجاوراً، أن لا يطلب التخصيص عن إخوانه بشيء من الخبز والعسل مثلاً، ولو قُدِّر أن النقيب أعطاه شيئاً زائداً من وراء إخوانه، فمن الأدب ردُّه، حتى لا يتميز عن إخوانه، فيدخل في كراهة الحق تعالى له.

فَعَلِمَ من باب أولى أنه لا يجوز له أن يشارك الفقراء في الأخذ من الخبز والعسل مثلاً، وعنده شيء من ذلك استرباحاً بل يتخير، إما أن لا يتخصص ومن ورائهم بشيء وإما أن يأكل ما تخصص به حتى يفرغ، فإذا فرغ شارك الفقراء بعد ذلك.

فكن يا أخي شريف النفس، عالي الهمة، فإن طلب التخصيص يدل على خسة الأصل، ودناءة الهمة، والله أعلم.

آفات^(١) القلوب

ومن شأنه: التباعد عن فعل كل شيء يميت قلبه ككثرة اللغو والغفلة فإن ذلك مجرب لموت القلب، وليس عمل الفقير إلا بتحصيل حياة قلبه عن كل شيء يشغله عن الله تعالى، لأن قلب الإنسان كقلب الطاحون، فإذا فسد فسدت وإذا كان لها قلبان امتنعت عن الدوران.

وقد رتبت للفقراء في الزاوية أن يقولوا كل يوم قبل صلاة الصبح أربعين مرة: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، لِمَا بلغنا أن أبا محمد الكتاني أحد مشايخ الطريق، رأى النبي ﷺ في المنام، فقال: يا رسول الله، ادع الله لي أن لا يميت قلبي، فقال: يا أبا محمد قل كل يوم أربعين مرة: «يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، يحيا قلبك».

لا ذكر^(٢) بعد المشاهدة^(٣)

ومن شأنه: إذا افتتح مجلس الذكر وحده أن لا يسكت حتى يحصل له الغيبة

(١) آفات: جمع آفة وهي المرض.

(٢) الذكر: هو الخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف أو لكثرة الحب. وحقيقته أن تنسى ما سوى المذكور.

(٣) أن تعبد الله كأنك تراه. كما ورد في الحديث.

عن الأكوان كلها، فإن الذكر إنما شرع للحضور مع الحق جل وعلا، وما دام المرید يشهد شيئاً من الأكوان فهو لم يدخل حضرة الحق ثم إذا دخل الحضرة، وحضر قلبه مع الحق تعالى، فليسكت حينئذ لأنه لا معنى للذكر اللفظي، مع شهود الحق تعالى، بل لو أراد الحاضر أن يذكر الله بلسانه لم يقدر على النطق، لأنها حضرة هيبة وجلال، وبهت وخرس، ومن هنا رمز بعضهم إلى ذلك بقوله:

ألا بذكر الله تزداد الذنوب وتنطمس البصائر والقلوب؟!^(١)

أي لأن من أدب أهل الحضرة الصمت عند العبارات باللسان فمن لم يصمت وقع في سوء الأدب.

وفي مواقف البصري يقول الله ﷻ: «إذا لم ترن فالزم اسمي فإذا رأيتني فاصمت، لأنني ما شرعت لك أن تذكر اسمي إلا وسيلة للحضور معي، فإن اسمي لا يفارقني».

وقد سمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: «لا يفتح على المرید بشيء من المواهب، وهو يستحضر في ذهنه شيئاً من الكون، إذ الفتح لا يكون إلا لمن شهد الحق تعالى بقلبه، وغاب عما سواه».

فعلم أنه لا ينبغي للمرید قطع مجلس الذكر، قبل أن تحصل له الغيبة عن الأكوان، لأن من قطعه قبل هذه الغيبة، فكأنه لم يذكر الله شيئاً من حيث الثمرة التي هي الرقي، وإن كتب له بذلك حسنات.

ومن هنا قال الشبلي رحمه الله: «من ذكر الله تعالى على الحقيقة نسي في جنبه كل شيء» وكان الجنيد يقول: «من شهد الخلق لم ير الحق، ومن شهد الحق لم ير الخلق، إلا أن يكون من الكُمَّل».

وكان الزفي رحمه الله يقول: «كل ذكر لا يمتد زمانه فهو كالطعام الذي لا يسد جوعة الأكل» وكان يقول: «من الأدب أن لا يسكت الذاكر ما دام يستلذ بالذكر، فإذا حصل له ملل، فمن الأدب السكوت».

كما أنه يكره له بعد الشيع أن يأكل، وبعد الشيع المذهب للخشوع أن يصلي

(١) لأن الذكر يدل على عدم شهود المذكور، وهذا نقص عند القوم. فلو كان مع المذكور لما احتاج إلى التذكر. فالذكر أعلى من الغفلة لكنه أدنى من شهود المذكور.

إلا بعد هضم ذاك، بكثرة الذكر، وذلك لأن جوارحه تصير عاصية عن كمال الإقبال على الله ﷻ، فهي كعبادة المكره على حد سواء، فكما لا يقبل إسلام الذمي^(١) مكرهاً، كذلك لا تقبل عبادة العابد مكرهاً.

ومن هنا نَوَّع الشارع ﷺ الأوراد للعبد، فمن ملَّ عن ورد انتقل إلى ورد آخر ولو مفضولاً، ولو لم يكن عند العبد ملل، لم ينوع له الأوراد، بل كل يأمره بذكر واحد على الدوام كالملائكة، فافهم.

متى تُطوى مقامات^(٢) الطريق للمريد؟؟

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: «إذا ذكر المريد ربّه بشدة وعزم، طويت له مقامات الطريق بسرعة من غير بطء، فربما قطع في ساعة ما لا يقطعه غيره في شهر وأكثر».

وكان يقول: «السالك من طريق الذكر، كالطائر المُجَدِّ إلى حضرات القرب، والسالك من غير طريق الذكر كالزَّمن^(٣) الذي يزحف تارة ويسكن أخرى، مع بعد المقصد فربما قطع مثل هذا عمره كله ولم يصل إلى مقصوده».

وكان الجنيد رحمه الله إذا سأله فقير أن يدعو له يقول: «أسأل الله أن يدلك عليه يا أخي من أقرب الطرق، وذلك لينطفئ عنه نيران البعد والجفا وينملي بشهود حضرة الحق جل وعلا، ولو قبل موته بلحظة».

وكان سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: «من أدب الجماعة إذا كانوا يذكرون مع الشيخ أن لا يتعدوا إشارته، فإذا أشار عليهم بالسكوت فمن الأدب أن لا يتمادى أحدهم في الذكر ما دام إحساسه باقياً، فإن تمادى مع عدم الغيبة عن الحاضرين فذكره نفاق^(٤) مغموس بسوء أدب، فإن الشيخ لا يقول لهم اسكتوا إلا بعد استئذان الحق تعالى في ذلك على الوجه المعروف عند القوم، ومخالفة إذن الحق خروجٌ عن الأدب، موجبة للعطب» والله أعلم.

(١) الذمي: هو اليهودي والنصراني.

(٢) المقام: وهو ما يتحققه العبد بمنزلة واجتهاد من الأدب وما يتمكن فيه من مقامات التعيين بتكسب وتطلب فمقام كل واحد موضع إقامته.

(٣) الزَّمن: الضعيف الدائم المرض.

(٤) النفاق: إظهار المرء خلاف ما يبطن.

تجنب الاعتناء بالظاهر

ومن شأنه: أن لا يكون له التفات قط إلى الاعتناء بظاهره، من ملابس وغيره إلا بقدر الضرورة، فمن نظر إلى ظاهره انقطع عن السير.

وقد رأى سيدي أحمد بن الرفاعي رحمته الله فقيراً هندم^(١) ثوبه، وصف طباق عمامته على المناسب، فقال: «يا ولدي هذا خروج عن طريق الإرادة». ومن كلامهم:

إذا رأيت المريد في زيهِ لبق فاعلموا أنه عن الاستقامة زلق^(٢)
ويستحب أن يكون قميصه لا ينزل عن كعبه، وأن يكون نظيفاً واسع الأكمام وسطاً، وأن يكون موطاً أو مصبوغاً، كله اخضر أو أزرق أو أسود أو نحوها، ولا ينبغي له لبس الثوب الأبيض إلا يوم الجمعة، لا سيما إن كان يخدم نفسه، أو غيره، في البيت والزاوية مثلاً.

وذلك لأن المريد يجب عليه أن يقلل من علائق الدنيا، ومن الالتفات إليها، وإلى التزين بملابسها، والأبيض يحوجه كل قليل إلى غسله بالصابون ونحوه، وذلك يحتاج إلى دراهم يشتريه بها، والدراهم تحتاج إلى الحرف والصنائع، أو سؤال الناس بحاله، أو بمقاله، فيأكل بدينه، فكأنما عبد الله تعالى بعبادة، أكل بها ولبس، لأنه لولا العبادة التي يراه الناس عليها ما أكرموه، وكل ذلك يقطع عن السير ويفتح باب التوجه إلى الدنيا.

وبالجملة فكل شيء تهواه نفس المريد في الدنيا يقطعه عن الله ﷻ، فيجب على المريد الصبر على وسخ الثياب وتخريقها، حتى يزول وسخ قلبه فإذا زال فهناك يؤمر بنظافة الثياب وتبييضها، ليشاكل بذلك باطنه من باب التحدث بالنعمة، لا لغرض نفساني، فعلم أن كل مريد اشتغل عن إصلاح حاله بنظافة ثيابه، ولبس الأصواف الرفيعة وغيرها لا يفلح في طريق القوم، ولو كان شيخه من أكبر الأولياء.

ووالله لقد لبست في بداية أمري المرقعات، وشراميط الكيمان، وتعممتُ

(١) هندم ثوبه: أي أصلحه على مقدار مناسب ونظام حسن.

(٢) زلق: زلّ ولم يثبت.

بالحبال وجلود قصاصات النعال الجديدة، وكان الناس يأتوني بالثياب الفاخرة والأطعمة اللذيذة، فأردها خوفاً من أن تشغلني عن الله ﷻ، فكيف بمريد يشتغل في تحصيلها؟؟.

وقد بلغنا عن الشبلي رحمه الله أنه كان إذا أعجبه شيء من ثيابه، يذهب إلى التنور فيحرقه، فيقال له: هلا تصدقت به؟ فيقول: «ما أشغل قلبي فهو يشغل قلب غيري».

وأجاب اليافعي رحمه الله عن مثل ذلك، بأنه من باب ارتكاب أخف المفسدتين عند القوم، فإن زوال الدنيا كلها أهون عندهم من غفلتهم عن الله تعالى، كما لو غصّ بلقمة، ولم يجد ما يسيغها به، فله أن يسيغها بخمر صيانة للجسم عن الهلاك، فكذلك الحكم فيمن خاف على هلاك دينه يقدمه على هلاك دنياه.

قال الأشياخ: وإن كان ولا بد من الملابس الحسنة، فليلبس الوسط لا رقيقاً يصف البشرة، ولا غليظاً كالخيش، وكذلك لا ينبغي له أن يلبس ثياب أهل الرعونات، كالثياب التي فيها خطوط صفراء أو حمراء أو خضراء عملاً بالعرف في ذلك.

وقالوا: إن مثلها لا يوجد من مال حلال، والحرام يوقف المريد عن السير، وإنما لبس ﷺ البرود التي فيها خطوط صفر وحمرة بياناً للجواز، وكانت من حلال بإجماع.

قالوا: والحكمة في موافقة المريد للفقراء في اللباس طلب التشبه بهم، فإنه كلما تشبه بهم قوي في الطريق، وقالوا من تشبه بهم في الأحوال الظاهرة، يرجى له حصول التشبه بهم في الأحوال الباطنة، حتى أن المريد الصادق ربما يسرق جميع صفات القوم في مدة سيرة.

قال الشيخ نجم الدين البكري: «وكان السلف الصالح يستحبون أن يكون قميص أحدهم ذا جيب، ويكرهون السروال الواسع العباب^(١)، بحيث لو شممه لطلع إلى الفخذ، وجاوز الركبة، وكذلك كانوا يكرهون للمريد أن يجعل علماً على ثوبه من غير لونه بلا حاجة شرعية، كأن يتخلق ولم يجد خرقة من لونه، وما

(١) العباب: الكم.

رفع السلف الصالح ثيابهم إلا اضطراراً، فكانوا لا يجدون من الحلال ثوباً كاملاً، إلا في النادر، فلذلك كان أحدهم يرفع ثوبه من الشراميط الحلال، فيصير ثوبهم ذا ألوان مختلفة، فهذا سبب لبسهم المرقعات» والله أعلم.

ومن شأنه: إذا دخل في عهد طريق القوم، أن يغير هيئة لباسه المخالف لهيئة لباس الفقراء، عادة من لبسه من الفلاحين أو الجند أو المباشرين فقد قالوا: لا بد للمريد من فعل ثلاثة أمور، تغيير الحلاس، يعني الثياب والجلاس يعني الذين يشغلونه عن الله، والأنفاس.

فيصير يحذر من تضييع نفس واحد من أنفاسه، من غير طاعة، وفي غير رواية والانعباس، وهو أن يعبس وجهه لكل من يريد أن يشغله عن ربه، حتى ينفر الناس من مجالسته.

وقد حثَّ القوم المريد على التشبه بالقوم في مراسمهم الظاهرة، لكي ينتقل إلى مراسمهم الباطنة.

وفي كلام العلماء: «المروءة هي التخلق بخلق أمثاله في زمانه ومكانه» وجعلوا تغيير الهيئة له مخلاً بالمروءة، كما لو لبس القاضي ثوب فلاح وعمامته مثلاً، وفي المثل السائر «كُلُّ كَلٍّ ما تشتهي نفسك - يعني من الحلال - والبس ما يلبسه أبناء جنسك» والله أعلم.

ومن شأنه: أن يكون ذا نهضة ونشاط على الدوام، فلا يرمي بنفسه إلى الكسل وقتاً من الأوقات فليحذر أن يصلي النافلة قاعداً، مع القدرة على القيام، أو يتناول حاجة وهو قاعد، أو يزحف إلى الحاجة حتى يصل إليها إذا كانت قريبة منه، أو يرسله شيخه في حاجة إلى السوق مثلاً فيقول: انظر هل بقي حاجة أخرى؟! ليكون خروجي للسوق مرة واحدة ونحو ذلك على وجه الكسل لا على وجه الخوف من فتنة الخروج، وكل من فعل شيئاً مما ذكرناه فهو عاجز لا يصلح للطريق.

ومن الكسل أيضاً طلبه دابة يركبها إذا أرسله شيخه في حاجة، مع قدرته على المشي إليها، وحمل تلك الحاجة على ظهره أو في يده عادة بل يرى الشرف له إذا خدم الفقراء وتعب في حوائجهم فينبغي للشيخ إذا رأى المريد يميل إلى الرخص والراحة، أن لا يتعب نفسه فيه، ويأمره بالحرفة والصنائع، فإن كلاً ميسر

لما خلق له، والله أعلم.

ومن شأنه: أن يكون كثير الإطراق في الأرض إذا جلس أو مشى ويقلل من الالتفات وفضول النظر، وإن أرخى الطيلسان^(١) دائماً على وجهه بقدر ما ينظر مواقع قدمه فقط، كان أعون له.

قالوا: وهذا دأب المريد ما لم ينظر إلى الأمور بعين الاعتبار، فإذا صار ينظرها بتلك العين فلا يأمر بالإطراق إلا على وجه الحياء من الله لا غير، وقد كان أنس بن مالك لا يفارق البرنس^(٢) صيفاً ولا شتاء ويقول: إنه يكف البصر عن فضول النظر.

وكان السلف الصالح إذا سُئل أحدهم عن صفة جليسه لا يعرفها، فكيف بصفة شيخه؟ وما قام أحد بهذا الأدب مثل ما قام به النقشبندية ببلاد الهند والعجم، بمجرد ما يأخذ المريد عن شيخ، لا يعود ينظر إلى وجهه حتى يموت، وفي ذلك سر خفي، وهو أن الشيخ ربما تجلى للمريد بالعظمة التي في باطنه لله ﷻ، فلا يطيقها المريد فيموت؟! كما وقع ذلك لأبي يزيد البسطامي مع مريد.

كان يقول: مرادي أرى الله ﷻ، فقال له يوماً: إنك لا تطيق رؤية الله، إلا بعد أن تطيق رؤيتي في اليقظة من حيث التجلي القلبي، فقال له المريد: بلى أطيع ذلك، فخرج عليه أبو يزيد يوماً على غفلة، فبمجرد ما وقع بصر المريد عليه مات لوقته!! فقليل له في ذلك فقال: إني تجليت له بما انطوى عليه باطني من عظمة الله ﷻ فصُعِقَ^(٣)!!

وكذلك وقع للشيخ عبد المجيد شقيق سيدي عبد العال مع سيدي أحمد البدوي ﷺ فقال له عبد المجيد يوماً: يا سيدي: مقصودي ترفع اللثامين حتى أرى وجهك، فقال: يا عبد المجيد كل نظرة تقتل؟! فقال: نفسي بذلك طيبة، فرفع سيدي أحمد اللثام عن وجهه، فخرَّ سيدي عبد المجيد ميتاً لوقته!؟. هكذا حكى لي شيخنا الشيخ محمد الشناوي.

(١) الطيلسان: هو ضرب من الأوشحة يُلبس على الكتف أو يحيط بالبدن خال عن التفصيل والخياطة أو هو ما يعرف في العامية المصرية بالشال.

(٢) البرنس: هو كل ثوب رأسه منه ملتصق به.

(٣) صُعِقَ: أصابته الصاعقة فهو مصعوق.

وحكى الشيخ محيي الدين بن العربي: أن الشيخ أبا يعزى المغربي، كان لا يقع بصر أحد عليه إلا عُمي لوقته، قال: وممن رآه فعمي الشيخ أبو مدين، وكان أبو يعزى هذا من أكابر الوارثين عليه السلام، ثم لما عمي أبو مدين أمره الشيخ أبو يعزى بأن يمسح عينيه بشيء من ثيابه، ففعل الشيخ أبو يعزى فردَّ الله عليه بصره.

وكان الجنيد عليه السلام يقول: صحبت السري إلى أن مات، فما عرفت هل لحيته بيضاء أو سوداء؟.

وأخبرني الشيخ شهاب الدين المشهور بمازن الأزهرى: أنه خدم سيدي محمد بن عنان سنين، فلم ير له وجهاً، وكذلك الشيخ لم يعلم بطلوع لحية الشيخ مازن إلا من الناس كما مرَّ قريباً، والله أعلم.

الطريق لا تقبل الشركة معها

ومن شأنه: أن يكون لهجاً بذكر الله تعالى، في سائر أوقاته ولا يجيب قط من عدله عنه إلى غيره، إلا بطريق شرعيّ فإن الطريق لا تقبل الشركة معها، وكل من لا يعطها كلّ لا تعطه بعضها، فلا يزال المرید يلهج بذكر اسم الله حتى يحصل له الحضور الدائم مع الله، فهناك يستغني عن ذكر اللسان بالشهود القلبي، وما دام لم يحصل له الحضور الدائم، فهو مأمور بذكر اللسان.

وقد تقدم أن حكم الذكر في الجلاء للقلب المصدىء، كحكم الحصى للنحاس المصدىء، وحكم غير الذكر من سائر العادات كحكم الصابون للنحاس، فإما طول تعب صاحبه ويا بعد وصوله، وبالجمله فكل شيء أشركه المرید مع الذكر، قطعه عن سرعة السير وأبطأ فتحه بقدره كثرة وقلة والله أعلم.

ومن شأنه: القيام بالإمامة والأذان إذا بلغ، وطلبها أصحابه منه، ولا يتعلل بالحياء فإنه حياء طبيعي لا شرعي.

وكذلك من شأنه: غسله لثياب إخوانه إذا اتَّسخت، واستأذن شيخه في ذلك، كما سيأتي في الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

وكذلك من شأنه: أن يصلح السراج، وينظف المستراحات، ويهيئ ماء الوضوء لنفسه ولإخوان، وكذلك من أدبه اتخاذ المشط والمقص والسواك

والخلال^(١) والإبرة ومحك الظهر والرأس، واتخاذ السجادة أو القטיפفة لمسح الأعضاء بعد الوضوء للصلاة عليهما إذا لم يجد مكاناً طاهراً، وكل شيء يذبُّ الشارع إليه فتهيئة أسبابه من السنة.

وكذلك من أدبه استعمال الحنك اليمين في مضغ الطعام، فلا يمضغ على اليسار إلا لحاجة، واستعمال الطيب في الإبط، ووضع الطعام على السفرة دون الأرض، تعظيماً للنعمة وخوفاً من أن يقع الفتات على الأرض والله أعلم.

ومن شأنه: تخفيف الثياب لدخول الخلاء والبداة في التشمير للاستنجاء بالكم الأيسر، وفي التشمير لأمر آخر كوضع السفرة أو رفعها أو استعمال شيء ظاهر بالكم الأيمن، ويخلع سراويله بحيث يتمكن من الجلوس ويكون ذلك بحيث لا يراه أحد، ويجعلها تحت القميص تحت إبطه الأيسر، وإذا أراد أن يدخل بيت الخلاء يضرب برجله الأرض، أو بيده الحائط، ثلاث مرات حتى يتنحج، يعني بذلك: هل هنا أحد؟ فيجيبه الآخر من داخل بالتنحج، ولا يطرق الباب على غفلة فربما انفتح الباب فظهرت عورة الجالس فيه، وإذا كان في الصحراء وقضى حاجته فينبغي له أن يدفن ذلك لا أن يدوس عليه أو يسجد فينجسه، والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحذر كل الحذر من الاهتمام بظهور شأنه وانتشار صيته^(٢) في بلاده مثل ما انتشر صيت شيخه مثلاً، ومن قصد بذكره وعبادته ذلك فجزاؤه العقوبة بإخماد الذكر وقلة انتفاع الناس به عكس من طلب الخفاء، فإن جزاءه الظهور قهراً لينفع الناس.

وكان سيدي علي بن وفا رحمته الله يقول: يا مريد الله، لا تهتم بإظهار شأنك اهتماماً يحملك على الاستعانة بالخلق، فإنك إن كنت على نور وحق، فسوف يظهرك الله وكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً، وإن كنت على ظلمة وباطل، فلا تتسبب في إظهار شأنك وإشاعة صلاحك، فإنك لا تتمتع بذلك - إن تمتعت به - إلا قليلاً، ثم الله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً فاعلم ذلك.

المريد دائم الإيثار لأصحابه

ومن شأنه: أن يكون دائم الإيثار لأصحابه في سائر الشهوات على نفسه،

(١) الخلال: العود الذي يتخلل به.

(٢) الصيت: الذكر الحسن.

وقد أجمع الأشياخ على أن المريد إذا كان شأنه الإيثار واحتمال الأذى، فلا بد من رفعته على جميع أقرانه، إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما معاً.

وكان سيدي علي بن وفا رحمته الله يقول: لا يسود أحد على أقرانه إلا إن أثرهم على نفسه، ولم يشاركهم في شيء مما استشرفت إليه نفوسهم.

وكان يقول: من شأن المريد، أن لا يتأثر على شيء فاته من الدنيا، ومتى تأثرت منه شعرة إذا دخل اللصوص وأخذوا جميع ما فيها فهو كاذب في الطريق، إذ الصادق ينشرح لكل شيء فاته من الدنيا فضلاً عن التأثير عليه، والله أعلم.

ومن شأنه: التباعد عن كل ما لا يراه يعمل بعمله وبعلمه لئلا يسرق طباعه مثله فيهلك، فإن جليس السوء أضرب على جليسه من إبليس، فإن إبليس إذا وسوس للمؤمن عرف المؤمن أنه عدو مضل مبين، وإذا أطاع وسواسه عرف أنه عصي ربه ﷻ فيأخذ في التوبة من ذنبه وكثرة الاستغفار عنه، ولا هكذا إخوان السوء لأنه يلبس الحق بالباطل على وفق غرضه وهواه، ولا يكاد يعتذر عن ذنب وربما احتج بالقضاء والقدر، وجادل بالباطل، ومن خالط مثل هذا ضل سعيه، وقد قالوا: ستون من مردة الشياطين، لا يفسدون ما يفسده قرين السوء في لحظة.

فكن يا أخي فطناً ولا تجالس إلا من رأيتَه يعمل بعلمه، واحذر عن الاغترار بمن لا يراعي ذلك من الفقراء.

فقد كان سيدي إبراهيم المتبولي إذا خرج من زاويته مريد ليتعلم العلم في الجامع الأزهر يقول له: إذا دخلت الجامع فاسأل عن علمائه فكل من مدحه الناس بالورع والزهد وقلة التردد إلى الأكابر فاقراً عليه، وإياك أن تقرأ على من لا يتورع في مأكله أو ملبسه فإنك تصير مثله على طول، وإذا تعلمت العلم فاطلب طريق العمل به على يد الصوفية فإنهم يقربون عليك الطريق، وإذا قال لك فقيه بعد ذلك: ماذا استفدت بعدنا من صحبتك للصوفية؟ فقل له: استفدت منهم حسن العمل بما تعلمته منكم.

المريد الصادق^(١)

فلو أن الفقهاء عادة يعتنون بالعمل بعلمهم كما يعتني به الصوفية لكانوا هم

(١) الصادق: من الصدق وهو إسقاط حظوظ النفس في الوجهة إلى الله تعالى تعويلاً على تلج =

الصوفية، ولم يُخَوِّجُوا طالباً إلى غيرهم، كما كان عليه السلف الصالح من العلماء، فإن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير.

وكان الإمام الشافعي رحمه الله مع جلالته يجالس الصوفية، ف قيل له: ماذا استفدت من مجالسة هؤلاء؟ فقال: استفدت منهم شيئين: قولهم الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر.

وكذلك كان الإمام أحمد رحمه الله يجالس أبا حمزة البغدادي الصوفي، وكان إذا أشكل عليه شيء يقول: ما تقول في هذا يا صوفي؟

وكفى بذلك منقبة^(١) للقوم، فلولا أن عندهم مزيد خصوصية، ما احتاج إليهم مثل الإمام أحمد، وحكى ابن أيمن في رسالة الإمام أحمد كان يمنع الناس عن اجتماعهم بالصوفية ويقول: وهل مع أحد منهم شيء زائد على ما معنا؟ حتى نزل عليه منهم جماعة في الليل، من دور قاعته فسألوه عن مسائل في الشريعة فأعجزوه، ثم طاروا في الهواء ثم قالوا له: طر معنا فلم يستطع، فمن ذلك اليوم صار يحث الناس على الاجتماع بالصوفية ويقول: إنهم زادوا علينا في العمل بما علموا.

ومن شأنه: أن لا يلتفت إلى مال خرج عنه قبل دخوله في الطريق، ولا إلى دار ولا ضيعة ولا سبب من الأسباب، فإن الالتفات إلى ذلك من أضر شيء على المريد الضعيف، وربما انتكس إلى حالة أقبح مما كان عليه قبل دخوله في الطريق.

وقد كان الجنيد رحمه الله يقول: لو أقبل صادقاً على الله تعالى ألف عام، ثم أدبر عنه لحظة، كان ما فاتة في تلك اللحظة أكثر مما ناله قبل ذلك.

وإيضاح ذلك أن كل لحظة متضمنة لجميع الأمداد السابقة، ويزيد عليها بمدد الوقت، فإن جود الحق تعالى لم يزل فيّاضاً على الدوام، والله أعلم.

= اليقين. أو استواء الظاهر والباطن في الأقوال والأفعال والأحوال. أو ملازمة الكتمان غيرة عن أسرار الرحمن.

وحاصله: تصفية الباطن من الالتفات إلى الغير بالكلية. والصدق ينفي النفاق والمداينة.

(١) المنقبة: الفعل الكريم والمفخرة.

ومن شأنه: أن يكون مجتهداً في طاعة ربه لا سيما أول بدايته فإنهم قالوا: من لم يكن مجتهداً في بدايته، لا يفلح له مريد في نهايته، وذلك لأنه إذا نام، نام مريده غالباً، وإذا صام صام مريده كذلك، وإذا تناول الشهوات تناولها مريده كذلك، وهكذا في سائر الأخلاق، وإيضاح ذلك أن استمداد المريد الصادق إنما هو من شيخه، فكل حالة كان شيخه فيها استمد منه المريد، حتى إن الشيخ لو غفل عن ربه فلا بد من غفلة مريده قهراً عليه، فلا أحد أتعب قلباً ولا بدنأ ممن نصب نفسه إماماً للمريدين، لكن ذلك أغلبي لا كلي، فقد يغفل المريد عن ربه حال حضور شيخه معه.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: لا بد للمريد من المجاهدة مع الإخلاص، فإنه إذا صدق في معاملة الله تعالى في السرائر، جعله على الأسرة والحظائر.

وكان يقول: من خلص النظر إلى وراء سلم من الانتكاس بين الورى.

وكان يقول: من لم يكن عفيفاً، نظيفاً، شريفاً، فليس هو من أولادي، ولو كان ولدي لصلبي، كان ملازماً للطريقة والديانة، والصيانة، والزهد، والورع وقلة الطمع، فهو ولدي وإن كان من أقصى البلاد.

وكان يقول: يجب على المريد الضعيف الحال، أن يأخذ من العلم ما يجب عليه تأدية فرضه ونفله، ولا ينبغي له أن يشتغل بشيء زائد على ذلك من الفصاحة والبلاغة حتى ينتهي سيره، ويعرف ربه، وهناك يصير لا يشغله عن ربه شاغل، فإن قرأ في علم النحو كان مع الله، أو في علم الكلام كان مع الله، أو في علم الأحكام كان مع الله، كشفاً وشهوداً، بخلاف من لم يبلغه بسيره، فكل شيء اشتغل به في الوجود ربما يشغله عن الله، حتى الكلام المباح.

وكان يقول: من أكد ما يجب على المريد مطالعته، لما كان فيه مناقب الصالحين وآثارهم من العلم والعمل، وكثرة الذكر ليلاً ونهاراً، لأن ذلك يجذبه إلى اللحوق بهم، والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يكون عنده منافسة لأحد، ولا جدال في شريعة ولا حقيقة، ولا منافسة في تصحيح أعمال غيره، لأن ذلك من وظيفة الأشياء، وأما المريد فإن اشتغل بذلك، قطعه عن السير وأورث عنده الرئاسة والعجب فهلك من

حيث لا يشعر، بل الواجب عليه أن يكون عمّالاً في طريق الترقى، لا يَمَلُّ منها كسلاً ليلًا ولا نهاراً، وللجدال أقوام وللتسليم أقوام.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: من شرط المريد الصادق، أن يكون خارجاً عن حظوظ نفسه كلها، لا التفات له إلى حظ من الحظوظ من مال أو جاه أو نسبة إلى صلاح، يرضى بالتلف والضيق، ويفرح بالخمول^(١) وعدم الشهرة، كما هو شأن الصادقين لأن الفلاح والنجاح لا يصح إلا لمن ترك حظوظ نفسه وقابل الأذى بالإحسان، والشر بالاحتمال.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يكون له فعل رديء، ولا يصرفه عن طريق القوم صارف، ولا يرده عنها السيوف والمتالف.

وكان يقول: من شرط المريد أن لا يكون عنده دعوى صادقة فكيف بالكاذبة، ولا يكون بينه وبين الأحداث والنساء الأجانب وُدٌّ ولا إحاء، إنما ذلك للأشياخ.

وكان يقول: من شأن المريد أن يكون عمّالاً ببدنه وقلبه، ليس عنده شقشقة بالكلام في الطريق، ولا يتكلم فيها حتى ولو تخلّق بأخلاقها، حتى يأذن له شيخه، قال: وغالب مريدي زماننا قد قنعوا من الطريق بكلمات تلقّفوها^(٢) من بطون الكتب أو من أشياخهم، فمن سمعهم ظن أنهم من القوم فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن شأنه: أن يفتش على الجِلِّ في اللقمة وسائر العورة، وما دام لسانه يذوق الحرام والشبهات فأعماله لا يفي نورها بظلمة تلك اللقمة، ومعلوم أن عمل المريد دائماً إنما هو فيما يستتير به قلبه ليفرق بين الهدى والضلال.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: من شأن المريد الصادق أن لا يلتفت بقلبه، إلى تزكية الناس له، بل الواجب عليه أن يفتش نفسه عن كل شيء زكاه الناس به، فربما كتب الشيخ للمريد إجازة أيام الاستقامة، ثم إن المريد غيّر وبدّل، فماذا تنفعه تلك الإجازة وهو قد غيّر وبدل في أحوال أهل الطريق؟ بحيث

(١) الخمول: من الخفاء. خمل الرجل: خفي ولم يعرف ولم يذكر.

(٢) تلقّفوها: أي تلقّوها وحفظوها بسرعة.

لو أنه عرض على الشيخ ما ارتكبه من الزلات^(١) بعد الإجازة لرجع عن إجازته وحكم على نفسه بالخطأ في ذلك، فليفتش المريد نفسه بعد الإجازة ولا يقنع بكتابه درج يكون عنده فإن ذلك غرور.

وكان يقول: إذا اشتغل المريد بإعراب الكلام العادي واستقامته وسلامته من اللحن، فقد تورّع منه في الطريق إنما ينبغي له الإعراب والاستعانة في الأعمال الصالحة، لكن لا بأس بأن يتعلم من النحو ما يحفظه عن اللحن في القرآن والحديث والله أعلم.

ومن شأنه: أن يكون ذا صبر شديد على ملازمة السهر، والجوع، والعزلة عن الناس ببدنه وقلبه، فقد قال سيدي إبراهيم الدسوقي: إن الطريق إلى الله تعالى تُفني الجلاّد وتفتّت الأكباد، وتضعف الأجساد، وتدفع للسهاد^(٢)، وتسقم القلب، وتذيب الفؤاد.

وكان يقول: من أعظم ما يؤمن به المريد المحبة والتسليم للشيخ، وإلقاء عصي المعاندة والمخالفة، والسكون تحت مراد شيخه وأمره، فإذا كان كل يوم يزداد محبة في شيخه وفي التسليم له، سلم من القطع فإن عوارض الطريق وعقبات الالتفاتات والإدارات هي التي تقطع الإمداد وتحجب المريد عن المراد والله أعلم.

ومن شأنه: أن يفرّ ممن يرمي أهل الطريق بزور^(٣)، أو بهتان، أو رياء، أو نفاق، فإن كل من تجرأ على أهل الطريق أبغضه الله ومقته، فلا يفلح بعد ذلك أبداً، ولو كان على عبادة الثقلين سوى ذلك.

فإن قلت: فكيف يصح لنا أن نعرف محبة الله تعالى لعبد من عباده؟

فالجواب أننا نعرف محبة الله تعالى له، بتقربه إليه بالطاعات وكثرة النوافل، فإذا رأينا من يفعل ذلك، وجب علينا محبته وحرّم علينا بغضه، وليس لنا أن نشق قلبه حتى نعرف أنه مخلص أو مرء، لأن ذلك إلى الله تعالى لا إلينا.

(١) الزلات: جمع زلة وهي السقطة والخطيئة.

(٢) السهاد: الأرق.

(٣) الزور: الباطل أو الكذب.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول: من علامة كذب المريد في دعواه كمال الصدق في محبة ربه، نومه في الأسحار، وفوات شربه من دُنِّ الدنو، وخمر الخمار.

وكان يقول: لا يصح لمريد القرب من حضرة ربه إلا إن ترك كل ما سِواه من مقام ودرجات، وخوارق وكرامات.

وكان يقول: كل مريد قبل فتوى إبليس في أن الله تعالى لا يعاقبه على ترك فعل السنن والأوراد، تعس وانتكس^(١) وفاته المراد، فإن الشيطان إنما يأمر المريد برخص الشريعة، يستدرجه إلى البغي والغِي، فإذا عمل المريد بالرخص بعد أن كان يعمل بالعزائم، نقل بعد ذلك إلى فعل المحظورات ويقول له: إن هذا الفعل مقدر عليك قبل أن تخلق، فأَي شيء كنت أنت؟ ويوسوس له بأنك صرت من الموحدِين الخالصين، لا ترى لك فعلاً مع الله تعالى، فيهلك مع الهالكين، لأنه لا يصير يتوب، ولا يستغفر من ذنب.

وكان يقول: من شرط المريد أن يكون من أبعد الناس عن الآثام كثير السهر والقيام، كلما زاد في خدمة سيده زاده قريباً وإحساناً.

وكان يقول: إياك يا مريد أن تدعي كمال محبتك لله تعالى، ثم تعصي ربك ﷻ، فإنك إذا عصيته ربما قال لك لسان حضرته أفَّ عليك أما تستحي مني؟ أين دعواك الصدق في طلب القرب مني؟ أين غسلك ثيابك المذنسة^(٢) لمجالستي؟ كم تنقل قدمك إلى الآثام؟ كم تنام وأحبابي قد صفَّوا الأقدام، أنت وعزتي وجلالي مدَّعٍ كذاب، والسلام.

وكان يقول: الله تعالى خصم كل مريد شهر نفسه بطريقنا، ولم يقم بحقها، واستهزأ بها.

وكان يقول: من خان لا كان، ومن لم يتعظ بكلامنا، فلا يمش في ركابنا، ولا يلَمُّ بنا، فإننا لا نحب من أولادنا إلا الشاطر المليح الشماثل، وذلك ليصلح قلبه لوضع سرنا. فإيا أولادي إن كنتم صادقين في الإرادة فلا تدنسوا طريقي ولا

(١) انتكس: انقلب.

(٢) المذنسة: المُنسَخة.

تلعبوا في تحقيقي، ولا تلبسوا على أنفسكم في الصدق، وأخلصوا تخلصوا، وكما وفينا لكم بحق التربية والنصح، فوفوا لنا بالاستماع والانتعاض، وما أمركم إلا بما أمركم به ربكم ونبينا ﷺ.

إياك والاذعاء

وكان يقول: من علامة المريد الصادق، أن لا يقول قط أنا أفعل كذا من العبادات العظيمة، فإن الله تعالى يعجز المدعين وإن كانوا على أعمال الثقلين هبطوا وأصحاب مبركه سقطوا.

وكان يقول: إذا غفل المريد الصادق عن مناقشة نفسه، وعن حلها عن الرياء والنفاق هلك مع الهالكين، فكيف بالمريد الكاذب؟

وكان يقول: من علامة المريد الصادق، أن تطوى له مقامات الطريق البعيدة على غيره من شدة عزمه، لأن حلاوة القرب من حضرة ربه تنسيه طول التعب.

وكان يقول: من علامة المريد الصادق، أن تنقلب له الأضداد فيصير من كان من الصالحين يسبه يحبه، ومن كان يقاطعه يواصله، ومن كان لا يشتبهه يثني عليه، ولا عبرة بعداوة المنافقين لأنهم أعداء للأنبياء والمرسلين، والله أعلم.

سرُّ الطريق في أورادها

ومن شأنه: أن لا يطيع الملل من قراءة الأوراد التي أمره بها شيخه فإن كُلَّ شيخ قد جعل الله مدده وسره وسر طريقته في أوراده التي يأمر بها المريد، فمن ترك ورده فقد نكث عهد شيخه، وأجمعوا على أنه ما قطع مريد ورده إلا انقطعت عنه الأمداد في ذلك اليوم، وإيضاح ذلك أن طريق القوم طريق تصديق وتحقيق، وجهد وعمل، وغضُّ بصر وطهارة قلب ويد وفرج ولسان، ومن خالف شيئاً من أفعالها رفضته الطريق كرهاً عليه.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله يقول: يجب على المريد أن يجمع همه العزم، ليعرف الطريق بالذوق لا بالوصف والقلم.

وكان يقول لمريده: إن كنت يا ولدي صادقاً، فتجرّد من قالبك إلى قلبك، والزم الصمت عن الاشتغال بكل ما لا فائدة فيه من الجدال، وزخارف الأقوال،

وصمَّ العزم، واركب جواد الطريق. ثم يقول: آه آه آه ما أحلى هذه الطريق، ما أسناها، ما أمرها، ما أقتلها، ما أحياها، ما أحلاها، ما أصعبها، ما أكبرها، ما أكثر مصايدها ما أكثر مددها، ما أعجب واردها، ما أعمق بحرها، ما أكثر سباعها، ووحوشها، ما أكثر عقاربها وحياتها!!.

وكان يقول: كيف يدَّعي أحدكم محبة ليلي، وهو ليلاً ونهاراً مع عُذَّالها^(١)، ولؤَّامها والمنكرين على أهلها، والمعترضين عليها بالجهل، والخائنين لعهودهم، إنما تبرز ليلي لمن تهتَّك في حبها، ولم يسمع كلام المنكرين على أهلها، فإن ليلي لا تحب من يحب سواها إلا بإذنها، بل لا تحب من تخطر محبة سواها في قلبه، وإنما تحب من كان بحبها سكران، وبشرابها ثملان^(٢)، ولهان، ذهلان، عرقان، نشوان^(٣)، هيمان، لو اجتمع الثقلان أن يلوا قلبه بها، أو يحلوا عقدة عهدها، ما استطاعوا.

وكان يقول: من شرط المرید الصادق أن لا يكتر من مجالسة أرباب المحال، وزخارف الأقوال، ولقلقة اللسان، وإنما يجالس من أخذته الطريق ودقَّقه التمزيق، وتفرق عنه كالصديق، وذاب قلبه وجسمه من تجرُّع مرارتها.

ثم يقول: من شك في قولي بأن مجالسة هؤلاء تميت قلبه، فليمتحن نفسه بالأنس بالله تعالى، إذا ذكر الله مجلس ذكر، وإذا قرأ شيئاً في أحكام الشرع، أو النحو أو غير ذلك مع خلق قلبه عن الذكر، فإنه بيقين يجد الأنس في ذكر الله تعالى أكثر من الأنس الموجود في غيره، وما كان فيه الأنس أكثر فهو أقرب إلى حضرة شهود الله تعالى، لأن الأنس من علامة القرب والرضا، وتركه من علامة البعد والله أعلم.

ومن شأنه: أن يوبخ نفسه ويحثها على السير في الطريق، كلما وقفت مع حظ من حظوظها، ويقدم حذف اللائق على كل عمل، فإنهم قالوا: مثال من خزن عنده درهماً، مثال من ربط رجله بخيط دارج ومثال من خزن نصفاً ومثال من ربط نفسه بحبل الغسيل، ومثال من خزن ديناراً مثال من ربط نفسه بحبل

(١) العُذَّال: اللُّؤَام.

(٢) ثملان: سكران.

(٣) نشوان: هو السكران في أول سكره.

البئر، ومن زاد في الدنيا زاد في الجبال، وينبغي له كلما تعب من عبادة أن يقول لنفسه: اصبري فإن الراحة أمامك، وإنما أريد بتعبك إكرامك.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: من شرط المريد الصادق أن يكون سائراً في المقامات ليلاً ونهاراً، غدواً وآصالاً^(١)، لا مَقِيلَ له ولا هدوً، وجواده قد فرغ من اللجم^(٢)، وامتلاً من الشجاعة والعزم، قد شق بطنه الشرى^(٣)، وأسقمها البرى، لا يفند همته مفنداً^(٤)، ولا يهوله مهلك، ولا تردّه ضربات الصوارم، ولا يفشله شيطان غويٍّ ولا مارد، حتى كل من خاصمه في محبوه عاد مخصوماً لا يهدى ولا ينام، ولا يضحى بل الدهر كله عنده سواء، حتى يدخل خيام ليلي ويضع خده على أطناب^(٥) تلك الخيام، ويسمع الخطاب فهناك ينتعش ويطيب، ويقال له: استرح يا طول ما قطعت براري، وقفاراً وجبالاً وبحاراً، وظلاماً وناراً، يا طول ما تعبت وتغيبت، يا طول ما رجعت غيرك من الطريق، وجئت فأكرم الله مثواك، ولا خيب مسعاك، أنت اليوم عندنا ضيف مكين أمين، وضيافتنا لا ينقضي أمدّها، بل هي باقية أبد الآبدين والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يكون عنده حسد، ولا غيبة، ولا بغى، ولا مخادعة، ولا مكابرة، ولا مماراة^(٦)، ولا ممالقة^(٧)، ولا مكاذبة، ولا مصافلة، ولا كبر ولا عجب، ولا ترفّه ولا افتخار، ولا شطح ولا حظوظ نفس، ولا تصدّر في مجالس، ولا رؤية نفس على أحد من المسلمين، ولا جدال، ولا امتحان، ولا تنقيص لأحد من أهل الطريق، ولا من تزيق بالزيق.

ومن ادعى الصدق في الإرادة وعنده خصلة واحدة مما ذكرنا، فهو غير صادق ولا يجيء منه شيء في الطريق، لأن هذه الصفات توقف صاحبها عن السير، بل تطرده عن حضرة الله ﷻ إلى حضرة الشياطين، لأنها صفاتهم والله أعلم.

(١) الأصيل: الوقت حين تصفّر الشمس لمغربها.

(٢) اللّجَم: جمع لجام، وهي الحديدية في فم الفرس. ثم سمّوها مع ما يتصل بها من سُيُور وآلة لجاماً.

(٣) الشرى: سير عامة الليل.

(٤) المفنّد: الضعيف الرأي.

(٥) أطناب: جمع طنّب، وهو جبل يشد به الخباء والسرّاق ونحوهما.

(٦) المماراة: المناظرة والمجادلة.

(٧) الممالقة: المداهنة في الكلام والأفعال مع عدم صدق الود.

ومن شأنه: أن يسد عنه باب مراعاة تعظيمه من المخلوقين، ولا يلتفت إلى أحد من الخلق أقبل عليه أو أدبر عنه، إلا بطريقه الشرعي، لأن من شرط المريد الصادق أن يحب العزلة عن الناس، ولا يطلب له مقاماً عند أحد منهم، فما له ولهم، فلا ينبغي له حضور المجالس التي فيها لغو، أو مدهانة، أو جدال، أو عُجب أو رياء، ولو كانت مجالس علم وقد قُلَّت السلامة من هذه الأمور في طلبه العلم، فعليك يا أخي بالوحدة إلا في حضور الجماعات، ومجالس العلم السالمة مما ذكر. وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: يا ولدي إياك وحضور مجالس العلم التي يغلب على الظن أنه لا إخلاص عند أهلها، فإنها تورث ظلمة في قلبك، وعليك بالعزلة عنهم بعد أن تعرف ما أمرك الله تعالى بتعليمه، فإنك يا ولدي في القرن السابع إلى العجائب والغرائب وقد صار غالب أهله يجعلون سلوك طريق القوم خارجاً عن الشريعة، وحقيقة المحبة تُدعى في الطريقة، وصاروا يرون من سوء حالهم أن باب العطا قد أُغلق على القوم، كما أُغلق عليهم، وذلك لجهلهم بما عليه أهل الطريق من المجاهدات لنفوسهم ليلاً ونهاراً، حتى تقطعت أكبادهم في طلبها وتمزقت أبدانهم من تعبها ونصبها، ولو أن أحداً منهم ذاق حال القوم لعذرهم في صياحهم، وشق أثوابهم.

وكان يقول: والله ليس مطلوب المريد الصادق إلا هو: يعني بذلك زيادة المعرفة وإلا فالحق تعالى معروف لجميع المسلمين معلوم الوجود لهم.

وفي كلام سيدي علي الخوَّاص: لا يصلح لأحد طلب الحق تعالى لأن الطلب لا يكون إلا لمفقود، والحق تعالى موجود عند سائر الطوائف، حتى عند من قال بالتعطيل، لأنه لم يعطل وجود الحق وإنما عطل صفة من صفاته لا غير كقوله: إن اسمه تعالى الحي يعني عن الاسم الباقي لأن الحي من كانت حياته لا تنفنى، هكذا قال الشيخ. والحق أن نَمَّ من يقول ما نَمَّ إلا فروج تدفع، وأرض تبلع، والله أعلم.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يمل من شهود رؤية التقصير في سائر أحواله، فإن رؤية التقصير تفتح له باب المزيد في الدرجة وقد يعطي المولى من هو قاصر ما لا يعطيه لأهل المحابر ^(١).

(١) المحابر: جمع محبرة وهي وعاء الحبر.

ومن شأنه: أن لا يقرأ علم الشريعة إلا على من عُرف بالزهد والورع، وإن أذن له شيخه في القراءة عليه كان أعون له وأقرب لغرضه.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: لو كان المريد يأتي إلى الطريق من باب الإخلاص في العمل، ويفعل الأوامر الشرعية امتثالاً لأمر الله تعالى لا لعل ثواب ولا غيره، كما كان عليه السلف الصالح، لاستغنى عن القوم ولكنه أتى الطريق بعلل وآفات في علمه وعملهم لم يمكن من دخول حضرة الله ﷻ، فلذلك احتاج إلى حكيم يزيل علله وأمراضه ليؤهله لدخول حضرة الله ﷻ، فإنها حضرة محرمة على أهل الدعاوى والرعونات.

وكان رحمته الله يقول: إذا لم يقدر المريد على اتباع رسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، فليتبع خلق شيخه لا أنزل من ذلك، فإن لم يتبع خلق شيخه هلك، ومن استهزأ بالطريق وأهلها استهزأت به الطريق ورفضته قهراً عليه.

والمراد باستهزائه بالطريق عدم مشيه على قواعد أهلها، وكان رحمته الله يقول: قوت المريد الصادق في بدايته الجوع، ومطره الدموع، ووطره الرجوع، يصوم حتى يرقّ ويلين وتدخل الرقة قلبه، وأما من شبع ونام ولغا في الكلام وترخص، وقال ما على فاعل ذلك ملام، فلا يجيء منه شيء والسلام.

وكان يقول: ما بُنيت طريق المريدين إلا على التيار، والنار، والبحر الهدّار^(١)، والجوع والاصفرار، ما هي بالتشدد ولا بالفشار^(٢)، ثم يقول آه آه آه ما رأيت أحداً من أولادي اقتفى آثار الرجال، ولا صلح أن يكون محلاً للأسرار، وكان يقول خلوة المريد سجادته، وخلوته سره وسريته.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يؤذيه، ولا يتحدث فيما لا يعنيه، ولا يشمت قط بمصيبة، إذا بُلي صبر، وإذا قدر غفر، يعمر الأرض بجسده، والسماء بقلبه، طريقه الكظم^(٣) والبذل والإيثار. والله أعلم.

ومن شأنه: أن يقلل من النوم ما أمكن ولا سيما وقت الأسحار، فإن النوم ليس فيه فائدة دنيوية، ولا أخروية بالأصالة، وإنما كثرته خسران لأنه أخو الموت.

(١) الهدّار: الهائج بصوت مرتفع.

(٢) الفشار: كلمة عامية تعني المغالاة في الكلام.

(٣) كظم الرجل غيظه: أمسك على ما في نفسه منه صافحاً أو مغيضاً.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: كيف يدَّعي المريد الصادق في الحب للطريق، وهو ينام وقت الغنائم، ووقت فتح الخزائن، ووقت نشر العلوم، وإظهار المكتوم؟ أما يستحي الكذاب من الدعاوى؟! همته راقدة، وعزيمته خامدة، وهو مع ذلك يدَّعي الصدق؟!

ثم يقول: والله ما صدق مريد في محبة الطريق إلا نبعت الحكمة من قلبه، وصار يبصر الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يثبت في طلب الطريق حتى ينبت، وتنسق^(١) أغصانه، وهناك يأمن من الرجوع عنها، وكان يقول: يا ولد قلبي، إن طلبت أن تكون صادقاً معي، فتجنب معاشرة أهل الجدل بغير علم، ولا تتخذ لك منهم صاحباً فيصدك عن طريق العلماء العاملين، واجعل صاحبك كل عالم يطالب نفسه بالعمل بكل ما علم ثم لا يعد نفسه من العلماء، فإن مثل هذا يلقي الحكمة والله أعلم.

ومن شأنه: أن يكون حمالاً للأذى، مواظباً على النسك^(٢) والعبادة ليلاً ونهاراً، لا يحيد ولا يميل حتى يسكن من حب الله ﷻ، فإذا سكن من حبه فهناك لا يلتفت لسواه في الدارين إلا بإذنه. وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: يا ولدي إن كنت صادقاً في إرادتك، وصفاء معاملتك، وطهارة سريرتك، فإياك أن تدَّعي أنك شملت للطريق رائحة، ولا ترى نفسك إلا عاصياً مفلساً، فكم تلف من غرور النفس مريد؟

وكان يقول: يا ولدي إن طلبت أن تكون مريدي حقاً فقم قياماً دائماً، وجاهد جهاداً ملازماً، ولا تمل ولا تولّ، ولا ترخص لنفسك في ترك العبادة وقتاً واحداً بحجة العجز عنها.

وكان يقول: من شأن المريد أن لا يكون في صحيفته شيء من الزلات، بل تطوى صحيفته كل يوم مضمخة معنبرة ممسكة معطرة بأعمالها الزكية، وشيمه المرضية، والله أعلم.

(١) تنسق: يتم ارتفاعها.

(٢) النسك: الزهد والتعب.

ومن شأنه: أن تكون أعماله على وفق الشريعة المطهرة نصاً أو استنباطاً سالمة عن الشطح عند ظاهر الشريعة فإن الشريعة هي الحد القاطع، والسيف اللامع لعصمتها بخلاف ما يدعى أنه باطن الشريعة مما يخفى على العلماء، وجه استنباطه من الكتاب والسنة فإنه غير معصوم.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: من أحب أن يكون صادقاً في إرادته، وجميع أعماله وأقواله فليحبس نفسه في قمقم الشريعة وليختم عليها بخاتم الحقيقة، وليقتلها بسيف المجاهدة، وتجزع المرارات.

وقد رأيت في يوم كتابتي لهذا الموضوع علماً من أعلام النبوة مشافهة ينهض همة المريد ويقوّي إيمانه بالعمل بالشريعة، فأحببت كتابته هنا، وذلك أن شخصاً أتاني برأس خروف شواها وأكل جلدها، فرأى فيها مكتوباً بالخط الإلهي فوق الحاجبين والأنف ما هذا صورته:

«لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق، يهدي به من يشاء من عباده».

ورأيت قوله: من يشاء مكرراً في الكتابة الإلهية وذلك لحكمة فإن الله تعالى لا يسهو، فلو قدر أنه لم يكن لنا دليل على صحة شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته وأنها هدى من الله تعالى إلا هذه الكتابة الإلهية في داخل الرأس تحت الجلد لكفانا ذلك في الدليل على صحة شرعه صلى الله عليه وسلم.

وحروف الكتابة هي خلوة بين أنثى وذكر من الشقيين لا كهيئة الكتابة التي هي بالمداد، ولا كالعروق البيض والسود في العظم، فتبارك الله رب العالمين.

وكان شهودنا لهذه الكتابة في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وتسعمائة، وكل من كان عنده شك في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورأى هذه الكتابة زال شكه، إلا من سبقت له الشقاوة.

فالزم يا أخي اتباع السنة المحمدية على القطع بصحتها وصحة ما وعدت وتوعدت به من الثواب والعقاب، والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: الصبر على الجوع بل نسيان الأكل بالكلية اشتغلاً بربه صلى الله عليه وسلم.

وقد كان الشبلي يقول: «مكثت سنين أيام بدايتي وأنا لا أكل إلا يوم الجمعة

من طعام أبي القاسم الجنيد، فكنت لا أتذكر إلا حين أحضر عنده يوم الجمعة، وما لم أحضر لا يخطر الأكل على بالي».

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: قاعدة الطريق للمريد ومحكمها ومجلاها هي الجوع، وذلك لأنه يغسل من الجسد مواضع إبليس، فمن أراد السعادة فعليه بالجوع الشرعي، ولا يأكل إلا على فاقة^(١)، ومن طلب شربة بلا حِنية أخطأ طريق الدواء.

وقد تقدم أن الجوع أحد أركان الطريق، عند الأبدال، وهي أربعة: الجوع، والسهر، والعزلة، والصمت.

ومن جاع استتبعه الثلاثة أركان بخلاف العكس في الثلاثة، فإن من جاع ضاق صَدْرُه من الناس، فأحب العزلة، وثقل عليه كلام اللغو، وقلَّ نومه، بدليل أن المريض إذا برأ^(٢) من مرضه يمكث أياماً لا يأخذه نوم حتى أنهم يجعلون له دواءً للنوم من المرطبات فإنه كان جوعاناً مدة المرض، وذلك يزيل رطوبات البدن التي تجلب النوم فافهم.

فمن شبع وأراد الصمت أو السهر أو العزلة في طاعة الله تعالى مع عدم الخواطر المشغلة عن كمال الإقبال فلا يقدر على ذلك والله أعلم.

الأصول التي يبني عليها المريـد أمره

ومن شأنه: أن لا يكتر من مطالعة كتب القوم وغيرها بل يشتغل بذكر ربه ﷻ فإنه هو الجلاء لقلبه. وقد كان سيدي الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر يقول: كتاب المريـد هو قلبه. وكان يقول: الأصول التي يبني عليها المريـد أمره أربعة أشياء: اشتغال اللسان بذكر الله ﷻ مع حضور القلب، وجبر القلب على جمعه لمراقبة الله ﷻ، ومخالفة النفس والهوى من أجله تعالى، وتصفية اللقمة لعبوديته من الشبهة، وهذه الرابعة هي القطب وبها تزكو الجوارح، ويصفو القلب.

الفاقة: الفقر والحاجة.

(١) برأ: شفي وتخلص مما فيه.

فالمريد الحاذق يُعطي نفسه حقها الشرعيَّ من الأكل ويمنعها ما يطغيها^(١)، فإن النفس أمانة الله تعالى عند العبد، وظلمها بالجوع المفرط^(٢) أو غيره كظلم الغير على حد سواء بل هو عند بعضهم أشد، لما صح عندهم من تغلظ العذاب على من قتل نفسه زيادة على عذاب من قتل غيره. قال: والإكسير الذي يقلب عين طينة العبد ذهباً خالصاً هو الإكثار من ذكر الله تعالى مع الإخلاص.

قلت: وإيضاح ذلك أن الحق تعالى لا يقرب إلى حضرته إلا من استحيا منه حق الحياء ولا يصح له أن يستحي كذلك إلا إن حصل له الكشف ورفع الحجاب، ولا يصح له الكشف إلا بملازمة الذكر، وهذه طريق يصل بها المريد بسرعة، والله أعلم.

ومن شأنه: أن يكون عنده شوق للطريق وأهلها لا يملها ولا يطفئ لهيب قلبه.

وقد كان سيدي علي بن وفا رحمته الله يقول: من شرط المريد أن يكون باطنه بيت الاحتراق على الدوام، قال: ويشهد لذلك ما قاله الأطباء: من أن برؤ الرحم سبب في عدم الحمل.

وكذلك المريد متى لم يجد لوعة الوجد، وحرقة الطلب والشوق، إلى المقصود لا يتولد فيه من فيض أستاذه حرارة يظهر منها نتاج^(٣)، فهو مثل الوقود البارد لا يؤثر فيه القبس إلا دخاناً كالدعاوى والرعنات الحاصلة للنفس الدخيلة بين القوم بغير حق وحرقة وشوق وطلب وجد إذ هي كالصحيفة الرطبة التي لا تثبت عليها كتابة أو كحرق مبلول لا يحرق ولا يعلق فيه قبس.

وكان يقول: إياك أن تحسد من اصطفاه الله تعالى عليك من أقرانك وجعله من أهل الطريق دونك وانقادت إليه الأمراء والأكابر دونك وتقول: أنا تربيت وإياه ونحن نعرف بعضنا كما يقع فيه كثير من أهل الرعنات.

بل الواجب عليك أن تكون تلميذاً له وتتبرك به كما يتبرك به غيرك، حيث

(١) الطغيان: هو مجاوزة الحد المقبول.

(٢) المفرط: المجاوز الحد.

(٣) نتاج الشيء: ثمرته.

تعين ذلك عليك بطريقه الشرعي فمن حسد من رفعه الله عليه ربما مسخ الله صورة قلبه كما مسخ إبليس من الصورة الملكية إلى الصورة الشيطانية حين حسد آدم عليه السلام وتكبر عليه وقال: أنا خير منه.

قال: وفي ذلك تحذير عظيم لمن يحسد أحداً ممن رفعه الله عليه من أقرانه ويتكبر عليه ولا يخضع ولا يأتئ به وقد أجمع الأشياخ على أنه يجب على الشيخ إذا رأى مريده قد فاقه وعلا عن مقامه أن يكون تلميذاً له ويدخل تحت حكمه كما تقدم، لأن الصادق ليس قصده رياسة على العباد وإنما قصده القرب من حضرة الله ﷺ، فإذا رأى من هو أقرب منه إليها فالواجب عليه أن يكون تلميذاً له كما وقع لسيدي يوسف العجمي وغيره فربُّوا جماعة فبرعوا عليهم فعادوا وأخذوا عنهم ﷺ أجمعين.

وكان يقول: ما ظهرت السيادة في أحد إلا ويجعل الله تعالى له أتباعاً يهتدون به لما عنده من الصلاح والتدبير لتابعه وكان يقول: ما دمت أيها المريد صاحب صفات كريمة فأنت إنسان باق على أصل إنسانيتك لم تنسخ ولم تمسخ فإن نسخت منك الكرائم بالذمائم والعياذ بالله تعالى فقد نسخت منك صفتك الإنسانية بالصورة الشيطانية وصرت شيطاناً ملعوناً. وإن خلطت في التخلق بالصفات لم تكن إنساناً خالصاً ولا شيطاناً خالصاً، وفي ذلك يتفاوت المتفاوتون والحُكْمُ للأغلب.

ومن شأنه: أن لا يسامح نفسه في الاشتغال بشيء من الأكوان فإن في ذلك الحجاب عن الرحمن، ومن فعل ذلك ذلٌّ وهان كما أن من شغل قلبه بالرحمن عزَّ وخضعت له الأذقان، وتأمل قوله تعالى في الحديث القدسي: يا عبدي خلقت كل شيء من أجلك، وخلقت من أجلي، فلا تشتغل بما خلق لك عما خلقتك له.

وانظر يا أخي إلى الرجل إذا عشق امرأة ينكحها، أو حمارة يركبها، وصار يخدمها ويمتهن نفسه في خدمتها، كيف تمتهنه القلوب بعقولها وإن عظمه الناس من الظاهر رغباً ورهباً!.

وانظر إلى الرجل الشحاذ إذا شغل قلبه بربه، وامتهن نفسه في مرضاته، كيف تعظمه العقول والقلوب، وإن أعرضت عنه لهواً وتكبراً فافهم!!.

وكان سيدي علي بن وفا رحمه الله يقول: إياك أيها المريد والميل إلى صحبة أبناء

الدنيا المعرضين عن طريق شيخك فإن كل مرید تجمل بصحبة أبناء الدنيا فكأنه نادى على نفسه بأنه ممن أهانه ربه ومن يهن الله فما له من مكرم وفي القرآن العظيم: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١) أي وأقبل بكليتك علينا وعلى من يريدنا تسلم وتغنم والله أعلم.

وكان يقول: كل من أغفل قلبك عن ربك فهو عدو لربك فأعرض عنه وتبرأ منه إلى ربك وتوجه بقلبك وجسدك إلى خالقك تكن أَوْاهاً (٢) حليماً، فتأمل فيما قلته لك فإن صديق العدو عدو ومن شأنه أن يرفع همته عن طلب الأجر على أعماله وعباداته.

فقد كان سيدي علي بن وفا يقول: من طلب أجراً على عمله فهو امرأة وإن كان له لحية، فإن الرجال للمن (٣) القدسية والنساء للزينة الحسية، فأیما امرأة تعلقت همتها بالمن القدسية فهي رجل، وأيما ذكر تعلقت همته بالزينة الحسية فهو امرأة.

وكان يقول: ما دمت أيها المرید مع الأضداد فأنت في غلبة فإذا خلصت منهم فقد استرحت من هذه الغلبة. وكان يقول: اثبت أيها المرید تنبت فما نبتت قط عروق شجرة قطعت عمرها في التنقل من مغرس إلى مغرس.

وكان يقول: اقتل أيها المرید نفسك بالتجرد عن صفاتها الرديّة (٤) بيدك الله تعالى مكانها نفساً زكية، ثم إن جملت كذلك هذه النفس الزكية بالتجرد عن الدعاوى الغوية (٥) فهي خير زكاة وأقرب رحماً.

ومن شأنه: أن يصبر على ما يقع له في الطريق من الامتحانات، فإنه لا بد لكل صادق من ذلك شاء أم أبى، إذ لا يصطفيه الحق تعالى وهو يميل إلى أحد سواه، فإذا قام عليه الخلق بالإنكار والرمي بالزور والبهتان نفرت نفسه منهم ضرورة وتجردت إلى محبة الحق تعالى.

وقد كان سيدي علي بن وفا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: إذا قال المرید الصادق عند رميه

(١) سورة النجم، الآية: ٢٩.

(٢) أَوْاهاً: كثير التأوه.

(٣) المنن: جمع منة وهي الإحسان.

(٤) الرديّة: القبيحة المهلكة.

(٥) الغوية: الممعة في الضلال.

بالبهتان وظهور براءته من الريب^(١) ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾^(٢) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِهِ﴾^(٣) وإذا قال المرید الكاذب عند رميه بالبهتان: أنا منزّه عن مثل ذلك وصار يزكي نفسه، قيل له: أنت لا تصلح لتقريب الملك، ارجع إلى سياسة الدواب وعمل الحرف!

وكان يقول: إذا قبل المرید النصيحة أمن من الفضيحة. وكان يقول: أيها المرید إياك ومخالطة أهل الحجاب الغافلين عن ذكر الله ﷻ فإنهم يحجبونك عن ربك.

وكان يقول: مشاهدة الغافلين عن ذكر الله تعالى عقوبة يعاقب الله تعالى بها المرید وليست بعقوبة على أئمة الهدى من أطباء القلوب لأن قلوبهم قد حييت حياة ثانية.

وكان يقول: إياك أيها المرید أن تشغل قلبك بشيء من الملاذّ الفانية فإنها كالشعر النابت في القلب، وإذا نبتت شعرة واحدة في القلب مات صاحبه لوقته.

ولذلك جعل الله تعالى محل الشعر ظاهر جلد الإنسان دون باطنه، ومن هنا تفهم إن كنت تفهم حكمة دخول المؤمنين الجنة جرداً^(٤) مُرداً مكحلين متعاضدين على قلب رجل واحد أي لأنه لو نبت على أجسادهم الشعر لماتوا لأنهم كلهم قلوب جسماً وروحاً لا حجاب لهم عن ربهم فافهم.

وكان يقول: جاهد نفسك أيها المرید بالرياضة لها في هذه الدار فإنها مركبك على الصراط، فإن تركت رياضتها هنا وقع لك على الصراط ما يقع لمن ركب الدابة الحرون^(٥) التي تضربها فتشمص^(٦) وتتأخر بك إلى وراء وتزوغ بك يميناً وشمالاً، فكيف حالك إذا ركبت من هذه صفته على صراط أدق من الشعر وأحد من السيف؟.

(١) الريب: الشك.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٤.

(٤) جرد: خلا جسمه من الشعر، فهو أجرد. (ج) جُرْدٌ.

(٥) حرت الدابة: أي وقفت حين طلب جريها ورجعت القهقري فهي حرون.

(٦) شمس الدابة: ساقها سوقاً عنيماً حتى أعيث.

وكان يتأوه كثيراً ويقول: آه آه آه لم أجد إلى الآن مريداً صادقاً على حكم المطابقة، ولو وجدته لكنت أنا هو.

ومن شأنه: أن يكون ناهض الهمة، خفيفاً في أمر الطهارة بسرعة، فلا يزيد على الغسلات الشرعية، فإن ذلك من وساوس الشيطان.

طهارة القلوب

كان سيدي علي بن وفا رحمته الله يقول: إياك أيها المريد الصادق أن تشتغل بطهارة ثيابك وبذلك تنسى طهارة قلبك كما عليه طائفة الموسوسين، فإن ذلك يشغلك عن تدقيق النظر في تطهر قلبك، فتضيع الوقت وتكتسب المقت وعليك بالطهارة الحقيقية وهي أن تلجأ إلى الله تعالى وتتضرع إليه أن يطهرك بصلاته الطيبات، ويزكيك بتحياته المباركات ويطيبك للموت ويطيب الموت لك ويجعل فيه راحة قلبك وروحك وأن يحيي روحك بمعرفته ومشاهدته، وها أنت قد وجدت البحر المحيط العذب الصافي فتطهر منه، وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمته الله يقول: إذا كثرت عليك أيها المريد الخواطر والوساوس فتوجه بقلبك إلى شيخك، فإن لم تُزل فتوجه إلى ربك، وقل: «سبحان الملك القدوس» ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ (١) ويخاطب بذلك الوسواس.

وكان يقول: إذا ثقل الذكر على لسانك وكثُر اللغو (٢) في مقالك فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك أو لكون نفاق في قلبك فتب إلى الله من ذنوبك واعتصم بالله يكفيك ويصلح حالك.

وكان يقول: إذا انتصر المريد لنفسه وأجاب عنها فاعلموا أن الله تعالى لم يرد أن يؤهله لأن يكون من أهل حضرته.

وكان يقول: إذا رأيت المريد يتهاون في قراءة تكبيرة الإحرام فاعلموا أنه لا يجيء منه شيء في الطريق.

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ١٩ و ٢٠.

(٢) اللغو: ما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع.

وكان يقول: لا تؤخر أيها المريد طاعة وقت لوقت آخر فربما عوقبت بفواتها أو بفوات غيرها أو مثلها جزاء لما كفر من نعمة ذلك الوقت فإن لكل وقت سهماً من الإقبال على الله تعالى من عبده بحكم الربوبية.

وكان عليه السلام يقول: من أراد عز الدارين فليدخل في هذا المذهب الذي نحن فيه يومين فقال له قائل: وكيف ذلك؟ قال: يفرق الأصنام التي هي الألوهية المذمومة عن قلبه أول يوم، وَيُرخَّ من الدنيا بدنه في ثاني يوم ثم يكن كيف شاء فإن الله تعالى لن يدهه بلا مدد يمدّه به ولو لم يكن له شيخ.

وكان يقول: حصول العز للمريد على قدر تركه هواه فمن ترك نصف أهويته حصل له نصف العز وكذلك القول في الثلث والرابع والخمس والسادس وغيرها فمن طلب العز الكامل فليترك جميع الأهوية.

وكان يقول: من أدب المريد الصادق أن لا يمد رجله بحضرة الناس عبثاً وإنما يمدّها للاستراحة من التعب ومثل ذلك لا يؤاخذ به المريد إن شاء الله تعالى.

ومن شأنه: إذا دخل في الطريق وهو متزوج أن لا يطلق أو عازب أن لا يتزوج إلا بإذن الشيخ، وذلك لأن طريق القوم ليست بالرهبانية ولا بأكل الشعير غير منخول وإنما الطريق حفظ المريد أوقاته عن الضياع في اللهو والغفلة، وعدم الملل من العبادات، فإن طريق القوم جهاد لا صلح فيه.

قال سيدي علي الخواص عليه السلام: وإنما لم يأمر القوم المريد في بداية أمره أن يطلق زوجته أو يترك حرفته أو وظيفته، لأنه في مقام التأليف فلذلك لم يأمره بما يشق عليه عادة، وأخذ يعمل على حذف العلائق شيئاً بعد شيء، حتى ينكشف حجابهِ ويكون هو الخارج عن أمور الدنيا بانشرح صدر لما يرى لنفسه في ذلك من الحظ والمصلحة.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي عليه السلام يقول: من علامة المريد كثرة العمل على الصدق والإخلاص وعدم طلب العوض على عبادته من الله، فإن عبد الأجرة لا قيمة له، ولا يمكنه المؤجر من الدخول على حرمة في غيبته، وبمجرد ما يأخذ أجرته يفارق السيد ويذهب، ولا هكذا عبد الرق.

وكان يقول: إن الله تعالى لا يعطي الكرامات لمن طلبها أو حدّث بها نفسه،

ولو أن القوم أحبوا أن يعرفوا ما يعرفوا.

وكان يقول: متى أقبل المريد على الوقوف مع مراعاته من الخلق قبل بلوغه درجات الكمال سقط من عين رعاية الله ﷻ، ومتى أصغى إلى مجرد مدح الناس له تلذذ أهلك مع الهالكين.

وكان يقول: إذا غفل المريد عن ذكر الله نفساً واحداً صحبه الشيطان فهو له قرين، إذ الشيطان بالمرصاد لمن أقبل على الله ﷻ فهو واقف تجاه قلبه فمتى رأى الغفلة دخلت قلبه دخل، ومتى رأى الذكر دخل قلبه خرج، فمن لم يداوم على ذكر الله تعالى فهو ملعبة للشيطان، وإذا كان الشيطان يندس قلب المريد وينجسه إذا دخل في النهار مرة واحدة، فكيف بقلب باض الشيطان فيه وفرخ أو كان مريد طول نهاره يدخل فيه الشيطان ويخرج، فضلاً عن كونه مستقراً فيه؟.

ومن شأنه: أن لا يقلق من تنكرات الأحوال عليه أول دخوله في الطريق، فكثيراً ما تتحول الدنيا من يد المريد أول دخوله في الطريق فربما قال: ولو في نفسه ما كان لي حاجة باتباع طريق الفقراء، فينتقض عهده فلا يفlech بعد ذلك.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: إذا ضيق الله عليك أيها المريد وسد عليك أبواب الرزق، وقسى عليك قلوب عباده فاعلم أنه يريد أن يواليك فائت ولا تضجر.

وكان يقول: بصيرة المريد كالبصر. أدنى شيء يقع فيها يعطل النظر.

وكان يقول: كل مريد ادعى فتح بصيرته وعنده بقيّة طمع فيما بأيدي الناس فهو كاذب، فإن من فتح الله عين بصيرته لا يصح أن يعلق قلبه بمخلوق، لأنه يجد الخلق كلهم فقراء لا يملكون شيئاً مع الله تعالى.

وكان يقول: لا يترقى مريد قط إلا إن صحت محبة الله له، ولا يحبه الله حتى ييغض الدنيا وأهلها ويزهد في نعيم الدارين وفي كل شيء يشغله عن مشاهدة ربه.

فاعلم أن كل مريد أحب الدنيا فالله يكرهه على حسب محبته لها كثرة وقلة، وكل مريد أحب نعيم الآخرة سوى شهود الحق، واقتصر على طلب ذلك النعيم بقلبه حجب عن الله ﷻ، فإن نهاية الدار الآخرة أن فيها الأكل والشرب واللباس

والنكاح وغير ذلك كعلف الدابة حقيقة، فليقدر العبد نفسه دابة، فإنه يجد سيده لا ينساه فهو حاصل له، وطلب الحاصل تضييع للوقت، إنما الشأن أن يطلب مجالسة ربه ﷻ في الدنيا والآخرة، فهذا هو النعيم المطلوب للعارفين في الدارين.

فلولا مشاهدته تعالى في العبادات ما أحبوها، ولولا مشاهدته في الجنة ما أحبوها، فهي محبوبة لما فيها من المشاهدة لا غيرها.

وكان يقول: لا يصح لعبد مجالسة الحق جل وعلا في الدنيا والآخرة وهو يميل إلى شيء من الكونين، فإنه لا يجالس الله إلا عبد الله، وأما غيره فهو مجالس لما أحب من الأكوان لا يرقى عند ذلك.

وكان يقول: حيث أطلقنا نعم الدنيا فالمراد بها المال، والطعام، والكلام، والمنام. فالمال يُطغِي، والطعام يُقْسِي، والكلام يُلهي، والمنام يُنسي.

وكان يقول: أبق لك أيها المريد شيئاً من الدنيا يكفيك عن سؤال الناس، وعن أكل الصدقات، ولا تسرف في ترك الدنيا بالكلية فربما تغشاك ظلتها وتنحل أعضاؤها قهراً فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها، إما بالهمة، أو بالفكرة، أو بالإرادة، أو بالحركة.

وكان يقول: خصلتان إذا فعلهما العبد صار عن قريب إماماً يقتدي به الناس، وهما: الإعراض عن الدنيا، واحتمال الأذى من الإخوان مع الإيثار.

وكان يقول: كل مريد تهاون بارتكاب معصية واحدة لا يجيء منه شيء في الطريق، وربما رده تلك المعصية إلى حالة أنزل مما كان فيه قبل دخوله الطريق.

وكان يقول: لا يكون المريد صادقاً حتى يترك المعاصي جملة وتفصيلاً ويترك الميل إلى الدنيا صورة وتمثيلاً.

وكان يقول: من أضر شيء على المريد الإكثار من الأعمال الصالحة لِيَحْمَدَ على ذلك فلا يزداد بكثرتها إلا طرداً ومقتاً، وهذا أمر يخفى على كثير من المريدين، قال: ومن هنا أوجبوا اصطلاحاً على المريد الإسرار بأعماله حسب الطاقة حتى يقوى ويتمكن.

وكان يقول: ربما فعل المريد أمراً يحمده عليه ولا يقصده فيظن أنه مخلص

فيه والحال أنه من وجه آخر مرائي، وذلك كأن يرد مثلاً ما يعطيه له الناس تعففاً، فيحمده الناس على ذلك، فيصني إلى مدحهم فيرجع عمله إلى الرياء، ولو لم يقصد ذلك أولاً.

وكان يقول: من ادعى أنه خلص من محبة الحمد على الطاعات فليمتحن نفسه بما لو ذمه الناس، فإن تغير للذم فهو يتغير للمدح.

أضر الأشياء على المريد

وكان يقول: من أضر شيء على المريد الصادق اعتراضه على أحوال الرجال، ومن ابتلاه الله تعالى بذلك فلا بد أن يموت قبل أجله ثلاث موتات: موة بالذل، وموة بالفقر، وموة بالحاجة إلى الناس، ثم لا يجد من يرحمه منهم.

وكان يقول: إذا كان المريد الصادق يعمل على الوفاق، ولا يسلم من النفاق، فكيف بالكاذب الذي يعمل على الخلاف؟.

وكان سيدي أبو العباس المرسى رحمته الله يقول: من علامة حب المريد للدنيا أن يخاف من مذمة أهلها، ولو أنه كان زاهداً فيها لما تأثر من ذم أهلها.

ومن شأنه: أن يكون ورعاً عن الحرام والشبهات في مأكله، وملبسه، ومنطقه، وسمعه، وبصره، ويده، ورجله، وقلبه، وفرجه، وعمدة ذلك كله الورع في اللقمة، لأن الأعمال تنشأ من جوارح العبد على صورة اللقمة في الحل والحرمة، فلو أراد من أكل الحلال أن لا يعصي لما قدر، ولو أراد أكل الحرام أن يطيع لما قدر.

وقد كان إبراهيم بن أدهم يقول: أطب مطعمك، ولا عليك بعد ذلك أن لا تصوم النهار ولا تقوم الليل: - يعني نفلاً - ، وليحذر المريد أن يتورع رياء وسمعة فإنه لا يزداد بذلك إلا مقتاً.

وكان سيدي أبو العباس المرسى يقول: ورع المريد المنقطع ينشأ من سوء الظن بالمسلمين، وورع المريد الصادق ينشأ من النور الذي في قلبه.

وكان يقول: والله ما رأيت المريد إلا في دفع همته عن ما بأيدي الخلق. قال: ولقد رأيت يوماً كلباً وأنا مريد ومعني شيء من الخبز، فوضعت بين يديه فلم يلتفت إليه، فإذا بقائل يقول لي في سري: أف لم يكون هذا الكلب أزهد منك!!

وكان يقول: إياكم أيها المريدين أن تقعوا في حق أحد من أقران شيخكم، فإن لحوم الأولياء سُئِمَ ولو لم يأخذوكم، وإياكم ثم إياكم من الاستهانة بغيبة أحد إذا لم تبلغه تلك الغيبة، بل خافوا منها أكثر مما تخافون إذا بلغه فإن وليه الله حينئذ.

ومن شأنه: أن لا ينظر إلى زلّاته^(١) السابقة قبل دخوله في الطريق، ويقول في نفسه: بعيد على مثلي أن يفتح عليه ويصير صالحاً فإن ذلك من أكبر القواطع، ومن أعون الأمور لإبليس.

وكان سيدي أبو العباس المرسى رحمته الله يقول: لا ينبغي للمريد أن ينظر إلى زلاته السابقة ويقنط^(٢) من حصول الفتح، فإن كثيراً من أهل الطريق تقدم لهم زلات ثم تابوا وصاروا من الأولياء.

وكان يقول: من أتى الطريق بانكسار خاطر كان أكثر فتحاً ممن أتاها وهو قائم الصدر بما تقدم لهم من الطاعات، ولذلك بدأ الإمام القشيري في ذكره رجال القوم الجامعين بين الحقيقة والشرعة بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم لكونهما كان تقدم لهما زمن قطيعة، فلما أقبلا على الله أقبل الله عليهما، فبدأ بهما رحمته الله تشيطاً وتقربة لرجاء المريدين الذين تقدمت لهم الزلات والقطيعات.

وكان يقول: عمل المريد قليلاً مع شهود المنة^(٣) لله تعالى خير من كثير من العمل مع شهوده غير ذلك.

وكان يقول: عليك أيها المريد بالاشتغال بعلم الشرعة وقراءته على العلماء الجامعين بين العلم والعمل، ولا تكن كالعبّاد والزهاد الذين خرجوا من هذه الدار وقلوبهم في حجاب عن الأدب في عباداتهم مع ربهم.

وكان يقول: كل مريد لم يتغلغل في علوم الشرعة قبل موته ربما مات مصراً على الكبائر، كدقائق العجب والرياء، والنفاق، وهو لا يشعر.

وكان يقول: إياكم والإعراض على من رأيته سميناً، فإن الحب إذا تمكن من

(١) الزلّة: الخطأ.

(٢) يقنط: يئس أشد اليأس.

(٣) المنة: الإحسان والإنعام.

العبد سمن.

وكان الشبلي سميناً جداً، وإذا قيل له في ذلك يقول: كلما أتذكر أنا عبد من، أزداد سمناً.

ودخل مرید مرة على شيخ سمين فوجده يزهد المریدین في الدنيا، وهو كالدب من السمن، فكاشفه الشيخ. وقال: وعزته تعالى ما سمني الأكل وإنما سمني حبه تعالى.

العبادة^(١) والفتح^(٢)

ومن شأنه: أن لا يستبطىء الفتح عليه، بل يعبد الله تعالى لوجهه الكريم سواء أفتح عين قلبه ورفع عنه الحجاب أم لا، فإن العبادة من شروط العبودية.

وقد كان الشيخ محيي الدين بن عربي رحمته الله يقول: إياك أن تترك المجاهدة إذا لم تر أمارات^(٣) الفتح، بل دم على المجاهدة فإن الفتح بعدها أمر لازم لا بد منه، تطلبه الأعمال وتناله الأنفس، ولكن الفتح وقت، لا يتعداه فلا تتهم ربك فإنه لا بد لأعمالك من الثمرة إذا كنت مخلصاً، وارفح من نفسك التهمة لربك جملة واحدة، وفرّ من أن تكون من أهل التهم. ذكره في الباب الرابع والمائتين من الفتوحات.

وكان الشيخ داود بن باخلا شيخ سيدي محمد وفا يقول: احذر أيها المرید أن يكون قصدك من ذكرك وعبادتك، الأجر والثواب، فإن ذلك حاصل لك لا محالة، وإنما ينبغي أن تكون همتك في التلذذ بمناجاته والفوز بمجالسة السلطان لا ينبغي له الاهتمام بما يأكل ويشرب ما دام في خدمته.

وكان يقول: إقبال المرید بقلبه لحظة مع قول: «لا إله إلا الله» خير له من ملء الأرض عبادة مع الغفلة عن الله.

وكان يقول: إذا نظر المرید بقلبه إلى الدنيا نظر شهوة بعد أن خرج منها

(١) العبادة: هي نهاية التعظيم وهي لا تليق إلا بشأنه تعالى، إذ نهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، ونهاية الإنعام لا تتصور إلا من الله تعالى.

(٢) الفتح: حصول شيء ممن لا يتوقع هذا منه، وفتوح العبادة في الظاهر وفتوح العبادة في الباطن.

(٣) الأمارات: العلامات.

عوقب بالحجاب، أو بالحساب، أو بالعذاب.

وكان يقول: لو علمت نفوس المريدين قدر ما تُدعى إليه لكانت تسابق داعيها إليه.

وكان يقول: ما من وقت جديد إلا وينزل فيه مدد جديد يتلقاه أصحاب الهمم العوالي من المريدين.

مراحل المريـد

وكان يقول: المريـد أولاً يسمع، وثانياً يفهم، وثالثاً يعلم، ورابعاً يشهد، وخامساً يعرف.

وكان يقول للمريـد: إن كان لك يا ولدي في الوصول نية، فلا يبقى فيك من الخلاف بقية.

وكان يقول: لا يظهر جوهر باطن المريـد إلا وجود امتحانه.

وكان يقول: من شرط المريـد الصادق أن لا ينقل قط قدمه إلى حظ من حظوظ نفسه، فإن صدق الإرادة يذهب من القلب كل شهوة.

وكان يقول: المريـد الصادق سيره بباطنه، وظاهره تبع، والعابد سيره بظاهره، وباطنه تبع.

وكان يقول: إذا انقاد المريـد للشيطان في معصية فلم يصبر عليها بل تاب ورجع فكأنما لم ينقد له.

وكان يقول: إياك أيها المريـد أن تطلب أحداً من الخلق لا يؤذك فإن الله تعالى لولا أراد ستر أوليائه ما سلط عليهم من يؤذيهم، وينقصهم في المجالس، ويستهيء بهم، ثم إنه تعالى لا بد أن ينتصر لأوليائه وينتقم ممن آذاهم ولو لم يطلبوا من الله ذلك.

وكان يقول: رأس مال المريـد في وجود إقباله على أفعال القوم.

وكان يقول: عمل المريـد على استنارة قلبه خير له من إكثار العمل.

وكان يقول: لو باشر صريح الحقائق، قلب المريـد الصادق لم تسعه الأكوان.

وكان يقول: من أحسن الأنوار نور يَرِدُ على قلب المريد لا يتدنَّس^(١) بظلمة الدعوى. وكان يقول: من أراد من المريدين أن لا يفزع^(٢) يوم القيامة من النفخ في الصور فليكابد^(٣) الليل في العبادات.

وكان يقول: ما أعز طريق القوم، وما أعز من يطلبها، وما أعز من يجد من يدلّه عليها، وما أعز من يثبت عليها يبلغ مبلغ الرجال.

وكان يقول: اعمل أيها المريد اعمل على مخالفة نفسك ما استطعت، حتى تركبها بعد أن كانت راكبة لك، فإن النفس إذا اعترضت للمريد الصادق أوقفته عن مزيد الأذكار وتحصيل الطاعات، فكيف إذا اعترضت للكاذب؟.

ومن شأنه: أن يلازم الزهد في الدنيا فإنه أساسه الذي يبني عليه جميع أحكام الطريق، إذ الراغب في الدنيا لا تفتح له أعمال الآخرة.

أول أساس في الطريق

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي رحمته الله يقول: أول أساس يضعه المريد الصادق في الطريق الزهد في الدنيا، فمن لم يزهد في الدنيا لا يصح له بناء شيء بعده.

وكان يقول: لا يكون المريد صادقاً حتى يسأل الله تعالى بتوجه قلب تام أن الله تعالى يحول عنه كل ما يشغله عنه من مال وولد، ويفرح بالفقر إذا أقبل.

وكان يقول: لا يصل أحد إلى صفاء المعاملة مع الله تعالى حتى يترك حظوظ نفسه في الدنيا والآخرة، ويعبد الله امتثالاً لأمره ومحبة لمشاهدته.

وكان يقول: من أقبح ما يقع فيه المريد خوضه في الكلام على الذات والصفات الإلهية، وإذا كان العارف بالله تعالى سكوته على ذلك أفضل فكيف بالمريد؟.

وكان يقول: ملتفت لا يصل ومتسلل^(٤) لا يفلح، ومن لم يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان.

(٣) المكابدة: مقاساة الشدة.

(٤) تسلل: خرج في خفية.

(١) يتدنَّس: يتسخ.

(٢) يفزع: ينقبض وينفر من شيء مخيف.

وكان يقول أكره للمريد دخول الحمام ترقُّهاً^(١) ولبس الثياب النقية البيض، وأحب له الجوع، والعري، والفقر، والذل.

وكان يقول: لا ينبغي للمريد أن يلبس الصوف حتى يفرغ من تهذيب أخلاقه.

وكان إذا رأى على مريد جُبَّةً يقول له: انزعها يا ولدي حتى تفرغ من جهاد نفسك وإزالة رعوناتها، إن الصوف لباس الأنبياء وحلية الأصفياء، فمن لم يتخلق بأخلاقهم فليس له أن يلبس كلباسهم ولا يتحلى بحليتهم، فإن ذلك كالاستهزاء بهم، كما فعل أهل السخرية.

وكان يقول: كل مريد جلس في لغو، فقال له أخوه: قم من هذا المجلس، فلم يسمع إلى قوله، فاعلموا أنه لا يجيء منه شيء في الطريق.

وكان يقول لتلاميذه: عليكم يا أولادي بالاستيقاظ أول الثلث الأخير من الليل، ولا تفرطوا^(٢) في ذلك، فإنه ما من ليلة من ليالي السنة إلا وينزل فيها نثار^(٣) من السماء في الثلث الآخر من الليل، مشتملة على أمداد إلهية تحيي القلوب، فيتفرق على المستيقظين، ويُحرَم منه النائمون.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يكون له نظر في عيوب إخوانه، ولا يتجسس^(٤) على أن يحيط علماً، بمن وقع في زلة ولاث^(٥) الناس بعرضه.

وكان يقول للمريد: من تتلمذ عليك من إخوانك فتتلمذ له، يعني أن تسمع نصحه ولا تخالفه، فإن مدَّ لك يده لتقبَّلها فقبَّل رجله، ومن تقدم عليكم في البداية في الذكر مثلاً فقدموه ولا تظنوا به إلا خيراً، فربما كان قصده بالبداة بالذكر تعجيل رضى الله لا حظ النفس وهذا واجب على المريد أن يظنه بأخيه، واعلموا أنه ما دام أحدكم يسيئ الظن بأحد من الخلق فهو دليل على نجاسة باطنه.

(١) الترقُّه: الاستجمام تنعماً.

(٢) الإفراط: مجاوزة الحد المقبول.

(٣) النثار: ما يثر في الأفراح من حلوى أو نقود والمراد هنا الإمدادات الإلهية التي تحيي القلوب.

(٤) جسَّ الخبر: بحث عنه وفحصه.

(٥) لاث: لَطَخ.

وكان يقول: يجب اصطلاحاً على المريد أن يتفقد نفسه في كل خير ينبه إخوانه عليه ولا يأمر أحداً بخير إلا ويلزم نفسه أن يتخلق هو به قبله، لئلا تسرقه الرياسة فيهلك.

وكان يقول للمريد: اصبر على قرصة البرغوث والقملة والعقرب ليحصل لك الإدمان^(١) على تحمل الأذى من غيرهم، أو على عقارب القبر إن وقعت المؤاخذة.

ورأى مرة مريداً يقتل قملة أو برغوثاً، فقال له: كيف تطلب طريق أهل الله تعالى وأنت تشفي غيظك، تقتل القملة ولا تحتمل قرصتها؟.

ومن شأنه: أن يلازم ما أمره به شيخه، ولا يقيّد بأفعال شيخه كلها، إلا إذا كان أمره بذلك، فإن مشاهد الأشياء لا يدركها المريد، فليحذر المريد من عدم خروجه لصلاة الجماعة، أو مجلس الذكر إذا لم يخرج الشيخ لذلك، فربما كان ذلك من الشيخ لثقل وارد ورد عليه، فمنعه من القدرة على الخروج والمشي، بخلاف المريد فربما كان ذلك منه نفاقاً وكسلاً.

ووالله إنني لأتكلف الخروج لصلاة الصبح حتى أخرج أجراً رجلي جرّاً من ثقل واردات الليل، ولا أتخلف خوفاً على أحد من الإخوان أن يقتدي بي في ذلك فيهلك ولا يشعر بذلك.

ومن شأنه: أن لا يتبع ما عليه بعض المريدين مما أمره به شيخه، لأن لكل مريد عملاً يناسب حاله، متى خالفه انعكس عليه السير.

ومن شأنه: أن يسد على نفسه باب أكل الشهوات وملابستها حتى النوم إلا غلبة، ولا يرخص لنفسه في ذلك.

فقد كان سيدي عبد القادر الجيلاني رحمته الله يقول: من شرط المريد الصادق أن لا تحكم عليه شهوة، إنما الشهوة للعوام.

وكان يقول: قاسيت الأهوال^(٢) في بدايتي، وما تركت هولاً إلا ركبت، وكان لباسي جبة صوف وعلى رأسي خريقة، وكنت أمشي حافياً في الشوك

(١) آدم الشيء: أدامه ولم يقلع عنه.

(٢) الأهوال: الأمور الشديدة المخيفة المفزعة.

وغيره، وكان قوتي قمامات البقل وورق الخس من شاطئ النهر، ولم أزل آخذ نفسي بالمجاهدة، حتى طرقتني من الله تعالى الحال الذي يطرق القوم.

وكان يقول: لقد تظاهرت بالخرس والجنون مراراً لتنفر الناس عني ولا يشغلوني عن ربي ﷺ، وحملت مراراً إلى المارستانا^(١)، وأقمت في صحراء بغداد والعراق وخرائبها نحو خمس وعشرين سنة على التجريد والسياسة حتى كنت لا أعرف الخلق ولا يعرفوني.

قال: ومكثت سنة لا أكل ولا أشرب ولا أنام، واحتلمت في ليلة واحدة أربعين مرة وكانت ليلة باردة، فكنت أغتسل عقب كل مرة حياء من الله تعالى!! . ويقول: ربما كان ذلك من الله تعالى امتحاناً لي، هل أجلس بين يديه جنباً مترخصاً أو أعظم حضرته عن ذلك؟ فإن المريد ربما اغتسل في بعض هذه الاحتمالات إذا وقعت له دون بعض مترخصاً، ويقول: ليس هذا وقت صلاة.

وكان يقول: جلوس الأشياخ على بساط الظلمة يطفئ نور قلوبهم فكيف بالمريد؟ وكان بعضهم يرى النبي ﷺ كل ليلة فجلس على بساط شخص من الولاة فانقطعت عنه الرؤية، وصار يراه ﷺ بعيداً، فمشى وراءه زماناً وقال: يا رسول الله ما ذنبي؟ فقال: تجلس على بساط الظالمين وتطلب الاجتماع بي؟ هذا أمر لا يكون!! .

وكان ﷺ يقول للمريدين: اجتمعوا على مجلس الذكر ولا تفرقوا، ولا يقرأ أحدكم وقت مجلس الذكر ولا يكتب ولا يخط^(٢) ولا يعمل شيئاً في الزاوية من أعمال الدنيا مطلقاً إلا لضرورة كخياطة ثوب فقير لله تعالى ونحو ذلك، فإن المطلوب من الفقراء تكثير سواد^(٣) الذاكرين، والتفرقة عنهم لأمر آخر تضعف قلوب الذاكرين وتفتت هماتهم.

وكان يقول للمريدين: خافوا ولا تأمنوا، وفتشوا في اللقمة وغيرها من أحوالكم ولا تغفلوا.

وكان يقول للمريدين: تطهروا من سائر الزلات إن طلبتم أن تكونوا ممن

(١) المارستانا: المصححة العقلية.

(٢) لا يخط: لا يطرح نفسه.

(٣) تكثير السواد: الزيادة في العدد.

يجالس الحق جل وعلا، وكل من لم يتطهر من ذنوبه بالتوبة الخالصة طهره الله تعالى بالأمراض قبل موته، إن اعتنى به وإلا طهره بالنار.

وكان يقول: من أراد الآخرة فعليه بالزهد في نعيم الآخرة، أي فيعبد الله تعالى امتثالاً لأمره وحباً في مجالسته لا غير.

فقد كان الشيخ أبو محمد الشنبكي أحد أصحاب سيدي الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: شهوة المريد الصادق المجاهدة والمكابدة، فهو يقول: متى يدخل الليل حتى أسهر؟ وشهوة المريد الكاذب النوم والكسل.

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تأكل من طعام من ارتد عن طريق القوم، ولو ضعفت من الجوع فمن أكل من طعامه قسا قلبه أربعين يوماً.

وكان يقول: ما ابتلي مريد بشيء أشدَّ عليه من الغفلة^(١) عن الله ﷻ، ولكن إذا أحب الله تعالى عبداً قاده إلى حضرته في الغفلة والمنام فلم ينقص له أجراً بذلك.

وكان يقول: كل مريد تساهل بالغفلة عن الله ولم يكن أشدَّ عليه من ضرب السيوف، فهو كاذب في طريق الإرادة لا يجيء منه شيء لأنه سالك بغير تعظيم الله ﷻ فيا طول تعب من غير ثمرة، ثم يرجع من حيث جاء.

وكان يقول: كلما علت درجة المريد كانت العقوبة إليه أسرع، فمن زلَّ ولم يعاقب على ذلك فانفضوا يدكم منه فإن الله تعالى لم يقربه من حضرته.

وكان يقول: طريق المريد لزوم الجد حتى يسعد فإما أن يبلغ الفتى مناه وإما أن يموت بداه.

وكان يقول: من جهل المريد أن يسيئ فلا يقطع الله عنه الإمداد فيقول في نفسه: إنه غير مؤاخذ وذلك استدراج لأنه في زمن الإساءة في حكم المغضوب عليه، وقد أجمعوا على أن فقد المريد الأسف والبكاء إذا زل علامة من علامات الخذلان.

(١) الغفلة: ترك الشيء إهمالاً من غير نسيان. والسهو من قلة التحفظ واليقظ.

من شروط المريد الصادق

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يهدأ له شوق إلا بعد لقاء الله تعالى واللقاء يكون في الدنيا والبرزخ بالمشاهدة بالقلب، وفي الآخرة بالنظر بالعين الظاهرة.

وكان يقول: كفى بالمريد جهلاً أن يعجب بأعماله قالوا: وإنما كان عجبه جهلاً لأنه يريد أن يُعْطَى بالعجب عيوب نفسه وهي لا تتغَطَّى.

وكان يقول: لا يصدق المريد في إرادته حتى ينسلخ من صفات نفسه الردية كلها.

وكان يقول: كل مريد تهاون بحضور مجالس ذكر الله كسلاً أو لهواً بحديث الدنيا، فلا بد أن يكشف الله تعالى عيوبه على لسان نفسه.

وكان يقول: إياكم أيها المريدون ومحاكاة^(١) كلام أرباب الأحوال قبل أن تبلغوا مبلغ القوم، فإنها تقطعكم عن السير في الطريق لظنكم أنكم صرتم مثل الأشياخ.

وكان يقول: من علامة تخليطك أيها المريد صحبتك للمخلطين، ومن علامة بطالتك صحبتك للبطالين.

وكان يقول: من علامة المريد الصادق ملازمة السنة والفريضة في اصطلاحنا فالسنة تركه للدنيا. والفريضة دوام ذكر الله تعالى.

وكان يقول: كل مريد أطلق لسانه في أحد من أهل الله ﷺ ابتلاه الله تعالى بانعقاد لسانه عن النطق بالشهادتين عند الموت.

وكان يقول: خصلتان إذا كانتا في مريد حُرِّمَ الوصول، سوء الطعمة وإيذاء الخلق.

ومن شأنه: إظهار الذلة والانكسار ولباس الخليقات^(٢) الوسخة إذا هجره إخوانه فتحاً لباب الرقة والخير عليه، إذا حضر عليه مجلس الذكر فليجلس

(١) المحاكاة: المشابهة في القول والفعل وغيرهما.

(٢) الخليقات: الثياب البالية.

بحاشيته ولا يدخل الحلقة، ولا يفتح مجلس الذكر ولو كان ذلك من عادته قبل أن يهجره، إذ الواجب عليه العمل على كسر نفسه.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمته الله يقول: من علامة المريد الصادق أن يكون مع إخوانه على نفسه، ويزداد لهم محبة كلما أرادوا هجره، لما في ذلك من مساعدة له على هدم نفسه.

ومن شأنه: أن يكون عمّالاً بروحه أو جسده على الدوام لا يفتر^(١) عن ذلك.

وكان الشيخ نجم الدين البكري رحمته الله يقول: من شأن المريد أن يكون زاده التقوى، وبضاعته الإفلاس، وسفره إلى الآخرة، ومراحله الأنفاس، ومنازله القبر، وصاحبه اليقين، وتدبيره العجز، وحركاته السكون، وبيته الخلوة، ولباسه الفقر، ونومه محاسبة العمر، وركبته وسادته، ومسجده مجلسه، إن درس فعلوم الحكمة، وإن نظر فنظر العبرة، رفيقه التوفيق، وسمته حسن الخلق، ومعلمه القناعة، وصومه الصمت، وهمته خوف النار، وفرحه بالله لا بالجنة، وصحته اليأس من الخلق، كما أن مرضه الطمع فيهم، وواعظه الموت والمقابر، والأيام والليالي، ومطربه الحزن على التفريط في أوقات عمره في غير مرضاة الله، ونيته الجازمة رفض الدنيا أبداً ما عاش، وسلاحه الوضوء، ومركبه الورع، وخصمه النفس والشيطان، وسجنه الدنيا، وسجّانه الهوى، ليله تضرع، ونهاره استغفار، وحصنه دينه، وشعاره شرعه، ومحدثه كتاب ربه، ورأس ماله حسن الظن بربه، وحرفته كثرة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله الذي هداه الله به، فهو الشيخ الحقيقي له ولجميع الأمة، فهذا هو المريد الصادق.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يكون خوفه من رد عملها لصالح عنده أكثر من خوفه من معاصيه الظاهرة.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يستوي قلبه مع لسانه في كل مرة من الذكر، لا يعقب قلبه في مرة عقوبة واحدة، وأن تمتلئ عروقه كلها من محبة الله تعالى، ومع ذلك فلا يرى لنفسه قيمة، بل يراها لا تصلح لخدمة ربه تعالى، إلا بتأهيله لها.

(١) لا يفتر: لا يلين بعد شدة ولا يسكن بعد حدة ونشاط.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يكون بينه وبين أبناء الدنيا مصادقة، ولا مصاحبة، ولا مجالسة، إلا بقدر الضرورة الشرعية، فإن محبة طريق الله تعالى لا تدعه يميل إلى غيرها.

وكان يقول: ما أحب طريق الله تعالى صادق إلا صار يبغض الدنيا وطلابها، لكونها تحجبه عن الله، ويحب الموت لأجل لقاء الله.

وكان يقول: من شأن المريد الصادق محبة العزلة عن الناس، واستغناؤه، والجلوس في البراري والمواضع الخربة، حتى يتقوى ويصير لا يتدنس بالأغيار.

ومن شأنه: استواء المدح والذم عنده من الناس، والخير والشر عنده من الله ﷻ، فيرضى بالقضاء لا بالمقتضى، وكذلك يرضى عن الله ﷻ في استواء المنع والعطاء، وذلك من علامة إخلاصه وعبادته ربه بلا علة^(١).

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن لا يجري على لسانه إلا ذكر الله أو ذكر الموت، وهول المَطْلَع^(٢)، وأحوال أهل الجنة، وأحوال أهل النار، لا يكاد أمه يجاوز وقته، لا يقف مع شيء من أمور الدنيا والآخرة دون الله، لأنها كلها مناهل في الطريق، والمطلوب من ورائها هو رضا الله ﷻ لا غير، لا يغفل عن السعي في كمال تطهيره من نجاسات الدنيا وشهواتها، ولا عن التجرد عن سائر الزلات والغفلات، حافظاً للشرعية عاملاً بها قولاً وعملاً واعتقاداً، لا يزيغ عنها طرفة عين.

وكان يقول: المريد الصادق يحب الخلوة البعيدة عن مرور الناس كخلاوي السطوح، ويحب أن تكون ضيقة حتى لا يصح له مد رجله فيها، ويحب أن تكون مظلمة لا يدخلها نور الشمس، ولا ينبغي له ظان يعود نفسه قط ببيات طعام عنده ولا نقد، بل يصبر لصلاة العشاء، فإن لم يجد من يقبله منه أخرجه من خلوته لكل من وجده، وذلك أكمل في استعداده وحصول فتحه.

وكان يقول: من شرط المريد أن لا يفتر عن الذكر، حتى يقوى ويحصل له منه حال، فتارة يأخذ من لسانه ومن قلبه وتارة يأخذ قلبه من لسانه، ويواظب على

(١) العلة من كل شيء: سببه.

(٢) المَطْلَع: يوم القيامة.

السنن وركعتي الضحى وركعتي سنة الوضوء، ويستعمل الطيب والبخور، لمجلس الذكر ما استطاع، ولا يواظب على أكل الدسم فيظلم قلبه، بل يستعمل الدسم كل سبعة أيام أو ثلاثة أيام مرة، ويأكل منه قليلاً وليحذر من غرور نفسه ما استطاع، فإن من شأنها أن تحب الشر وتكره الخير، وتخالف العقل، وتوافق الهوى.

بعض أمراض النفس

وكان يقول: النفس إذا جاعت فهي كالطفل الضعيف، وإذا شبت كالأسد المفترس، وإذا غضبت فهي كالملوك الجبابة، وإذا اشتت شيئاً فهي كالبهائم، وإذا خافت من شيء فهي كالهرة، وإذا أمنت فهي كالشمر، وإذا عصت فهي كالشياطين، وإذا سكنت فهي كالجماد.

وكان يقول: ليحذر المريد للصالح والخير من البكاء تكلفاً بحضرة الناس فإن ذلك كله نفاق، وهذه الأمور ربما تكون أو بعضها في بعض الأقوال شراً من شرب الخمر، فضلاً عن بيع الحشيش، أعاذنا الله من شرور أنفسنا أبدأ ما عشنا آمين.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يرى نفسه كأنه محل للأرجاس^(١)، ومقامه دائماً تحت أقدام الناس.

وكان يقول: من أعظم أخلاق المريد التحمل لأذى الناس، وكظم غيظه ما استطاع، فإن كل من لم يحمل كظم الغيظ فلا بد من وقوعه في ذل الاعتذار.

ومن شأنه: أن يجعل قلبه دائماً متوجهاً إلى الله وحده، دون شيء من أمور الدنيا والآخرة، ومعلوم أن ذلك لا يصله إلا بعد رياضة تامة، بحيث لا يصير له التفات إلى حظ من حظوظ الدنيا والآخرة.

فقد كان الشيخ أبو مدين المغربي رحمته الله يقول: ليس للقلوب إلا وجهة واحدة، متى توجه إليها حجب عن غيرها، فإن توجه للدنيا حجب عن الآخرة، وإن توجه للآخرة حجب عن الدنيا، وإن توجه إلى حضرة الله حجب عن الدارين.

(١) الأرجاس: الأشياء القادرة والأفعال القبيحة.

وكان يقول: كل مرید لا یخلع العذار، لم ترفع له الأستار.

وكان يقول: أضربُ شيء على المرید صحبته للأحداث المبتدئين في الطريق، فإنه يتمشیخ علیهم فینقطع عن السیر، لأن تربية المریدین إنما هي للأشیاء الذين خمدت بشریتهم، وتمت مجاهداتهم، وأما صحبة الأحداث للفساد، فذلك أمر خارج عن طریق القوم جملة واحدة.

وكان يقول: من شرط المرید أن يعرف زيادته ونقصه، وذلك لیجد في العمل كلما طرقه الكسل.

وكان يقول: طلب المرید لطریق القوم من غير توبة جهل عظیم.

وكان يقول: المرید الصادق مشغول عن محادثة إخوانه من أهل الطريق فكيف بأبناء الدنيا؟.

وكان يقول: من شأن المرید أن يكون یقطاً لما يبدو منه في حق نفسه وغيره، فلا يشغل أخاه عن ربه ﷺ، فإن من أشغل مشغولاً بربه أدركه المقت^(١) في الوقت.

وكان يقول: من أقرب رحلة تكون للمرید إلى حضرة الحق الخاصة دوام الذكر، فقد أجمعوا على أن من دامت أذكاره صفت أسراره. ومن صفت أسراره كان في حضرة الله قراره.

ومن هنا يقول بعضهم: منذ ثلاثين سنة لم أخرج من حضرة الله ﷻ.

ومن شأنه: إذا رأى أحواله في الخير تناقصت، وهمته في الطريق قد ضعفت، فليخرج من بين إخوانه، أو يحذرهم من حاله، ويحرم عليه أن يجيب نفسه، لأنه يتلفهم بذلك، ويرجع إصر ذلك عليه.

وقد كان الشيخ أبو الحجاج الأقصري رحمته الله يقول: إذا وجد المرید من نفسه عدم الصدق في طلب الطريق، فالواجب عليه الخروج من بين الفقراء، فإن لم يخرج كان إثم فتور^(٢) عزمهم عليه لنظرهم إليه، وسرقة الطباع السيئة منهم.

(١) المقت: أشد البغض.

(٢) الفتور: السكون بعد حدة ونشاط.

وكل من زعم أن طبعه لا يسرق كذبناه لأن ذلك لا يكون إلا لمن لا تطرقه غفلة عن الله كالملائكة.

وكان يقول: كل مرید كان عنده حسد لأحد من إخوانه فلا ترجو له ارتقاء أبداً، إذ الحسود لا يسود.

ثم يقول: والله لقد كنت أجيء أنا وأخي الشيخ أبو الحسن بن الصايغ بالإسكندرية إلى شيخنا فأرى مقامي يعلو مقامه فأتكدر وأقول: «اللهم أعلِ مقامه فوق مقامي»، وهكذا كان الآخر يقول في غيبيتي.

هكذا درج القوم لا غلَّ بينهم، ولا حسد، ولا حقد، ﷺ أجمعين.

وكان يقول: المرید الصادق لا يرجع عن الطريق ولو قاسى كل الأهوال. فقد قالوا: من خطب نفساً خاطر بنفيس.

قال: وقد حصل عندي مرة فتور وكلال^(١) من طول مكابدة الليالي في الشتاء، فأعاني الله تعالى بأبي جعران وذلك أنني نظرت إليه وهو يجهد أن يصعد منارة السراج، لأجل القرب من النار، فلم يزل يزلق^(٢)، ويقع إلى الصبح، لكونها ملساء فعددت عليه تلك الليلة سبعمائة وقعة وهو لا يرجع.

فقلت في نفسي: سبعمائة وقعة وهو لا يرجع عن مطلوبه وأنت ترجع من دون ذلك، ثم خرجت إلى صلاة الصبح ورجعت فوجدته جالساً فوق المنارة بجانب الفتيلة فأخذت من ذلك ما أخذت، فكان ذلك من جنود الله لي، فالحمد لله على ذلك.

قال وقد خطب مرید ابنة سلطان فقال السلطان: إنك لا تقدر على مهرها فقال: وما مهرها؟ فقال: مائة جوهرة كل جوهرة بعشرة آلاف دينار فقال له: وأين محل تلك الجواهر؟ فقال للفقير: في بحر الظلمات، فأخذ المرید قصعته وذهب إلى ساحل بحر الظلمات، وصار ينضح^(٣) منه بقصعته على البرِّ فبلغ ذلك إلى السلطان، فأرسل وراءه وزوجه ابنته وأمهرها من عنده وجعله وزيراً له لعلو همته.

(١) كلال: ضعف.

(٢) زلق: زل ولم يثبت.

(٣) ينضح: يرش.

وكان يقول: إياك أيها المرید أن تطلب الوصول بأعمالك فإن الوصول لا يكون إلا بالأعمال التي خلصت من الرياء وسائر الآفات، وأي عمل خلص لك من ذلك حتى تطلب به الوصول؟ فالزم العمل على وجه العبودية، وإلا فاتك أدب الوقت ومدده.

وكان يقول: المرید الصادق لا يخوض قط في الذات، تعظيماً لجَناب الله ﷻ.

وكان يقول: كل مرید سمعتموه يقول: حقيقتي الله، أو لا موجود إلا الله، فعرفوه بذنبه فإن لم يتب فاقتلوه، فإنه زنديق.

وكان يقول: من شرط المرید الصادق أن لا يشغل نفسه قط بالمبادرة إلى الإنكار على أحد من إخوانه بل شأنه حمل الناس على أحسن المحامل، وما دام يرى في أحد نقصاً فهو ناقص، وأما الأشياخ إذا رأوا في المرید نقصاً فإنما ذلك بإلهام من الله تعالى مصلحة له، لينقذوه من الآفات، وليس عندهم ازدراء لأحد من العصاة لنظرهم المحكم إلى مجاري الأقدار في الخلق وعلامات حدثهم في براءتهم من السوء ظاهرة.

ومن شأنه: أن لا يزاحم الرجال في الجلوس بل يجلس خلف الناس إلى أن يلتحي.

وقد كان الشيخ أبو الحسن بن الصايغ رفيق سيدي أبو العباس المرسى رحمته الله يقول: لا ينبغي للمرید إذا كان جميل الوجه لا لحية له أن يجلس قط مع الرجال إلا في حلقة الشيخ وليكتحل بالكحل الأسود ولا يتطيب ولا يلبس اللباس الفاخر، وإنما الأدب أن يلبس الثياب الخشنة، والمرقعات، لا سيما إن أقام في الزاوية.

وكان يقول: إياكم والتساهل بالنظر إلى شيء من الصور الجميلة فإن كل نظرة تورث في القلب حسرة وظلمة.

وكان يقول: من شأن المرید الصادق أن لا يمد يده للطعام إلا عند الضرورة، ولو كان بين يديه طعام كأمثال الجبال، وإذا أكل لا يأكل إلا بقدر سد الرمق^(١).

(١) الرمق: بقية الروح.

وكان يقول: فترة المريد بعد المجاهدة من فساد الابتداء.

وكان يقول: كل مريد انحط من حقيقة العلم إلى ظاهر العلم فقد نقض عهده مع الله تعالى.

وكان يقول: كل مريد رجع عن طريق إرادته عذبه الله عذاباً لم يعذب به أحداً من العالمين، وذلك لعظم ما رجع عنه، ومن هنا غفر للكافر إذا أسلم ما سلف من ذنوبه لأنه لم يذق مقام الإقبال على الله ﷻ قبل إسلامه.

وكان يقول: المريد الصادق لا بد أن يترك الدنيا مرتين الأولى يترك مطاعمها ونعيمها وجميع شهواتها، الثانية أن يترك جاهها، وتبجيل الناس له لأجل بركتها وذلك أنه إذا عُرف بالزهد في الدنيا، عظمه الناس والملوك ضرورة، فيكون تركه لذلك أعظم من تركه الأول، لكن أخذ الدنيا بعد رميها بقصد السير، لا يكون إلا لمن لا أتباع له، أما من له أتباع فربما يتبعونه فيهلكون.

ومن شأنه: أن لا يتقلَّق^(١) قط من طول مجلس الذكر، بل يكون اليوم عنده في الذكر كاللمحة، وهذا لا يكون إلا لمريد قطع العلائق كلها، أما من يقرئ الأطفال أو يشتغل بالعلم فبعيد عليه أن لا يتقلَّق من مجلس الذكر، إذا طال لا سيما إن كان ذلك الفقير قد سلك في تربية الأطفال مسلك المريدين في التربية، فإنه ينقطع عن السير بالكلية.

وقد كان الشيخ أبو الحسن بن الصايغ رحمته الله يقول: كل مريد اتخذ له مريداً ولو أن يُحفظه القرآن فقد قطع به عن مقام التحقيق، وطالت عليه الطريق. وقد كان أحدهم يقرئ الطفل حتى تطلع لحيته لا يعلم بذلك إلا من الناس لغلبة الإطراق، ومع ذلك كانوا يخافون على أنفسهم من الميل إلى الصبي لأجل الإرفاق الذي يحصل من أهله وربما زاد الفقيه في إكرامه على من كان دونه في الإرفاق فيرجع تعليمه للقرآن إلى طلب الدنيا.

وكان يقول: كل مريد لم يذق ذل المكاسب وذل الحاجة إلى الناس لم ينتج في الطريق، أي لأن من لا كسب له يأكل بدينه، ومن لا يتأثر برد الناس له إذا سألهم شيئاً فهو عديم المروءة، وكلاهما لا يصلح للطريق، وأيضاً فإن من ذاق

(١) يتقلَّق: يضطرب ويتزعج.

ذل المكاسب والحاجة للناس يصير يطلب العز، ولا عز أعظم من عز الفقراء، لإذعان الملوك لهم، فضلاً عن غيرهم فيدخل الطريق بهمة ليكتسب ذلك العز، ويستغني به عن الخلق.

ومن شأنه: أن لا يدعي قط أنه صادق في طلب الطريق، ولو اجتمع الناس على صدقه.

وقد سئل الحسين بن منصور الحلاج رحمته الله عن الصدق في الطريق وهو مصلوب على الخشبة، مقطع الأطراف، فقال له: يا أخي أهون الصدق ما ترى. وسئل مرة عن الصدق في الطريق فقال: ماذا أقول لك في الطريق؟ أولها ذبح النفوس، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾^(١). وكان يقول: رعدة^(٢) المريد من خوف القطيعة أفضل من عبادة الثقلين، ولو وقعت على يديه.

وكان يقول: من شرط المريد الصادق أن يرى نوم غيره أفضل من عبادته. قال: لقد كنا في بدايتنا نصلي الصبح بوضوء العشاء سنين عديدة وإذا اتفق أن أحدنا نام في ليلة، رأيناه أفضلنا.

وكان رحمته الله يهجر المريد إذا بلغه أنه مشى خطوة في حظ نفسه، ويقول: إنما ذلك للعوام.

وكان يقول: من شرط المريد أن تتبعه الدنيا، لا أن يتبع الدنيا.

ومن شأنه: أن يواظب كل يوم وليلة على قول يا حيُّ يا قيوم لا إله إلا أنت، أربعين مرة فإنها مجربة لعدم موت القلب، وذلك من أعون الأمور على حياة قلب المريد، وهي من تعليم رسول الله ﷺ لأبي محمد الكتاني لما رأى رسول الله ﷺ في المنام وشكى إليه موت قلبه عن الطاعات، وقد كان يقول: جربتها فوجدت بركتها.

وكان يقول: جلوس المريد في مجالس القيل والقال عقوبة، وقربه من الدنيا معصية، وركونه^(٣) إلى أبنائها مذلة. قال بعضهم: وربما تكون كلها معاصي.

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٤.

(٢) الرعدة: الارتعاش والاضطراب.

(٣) الركون: الميل والسكون.

وكان يقول: المريد المعجب بنفسه مستدرج، والمستحسن لأفعاله الردية ممكور به.

وكان يقول: لو زكيتم مريداً حتى جعلتموه صديقاً، وهو يساكن الدنيا بقلبه لا يعبأ الله به، فقيل له: فلو ساكنها بقلبه ينفقها على إخوانه، فقال: لا يعبأ الله به ولو قصد ذلك فطماً^(١) له عن الدنيا، كما تضع الأم للطفل الصَّبر^(٢) على ثديها إذا فطمته ليتحكم في ترك الميل إلى اللبن، ويتوجه بكليته إلى الطعام، وكذلك المريد ما لم تنفر نفسه عن الدنيا، ولو بقصد أن يتصدق وير بها الناس، لا يفلح في الطريق.

وكان يقول: قال الله تعالى للمريدين في بعض الهوائف الربانية «من صبر علينا وصل إلينا».

وكان يقول: من مقى الله للمريد أن يذهب عنه حلاوة ذكره، ويُشغل بذلك لسانه من غير حلاوة.

وكان يقول: ذكر المريد بلسانه يورث الدرجات، وذكره لربه بقلبه يورث القربات.

وكان يقول: إذا رأيت المريد يعظم الفقراء كالأمراء، فلا بد أن يجعله الله عن قريب إماماً يقتدى به، لأن من عظم الناس لأجل الله عظمه الله بين الناس، وصاحب العكس بالعكس.

ومن شأنه: أن لا يصبر على ذنب، وذلك أن يقع فيه ولا يتوب عقبه فوراً. وقيل: حدُّ الإصرار أن يؤخر التوبة حتى يدخل عليه وقت صلاة من الخمس، هكذا حدُّ بعض الأشياخ «الإصرار».

وقد كان الشيخ مظفر القرميسي رحمته الله يقول: ما استغفر مريد من ذنب وهو ملازم له إلا حرم الله تعالى عليه الصدق في التوبة والإنابة، وما ترك مريد حرمة الأشياخ إلا ابتلاه الله تعالى بالدعوى الكاذبة، حتى يفتضح عند الخاص والعام، وكان يقول: لا شيء أضرَّ على المريد من صحبة الأحداث، وإذا كان من

(١) فطماً: قطعاً.

(٢) الصَّبر: عصارة شجر مر.

يصحب الأحداث على شروط السلامة تنتهي عاقبته إلى البلاء، فكيف ممن يصحبهم وعنده ميل طبيعي إليهم؟. وذلك لأن المريد لما رأى أن المريدين لا يتيسر لهم عشرة النساء الأجانب في الزوايا والمساجد أتاها بالأحداث ومهد لهم بساط صحبتهم محبة لتعليمهم الخير لا غير، فلا يزال إبليس يسارقهم وينقص محبة الخير شيئاً فشيئاً إلى أن يصير المريد يحب الأمرد لغير الله ﷻ.

ومن شأنه: أن لا يسكن^(١) بقلبه إلى غير ربه ﷻ.

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رحمته الله يقول: من سكن من المريدين إلى غير الله ﷻ ابتلاه الله تعالى بالمحن^(٢)، وحجب ذكره تعالى عن قلبه، وأجراه على لسانه، فإن تنبه ورجع إلى الله ﷻ كشف عنه المحن، وإن دام على السكون إلى غير الله ﷻ نزع الله تعالى الرحمة له من قلوب الخلق وألبسه الله لباس الطمع فيهم فتراه يزداد مطالبة لهم، وتراهم يزدادون عليه قساوة، وذلك من أشد العذاب عليه.

وكان يقول: إذا أراد الله لمريد خيراً أوقعه في صحبة الصوفية، ومنعه من صحبة أهل الغفلة عن الله ﷻ.

وكان يقول: كل مريد عنده دَقِيقٌ ميل إلى الدنيا أوقفه ذلك عن السير، ولو كان شيخه من أكابر الأولياء فليعمل على إزالة حب الدنيا من قلبه بالكلية. ومن شأنه: النفرة^(٣) عن كل ما يشغله عن الله ﷻ.

فقد كان الشيخ أبو الحسن الثوري رحمته الله يقول: كل مريد رأيتموه يخالط غير أبناء حرفته فلا ترجوا له خيراً قط، لأنه متلاعب بالطريق، وكذلك من رأيتموه كثير السماع للقصائد، كثير الأنغام بها فلا ترجوا خيره، لأن الطريق كلها جد، والمراد بالقصائد التغزلات التي يراد بها صفات الخلق.

أما مثل كلام سيدي عمر بن الفارض وأضرابه فلا منع منه، بل هو مطلوب، لأنه يشوق إلى حضرة الله ﷻ وإيضاح ذلك أن القوم لما نَزَّهوا^(٤) الله ﷻ عن

(١) يسكن: يستأنس بالشيء ويستريح إليه.

(٢) المحن: البلاء والشدائد.

(٣) النفرة: هجران الشيء مع عدم الرضا به.

(٤) التنزيه: نفي ما لا يليق بالله ﷻ.

جعله محلاً لتقولاتهم تغزلوا في المخلوقات من ليلى، ولبنى، والرباب، والزنانب، وغيرهن ليأخذ المريد المعنى من ذلك، مع الأدب مع الله تعالى، فإن من أدب الأكابر إذا تعرف الحق إليهم بشيء من الصفات، أن يستروا ذلك عن الأغيار.

وكان أبو الحسن النوري يقول: لكل شيء عقوبة، وعقوبة المريد انقطاعه عن الذكر.

وكان يقول: لا يزال المريد بخير ما أحب مناقشة إخوانه له، فإذا كره ذلك فسد.

وكان يقول: كنت أول دخولي في الطريق ربما أمكث السنة كاملة لا يخطر على قلبي الطعام، أو الشراب، إلا إن حضر.

وكان يقول: ليس العجب من مريد يطلب ربه إنما العجب ممن غفل عنه.

وكان يقول: إذا رأيت المريد كلَّ قليل يزداد من أمتعة الدنيا في داره فهو من علامة إدباره عن ربه فلا تتبعوا أنفسكم فيه، وذلك كأن دخل في صحبتكم وله امرأة فصار له امرأتان، أو وهو بلا حمار فصار له حمار، أو وهو بلا خادم فصار له خادم، أو وهو بثوب فصار له ثوبان، وقس على ذلك.

وكان يقول آفة المريد ثلاث: التزويج، وكتابة العلوم التي لا تتعلق بالشرعية، وعشرة الأضداد.

وكان يقول: كل مريد لا يذل في نفسه حتى يكنس بها المزابل، لا يجيء منه شيء في الطريق.

وكان يقول: شربت مرة من ركوة جندي فعادت قساوتها في قلبي ثلاثين سنة.

ومن شأنه: أن يكون مقدس الباطن من سائر الذنوب، ومتى لم يكن باطنه مقدساً من العيوب، وأظهر للناس خلاف ذلك، عوقب بحرمان التقديس في المستقبل، وإيضاح ذلك أن معاصي الباطن لا يهتدي غالب المريدين للقوم عنها، وطاعاتهم ربما لا تفي^(١) بالرقى إلى ما أفسدوه بالمعصية وكأنهم لم يطيعوا، ولم

(١) لا تفي: تقصر عن الشيء ولا توازيه.

يترقوا، إن الرُّقِّي^(١) لا يكون إلا لمن ترك المعاصي جملة.

وقد كان أبو بكر الوراق رحمه الله يقول: من أظهر للناس خلاف ما هو عليه في باطنه ازداد عيوباً إلى عيوبه، وكان يكره للمريد السفر إلى أهله، والسياحات في البلاد، ويقول: مفتاح كل خير التَّريُّص^(٢) في موضع الشيخ حتى يريه ويفطمه. وكان يقول: من أكثر من الانتقال من زاوية فيها شيخ إلى زاوية لا يفلح أبداً.

وكان يقول: من علامة صدق المريد، أن تصير الأذكار غذاءه، والتراب فراشه.

وكان يقول: كنت في بداية أمري أكتفي برؤية شيعي من الجمعة إلى الجمعة عن الطعام والشراب.

وكان يقول: من لم تصح مبادئ إرادته فلا بد أن يعطب في نهايته، وذلك بأن يعبد الله في بدايته إجلالاً له، وقياماً بواجب حقه عليه، لا بقصد التقريب من حضرته، فإن ذلك كالعمل بأجرة، وليس ذلك من شأن أهل الله وهذه الغفلة من أخفى العلل، فإن صاحبها ربما تَرَقَّى إلى قريب من الحضرة الإلهية، فقالوا له: ارجع فليست من أهلها إنما أهلها من لم يُرَدَّ إلا الله.

وكان يقول: إذا سكن قلب المريد لترك حضور مجالس الذكر عاقبه الله تعالى بالخزي في الدنيا قبل الآخرة، تلاها عن حضور مجالس الذكر باللغو مقتته الله، وأمات قلبه، وكشف عورته بين العباد.

وكان يقول: من علامة مقت المريد ذم الدنيا في العلانية ومعانقتها في السر.

وكان يقول: يجب على المريد إذا خمدت نار شوقه للطريق أن يجتمع بمن يهيج شوقه، وإلا ابتلاه الله تعالى بالجذام والبراص.

وكان يقول: إذا أكل المريد شيئاً بِشَرِّهِ نَفْسٍ أَعْمَى الله عين بصيرته.

(١) الرُّقِّي: الارتفاع والعلو.

(٢) التَّريُّص: التلبُّث والانتظار.

وكان بشر الحافي رحمته الله يقول: لا تقدموا على حذف العلائق شيئاً فإنني لو أجب نفسي إلى كل ما طلبتني من الشهوات لخشيت أن أعمل شرطياً أو مكّاساً^(١). وإيضاح ذلك أن كل علاقة علقت بالمريد رده إلى وراء، فلا يزال المريد الصادق يحذف العلائق شيئاً بعد شيء إلى أن لا يصير له علاقة تمنعه من دخول حضرة الله تعالى.

وكان يقول: غنيمة المريد في هذا الزمان غفلة الناس عنه، فإن لقاء المريد للناس خسران.

وكان يقول: كل مريد سمعتموه يقول: بأي شيء آكل رغيفي؟ فهو بطل لا يجيء منه شيء في الطريق.

ومن شأنه: أن لا يتساهل بالأكل من طعام من يغش في معاملته أو يأكل بدينه.

فقد كان السري السقطي رحمته الله يقول: كيف يستنير قلب المريد وهو يأكل من كل شيء وحده لا يسأل عنه؟.

وكان يقول: ما رأيت أسرع من مقت المريد وإحباط^(٢) عمله من نظره في عيوب الناس، وإطلاق لسانه فيهم بالغيبة، والاستهزاء بهم.

وكان يقول: إذا أنس المريد بربه في الظلام، نشر له يوم القيامة الأعلام.

وكان يقول: قد توعرت الطريق في زماننا هذا على أكثر المريدين فقمنا باسم الإرادة، ولم يطالبوا أنفسهم بمكانها، ففارقوا السهر وافتروشوا الرخص ومهدوا لأنفسهم التأويلات، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كان شقيق البلخي رحمته الله يقول: مثل المريد الصادق مثل رجل غرس نخلاً، وهو يخاف أن تطرح شوكتاً، ومثل المريد الكاذب مثل رجل غرس شوكتاً وهو يطلب أن يحمل له رطباً.

وكان يقول: من طلب أن يكون من أهل الرئاسة فليؤثر الناس على نفسه

(١) المكّاس: من يأخذ الضرائب ممن يدخلون البلد من التجار.

(٢) الإحباط: الإبطال.

ويتحمل أذاهم، ومن طلب الرئاسة بغير هذين الطريقين فقد خاب سعيه.

وكان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله يقول: ما عمل مرید بما أمره الله تعالى عند فساد الزمان إلا جعله الله إماماً يقتدى به.

وكان يقول: من علامة المرید الصادق انفراده عن الناس حتى لا يكاد يوجد في مجلس لغو.

وكان يقول: لا ينبغي للمرید أن يسعى في نظافة ثيابه وينسى نظافة قلبه، وكانوا إذا قالوا له: إن ثوبك قد اتسخ. يقول لهم: ليت قلبي في القلوب مثل ثوبي في الثياب.

وكان يقول: ما ترك مرید الذكر إلا مات قلبه.

وكان يقول: لا يزال قلب المرید متمزقاً ما دام بحب الدنيا متعلقاً.

وكان يقول: إذا لم يقدر المرید على التوبة النصوح^(١) فليسأل ربه المغفرة من باب المنة والفضل.

وكان يقول: عليكم أيها المریدون بمجالسة الذاكرين، فإنهم ملازمون باب الملك.

وفي بعض الهواتف الربانية: من لم يرني فليلزم اسمي فإن اسمي لا يفارقني.

وكان أحمد بن الحواري رحمه الله يقول: كل مرید لا يكون فيه ثلاث خصال فهو كاذب وهي: ترك المال والطعام والمقام، فلا يأخذ من كل واحد إلا بقدر الضرورة الشرعية، وهناك يصلح لمجالسة الحق تعالى في ذكره، فما كل ذاكر جالس.

وكان يقول: الدنيا مزبلة والمزبلة مأوى الكلاب، فمن أرادها فليصبر على عض كلابها، وربما كان المحب للدنيا أسوأ حالاً من كلابها، فإن الكلب يأخذ حاجته منها في بطنه ويترك الباقي، ومحب الدنيا يحمله.

(١) النصوح: الخالصة الصادقة.

وكان يقول: ينبغي للمريد كتم أعمال ما استطاع حتى يقوى نور قلبه، فإن حكم من يظهر عمله من المريدين حكم من أخذ نور قلبه فجعله من خارجه، ولولا اقتداء الناس بالأشياخ ما ساغ للأشياخ إظهار شيء من أعمالهم.

وكان يقول: ما ظهر شيء من محاسن عمل مريد إلا من غفلة طرأت عليه، لأنه ليس من أهل الاقتداء به.

وكان يقول: أعظم أخلاق المريدين حفظ حرمان الإخوان، وحسن العشرة معهم، ومجانبة الإدخار للثياب والطعام والدراهم.

وكان يقول: إذا رأيت ضوء المريد في ثوب فلا ترجوا خيره.

الفقراء جواسيس القلوب

وكان يقول: احذر أيها المريد أن تجالس أحداً من الفقراء بغير أدب، فإن الفقراء جواسيس القلوب، وربما دخلوا في قلبك وخرجوا فعرفوا ما فيه وأنت لا تعلم.

ومن شأنه: أن يكون خصماً لنفسه ما أمكن.

وقد كان الشيخ أبو المواهب الشاذلي رحمته الله يقول: من أراد أن يهجر أحداً من إخوان السوء فليبدأ بنفسه وليهجر أخلاقها السيئة، فإن نفسه أقرب المقربين إليه، والأقربون أولى بالمعروف.

وكان يقول: من علامة رياء المريد أن يجيب عن نفسه إذا قيل له: يا مرائي، أو يا معجباً بعمله، أو يا متكبر، ونحو ذلك، وإنما جاز مثل ذلك للأشياخ لأنهم متبوعون، فيخافون من تغيير قلوب مريديهم فلا يعتقدون فيهم، فيحرمون بركة صحبتهم.

وكان يقول: من طلب من المريدين الشهرة بالصلاح بين الناس لزمه الرياء لأجلهم، والكرهة لهم بغير حق، والوقوع فيما يسخط ربه.

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تطلب دخول حضرة ربك في ذكرك، وصلاتك، وعندك بقية نفس، فإن الملك القدوس قد حكم وقضى أن لا يدخل حضرته أحداً من أهل النفوس.

وكان يقول: أول عائق يعرض للمريد اعتماده على أعماله، وذلك من غلبة وهمه^(١) على وجوده، وتراكم الخيال في مرآة عقله، ولا يخرج مريد عن ذلك إلا بنور الكشف لأن الله تعالى خالق لعمله وحده، وليس له منه إلا نسبة التكليف.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمته الله يقول: لا يبلغ أحد مقام الإخلاص في الأعمال حتى يصير يعرف ما وراء الجدران وينظر ما يفعله الناس في قعور^(٢) بيوتهم في بلاد آخر، فهناك يعرف يقيناً بنور هذا الكشف أن عمله ليس هو له، إنما هو محل لبروزه من جوارحه حيث كانت الأعراض لا تظهر إلا في جسم، والأعمال أعراض فافهم.

وكان يقول: من علامة صدق المريد في ترك الدنيا أن يتعسر عليه أسبابها أبداً ما عاش، وذلك لقوة همته في دفعها، فلا يصبح ويمسي إلا فقيراً إلى ربه ﷻ.

وكان يقول: إذا فتح الله تعالى على المريد فتح التعرف فلا يبالي بعد ذلك قلّ العمل أو كثر.

وكان يقول: لما علم أهل الله تعالى أن كل نبات لا ينبت ولا يثمر إلا بجعله تحت الأرض تعلوه النعال جعلوا نفوسهم تحت النعال لينبتوا ويثمروا فلا يظهرون للناس إلا بعد تمكنهم في محبة الحق.

وكان يقول: إذا ورد عليك أيها المريد وارد في ذكر أو غيره فاقبله من الحق تعالى ولا تتعشق به فتحجب عن ربك وتقف عن الترقى.

وكان يقول: احفظ وردك أيها المريد عن النسيان فربما احتجت إليه إذا بلغت مبلغ الرجال، وربيت المريدين وقد زهد في ذلك بعض الأسيّاح فاحتاجوا إليه حال تربيتهم، فلم يعرفوا كيف الترية.

وكان يقول: من المحال أن ينفتح لقلب المريد باب الملكوت وفيه ميل لشهوة من الشهوات.

(١) الهم: ما يقع في الذهن من الخاطر.

(٢) قعور: القعر من كل شيء أجوف منتهى عمقه. وجلس في قعر بيته أي لازمه.

وكان يقول: إن لم يدخل نور الكشف القلوب حتى تحرق جميع الشهوات، وإلا فالقلب محجوب عن الله تعالى، فإذا أحرقت الشهوات فهناك تنكشف للقلب المغيبات، ويصير يبصر ما مضى وما هو آت مما هو من مقامه، وتأمل المرأة لما خلت من الأكوان كيف انطبع فيها جميع الأكوان، ولو كان لها لون لحجب عن رؤية الصور فيها، وكذلك المرأة إذا قوبلت لا يظهر لأحد بها صورة في الأخرى.

وكان يقول: الفتح على المريد تارة يكون امتحاناً وتارة يكون تثبيتاً، فليبحث المريد عن تمييز ذلك.

وكان يقول^(١): ليس للمريد أن يؤاخي أحداً ادعى أنه يحبه إلا بعد أن يمتحنه في مقاسمته في ماله وعباله، كما فعل المهاجرون، فمن ثبت في ذلك اتخذ أخاً، وذلك أندر من النادر.

وكان يقول: عليك أيها المريد بتكثير سواد القوم حسب استطاعتك ولو قال لك إبليس: بعيد أن مثلك يفتح عليه؟ فلا تسمع منه، فإن من كثّر سواد قوم فهو منهم، ولا تخرج عن ذلك إلا بجعل أعمالك كلها مقاصد لا وسائل لأمر آخر، فإن من جعل أعماله وسائل ربما انخدع لإبليس.

حياة الأولياء^(٢) في قبورهم

وكان يقول: من أدب المريد إذا زار شيخاً في قبره أن لا يعتقد أنه ميت لا يسمعه، بل الأدب أن يعتقد حياته البرزخية^(٣)، لينال بركته، فإن العبد إذا زار ولياً وذكر الله عند قبره، فلا بد أن ذلك الولي يجلس في قبره، وذكر الله معه كما شهدنا ذلك مراراً، مع الإمام الشافعي، ومع ذي النون المصري، ومع جماعة من مشايخ القرافة، فإن لم يشهد ذلك فأقل مراتبه الإيمان بحياتهم المذكورة.

وكان يقول: لا ينبغي لمريد أن يجالس من ينظر محاسن نفسه وكمالها وينكر على القوم، فإن ذلك من أكبر القواطع على المريد.

(١) الشيخ علي الخواص.

(٢) الولاية: وهي حصول الأنس بعد المكابدة واعتناق الروح بعد المجاهدة.

(٣) البرزخ: هو نهاية الدنيا وبداية الآخرة.

وكان كثيراً ما يقول في مجلسه: قولوا معي: لعنة الله على من ينكر على أوليائه، فيقول الجماعة كلهم: لعنة الله عليه، ويرفعون بذلك أصواتهم حتى تصير لهم ضجة.

وكان يقول: ما يوقف المريد عن الترقى، إلا وقوعه في غيبة أحد من المسلمين، ومن ابتلي بوقوعه في ذلك، فليقرأ الفاتحة، وسورة الإخلاص والمعوذتين، ويهدي ثوابها في صحائف ذلك الشخص، فإني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأخبرني بذلك.

وقال: إن الغيبة والثواب يقفان بين يدي الله ﷻ يوم القيامة وترجو أن يكون ذلك بذلك.

وكان يقول: احذروا أيها المريدون من إشاعة ذلة رأيتموها من أخيكم احتقاراً له، فربما كانت تلك الذلة التي وقعت منه إنما قدرها الله تعالى عليه، ليسد ثلثة^(١) حدث في دينه من عجب أو كبر، فيكون بها كماله من حيث أثرها.

ويؤيد ذلك قول صاحب الحكم: معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

وكان الشيخ أبو المواهب يقول: من قرأ فقه الأئمة بلا أدب أظلم قلبه، كما وقع لي ذلك، فقليل له: وما أدب قراءة كلام الأئمة؟ فقال: التسليم لأقوالهم، وعدم التعصب لمذهب دون آخر، فإن الأئمة أعلم من أمثالنا بيقين، فما له وللرد على من لا يصلح أن يكون من طلبته؟.

وكان يقول: تسليم المريد للعلماء أسلم، والاعتقاد فيهم أغنم.

وكان يقول: عبادة المريد مع محبته للعالم شغل قلب وتعب جوارح فهي وإن كثرت قليلة عند الله تعالى، وإنما هي كثيرة في وهم صاحبها فقط، وهي أشباح خالية من الأرواح ولهذا ترى كثيراً من أبناء الدنيا يقومون الليل كثيراً ويقرأ أحدهم كل يوم ختماً، وليس لهم مع ذلك نور الزهاد، ولا حلاوة العباد، فإذا كانت كثرة العبادة مع محبة الدنيا لا ترقى صاحبها فكيف بمحبة الدنيا مع قلة العمل وارتكاب شيء من المعاصي؟.

(١) الثلثة: الشق والصدع.

وكان يقول: أعلى مجاهدات المريد الزهد في الجاه الذي حصل من نتائج الطاعات أي آخر مجاهداته.

الذكر أفضل أوراد المريد

وكان يقول^(١): أفضل أوراد المريد الذكر، لأن الصلاة وإن كانت عظيمة، فقد لا تجوز في بعض الأوقات التي يجوز فيها الذكر، بخلاف ذكر الله ﷻ لا يُمنع منه في حالة من الأحوال.

وكان يقول: الذي عندي أن أفضل صيغ ذكر المريد قول «لا إله إلا الله» ما دام له هوى فإن فنت أهويته كلها، كان ذكر الجلالة أنفع له.

وكان يقول: من حُرِم الأوراد في بدايته، حرم الواردات في نهايته، فعليك أيها المريد بالأوراد ولو بلغت المراد.

وكان يقول: إذا أنكر المريد على أرقى منه وجود ما لم يجد هو من الأسرار حُرِم الوصول إليه وحرم بركة ما وجد، فإن من كان كثير النكير^(٢)، فهو فاقد للتنوير.

وكان يقول: المريد البر^(٣) هو من لا يظهر الذر.

وكان يقول: احذر أيها المريد أن تكون ممن يعبد ليعبد أو ممن يسود الجباه للجاه، فإن ذلك من مقت الله.

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تجادل أصحاب الضروس بما تجده في نفسك من الأمور الذوقيات، فربما شنوا عليك الغارات، ولم يرجعوا عما هم عليه، وربما سبوا الطريق وأهلها.

وكان يقول: ما نكس^(٤) الرؤوس إلا اتباع شهوات النفوس.

وكان يقول: إذا قنع المريد بتعظيم أهل الغفلات له، حرم الوصول إلى مقام

(١) يقول: الشيخ أبو المواهب.

(٢) النكير: الإنكار والاعتراض.

(٣) البر: الصالح.

(٤) نكس: طأطأ رأسه من ذل.

أهل الاختصاص.

وكان يقول: من كان للخلق مُرضٍ فهو لربه أرضى، ومن كان على إخوانه يتعالى فلا يقال له: تعال.

وكان يقول: المريد الصادق لا يزور ولا يُزار، وربّ امرئ يزار، حمّله الزائر الأوزار، فالحاذق يفتش نفسه عند قدوم كل زائر.

ومن شأنه: أن لا يتصدر قطّ لإزالة منكر في حارته مثلاً، فإن ذلك من أكبر القواطع عليه إلا بعد تعلّم السياسة التامة، والنية الصالحة، وتعيّن ذلك عليه.

وقد بلغنا أن جماعة من الشباب، كانوا يعبدون الله تعالى، ويأكلون من عمل يدهم، فكان إبليس كلما أراد أن يقترب من أحدهم كاد أن يحترق، فبينما هم يوماً في مجلس الذكر إذ حرش جماعة من العياق^(١) كانوا بالقرب من هؤلاء الذاكرين، فوقعوا في ضرب بعضهم بعضاً بالعصا حتى جرت منهم الدماء.

وكان قصده أن هؤلاء الذاكرين يقولون في أنفسهم: إن تخليصنا هؤلاء أفضل مما نحن فيه لأنه خير متعدي النفع فتركوا مجلس الذكر، وجاؤوا يخلصون بينهم فوق العياق فيهم بالضرب فاشتغلوا بهم عن الذكر وعن غيره ففرح بذلك إبليس، وكان جلّ قصده إبطال مجلس الذكر لا غير فلا يليق التصدر لإزالة المنكرات إلا للأشياخ الذين لهم حال يحميهم من أهل المنكر ومن إبليس.

وكان يقول: إن كان ولا بد للمريد من إزالة المنكر فليتوجه إلى الله تعالى بقلبه ويزيل ذلك المنكر الذي رآه، إما يمنع الزاني من الزنا، أو يمنع الشاب من شرب الخمر، ونحو ذلك ولا ينسب إلى ساكت قول.

هكذا كانت صورة تغيير المريدين الصادقين المنكر في قديم الزمان وقد خالف قوم فغيروا بيدهم أو لسانهم فسحبوهم لبيت الوالي وضربوهم وحبسوهم فازداد المنكر منكراً.

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمته الله يقول: تغيير المنكر باليد للولاء ومن قاربهم وتغييره بالقول للعلماء العاملين، وتغييره بالقلب لأرباب القول.

(١) العياق: جمع عايق والمراد جماعة من الفتوات.

وكان ﷺ يقول: من شرط المريد الصادق أن يرى نفسه دائماً في مقام الطفولية، ليرضع من ثدي المرءي، فإن من كبر استحق الفطام، ومنعوه الرضاع.

وكان كثيراً ما يقول لمن يراه متكبراً عن سماع النصيح: يا ولدي لا تَكْبُرْ نُفُظْ.

وكان يقول: لا يجري ماء الإيمان في قلب مريد إلا إن نظف قلبه من محبة الدنيا وشهواتها.

وكان يقول: من سلك من المريدين بالرياضة على طريق أصحاب علم الحرف مقت وانكشف حاله، وذهبت دنياه وآخرته، لأنه استعمل أسماء الله تعالى في طلب أشياء خسيسة، من مالٍ أو جاه.

وكان يقول: كل مريد أكل من طعام مَكَّاسٍ، أو جندي، أو قاضٍ، يأخذ الرشوة في الأحكام، أو مباشر يتهور في كسبه، أو شيخ عرب، أو كاشف، أو والٍ، أو غيرهم، من سائر المتهورين في مكاسبهم فقد تورَّع^(١) من فتحه في الطريق.

وقد أكل بعض المريدين لقمة من طعام قاضٍ ثم تذكر فتترك الأكل فأظلم قلبه ثلاثين سنة، ثم قيل له: بعد مجاهدة ثلاثين سنة الآن قد رجعت إلى حالتك التي كانت قبل أن تأكل من طعام القاضي المرتشي وفي هذا القدر كفاية.

فاعرض يا أخي جميع ما ذكرته لك في هذا الباب من صفات المريدين على نفسك فإن رأيتها متخلقة به فأنت مريد صادق، وإلا فكفَّ عن الدعوى، والحمد لله رب العالمين.

آداب المريد مع شيخه

اعلم يا أخي أن عمدة الأدب مع الشيخ، هو المحبة له، فمن لم يبالغ في محبة شيخه بحيث يؤثره^(٢) على جميع شهواته، لا يفلح في الطريق لأن محبة الشيخ، إما هي مرتبة إدمان يترقى المريد منها إلى مرتبة الحق جلَّ وعلا، ومن لم

(١) تورَّع: تحرَّج.

(٢) يؤثره: يختاره.

یحِبُّ الواسطة بينه وبين ربه التي من جملتها رسول الله ﷺ فهو منافق، والمنافق في الدرك الأسفل من النار، إذا علمت ذلك فليذكر لك بعض صفات المحبين لأشياخهم، لتعرف صدقك من كذبك.

فأقول وبالله التوفيق: أجمع أهل الطريق على أن من صفات المرید الصادق في محبة الشيخ أن يكون تائباً من جميع الذنوب، متطهراً من سائر العيوب.

فمن تلتطخ بالذنوب وادعى محبة شيخه فهو كاذب، وكما أنه لا يحب شيخه فكذلك شيخه لا يحبه، وإذا لم يحبه شيخه فالحق تعالى كذلك لا يحبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُنْظَرِينَ﴾^(١) وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾^(٣) ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾^(٤) ونحوها من الآيات.

وأجمعوا على أن من شرط المحب لشيخه أن يُصِمَّ أذنه عن سماع أحد في الطريق غير شيخه، فلا يقبل عدل عاذل^(٥) حتى لو قام أهل مصر كلهم في صعيد واحد لم يقدروا على أن ينفروه من شيخه، ولو غاب عنه الطعام والشراب أياماً لاستغنى عنها بالنظر إلى شيخه لتخيله في باله، وبلغنا عن بعضهم أنه لما دخل هذا المقام سمن وعَبِلَ^(٦) من نظره إلى أستاذه.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي: ولقد تجسد لي مرة حبي لشيخني أبي مدين ﷺ فكنت لا أقدر أن أنظر إليه، وكان يخاطبني وأصغي إليه وأفهم عنه.

قال: ولقد تركني أياماً لا أشبع طعاماً، وكانوا كلما قَدَّمُوا إِلَيَّ المائدة تقف المحبة على حرفها، وينظر إليّ ويقول لي بلسان أسمع به أذني: تأكل وأنت تشاهدني؟ فأمتنع من الطعام ولا أجد جوعاً، وأمتلىء من الحب، حتى سمنت وعَبِلْتُ من نظري إليه، فقام لي ذلك مقام الغذاء، أذوق ذواقاً ولا أجد جوعاً ولا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٥٢.

(٥) العاذل: اللائم.

(٦) عَبِلَ: سمن وعظم.

عطشاً، وكان الحب لا يبرح نصب عيني في قيامي وقعودي، وحركتي وسكوني.

وسمعت أخي أفضل الدين يقول: من ألطف سكرات الحب الشغل بالحب عن متعلقه كما حكى: أن ليلى جاءت إلى مجنونها، وهو يصيح: ليلى ليلى، ويأخذ الجليد فيلقيه على فؤاده فيذوب من حرارة فؤاده فسلمت ليلى عليه، وهو في ذلك الحال وقالت له: أنا محبوبك، أنا مطلوبك أنا قرّة عينك، أنا ليلى، فقال: إليك عني، فإن حبك شغلني عنك.

وسمعت سيدي علي الخوّاص رحمته الله يقول: ألطف ما في الحب ما وجدته في نفسك من العشق المفرط، والشوق المقلق، حتى منعك ذلك النوم ولذة الطعام ولا يدري ذلك الحب فيمن، ولا يتعين لك محبوب، فإن من ذلك تترقى إلى محبة الله رحمته الله المطلقة.

قالوا: ومن أصعب ما في الحب أن يصير المريد يحب الهجر، ويتلذذ به إذا علم أن شيخه أحب هجره، لأن تخليص حظ النفس من حظ الشيخ عسير جداً، وحاصله أن المريد يحب الهجر من حيث كونه محبوباً لشيخه لا من حيثية أخرى، لأن الحب للشيخ عمدته الوصل لا الهجر.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمته الله يقول: حقيقة حب الشيخ أن يحب الأشياء من أجله، ويكرهها من أجله، كما هو الشأن في محبة ربنا رحمته الله، ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث: «أن عبداً يأتي يوم القيامة بكثير صلاة، وصيام، وحج، وصدقة، وتشهد له الملائكة بذلك، فيقول الله رحمته الله: انظروا هل والى لي ولياً؟ أو عادى لي عدواً؟».

أوصاف المحبين

وذكر الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والسبعين بعد المائة من «الفتوحات»^(١): أن جملة أوصاف المحبين، أن يكون أحدهم مقتولاً تالفاً في محبوبه سائراً إلى حضرته على الدوام، دائم السهر كامن الغم، راغباً في الخروج من كل شيء يشغله عنه من شهوات الدنيا والآخرة.

(١) الفتوحات المكية.

فهو متبرّم^(١) من صحبة كل شيء يحجبه عن محبوبه، كثير التأوّه يستريح إلى كلام محبوبه وذكر اسمه، دائم الموافقة لمحباب محبوبه، خائف من ترك الحرمة في إقامة خدمته، يستقل الكثير من نفسه في حق محبوبه، ويستكثر القليل من محبوبه، يعانق طاعة محبوبه، ويجانب مخالفته، خارج له عن نفسه بالكلية، لا يطلب الدية في قتله، يصبر على الضراء التي تنفر منها الطباع، قياماً بما كلفه محبوبه، دائم الهيام في محبوبه، وقد وطن نفسه على محبة كل شيء يريده محبوبه ليس له معه نفس، بل كله لمحبوبه، يعاتب نفسه في حق محبوبه، ولا يعاتب قط محبوبه، غيور على محبوبه من نفسه، فيؤد أنه لا يراه مع شهوته لرؤيته، لا يقبل حبه الزيادة بإحسان المحبوب، ولا النقص بجفائه له، ناسٍ حظ نفسه، ذاكر حظ محبوبه، مجهول النعوت كأنه سأل^(٢)، وليس بسالٍ، لا يفرق من سكره بين الهجر والوصل لا يقول قط لمحبوبه لم فعلت كذا؟ أو قلت كذا؟ سره علانية، مسرور محزون، مقامه الخرس، حاله يترجم عنه، لسكره من المحبة يختار مرضي محبوبه على جميع أغراض نفسه.

قال الشيخ محيي الدين: ومن ألطف ما بلغنا عن بعض المحبين أنه دخل على شيخ فرآه يتكلم في المحبة فما زال ذلك المحب ينحل^(٣) ويذوب ويسيل عرقاً حتى تحلل جسمه كله على الحصر بين يدي الشيخ وصار بركة ماء، فدخل بعض أصحاب ذلك المحب على الشيخ فقال له: أين فلان؟ فقال الشيخ: هو ذا وأشار إلى ذلك الماء ووصف له القصة فتعجب الحاضرون من ذلك.

قال الشيخ محيي الدين: وهو تحليل غريب، واستحالة عجيبة، حيث تلطفت كثافته حتى صار ماء!!.

واعلم أن من صفات المحبين أنهم يتكلمون بلسان المحبة، والعشق، والسكر، لا بلسان العلم، والعقل، والتحقيق، كما أجاب بذلك الخطاف^(٤) سليمان عليه الصلاة والسلام.

(١) التبرّم: هو السأم والضجر.

(٢) سلاه: نسيه وطابت نفسه بعد فراقه.

(٣) نحل: هزل جسمه ودق.

(٤) الخطاف: السنونو وهو ضرب من الطيور القواطع عريض المنقار دقيق الجناح طويله منتفش الذيل.

وذلك أن خَطَّافاً راود خَطَّافة في قبة «سليمان عليه السلام» وقال لها: لقد بلغ من حبي لك أن لو قلت لي: اهدم القبة على سليمان لفعلت.

فحملت الريح كلامه إلى سليمان، فقال له: ما حملك على ما قلت وأنت عاجز؟ فقال: مهلاً يا نبي الله، أنا عاشق، والعشاق إنما يتكلمون بلسان عشقهم، وسكرهم، لا بلسان العلم، والعقل، فضحك سليمان من قوله ولم يعاقبه.

قلت: وفي هذه القصة عذر عظيم لأهل المحبة في أشعارهم «السمنون وسيدي عمر الفارض وأضرابهما» فإنهم تكلموا بلسان العشق والسكر وإلا فأين تعقل قول سيدي عمر في تأثيته؟:

فطوفان نوح عند نُوحِي كَأَدْمُعِي وإيقاد نيران الخليل كلوعتي
ولولا زفيرِي أغرقْتُني أَدْمُعِي ولولا دموعي أحرقتني زفرتي
وحزني ما يعقوب بَثَّ أَقْلِهِ وكلُّ بلا أيوب بعض بَلِيَّتِي
إلى آخر ما قال، فاعلم ذلك وإياك المبادرة إلى الإنكار والله أعلم.

فاعرض يا أخي هذه الصفات التي ذكرتها لك في المحبة للشيخ على نفسك، فإن رأيت نفسك متخلقاً بها فاشكر الله تعالى فإنك سوف تترقى من ذلك إلى محبة الله ﷻ من طريق السلوك، فإن محبة الشيوخ واحترامهم من باب احترام الحق تعالى ومحبه.

وقد أنشد الشيخ محيي الدين في أول الباب الأحد والثمانين ومائة من الفتوحات:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدباً بالله بالله
هم الأذلاء والقربى تؤيدهم على الدلالة تأييداً على الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حالٌ نُؤْلَهِم عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعهم ولا تسلك لهم أثراً فإنهم ذاهلون العقل في الله
لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنبا عن الله
وقوله في البيت الأول: ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله، أي هي من حرمة الله

لأمره تعالى بتوقير الشيوخ، وليس المراد أننا نعظم الشيخ كما نعظم الله تعالى فافهم.

وسمعت سيدي علياً المرفصفي رحمته الله يقول: المرید یترقى في محبة شيخه إلى حد يصير يتلذذ بكلام شيخه له كما يتلذذ بالجماع، فمن لم يعمل إلى هذه الحالة فما أعطى الشيخ حقه من المحبة.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن الشيوخ نواب الشارع رحمته الله في إرشاد جميع الناس، بل هم الورثة للرسول على الحقيقة ورثوا علوم شرائعهم غير أنهم لا يُشرعون، فلهم حفظ الشريعة في العموم، وما لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب من الميل إلى غير مرضاة الله ومراعاة الآداب الخاصة بأهل الحضرة الإلهية وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب في العالم، فإن الطبيب لا يعرف الطبيعة إلا إنما هي مدبرة للبدن الإنساني خاصة، بخلاف العالم بعلم الطبيعة فإنه يعلمها مطلقاً وإن لم يكن طبيباً، وقد يجمع الشيخ الأمرين.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمته الله يقول: العلماء بوابو حضرات الأسماء والصفات، وأصحاب الموهب الإلهي بوابو حضرة الذات.

وسمعت مرة أخرى يقول: مرتبة هؤلاء المربين أنهم يعلمون الناس الآداب مع الحق ويجمعون قلوبهم على الله.

وسمعت يقول: علامة الشيخ الذي يجب الأدب معه أن يكون عارفاً بالكتاب والسنة، قائلاً بها في ظاهره، متحققاً بها في سره، يراعي حدود الله ويفي بعهد الله لا يتأول في الورع بل يأخذ بالاحتياط في سائر أحواله، يشفق على جميع الأمة، لا يمقت أحداً من العصاة، بل يتلطف به، ويدعوه إلى الخير برحمة، ورفق جوده مطلق على البرّ والفاجر والساكر والجاحد كأن جميع الخلق عائلته.

ثم اعلم يا أخي: أن أحداً من السالكين لم يصل إلى حالة شريفة في الطريق أبداً إلا بملاقة الأشياء ومعانقة الأدب معهم، والإكثار من خدمتهم، ومن ادعى الطريق بلا شيخ كان شيخه إبليس، فهو وإن وقعت على يديه كرامة فهي استدراج لكرامة الدجال الأعور إذا خرج آخر الزمان.

وقد كان الإمام أبو القاسم الجنيد رحمته الله يقول: من سلك بغير شيخ ضلّ

وأضل، ومن حُرِّمَ احترام الأشياء ابتلاه الله تعالى بالمقت بين العباد وحرَم نور الإيمان.

وكان أبو تراب النخشي رحمه الله يقول: إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقعة في أولياء الله.

وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله يقول: لو لم يكن للمريد من الباعث على الأدب إلا قول موسى عليه الصلاة والسلام للخضر: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُقَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾^(١) لكفاه ذلك، فإن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد صحبة الخضر حفظ شرط الأدب فاستأذن أولاً في الصحبة ثم شرط عليه الخضر أن لا يعارضه في شيء، ولا يعترض عليه في حكم من الأحكام ثم لما خالفه موسى تجاوز عنه الخضر المرة الأولى والثانية، فلما انتهى إلى الثالثة التي هي أول حد الكبيرة قال له: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾^(٢).

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق: من شأن المريد أن لا يدخل في صحبة شيخ إلا بعد استخارة وانسراح صدر لصحبته وإلا فربما دخل بغير اعتقاد ولا احترام، فجره ذلك إلى المقت.

وقد كان سيدي عبد القادر الجيلاني رحمه الله يقول: من لم يعتقد في شيخه الكمال لا يفلح على يديه أبداً.

وكان أبو علي الدقاق رحمه الله يقول: من دخل في صحبة شيخ ثم اعترض عليه بعد ذلك فقد نقض عهد الصحبة ووجب عليه تجديد العهد على أن الأشياء قد قالوا: إن عقوق^(٣) الأستاذ قد يترتب عليه استحكام المقت فلا يكاد يصح من ذلك العاق توبة، وقيام الاستهانة بالشيخ في باطن ذلك العاق التائب.

وكان أبو سهل الصعلوكي رحمه الله يقول: كان لبعض الأسيخ مجلس يفسر فيه القرآن العظيم فأبدله بمجلس قوال، فقال مريد بقلبه: كيف يبدل مجلس القرآن بمجلس قوال؟ فناداه الشيخ: يا فلان، من قال لشيخه لِمَ لا يفلح، فقال المريد: التوبة.

(٣) العقوق: المخالفة.

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٦.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٨.

وكان أبو جعفر الخلدی يقول: من لم يحفظ الأدب مع المشايخ سلط الله عليه الكلاب التي تؤذيه.

قال: وكان الأشياخ كلهم يقولون: جميع ما حلَّ بالحلاج إنما كان من دعوة عمرو بن عثمان المكي عليه.

وكان أبو علي الدقاق يقول: لما أخرج أهل بلخ محمد بن الفضل من أجل كونه كان مذهبه الحديث، دعا على أهل بلخ، وقال: اللهم انزع منهم الصدق، وكانت أكثر بلاد الله تعالى صوفية فما خرج منها بعد دعوته صوفي صادق.

وكان أحمد الأبيوردي رحمته الله يقول: إياكم والعمل على تغيير قلب شيخكم عليكم، فإن من غيّر قلب شيخه عليه لحقته العقوبة ولو بعد موت الشيخ.

وزار أبو تراب النخشي وشقيق البلخي أبا يزيد البسطامي، فلما قدّم خادمه السفارة قال له: كل معنا يا فتى، فقال: لا إني صائم، فقال له أبو تراب: كل ولك أجر صوم شهر، فقال: لا، فقال له شقيق: كل ولك أجر صوم سنة، فقال: لا، فقال أبو يزيد: دَعُوا من سقط من عين رعاية الله تعالى، فسرق ذلك الشاب بعد سنة، فقطعت يده عقوبة له على سوء أدبه مع الأشياخ.

وسمعت الشيخ خطاب المجذوب بنواحي ثغر رشيد يقول: حكم الشيخ حكم من سلك تابع الثور الذي يحرث ويلطف مزاجه ويخلقه بأخلاق الصالحين ويجلسه في حضرة ربه تعالى فيحتاج مسلك تابع الثور إلى صبر شديد حتى يتلطف من تلك الكتائف، ومتى يصير تابع الثور ولياً لله تعالى يهدي الناس إلى شرعه ويعلمهم الأدب مع الله تعالى؟؟.

وسمعت شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين بن أبي شريف رحمته الله يقول: من لم ير خطأ شيخه أحسن من صوابه هو، لم ينتفع به.

وكان سهل بن عبد الله يقول: كان رجل مشهور بالولاية بالبصرة. وكان خبازاً فمضى إليه شخص من أصحابي يأخذ عنه فوجده ممتعاً^(١) خوفاً من شرر النار، فقال في نفسه: لو كان هذا ولياً لله تعالى ما أحرقه شرر النار، فقال له الشيخ: يا ولدي إنك استصغرتني وما بقيت تنتفع بكلامي، فرجع إلى سهل وذكر

(١) امتنع: تغير لونه.

له القصة، فقال: ما استَضَعَّرَ أحدٌ فقيراً إلا حرم فوائده، ارجع إليه بالحرمة فرجع إليه فانتفع بزيارته، وعقد التوبة على أنه لا يعترض على فقير في حاله حتى يموت، فعلم أن كل مرید صحب الأشياخ على غير طريق الاحترام حرم فوائدهم وبركات نظرهم، ثم لا يظهر عليه من آثارهم شيء ولو تكلف هو ذلك بل أفعاله تكذب دعواه.

واعلم يا أخي أنه قلٌّ مرید يصدق مع شيخه الصدق الكامل فإنها طريق غيب محسوسة لا يسلك فيها إلا بالقلوب وأين من يتخذ قلبه مع قلب شيخه حتى يسير به في الغيب والأسرار؟ هذا لا يكون إلا لمرید قد قارب مقام الشيخ في الأدب والانقياد.

حتى كان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول: إذا صدق المرید مع الشيخ كان كل منهما تلميذاً لصاحبه من وجه شيخاً له من وجه، قال ويتشيخ إذا مات المرید قبل وصوله إلى المقام الذي كان عينه له أن ينزل إلى مرتبة المرید ويعمل عليه حتى يصل إليه، فإذا وصل إلى ذلك المقام خلعه على المرید في قبره فيكمله به، فيبعث من قبره كاملاً، والحمد لله رب العالمين.

ومن شأنه: أن لا يكون عنده دلال على الشيخ خوفاً أن يأمره بأدب فلا يمثل^(١) أمره، فإن ذلك من علامة عدم إفلاحه، بل من شأن المرید الصادق أن يجهد على أن يكون جلوسه على باب الشيخ رجاء أن يقع بصر الشيخ عليه كلما خرج، فربما يغمره^(٢) بنظره إليه أكثر من مجاهدته، فيا سعادة من كانت خلوته تجاه باب الشيخ.

ومن شأنه: إذا تعذر عليه الفتح أن يقيم العذر لشيخه، ويجعل اللوم على نفسه دون شيخه، ويقول: النقص مني، وقد قال تعالى لسيد المرسلين ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٣) فإذا كان سيد المرسلين بهذه المثابة فكيف شيخي؟ فإن الله غالب على أمره، ولم يزل أهل كل عصر يعترفون بالقصور عن مقام من تقدمهم من أسلافهم.

(١) يمثل: يطيع الأمر ويحتذيه.

(٢) يغمره: يغطيه بفضله.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٦.

وقد قال القشيري في أول رسالته التي أملاها في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة: اعلّموا أيها الإخوان أن المتحققين من هذه الطائفة قد انقضى أكثرهم ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطريقة إلا آثارهم، ثم أنشد:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحيّ غير نسائهم!!
ثم قال: حصلت الفترة في الطريقة، لا، بل اندرست الطريقة، مضى الشيوخ الذين كان لهم اهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطُوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة، حتى عدوا قلة المبالاة بالمعاصي والشهوات أوثق ذريعة إلى آخر ما قالوا، فإذا كان هذا قول القشيري في زمانه، فماذا يقول القائل في أهل النصف الثاني من القرن العاشر صاحب الغرائب والعجائب؟.

وقد أدركت أنا بحمد الله تعالى نحواً من سبعين شيخاً وماتوا كلهم بغصصهم ولم يروا مريداً يعجبهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فاعلم أن مقام الشيخ في هذا الزمان مشاكل حال المريد ومن طلب شيخاً متصفاً بعين ما اتصف به الإمام الجنيد مثلاً فكأنه رام المحال في هذا الزمان، ولكن حيثما كان الشيخ أعلم بالطريق من المريد كفاه ذلك ويجب عليه التقيد عليه، فإن من لا شيخ له لا يفلح أبداً في الطريق، كما مر في الباب الأول.

وكان أبو علي الدقاق رحمته الله يقول: إذا لم يكن للمريد أستاذ يأخذ منه طريقه نَفْساً بِنَفْسٍ وإلا فهو عابد لهواه، وأجمعوا على أن من لم يتب على يد شيخه أو غيره من جميع الزلات، سرها وجهرها، صغيرها وكبيرها، ويرضي جميع أخصامه لا يفتح له من هذه الطريق بشيء وعلى ذلك جروا، فإن طريق القوم كلها حضرة الله ﷻ، كحضرة الصلاة، أو كالجنة، فكما لا تصح الصلاة مع النجاسة، ولا دخول الجنة مع تبعات الخلائق، فكذلك لا يصح دخول الطريق مع المعاصي والتبعات.

وكان أبو القاسم القشيري رحمته الله يقول: يجب على المريد أن يصحح عهده بينه وبين الله تعالى أن لا يخالف شيخه في كل ما يشير به عليه، فإن الخلاف للمريد ضرر عظيم، ومن ابتدأ طريقه على مخالفة إشارة أستاذه لم يزل يخالفه في مستقبل

الزمان، فيجب عليه أن يعترض على شيخه بقلبه إذا استعمله في نزع^(١) السراب مثلاً، أو قال له: اعمل سراباتي؟.

وقد كان فتح الشيخ خليل المالكي صاحب المختصر بسبب نزحه سراب بيت الشيخ عبد الله المنوفي رحمته الله، فسمع الشيخ بطلب القنواتية فأتى بالفأس والزنبيل من الليل، وصار ينزح إلى الظهر، فما رجع الشيخ عبد الله من الدرس حتى نزع السراب كله، فدعا له الشيخ فصار علماء المالكية كلهم يرجعون إلى قوله وترجيحه إلى وقتنا هذا.

وقيل: إن القصة المذكورة إنما وقعت للشيخ عبد الله المنوفي مع شيخه.

وكان الشيخ أبو القاسم القشيري يقول: كل مرید خطر بباله أن له في الدنيا والآخرة قدراً وقيمة أو على وجه الأرض أحد من المسلمين دونه في الدرجة، لم يصح له في الإرادة قدم، وذلك لأن المرید إنما يجتهد في العبادة ليحصل له الذل والمسكنة بين يدي الله ﷻ لا ليحصل لنفسه المنزلة والجاه عند الناس إما بالعاجل، وإما في الآجل.

ومن شأنه: أن لا يكتم عن شيخه شيئاً من أحواله الظاهرة والباطنة حتى الخواطر التي استقرت عنده، ومتى كتم عنه شيئاً فقد خانته في الصحبة، وكان عليه تجديد الصحبة إن أرادها، والمراد بما قلنا الأمور التي يحصل بها الترقى عادة في الطريق من ذكر علل الأعمال دون الأمور العادية.

وأجمعوا: على أنه إذا حصل من المرید مخالفة لإشارة شيخه أو جنایة على أحد بغير حق كان عليه أن يُقرَّ بين يديه بالجنایة^(٢) على الفور، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه من العقوبات للنفس على تلك الجنایة من سفر يكلفه أو خدمة شديدة أو جوع شديد ونحو ذلك، وأجمعوا على أنه لا يجوز للأشياخ التجاوز عن زلات المرید، لأن ذلك تضييع لحقوق الله ﷻ، وكذلك أجمعوا على أنه لا يجوز للشيخ أن يلحق المرید شيئاً من الأذكار معنى التلقين الخاص إلا بعد تجرد المرید من كل علاقة دنيوية.

(١) النزع: الإبعاد.

(٢) الجنایة: الذنب.

ويجب على الشيخ أن يأمر المريد أن يذكر الله تعالى بلسانه بشدة وعزم، فإذا تمكن من ذلك يأمره أن يسوي في الذكر بين قلبه ولسانه ويقول له: أثبت على استدامة هذا الذكر، كأنك بين يدي ربك أبداً بقلبك، ولا تُجرِ على لسانك غير الاسم الذي لقتته لك ما أمكنك، ولا تترك الذكر حتى يحصل لك منه حال وتصير أعضاؤك كلها ذاكرة لا تقبل الغفلة عن الله تعالى.

وتقدم في الباب الأول أن تَمَّ^(١) جماعة من أولياء اليمن يلقنون المريد لفظ الصلاة على رسول الله ﷺ ويأمره بالاشتغال بها ليلاً ونهاراً وتحصل له بذلك سلوك الطريق، ويكون شيخه رسول الله ﷺ.

ولكن الجمهور كلهم على تلقين أسماء الله تعالى فقط، ثم بعد أن يلقنه الذكر يأمره بالجوع على التدريج شيئاً فشيئاً لئلا تقل قواه، فينقطع عن الذكر، فإن في الحديث: «إن المُنْبِتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» والمراد بالمنبت الذي حمّل دابته فوق طاقتها حتى عجزت واضطجعت في الأرض، فبهذا لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

وقد كان سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي رحمه الله يأمر المريد بأن يتناول غذاء المعتاد كمية من حب القمح، ثم يصير ينقص كل يوم قمحة، وتارة يعادل ذلك بخشب طري، فيصير ينقص غذاؤه كل يوم بحسب ما ينقص ثقل الخشب، وذلك أمر لا يحس به البدن، ولا يؤثر فيه ضعفاً، فمن أراد أن يقلل الأكل على التدريج فليفعل مثل ذلك، وكانت طريقة شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمه الله الأكل المعتاد مع كثرة الذكر بعزم وهمة.

ويقول: إن الذكر يهضم الطعام، ويقول: إن في الحديث: «أذيبوا طعامكم بذكر الله تعالى ولا تناموا عليه فتفسد قلوبكم».

وكان كثيراً ما يقول: نحن لا نحتاج مع الذكر إلى فجل وخل ولا شيئاً مما يهضم الطعام لاستغنائنا عن ذلك بالذكر، ولكن كان أصحابه أصحاب أعمال شاقة من حرث، وحصاد ودراس، ونحو ذلك، فلكل حال رجال، والحمد لله رب العالمين.

(١) تَمَّ: هناك.

ومن شأنه: أن لا يفعل مع الشيخ شيئاً يوحش قلب الشيخ منه فإن الله تعالى قد يغضب لغضب الشيخ ويرضى لرضاه، لأنه قد يكون أعظم حرمة من والد الجسم، وإيضاح ذلك أن الشيخ لا يأمر المريد إلا بما أمر الله به فمن خالفه فقد خالف الشارع ﷺ ووقع في غضب الله بحسب تلك المعصية من كبيرة أو صغيرة، فيا شقاوة من غير قلب شيخه وقتاً من الأوقات.

وعلى المريد إذا لم يجد من يتأدب به في بلده أن يسافر إلى من هو منصوب في وقته لإرشاد المريدين ثم يقيم عنده ولا يبرح عن بابه حتى يفتح عليه، ثم إن قابله الشيخ بالجفاء وعدم الاحتفال بأمره صبر، فربما فعل الشيخ معه ذلك ليريه عزة الطريق ليدخل إليها بالتعظيم ولا يستهين بها، وربما أمر الناس بصفه^(١) على عُنفه وعدم تمكنه من دخول الزاوية كما وقع ذلك «لسيدي محمد الغمري» مع سيدي «أحمد الزاهد».

وربما لحن الشيخ في كلامه العادي ليمتحن ذلك المريد إذا كان نحوياً كما وقع لسيدي الشيخ أبو السعود الجارحي مع الشيخ محب الدين اللقاني فإنه لما جاءه يطلب الطريق قال له الشيخ:

يظن بي الناس خيراً وإنني أشتر الناس إن لم يعف عني
بنصب الناس وأشر ففارقه ساكتاً وقال: هذا لا يعرف الفاعل من المفعول،
فرأى رؤيا فيها تعظيم الشيخ فجاء يقضها عليه، فأول ما رآه الشيخ قال: الصواب
رفع الناس وأشر، فقال الشيخ محب الدين: الله أكبر، فقال: على كل مخالف
للأدب، كيف تطلب أدب الطريق وتفر من نصبه؟ وتأتي برفعه، فتأب واستغفر،
فقال له الشيخ: أنا اشتغلت بالنحو زماناً، وإنما أردت اختبارك.

وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله يقول: يجب على كل من زار شيخاً أن يدخل عليه بالحشمة والحرمة، فضلاً عن شيخ الإنسان، ثم إن أهله الشيخ لشيء من الخدمة عد ذلك من جزيل النعمة، وليحذر من أن يقيم ميزان عقله الجائر على من يدخل عليه من الأشياخ، فربما مقتته ذلك الشيخ فلا يفلح بعدها أبداً، بل بعضهم تنصّر ومات على دين النصرانية، كما حكي.

(١) الصفح: هو الضرب بالكف مبسوطاً.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمته الله يقول: مما أنعم الله تعالى به عليّ أني ما دخلت قط على شيخ إلا وميزان عقلي مكسور وأرى نفسي تحت نعاله، فلا أخرج من عنده إلا بمدد وفائدة.

من أدب الطريق استئذان الشيخ

ومن شأنه: أن لا يحجّ إلا بإذن شيخه، فإن معرفة الأدب مع رب البيت مقدمة على معرفة أدب البيت، فمن سافر إلى البيت قبل معرفته لصاحب البيت المعرفة التي يعرفها القوم، فقد أخطأ طريقهم ولم يحصل له إمدادها، وبعيد أن يسقط عنه بها حجة الإسلام، كما أنه فرق عظيم بين حج شيخ الإسلام وبين حج أحاد العوام.

وغاية أمر من يحج بلا إذن شيخه تفرق قلبه بانتقاله من وادٍ إلى وادٍ، ولو أنه كان ارتحل بإشارة شيخه خطوة واحدة لكان ذلك أحسن له من ألف سفرة بالجهل.

وقد قال علماؤنا: وللزوج تحليل امرأته من حج تطوع لم يؤذن فيه وكذا من الفرض على المذهب، وأقل مقام طاعة الشيخ أن يكون كالزوج للمرأة، ويكون يتصرف في المريد كما يتصرف الرجل في زوجته، من حيث التحجير عليها والتربية لها.

وقد بلغنا أن الشيخ يوسف القطوري دخل على سيدي محمد الحنفي الشاذلي رحمته الله وهو يخمر طيناً فقال له سيدي محمد: انزع عمامتك وساعدنا، فنزع عمامته وخمر الطين، ثم لم يقل له الشيخ بعد ذلك البس عمامتك، فلم يزل من غير عمامة إلى أن مات، فقليل له في ذلك فقال: إن الأستاذ لم يأمرني بلبسها، بعد أن أمرني بنزعها، وليس من الأدب أن أبدأه بالمشاورة على لبسها.

هكذا قال، وهذا أدب عظيم، ما بلغنا مثله عن مريد، وإن كان الأولى مشاورة الشيخ ولبسها، لأن العمامة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن شأنه: أن يعتقد في شيخه الكمال، وذلك بأن يعتقد فيه أنه أعلم منه بطريق الشريعة والحقيقة.

قالوا: لكن لا يبالغ في كماله بحيث يرفعه إلى مقام العصمة.

وقد قال الإمام القشيري رحمته الله: لا ينبغي للمريد أن يعتقد في شيخه وأضرابه^(١) العصمة، إنما الواجب عليه الانقياد لهم فيما يأمرونه به من الخير ويذرههم وأحوالهم مع إحسانه الظن بهم، ويراعي مع الله حدوده فيما يتوجه عليه هو من الأمور وما وصل إليه مع علم الشريعة يكفيه في التفرقة بين ما هو محمود، وبين ما هو مذموم، فيعمل بما حققه ويستفتيهم فيما أشكل عليه.

قال: ومن أصدق دليل على سعادة المريد قبول قلوب المشايخ له، وكل من رده قلب شيخ من الأسيخ المتحققين فلا بد أن يرى عاقبة ذلك ولو بعد حين ومن خذل بترك احترام الأسيخ فقد أظهر رقم شقاوته، والله أعلم.

ومن شأنه: إذا أقامه الشيخ في خدمة سفرأ وحضرأ دون أن يحضر مجالس الذكر أن لا يتكدر^(٢)، فإن الشيخ إنما يستعمله فيما يراه خيراً له من سائر الوجوه، ومتى تكرر أو رأى أن اشتغاله بغير ذلك أفضل فقد نقض عهد شيخه فإن الشيخ أمين من جهة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته ومطالب بأن يفعل معهم ما يرقهم وينهاهم عما يؤخرهم في المقامات، فقد يكون ما يطلبه المريد يورثه عجباً ورياء وشهوة، أو يبتغي به ثناء ومدحاً بين الناس فيخسر مع الخاسرين.

وقد بلغنا أن سيدي إبراهيم المواهي لما جاء إلى سيدي الشيخ أبي المواهب يطلب الطريق إلى مقدمة الأدب مع الله تعالى أمره أن يجلس في الإصطبل يخدم البغلة، ويقضي حوائج البيت وقال له: احذر أن تحضر مع الفقراء قراءة حزب أو علم فأجابه إلى ذلك، فمكث سنين حتى دنت وفاة الشيخ فتناول أكابر أصحابه للإذن لهم في الخلافة بعده، فقال: اتئوني بإبراهيم فأتوه به ففرش له سجادة وقال له: تكلم على إخوانك في الطريق فأبدى لهم العجائب والغرائب نظماً ونثراً حتى انبهرت عقول الحاضرين، فرجع الذين كانوا تطاولوا للإذن وتعجبوا من ذلك، فكان سيدي إبراهيم الخليفة بعد الشيخ ولم يظهر من أولئك القوم شيء من أحوال الطريق، فعلم أن معرفة الأمور التي يقع بها الفتح راجعة إلى الشيخ لا إلى المريد.

قال القشيري: وإذا أمر الشيخ المريد أن يخدم إخوانه كان على المريد أن

(١) أضرابه: ج ضريب وهو الشبيه والنظير.

(٢) الكدر: عكس الصفاء.

يخلص نيته في ذلك، ويصبر على جفاهم له، مع شدة خدمته لهم، وعدم حمدهم له على ذلك، وينبغي له أن يعتذر لهم ويقيم لهم العذر على نفسه ويقول: أنا الظالم الذي لم يعمل على مرادكم حتى جفوتُموني ويقر بالجناية على نفسه ولو علم أنه بريء الساحة ما لم يكن في ذلك تعزير^(١) واحد، فإن إقراره على نفسه بذلك من غير أن يقع منه ظلم للنفس وذلك حرام.

ومن شأنه: أن يلزم الأدب مع الشيخ إذا أسكت الجماعة في مجلس الذكر فليس له بعد ذلك أن يفعل في الذكر، لأن الشيخ لا يشير عليهم بالسكوت إلا بقدر استئذانه الحق تعالى بقلبه ومعرفة ما ألقى به إليه من طريق الإلهام^(٢) من الإذن له في إسكاتهم أو عدمه، ويعرف ذلك غالباً بانسراح القلب وانقباضه، فإن انشرح لإسكاتهم أسكتهم، وإن انقبض تركهم في الذكر. وقد تقدم بسط ذلك في الباب الأول.

وكان شيخنا سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: لما أخذ عليّ شيخي العهد بأني لا أخالفه ولا أكتُم عنه شيئاً من أمري كنت لا أكل ولا أشرب ولا أنام، ولا أقرب من زوجتي، حتى أقول بقلبي: دستور يا سيدي.

وقال لي: من واطب على ذلك في حق أستاذه ترقى منه إلى صحة معاملة الله ﷻ لأن الشيخ مرتبة إدمان للمريد يتمرن فيها قبل معاملته الله ﷻ، فكل أدب لم يحكمه مع شيخه لا يصح له فعله مع ربه ﷻ إلا برعونة نفس، وليس في ذلك ترقى.

وكان رحمته الله يقول: كل مريد منعه شيخه شيئاً من الدنيا وتكدر لذلك فكذاك ربما يسخط على مقدور الحق تعالى إذا منعه شيئاً كان يطلبه وقس على ذلك سائر الأمور فليحذر المريد من التكدر إذا فرّق الشيخ ذهباً أو فاكهة مثلاً ونسيه، فإن ذلك سوء أدب مع الشيخ والله أعلم.

ومن شأنه: أن يكون فطناً لما يأمره به شيخه، أو ينهاه عنه، ولا يحوجه إلى تصريح بأمر أو نهى فيه لا سيما بحضرة من ليس من القوم، بل يفهم من الرمز والإشارة.

(١) التعزير: هو العقاب بما هو دون الحق الشرعي.

(٢) الإلهام: ما وقع في القلب من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة.

وقد كان خادم الشيخ أبي يزيد البسطامي رحمته الله لا يحتاج معه إلى لفظ إنما كان أبو يزيد يكلمه بالقلب من غير لفظ فيفهم الأمر ويفعله . وكذلك وقع لسيدي أبي العباس الغمري مع خادمه .

وقال لي الشيخ عبد الله الفاعل : مرة كان الشيخ أبو العباس يكلمني بالباطن من غير لفظ فأفهم الأمر وآتيه بما يؤكل أو يشرب أو يلبس على التعيين .

وأخبرني الشيخ محمد الطنخي أحد أصحابه قال : قال لي يوماً سيدي أبو العباس : يا محمد أريد منك أنك تصير تفهم لإشارتي من غير لفظ وتفعل كل ما أكلمك فيه بقلبي ، فقلت له : نعم . فدخل علينا ابن السلطان قايد باي فالتهمى به الشيخ عني ثم لم أتجرأ أن أسأله عن ذلك الأمر إلى أن مات .

ومن شأنه : أن لا يشرك مع شيخه أحداً في المحبة من سائر من لم يأمره الله تعالى بمحبته فيجعل محبة الله وسط قلبه ويجعل محبة رسول الله ﷺ قريبة من ذلك ، وهكذا على اختلاف مراتب المحبوبين شرعاً ممن تكون محبتهم من الإيمان ، فمثل محبة هؤلاء لا تضر مع محبة الشيخ ، لأمر الحق تعالى المرید بها .

وكان سيدي علي بن وفا رحمته الله يقول : محبة الأنبياء والأولياء وصالحي المؤمنين لا تضر مع محبة الشيخ ، لأنها من جملة الشريعة ، والشريعة نور ، والأنوار تتداخل بخلاف الأمور التي نهت الشريعة عنها فإنها ظلام كثيف لا تتداخل ، فلو وضع في البيت الواحد ألف سراج شمع نورها كلها .

وكان يقول كثيراً : إياكم أن تشركوا في المحبة مع شيخكم أحداً من المشايخ ، فإن الرجال أمثال الجبال وهم على الأخلاق الإلهية المشار إليها بقوله ﷺ : «تخلّقوا بأخلاق الله» ، فكما أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به فكذلك محبة الأشياء لا تسامح أن يشرك بها وكما أن الجبال لا يزحزحها عن أماكنها إلا الشرك بالله تعالى ما دام العالم باقياً ، فكذلك الولي لا يزيل همته عن حفظ مريده من الآفات إلا شرك موضع خالص المحبة من قلبه .

قال تعالى : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّوا لِلْجِبَالِ هَذَا

(١) ينفطرن : يتشققن ويتصدعن .

(٢) خرّ : سقط من علو إلى سفلى بصوت .

﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَ ﴿٩١﴾ ﴿١﴾.

وهو أي كلام الشيخ يحتاج إلى تعقيب فاطلب يا أخي من نفسك الصدق في محبة أستاذك تنل به ما تريد، ولا تطلب منه أن تشغل قلبه بك، وتهمل أنت أمر نفسك فإن ذلك لا يفيد.

ومن شأنه: إذا كان بعيد الدار عن مكان شيخه أن يحافظ على الصلاة في زاوية شيخه ما أمكن، وقد كان لي صاحب اسمه أبو بكر الديريني ساكناً بجوار الجامع الأزهر فكان يصلي عندي الجمعة ويترك جامع الأزهر، مع كثرة جماعته، فقلت له: صل في جامع الأزهر فإنه أفضل لك، فقال: إن لي في ذلك غرض شرعي، فكنت أتعجب من صدقه ﷺ في اعتقاده، فإن لم يتيسر للمريد صلاة الجمعة عند أستاذه فليتحيله عنده في أي مسجد صلى فيه، فإن الحكم دائر مع القلب لا مع الجسم.

ومن شأنه: أن يعتقد في شيخه أنه أعرف بخواطره وعيوبه الباطنة منه لكن من طريق الإلهام لا من باب سوء الظن والكشف الشيطاني.

وإيضاح ذلك أن العامة لا تقيس غيرها إلا بالميزان الذي عندها في الباطن من خير وشر، والأشياخ قد ترقّت عن مثل ذلك، فلم يكن في باطنهم شر أبداً حتى يقيسوا عليه حال غيرهم، ولما علم الله احتياج المريد إلى اطلاعهم على ما في باطنه من الشر ليدأوه بما يزيله، أعطاهم الإلهام الصحيح بدل ذلك الميزان الذي كانوا يحملون عليه أحوال الناس فهو أعرف من المريد بأحواله. ويؤيد ذلك أن البيطار^(٢) أعلم من صاحب الدابة بعيوبها، مع أن صاحبها مخالط لها ليلاً ونهاراً.

وهذا الاعتقاد قليل في المريدين حتى كان سيدي علي بن وفا ﷺ يقول وهو في عام أربع وثمانمائة: لم أجد إلى الآن مريداً صادقاً معي، يعترف لي بأني أعرف منه بخواطره، وصفاته الباطنة، ولو وجدته لأفرغت فيه جميع ما عندي من العلوم والأسرار.

(١) سورة مريم، الآيتان: ٩٠ - ٩١.

(٢) البيطار: معالج الدواب.

وكان ﷺ يقول: كل الأشياخ يموتون بَعْصَصِهِمْ^(١)، ولا يجدون من يحمل أسرارهم، ولكن من فاته سر أستاذه فليواظب على ورده فإن سره فيه.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: يا مريدي إن صدقت معي وصح عهدك فانا منك قريب غير بعيد، وأنا في ذهنك، وأنا في طَرْفِكَ، وأنا في جميع حواسك الظاهرة والباطنة، وإن لم تصدق معي كنت منك بعيداً، ولا تشهد أنت معي إلا البعد.

وكان ﷺ يقول: إذا صدق المريد مع شيخه ونادى شيخه من مسيرة ألف عام أجابه حياً كان الشيخ أو ميتاً، فليتوجه الصادق بقلبه إلى شيخه في كل أمر دهمه^(٢) في دار الدنيا، فإنه يسمع صوت شيخه ويغيثه مما هو فيه ومهما ورد عليه من مشكلات سره، يطبق عينيه، ويفتح عين قلبه، فإنه يرى شيخه جهاراً، فإذا رآه فليسأله عما شاء وأراد.

وكان يقول: يا ولدي إن كنت صادقاً فلا تصحب غير شيخك واصبر على جفاه فإنه ربما امتحنك بترك ما تحب يريد بك الخير، وتكون محلاً لأسراره، ومطلعاً لأنواره.

وكان يقول: المريد الصادق مع شيخه، كالमित مع مغسله لا كلام ولا حركة، ولا يقدر ينطق بين يديه من هيئته، ولا يدخل، ولا يخرج، ولا يخالط أحداً، ولا يشتغل بعلم، ولا قرآن، ولا ذكر إلا بإذنه، لأنه أمين على المريد فيما يرقه، ورب عمل فاضل دخلته النفس فصار مفضولاً.

ثم يقول: هكذا كانت طريقة الخلف والسلف مع أشياخهم، فإن الشيخ هو والد السر في اصطلاحهم ويجب على الولد عدم العقوق لوالده وليس للعقوق ضابط يرجع إليه، إنما الأمر عام في سائر الأحوال، وما جلوه إلا كالमित بين يدي الغاسل.

فعليك يا ولدي بطاعة والدك المذكور وقدمه في كل أمر لك بأوامر الله على والد الجسم، فإن والد السر أنفع من والد الجسم، وذلك لأن والد السر يأخذ

(١) النُصَّة: ما اعترض الحلق من طعام أو شراب فلم يسغه والمراد هنا يموتون دون تحقيق ما يريحهم.

(٢) دهمه: فجأه.

الولد كأنه قطعة حديد جامد، فلا يزال يسبكه، ويذيبه، ويقطره، ويلقي عليه من سر الصنعة سراً حتى يجعله ذهباً إبريزاً^(١).

قال: وقد صحب كثير من الناس الأشياخ بلا أدب فماتوا ولم ينتفعوا منهم بشيء، وبعضهم مقت آه آه من صدور الرجال ومن صحبة الأضداد ومن سماع المريد المحال.

ومن شأنه: أن لا يلتفت لشيء من الدنيا بعد أن جمعه الله على شيخه فإن بين يديه جميع ما قسم للمريد من الدنيا والآخرة.

وقد كان سيدي علي بن وفا رحمته الله يقول: إن وجدت أستاذك المحقق فقد وجدت حقيقتك، وإذا وجدت حقيقتك وجدت الله عندها، وإذا وجدت الله عندها وجدت كل شيء، فليس كل المراد إلا في وجد هذا الأستاذ. فافهم تغنم. وكان يقول: إذا صدق المريد صار عين أستاذه.

وكان يقول: أنت على الصورة التي تشهد أستاذك عليها، فاشهد ما شئت، وانظر ماذا ترى إن شهادته منافقاً، فأنت منافق، وإن شهادته مخلصاً فأنت مخلص، لأنه مرآتك، ولا ترى في المرأة إلا صورتك لا جرم المرأة.

وكان يقول: ما الأمر إلا أن تجد أستاذك وقد وجدت مرادك، هنأ الله فؤادك.

وكان يقول: ليس للمريد أن يحكي كل ما يقع له مع شيخه، فقد لا يؤمن من يحكي وقائعه له بكلام أهل الطريق ويضعفه، وما للسالك مع الهالك.

وكان يقول: لا يتعذر عليك أيها المريد العمل بما أمرك به أستاذك إلا لعدم كمال قبولك لذلك، ونقص استعدادك، وإنما كلمك أستاذك بذلك ليرقي همتك إلى ما هو أرقى مما أنت فيه.

وكان يقول: لا تطالب أستاذك بشيء ولا بالجواب عن شيء سألته فيه، وليس ذلك من شأن المريد الصادق مع شيخه.

وكان يقول: مهما رأيته من شيخك من كمال أو نقص فهو صنعة باطنك،

(١) الإبريز: الخالص.

ولشيخك في نفسه مقام آخر فوق ذلك فإياك أن تظن نقصاناً بأهل الكمال فتقول ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾^(١) بل اعرف أن ذلك إنما كان تعليماً لك كيف تتدارى إذا وقعت في الذنب، وتغيرت أحوالك بالكدورة بعد الصفاء.

وكان يقول: من شأن المريد الصادق أن يكون أصدق الناس إلى امتثال أمر شيخه، فإن كان لم يبادر إلى امتثال أمر شيخه فهو دليل على عدم صدقه، وصدقه على قدر تخلقه بالأوائل أو الأواخر، ومن هنا كان الإمام أبو بكر أسبق إلى تصديق رسول الله ﷺ من سائر قریش، لكونه كان أضعف قریش رابطة فيما كانوا عليه مما تضاد طريق الهدى وأقواهم رابطة فيما يقرب من طريق الهدى.

وكان يقول: من أحب من المريدين أن يكون في حفظ رب العالمين فليخدم شيخه بصدق، ويبادر إلى طاعته، ولا يخالفه فيما يشيره عليه، قال تعالى: ﴿وَلَسَلَيْنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾^(٢) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوُصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ^(٣) فانظر كيف حفظ الله الشياطين لما كانوا في خدمة أوليائه الصادقين وتحت طاعتهم.

وكان يقول: ما دام المريد تحت حكم أستاذه فترقيته دائم، فإن خرج عن حكمه ولو اعتماداً على ما حصله منه قبل ذلك من الأقوال والأفعال هلك مع الهالكين كمثل الحجر المرفوع إلى نحو السماء تراه يرتفع ما دامت القوة الرافعة تمده وتصاحبه، ومتى فترت^(٤) عليه القوة الرافعة انحط إلى الأرض. والقوة هي نظر أستاذك إليك فافهم تغنم.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يربي أولاده بالنظر من غير كلام.

ويقول: إن السلحفاة تربي أولادها بالنظر وكل من توارى عليها من أولادها هلك، فنحن أولى بذلك من السلحفاة.

ومن شأنه: أن لا يقنع بمجرد اعتقاده في الشيخ، ويتساهل فيما يأمره فيه، أو ينهاه عنه.

(٣) فترت: سكنت بعد حدة ونشاط.

(١) سورة طه، الآية: ١٢١.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨١ و٨٢.

ويقول: نظر سيدي يكفيني، فإن ذلك جهل بالطريق.

وقد قال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ: أسألك مرافقتك في الجنة فقال له ﷺ: «أعني على نفسك بكثرة السجود». فلم يجبه ﷺ إلى أنكاله عليه دون العمل. وخرج ﷺ مرة فقال: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئاً».

وكان سيدي علي بن وفا ﷺ يقول: لا تطلب من شيخك أن يمنحك الأسرار وأنت لم تتطهر من أعمال الفجار، فإن من وضع العسل في قشور الحنظل تمرّر لمرارة وعائه، والتبس على الجاهل أن العسل مرٌّ من أصله.

وكان يقول: المريد الصادق عرش لاستواء رحمانية أستاذه عليه، وقد كتب الله تعالى على نفسه، أن لا يدخل قلباً دخله سواه، ولا يظهر لعين رأت غيره في مرآة، ومعنى دخول الحق القلب، دخول رضاه ورحمته، والله أعلم.

ومن شأنه: أن يعطي شيخه الأمان من تغيير اعتقاده فيه، وذلك بأن يكون محباً لشيخه لا معتقداً فيه، فإن المحب لا يتغير والمعتقد يتغير إذا تغيرت الصفة التي اعتقده لأجلها، ولذلك كان الشيخ الكامل لا يعبأ باعتقاد المريد فيه، ولو بالغ في الاعتقاد فإن نفس المعتقد إنما تسكت حيث عقّلها عقلها النظري بعقل ظنيّ مسدّد من لحي أعراض الأحوال والأعمال والأقوال والظنون بالتناسخ، ومعلوم أن الأعراض لا تبقى وكأنك بالعقل وقد انحل أو تمزق ورجع المعقول إلى توحشه وإفساده بخلاف المحب، فإن الشيخ منه في قرار البحار، لا يريد إلا ما يريد، فالمحب قليل، والمعتقد كثير، وما قل ونفع، خير مما كثر وألهى، وكفى باللهو ضرراً.

وكان سيدي علي بن وفا يقول: لا يخلو مريد من محبة شيخه، ولكن غالب تلك المحبة لعلّة، والمحبة الصادقة فوق العلل كلها كمحبة الوالدة لولدها.

وكان يقول: احذر أيها المريد إذا بعث نفسك لشيخك أن تخفي عنه شيئاً من عيوبك، فإن البائع إذا بيّن وصدق بورك له في بيعه، وإذا كذب وكتّم محقت بركة بيعه إذا اشترى، والمشتري بعد بيان العيب لم يبق له أن يرد السلعة، وإن اشترى من غير بيان كان له الرد، ومن ثم جاء في الحديث: «من اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه».

وكان يقول: اجعل نفسك عبداً لله تعالى وكالعبد لشيخك بحكم الوساطة كما جعلت سيدك ونيك ﷺ واسطة بينك وبين الله تعالى، فإن لسان حال الأستاذ في كل زمان ينادي على لسان الأفهام، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾^(١) وكفى من كان محباً لله ولرسوله وشيخه أن يكون مع من أحب.

وكان يقول أيضاً: لسان حال الأستاذ يقول: لكل مرید صادق تقرب إلى الله بنوافل امتثال الأوامر حتى أحبك فإذا أحبيتك ورأيتك صادقاً في المحبة ظهرت فيك على قدر استعدادك.

وكان يقول: إنَّ تحقق المرید الصادق بمحبة شيخه كان كله جداً وحقاً وإلا فهو باطل وهزل، وهو بحسب صدقه وكذبه.

ومن شأنه: أن لا يرى نفسه يستغني عن علم شيخه ولو صار من مشايخ الإسلام، فإن طريق القوم أمر خاص زائد على علوم الظاهر، ولا يقدر غالب أصحاب العلم الظاهر على إزالة شيء من أمراض الأعمال الباطنة، وإنما يقولون: للسائل عنها من غير بيان طريق إزالتها بخلاف أصحاب القلوب فإنهم يقولون له: أكثر من ذكر الله ﷻ حتى ينجلي قلبك، وتذهب رعونات نفسك، فهناك تدرك الحق والباطل، وتعرف أنك محجوب عن ربك بسبعين ألف حجاب، فتطلب حينئذ الشيخ طلباً ضرورياً ليعلمك الآداب الخاصة بالطريق، وترى نفسك لم تشم من طريق أهل الله تعالى رائحة من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد كان الشيخ أبو العباس ﷺ يقول: ما صحب عالم مشايخ القوم إلا ازداد علمه نوراً إلى نور، فالعاقل من اتخذ له شيخاً ولم يكتف بما عنده من علم الظاهر، لأن الشيخ يصل به إلى محل القرب من حضرة الله تعالى، فيصير يكره المعاصي طبعاً في تلك الحضرة حتى لو قيل له: اعص الله تعالى لا يقدر لارتفاع حجابيه.

وقد اتخذ الإمام الغزالي له شيخاً مع كونه كان حجة الإسلام.

وكذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام اتخذ له شيخاً مع كونه لقب بسلطان العلماء، فغايتك يا أخي في العلم أن تكون كأحد هذين الشيخين.

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

وكان أهل العصر الأول لقلّة أمراضهم وعللهم لا يحتاجون إلى شيخ فلما ذهبوا وحدثت الأمراض احتاج الفقيه إلى شيخ ضرورة، ليسهل عليه طريق العمل بما علم.

الصُّوفي الحق

فإن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه، أي على وجه الإخلاص لا غير، فليس علم التصوف إلا معرفة طريق الوصول إلى العمل بالإخلاص لا غير، فلو عمل العالم بعلمه على وجه الإخلاص كان هو الصوفي حقاً.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: لو أن العالم أتى إلى الصوفية خالصاً من العلل والأمراض لأوصلوه إلى حضرة الله في لحظة، ولكنه أتاهاهم بأمراض وعلل ظاهرة وباطنة من دعوى العلم، ومحبة الدنيا وشهواتها، وباطنه مملوء بالحسد، والمكر، والخداع، والحقد، والغش وغير ذلك، فلذلك أمره بعلاج ذلك ليتطهر منه، فإنها أخلاق الشياطين.

وقد أوضحنا ذلك في مقدمة كتابنا المسمى «مشارك الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية».

ومن شأنه: أن يلزم كلياً جمع قلبه على الله تعالى ويترك كلياً تشيت قلبه عن الله بأن يلزم المأمورات ويترك المنهيات، فلا يرى إلا فعل واجب أو مندوب أو أولى، ويجتنب الحرام والمكروه وخلاف الأولى وذلك لأن الله ﷻ يرفع الحجاب عنا في المأمورات ويسدله علينا في المنهيات.

فلو أردنا أن نحضر بقلوبنا معه في حرام، أو مكروه، أو خلاف الأولى، لا نقدر، ولو أردنا أن نحتجب عن شهودنا له في واجب أو مستحب أو أولى لا نقدر ولا يصح لنا ذلك إلا إن طرأ على المأمور رياء أو عجب ونحو ذلك فإنه حينئذ يخرج عن قسم المأمور، ويصير من قسم المنهي، فتأمل ذلك فإنه نفيس.

ومن شأنه: أن لا يتساءل بهجر شيخه، فقد قال سيدي محمد وفا رحمته الله: كل مرید هجره أستاذه فلم يتأثر من ذلك ولم يشق إليه ولم يبادر لتطبيب خاطره عليه، فقد مقته الله ومكر به.

وكان سيدي أبو العباس المرسي رحمته الله يقول: عمدة أحوال المرید صدقه في

محبة أستاذه، وكل مرید خاف من أحد من الخلق مع وجود أستاذه فهو كاذب في استناده إليه، فإن المرید مع شيخه كولد اللبوة في جحرها، أفترها تاركة ولدها لمن يريد اغتياله، لا والله.

وكان يقول: لا تطالبوا الشيخ بأن يكون خاطره معكم، بل طالبوا أنفسكم بأن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده، لأن همته مصروفة إلى حضرة الحق تعالى لا إليكم، فالمرید هو الذي يتعلق بشيخه، لا أن شيخه يتعلق به.

وكثيراً ما يقع من أصحابي الصادقين أنهم يشهدوني معهم في البلاد البعيدة كمصر ومكة والمدينة والروم، ويصيرون يحلفون بالله أنهم رأوني هناك يقظة ومناماً فأعرف بذلك صدق ارتباطهم بي، فإني ما علمت أني رحت إلى تلك البلاد إلا منهم ولو كنت رحت حقيقة ولو كنت أعلم بذلك، فمن صدق اعتقادهم تخيلوني عندهم.

وكان سيدي أبو العباس المرسى رحمته الله يقول: لا ينبغي أن يكون بين المرید وأستاذه عورة من حيث الأمراض التي عنده لأن شيخه طيبه وحال المرید الباطن عورة، ويجوز كشفها للطبيب لضرورة التداءي، ولا ينبغي له أن يكلف شيخه بمكاشفته بعيوبه، لأن الأشياخ منزهون في كشفهم عن الاطلاع على العورات، لأنه كشف شيطاني يجب عليهم التوبة منه، وسؤال الحجاب حتى لا يقع بصرهم على عورة أحد من خلق الله تعالى، ولولا أن المرید يخبرهم بأحواله الباطنة ما عرفوها منه.

وكان يقول: كل مرید تشوش من أستاذه إذا ناقشه في أعماله وأحواله فقد جهل وأساء الأدب ونقض العهد، فإن الواجب في اصطلاحهم على الشيخ مناقشة المرید، ومطالبته بحقائق دعاويه، فإذا بلغ المرید مبلغ الرجال استغنى عن مطالبته بالبرهان لخروجه حينئذ عن مقام التلبس.

ورأى مرة مریداً قد زهد في الدنيا ورأى نفسه بذلك على إخوانه فقال: اسمع يا ولدي إن الذي رأيت نفسك فيه على إخوانك أصغر قدراً من ذلك لأنه لا يزن عند الله جناح بعوضة، فكيف تزدري المؤمن الذي هو أعظم حرمة من الكعبة بتركه.

وكان يقول: اعمل أيها المريد على صحة نسبك من شيخك لتحيط بأنواره، فلا يدخل حضرة إلا وأنت معه.

وكان يقول: احفظ كل ما تسمعه من شيخك ولو لم تفهمه حال السماع فإن قلم قلب شيخك ربما كتب في قلبك ما لا تفهم أنت معناه في الحال لتفهم معناه في المستقبل، فاحفظ به حتى يجيء أوانه.

وكان يقول: إذا صحت نسبتك من شيخك كان تأثيره بالأمداد فيك أكثر من تأثير أذكارك وجميع أعمالك.

وكان يقول: قلوب المريدين تحت ظل الأشياخ، وقد خاب من لم يكن تحت ظل قلب شيخ.

وكان يقول: ما نظر مريد إلى شيخه بعين توقير ووداد إلا كان سالكاً سبيل حق ورشاد.

وكان يقول: عليك أيها المريد بالتقيد بإشارة شيخك، فلئن تسير قدماً واحداً على أثر شيخك أحسن لك ألف فرسخ تسيرها بهواك.

وكان يقول: لا ينبغي لمريد أن يفارق شيخه، ولا خدمته حتى يعاين الطريق، ذوقاً لا علماً، فلا يقنع بسمعت ورويت؛ وإنما يقول: شهدت ورأيت.

وكان يقول: من أدب المريد مع شيخه أن يرى خدمته مقدّمة على خدمة أبيه الطيني المجرد عما يعلمه له شيخه من الخير لأن أباه كدّره وأباه الروحي صقّاه، وأباه الطيني مزجه بالماء والطين، وأستاذه رَقَّاه إلى أعلى عليّين.

وكان يقول: سماعتك من شيخك كلمة أدب في لحظة واحدة أفضل من أدب أبيك لك ومعلمك في الأدب الظاهر عشرين سنة وذلك لأن العارف يؤدب روحك وغيره يؤدب نفسك، وإيضاح ذلك أن معلم الروح أعلى من معلم النفس، وإن كانا حقيقة واحدة عند المحققين، وأين روح الولي المطهّر من الأدناس من روح العاق الملطخ بالأدناس.

ومن شأنه: أن يكثر من شكر الله تعالى الذي جمعه على الشيخ، فإن كل مريد لم يصادق رجلاً يربيّه خرج من الدنيا وهو متلوّث بالذنوب ولو كان على عبادة الثقيلين.

وكان سيدي أبو العباس المرسى رحمته الله يقول: لا يصدق المريد في محبة شيخه حتى يصير يسمع كلامه من جهاته محيطاً به وليس مراد العارفين بكلامهم للمريد إلا أن يخرجوه من الضيق إلى السعة، ومن الظلمة إلى النور.

وكان يقول: المريد الصادق لا يطلب من الشيخ أن يقبل عليه كلما أتاه، فإن الشيخ مشغول بربه ﷻ، وربما يقع له في بعض الأوقات أنه لا يعرف ولده فضلاً عن غيره، وربما كان في جملة أهل بلده أو إقليمه فلا يصير له التفات إلى أحد من الخلق، ولا يلتفت إلا لمن يشاركه في البلاء، وأنت أيها المريد ضعيف الحال، ولو أنك حين شاركته لعذرته حين يذوب جسمك كما يذوب الرصاص على النار.

ومن شأنه: أن لا يتعب شيخه في تربيته بأن يكون سميعاً مطيعاً لكل ما يشير به عليه.

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله يقول: ليس المريد من يفتخر بشيخه، وإنما المريد من يفتخر شيخه به.

وكان يقول: متى لم يكن المريد يعتقد في شيخه الاعتقاد التام؟ وإلا لم يفلح على يديه بل تنعكس ظلمة باطنه عليه فيظن أن صفاته هو هي صفات شيخه فلا يهذب بأخلاقه ولا يؤدبه بإطراقه ولا ينور باطنه بإشراقه.

وكان يقول: كل من لم يصبر على صحبة شيخه ابتلاه الله بخدمة النساء وموت القلب. وكان الشيخ أبو الحجاج الأقسري رحمته الله يقول: من صدق في الإرادة مع الشيخ لا يحتاج إلى الاجتماع بجسمه بل يكفيه التوجه إليه بالقلب لأن صور صحة المعتقدات إذا ظهرت لا تحتاج إلى صور الأشخاص ولكن إن حصل للمريد الجمع بين الصورتين فهو أكمل.

وكان يقول: من شرط المريد أن لا يصحب شيخه بنفس ولا ملك ولا اختيار، بل يرى نفسه ملكاً لشيخه يتصرف فيها كيف يشاء، وكل من طلب الوصول إلى مقامات الرجال بغير محبة شيخ ومخالفة نفس فقد أخطأ الطريق.

وكان يقول: من خدم شيخه بلا أدب جرّه ذلك إلى العطب، ومن خدمه بالأدب فقد حاز عز الدارين وحصل الأرب.

وكان يقول كثيراً: لا ينال المرید الصادق درجة الرجال حتى يبذل الروح ويفني إرادته تحت مراد شيخه، ثم ينشد:

ولو قيل لي مُتْ مُتْ سمعاً وطاعة وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحباً
وكان يقول: من علامة شقاء المرید: أن يُرزق صحبة الشيوخ ولا يحترمهم.

وكان أبو بكر الوراق رحمه الله يقول: كل مرید لا تغنيه رؤية شيخه عن الطعام والشراب أسبوعاً فليس بصادق.

وكان يقول: كل مرید لا ينتفع بأفعال شيخه لا ينتفع بأقواله.

وكان يقول: كل مرید اشتغل بخدمة شيخه ترقى إلى حسن خدمة الله ﷻ، ومتى فرط في خدمة شيخه حرم حسن معاملة الحق تعالى فعليكم أيها المریدون بخدمة الأشياء، فإنهم كالصياد الذي يصطاد المریدین من أفواه الشياطين، وكل من بلعه الشيطان في بطنه شقي إلى الأبد.

وكان يقول: إذا أمرك شيخك بالخلوة فاسمع ولا تطالبه بدليل على ذلك، وتقول: إنما اختلى رسول الله ﷺ في غار حراء قبل نزول الوحي عليه فلما نزل الوحي عليه لم يبلغنا أنه اختلى، وقد وجدنا نحن بحمد الله الوحي من قرآن وسنة وما بقي إلا العمل بهما، فأی فائدة للخلوة؟ بل اسمع لشيخك فإنه إنما يريد بخلوتك تقوية استعدادك وتهيئة العمل بالكتاب والسنة، حتى تتلطف كشافتك بالرياضة فتصير تفهم أسرار الشرع وترسخ في مقام الإيمان، فلا يفتنك الشيطان، لا في الحياة، ولا عند الموت، فالخلوة مرتب عليها العمل بثمره الوحي وظهور نور الله ﷻ، وإنما كانت أربعين يوماً لأن مدة الدرّ في صدقه كذلك، وكذلك هي عدد أيام توبة نبي الله تعالى داود، وفيها يكون نتاج النطفة علقه، ثم مضغة، ثم صورة.

وكان يقول: عليك أيها المرید بصحبة الشيخ صاحب الحال، فإن لم تجده فعليكم بصاحب المقال، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يُمْسِكْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾^(١) وإياك وصحبة من لا حال له ولا مقال.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول: لا يكمل الفقير إلا إن كان ذا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٥.

مال وحال، وقال: من لم يطعه بحاله أو مقاله أطاعه بماله.

وسمعه يقول: أهل العراق حال بلا قال، وأهل الشام قال بلا حال، وغالب مشايخ مصر لا حال ولا قال، فلا تصحب أحداً منهم إلا بعد تفتيش.

وكان أبو محمد الكتاني رحمته الله يقول: إذا مات شيخ الإنسان ولم يجد بعده إلا من هو دون شيخه في الدرجة، بحيث لا يكفيه في طريق سلوكه، فلا ينبغي له أن يخدمه بل يخدم الله تعالى، فإنه أولى به.

وكان يقول: ما ثقل مريد على قلب شيخ إلا لعله بالمريد أخفاها عن الشيخ.

وكان يقول: حضرة الشيوخ صباغة، فكل من دخل عليهم بشيء من إنكار أو اعتقاد خرج مصبغاً به.

وكان يقول: من الشيوخ من ينتفع به مريده الصادق بعد موته أكثر من انتفاعه به حال حياته، وبعضهم سمع نطق شيخه من قبره، يأمره وينهاه كأنه يقول: صحبة الشيخ الذي ينتزل لمقام المريد هي النافعة، فإن من لا ينتزل لمريده لا يقدر أن يسير وراءه.

وكان يقول: إياك أن تفشي أسرار شيخك، في تقريره لكلام القوم لمن لا يؤمن به ولا ذوق له في الطريق فربما مقتك بسبب ذلك فلم تفلح بعدها.

وسمعت ورأيت خلقاً من هؤلاء كثيراً أفشوا أسرار أشياخهم وشنوا الغارة بتحريفهم كلام شيخهم عن مواضعه وبعضهم قتل، وقد أخفى رسول الله ﷺ قراءة القرآن مدةً بحضرة من لا يؤمن به حتى قوي الإسلام وأسلم عمر بن الخطاب وغيره.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمته الله يقول: إياك أيها المريد أن تفشي أسرار شيخك بين إخوانك من أصحابه، فربما نقضوا عهد شيخهم واجتمعوا بأعدائه وبمن لا يؤمن بكلامه، وشنوا عليه الغارة، وصاروا يقولون: ما سمعنا ذلك إلا من أخص أصحابه.

فإياك يا أخي وعثرات اللسان بإظهار عثرات شيخك، فربما تغيرت أحوال من أفشيت سر شيخك لهم، وجعلوا ما سمعوه منك سلاحاً لوقت العداوة،

فكيف بعثرات اللسان عند من ليس هو من أهل طريقك؟.

قال: وقد أصيب من هذا الباب خلقٌ كثيرٌ لثقتهم بأصدقائهم، فالعاقل من صحب شيخه كما يصحب الملوك، وقد أنشدوا في ذلك:

إذا صحبت الملوك فالبس من التوقي أجل ملبس
وادخل إذا دخلت أعمى واخرج إذا خرجت أخرس
وقد كان أبو القاسم الجنيد رحمته الله إذا طلب أحد منه الصحبة يقول له: اذهب
فاخدم الملوك، ثم تعال بعد ذلك نصحبك.

من شأن المريد أن لا يقول لشيخه لِمَ؟!

ومن شأنه: أن لا يقول لشيخه قط لِمَ، وقد أجمع الأشياخ على أن كل مريد
قال لشيخه لِمَ، لا يفلح في الطريق.

وكان الشيخ عبد الرحمن الجيلي رحمته الله يقول: ربما منع المريد من الزيادة في
المقامات لأجل قوله لشيخه: لِمَ؟ فإنه ذنب عند أهل الطريق ولا يشعر به غيرهم،
فإن الطريق كلها أدب وتأديب، فمن تأدب من حضرة شيخه تأدب مع حضرة الله
تعالى، ومن أساء الأدب مع حضرة شيخه، أساء الأدب مع حضرة الله تعالى،
ولا يكمل شيخ في مقام التربية حتى يناقش المريد في الأدب معه أو مع الله
تعالى مناقشة المجلس جلسه، والصاحب صاحبه، لأن الأشياخ بؤابون لحضرات
الحق تعالى، فهم يُعلمون كل من أراد دخول حضرة من الحضرات آداب تلك
الحضرة رضي الله عنهم أجمعين، فما نفرت نفسه من مناقشة شيخه إلا من أشقاه
الله تعالى. وكان يقول: لا تجالسوا الشيخ إلا بالأدب، فقد أساء قوم الأدب مع
الشيخ فمقتوا ومحي اسمهم من ديوان أهل الإرادة. وكان يقول: كل أديب لا
يؤدبه الصوفية فليس بأديب. وكان كثيراً ما يقول: عليك بمناقشة نفسك، والصبر
على مناقشة شيخك لك، فإنه ما يناقشك إلا في إزالة ما يمنحك من المواهب،
ويحجبك عن شهود ما فيك من العجائب، فإنه ما ورد عليك وارد، ولا ظهر إلا
وهو منك، ولا جُلِّيَ عليك أمر إلا وأصله منك، مثال ذلك: النواة إذا زرعت
فكل شيء ورد عليها، ورقها وثمرها كان فيها مودعاً بالقوة، وكذلك أنت أيها
المريد لا يرد عليك شيء خارج عنك، بل كل وارد عليك كان فيك غيباً ثم إنه
ظهر لك شهادة لتعرف مقدار ما أنعم الله به عليك من الطاعات فتشكره وما فيك

من النقائص فتستغفره ووراء ما أشرنا إليه رموز، ولغوز، في ضمنها كنوز، يا سعد من لها يحوز.

آداب المريد مع شيخه

وكان يقول^(١): كل مريد رأى نفسه مُعْرِضَةً عن موادة الشيخ وإخوانه، فليعلم أنه قد شرع في الأخذ في طرده عن باب الله ﷻ.

ومن شأنه: أن لا يرى أنه كافأ أستاذه أبداً ولو خدمه ألف عام، وأنفق عليه الألوف من المال، ومن خطر بباله بعد ذلك أنه قابله بشيء فقد خرج عن الطريق، ونقض العهد.

فقد كان الشيخ داود بن باخلا السكندري شيخ سيدي محمد وفا يقول: لا يصح من مريد أن يرى أنه يعترض على شيخه، لأن ذلك الأمر الذي استفاده منه لا يقابل بالإعراض.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله يقول: لا تصحبوا الأشياخ إلا بصدق وإذعان وصبر على جفائهم لكم بغير سبب ظاهر، ولا تأتوهم إلا بهمة وقادة، فإنه أسرع في قبول الشيخ لكم.

وما قال شيخ قط لمريد جاء يطلب الطريق: اصبر يوماً أو يومين أو ساعة، إلا لما يراه من فتور همة ذلك المريد وسوء أدبه، ولو أنه رأى عنده أدباً لبادر لأخذ العهد عليه، ولم يجز للشيخ أن يقول: قف ساعة لأن ذلك يطفئ نار عزم المريد.

وكان سيدي علي بن وفا رحمته الله يقول: يجب على المريد أن يلقي حيله وأسبابه، وكل ما اعتمد عليه من معمولاته بين يدي أستاذه حتى يلتقمها حكمه وحكمته، فلا يبقى له عمدة على علم ولا عمل دونه، فلا يرى اعتماده بعد الله إلا على فضل شيخه ولا وصول خير له إلا بواسطته، كل ذلك ليسير به الأستاذ إلى حضرة ربه في حال نحو نفسه ليلاً، ويخرجه من مواطن تحكم العدو، إلى مقامات حكم الحق جل وعلا، وهناك لا تزلزله الزلازل وإن اشتدت.

(١) يقول: علي بن وفا.

وكان يقول كثيراً: ملازمة المرید للشيخ قد تكون أفضل من سفر المرید إلى مكة، لأن الأستاذ إنما جعل ليرقي إلى معرفة رب البيت الذي هو أعظم من البيت، وكيف للمرید أن يترك تعظيم بيت وضعه الحق تعالى لمعرفته وأسراره، ويشتغل ببيت وضعه الحق تعالى للناس.

فإن حضرة الأستاذ هي من حضرة الحق جل وعلا، التي احتوت على أسرار أئمة الهدى، لأنه وارث علم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومن شأنه: أن لا يأتي حضرة أستاذه قط إلا بالصدق، ولو تكرر إتيانه كل يوم ألف مرة.

وقد كان سيدي علي بن وفا يقول: ما جاء مرید إلى حضرة أستاذه بالصدق إلا كان من أهله ورازقاً للشيخ كشف الأسرار له، وإن جاء بغير الصدق كان أمره بالعكس.

وكان يقول: إذا اعتقدت في أستاذك أنه مَطْلَعٌ على جميع أحوالك فقد عرض عليه صحيفتك فقرأها، فهو إما يشكرك، وإما يستغفر لك، فيا سعادة من كان له أستاذ.

وكان يقول: إياك أن تقيس حال أستاذك على حالك، فتهلك ولا تشعر، لأن الشيخ إنما يبكي ويتضرع لأجل أتباعه، حتى يقتدوا به في ذلك، وربما بكى وتضرع لله تعالى ليشفع فيهم حتى لا يعاجلهم الحق تعالى بالعذاب لأجل إصرارهم على الذنوب، فتكون شفاعة غيبية فيهم.

وكان يقول: من وجد من شيخه ضيقاً وحرَجاً ومشقة، ووجد نفسه نافرة مما يأمره به أو ينهيه عنه، فليصبر وجوباً إن لم يصل إلى مقام الرضا وانشرح الصدر، وليسأل الله تعالى كشف الحجاب حتى يطلعه الحق تعالى على مراد شيخه له من حصول الخير في الدنيا والآخرة، فإنه لو كشف حجاب له لذهب عنه الضيق والحرَج جملة، وبادر هو إلى ذلك الأمر.

وتأمل يا أخي لو أمرك إنسان بحفر كوم عالٍ لا يستنبط منه ماء كيف يثقل عليك ذلك، فإذا أخبرك من تثق به أن تحت ذلك التراب كنزاً من ذهب ليس دونه موانع، كيف يخفت عليك الحفر ونقل التراب، ولو مكثت في ذلك شهراً وأكثر.

فهكذا الحكم فيما أمرك به أستاذك، لا يخلو قط من فائدة، وإنما كتم عنك ثمرة العمل خوفاً عليك أن تعمل لأجل غرض دنيوي أو أخروي، فيحبط عملك أو يفوت كماله، فأراد منك أن تعمل لله ﷻ امتثالاً لأمره والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يحدث نفسه بمفارقة أستاذه إذا صار علمه ينجلي فيه بديهته، بل يلازمه أبداً ما عاش فإذا كان من شأنه ذلك مع كونه قد صار كأنه هو فكيف يفارقه؟ وهو يولد عنده بتعليمه المعلومات كالطفل الذي يرضع من ثدي أمه فلعله يهلك.

وقد كان سيدي علي بن وفا رحمته الله يقول: الزم الأستاذ فإنه يُظهرُ سرَّ الربوبية، فربما أوحى إليك ربك في حجاب قلب شيخك من طريق الإلهام، فإن قلبه مظهر سر الربوبية.

فعلى المريد أن يقف عند أمر أستاذه ولا يتعداه، ولا يلتفت عن أستاذه يميناً ولا شمالاً، إذ ليس للمريد أن يتوجه بقلبه إلى غير أستاذه، وليس من مرتبته صحة التوجه إلى الحق تعالى لجهله به إلا أن يكون مضطراً.

وكان يقول: من أرشدك إلى ما به تتخلص من غضب ربك عليك، وتحصل به في رضوانه فقد شفع فيك عند ربك من هذه الدار، لكن بشرط أن تطيعه وتقبل منه ما يرشدك إليه، فإن لم تطعه ولم تقبل منه ما أرشدك إليه فلا تنفعك شفاعته فيك، قال تعالى في حق أقوام: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤٩﴾.

وكان يقول: روح المريد من روح الشيخ وعقل المستفيد من عقل المفيد، وكل من أراد الكمال بغير أستاذه وهاديه فقد أخطأ طريق المقصود، لأن الثمرة لا تكمل إلا بوجود النواة التي هي أصلها وكذلك المريد لا يكمل إلا بوجود أستاذه.

ومن شأنه: إذا قدم أستاذه عليه أحداً من إخوانه أن يخدمه أدباً مع الأستاذ، وليحذر أن يحسده فتزلاً قدم بعد ثبوتها وتذوق السوء، ولكن إن أراد التقدم على الإخوان فليطع شيخه ويتخلق بالصفات التي يستحق بها التقدم وهناك يقدمه شيخه

كذلك على أقرانه فإن الشيخ حاكم عادل بين المريدين، وهذا الأمر قل أن ينجو منه مريد.

محافظة المريد على محبة إخوانه له

وكان يقول: من أراد ثبات الإخوان على محبته، القاصي^(١) منهم والداني^(٢)، وأن يُثبوا عليه بكل لسان فليقابلهم بالحلم والغفران، وليتأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٣) فأخبرك أنه ليس بعد الحلیم الغفور من يمسكهما.

وكان يقول: إذا كان أبو جسمك لا يحلُّ لك أن تنتسب إلى غيره، فكيف باب الروح الذي هو شيخك؟ فإن أبا الروح هو الأب الحقيقي.

وكان يقول: كلُّ شيخ اشتغل بإرشادك ومناقشتك أكثر من بقية إخوانك فالزمه فإنه يريد أن يلحقك بمراتب الرجال.

وكان يقول: من صدَّق شيخه في كل ما يقول، فهو رجل وإن كان أنثى، ومن كذَّبه فهو أنثى وإن كان ذكراً.

وكان يقول: إذا عرفت أن شيخك يعرف الحق، وأنه واسطة بينك وبينه فهو وجه الحق الذي يواجهك به، فالزم طاعته تفز بالعز الدائم، وكن كأنك من الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبِّحونه وله يسجدون.

وكان يقول: اخدم العارف بالحق تُخدم، وإياك أن تخالف شيخك على المشاهدة فتلعن وتطرد، فإن إبليس لُعنَ وطُردَ بتركه السجود لكونه كان في حضرة المعاينة^(٤)، وكم ترك غيره السجود والصلاة، لكن لما كان هذا على جهل

(١) القاصي: البعيد.

(٢) الداني: القريب.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٤١.

(٤) المشاهدة رؤية الذات اللطيفة في مظاهر تجلياتها الكثيفة فترجع إلى تكثيف اللطيف، فإذا ترقَّق الوداد رجعت الأنوار الكثيفة لطيفة فهي المعاينة فترجع إلى تلطيف الكثيف، فالمعاينة أرقُّ من المشاهدة وأتم.

وحجاب أمهل ولم يعاجل بالعقوبة، كما وقع لإبليس، فإنه عُجِّلَتْ له العقوبة، بإخراجه من حضرة الله الخاصة وإن كان قد حَلِمَ عليه من حيث الإمهال، وتأخير الإهلاك إلى يوم القيامة.

وكان يقول: لا تقوم لشيخك بجزاء ولو خدمته إلى الأبد، فإن فضل مرشدك إلى الله تعالى المفيض عليك من إمداده على نحو من فضل النبي ﷺ على أمته وإن تفاوت المقام.

وكان يقول: مرشدك إلى الحق تعالى هو العين التي ينظر الحق بها إليك باللطف والرحمة، وهو وجه الحق الذي يقبل بواسطته عليك، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه، فاعرف والزم وانظر ماذا ترى.

وكان يقول: لا تطلب أيها المريد أن تحضر شيخك في سجن قيودك وحدودك، فإنك إن لم تعرف أنه محيط بك فأنت تعرف أنه أكبر منك مقاماً، وكيف ينحصر لك الأكبر الأوسع في الأصغر الضيق؟ فشان المريد أن يكون تحت طاعة أستاذه لا أن يطلب من أستاذه أن يطيعه.

وكان يقول: لا يظفر مريد بأستاذ إلا وذلك المريد مخصوص عند الله تعالى ولولا أنه مخصوص عنده ما دعاه إلى ما يوصله إلى حضرته، فسلم لشيخك أيها المريد تسلم وتغنم.

وكان يقول: أستاذك بالنسبة إليك هو فضل الله عليك ورحمته، فتحققك به خير من جميع ما استفدته منه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١).

وكان يقول: إنما كان أستاذك أعلم بأحوالك منك لأنه حقيقة روحك.

وكان يقول: معرفتك بنفسك على قدر معرفتك بأستاذك.

وكان يقول: ما لم يرتفع عنك حكم المغيرة (٢) كلها لأستاذك فأنت بالحقيقة لا شك ضائع، فارجع إلى ربك فاسأله أي فلا تقوم بالأدب مع أستاذك إلا إن رأيت من شدة القرب أنك هو، وهناك يمدك بأمداده. إذ حكم المغاير كحكم

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

(٢) المغيرة: الاختلاف.

الفرع المقطوع من الشجرة، لا يسري فيه شيء من ماء الشجرة وكأنه يقول: من كان لا يرى من أستاذه إلا وجه بشريته فقد غاب سعيه ولا يزيده ما كشفه له من الحق المبين إلا إعرضاً وتكذيباً، إذ من شأن البشر عدم انقياده لبعضه بعضاً وكراهته لكل من يرأس عليه فتصدّه تلك الكراهية عن سماع نصحه وإرشاده ولو بالقرآن ما لم تحفّه العناية.

وإلى ذلك الإشارة بنحو قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِيْٓءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ ^(١) وذلك لأنهم نظروا إليه من وجه بشريته ولو نظروا إلى وجه روحانيته، وما أرشدهم به من الوحي والخصوصية، لربما انقادوا.

قال سيدي علي بن وفا رحمته الله: ومن ثم لا تجد الأستاذ قط يظهر قط يظهر لقوم إلا من حيث يشهدونه وما دام في طور المماثلة ^(٢) لهم لا يكلمهم إلا بلسانهم، ولا يعاملهم إلا بكيّهم وميزانهم.

ومن هنا قال رحمته الله: «لا تفضّلوني على موسى». ثم إنه بعد زوال حجاب البشرية عنهم قال لخواص أصحابه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» فقبلوا ذلك منه ببشاشة وتصديق خالص، ولو أنه قال ذلك لمن بشريته قائمة لتوقف وارتاب.

قال: وهكذا كل ولي في حال ظهور بشريته للناس لا يقبلون منه أكثر كشوفاته الظاهرة الصادقة فضلاً عن غيرها، ثم إنهم يقبلون ذلك منه إذا رأوه من غير وجه بشريته.

وكان يقول: لما كان الحق تعالى لا يغفر أن يشرك به فكذلك الأسيّخ لا يغفرون أن يشرك بهم تخلفاً بنظر مسمّى أخلاق الله رحمته الله، فإذا رأيت أيها المريد شيخك يتشوش منك إذا أشركت في محبته شيخاً آخر فإياك أن تسيء به الظن بل اشهد أن ذلك من أخلاق الله رحمته الله الذي يقول: ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ ^(٣) ظهر على لسان وليه.

(١) سورة نوح، الآية: ٧.

(٢) المماثلة: المشابهة.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

وقد تقدم في الباب الأول إجماع الأشياخ على أنه لا يجوز للمريد أن يتخذ له شيخين. وقالوا: كما أنه لا يكون للعالم إلهين، ولا للمرأة زوجين، ولا للرجل قلبين، كذلك لا يكون للإنسان شيخين.

وأجمعوا على أن كل مريد رأى أن علم شيخه لا يكفيهِ فليس له أن يتقيد عليه، وربما كان أحد الشيخين غير محقق فيأمر المريد بما يوافق هواه لغير حكمة فيهلك، وبالجمله فلم يقع لأحد قط أنه سلك الطريق، ووصل إلى مقامات الرجال بين شيخين أبداً.

وكان يقول: أقل أحوال المريد مع شيخه أن يكون له كالأم تُؤثر ولدها بالراحات وتحمل عنه المشقات وتحبه على جميع الحالات وتوافقه في كل ما يهوى وتحمله على أحسن المحامل ولا تكاد تضيف إليه عيباً ولا نقصاً، والشيخ أحق بتلك المراعاة فإنه يهتم بأمر المريد عند ربه أعظم من اهتمام أمه به.

وكان يقول: لا تقس نفسك في أحوالها الظاهرة من العبادات والمجاهدات على حال شيخك، فإن الشيخ ولو قلَّت أعماله الظاهرة فهو بباطنه، وكل يوم من أيام الأستاذ عند ربه كألف سنة مما يعد المريدون عند ربهم.

إياك أيُّها المريد ومخالفة شيخك

وكان يقول^(١): إياك أيُّها المريد أن تقف مع ظاهر شيخك بل اخرق إلى شهود قلبه، وانظر ما هو فيه، تعرف مقامه. فكل من نظر إلى ظاهر أستاذه فقط لم يحصل له به ابتهاج، بل لا تزيده تلك النظرة إلا غفلة واستغراقاً في سوء الظن به، وبسائر الأشياخ، وذلك لأنه حجب يورث الحجاب عن رؤية الأحباب، وربما يقول في نفسه: أي فرق بيني وبين شيخي وقد أطعت الله مثله؟ فيتلف بالكلية.

ومن شأنه: أن يرى كل خير أصابه من الله ببركة أستاذه فإن نور كل مريد من نور أستاذه.

وكان سيدي علي بن وفا رحمته الله يقول: جميع ما تراه فيك من المدد فهو من

(١) علي بن وفا.

فيض أستاذك، وجميع ما تراه فيه من النقص فهو صفتك، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾^(١).

فإن رأيت شيخك زنديقاً فأنْتَ زنديق في الغيب الأزلي فإنه مرآة الوجود، وإن رأيت صديقاً فأنْتَ صديق في علم الله. وأما حقيقة الشيخ فلا يعرفها إلا من أشرف على مقامه، أو كان أعلى مقاماً منه.

وقد قال مريد مرة للشيخ أبي يزيد: رأيت وجهك يا سيدي هذه الليلة وجه خنزير، فقال: صدقت يا ولدي فأنا مرآة الوجود، فرأيت وجهك فيّ فحسبت أنك أنا، فظهر نفسك يا ولدي من صفات الخنازير ثم انظر إليّ تجدني غير خنزير.

وكان يقول: صورة الأستاذ الناطق مرآة سر المريد الصادق إذا نظر فيها ببصيرته شهدا على صورتها الباطنية، فأول مبادئ أمر المريد حينئذ أن يتجلى له طويته بصفات أهل الصلاح والولاية، فإذا كشف لبصيرته عن أستاذه رأى صورة صلاحه وولايته في صفاء مرآة صورة أستاذه، هو الصالح الولي، فيستمد من بركاته ملاحظاته المتوالية وهممه العالية ثم لا يزال يطلب من أستاذه الدعوات المنيفة^(٢) والخواطر الشريفة، ويتودد إليه تودد المتأنس^(٣)، حتى ينفخ إسرافيل في صور العناية صورة قلبه روح التخصيص الآدمي، فهناك يشهد أستاذه هو آدم الزمان ومالك أزمة الأكوان بحكم الإرث لصاحب ذلك المقام، فيعظمه تعظيم الشاب لأبيه المُهَّاب إلى أن تنفر صورة الآدمية بعد رفع الحجاب عن جمال ما خصه من نفحة الروح المحمدية، وهناك يشهد أستاذه محمديّ المقام فيكون له خادماً ولا يجعل له في سواء أرباً^(٤) إلى أن تغشى سِذْرَةٌ^(٥) سره الأنوار الرحمانية، فينظر إلى أستاذه فلا يرى إلا واحداً يتجلى له في كل مشهد على قدر طاقة الشاهد فيصير عدماً بين يدي وجود ومحواً في حضرة الشهود.

فأول أمر هذا المريد توفيق، وواسطه تصديق، وآخره تحقيق، وبعد التحقيق يكون بغاية السعادة والله أعلم.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٩.

(٢) المنيفة: العالية التامة.

(٣) المتأنس: الذي يُشعر بالأنس والسكون إليه والفرح به.

(٤) الأرب: الحاجة.

(٥) السدرة: شجر النبق.

ومن شأنه: الصبر تحت مناقشة الشيخ له، ومخالفته لأغراضه فإن ذلك من أقوى دليل على أن الشيخ شَم منه رائحة الصدق^(١)، ولو أنه لم يكن شَم منه ذلك لعامله معاملة الأجانب، من الملاطفة والترحيب، كما تقدم تقريره مراراً فليثبت هذا المريد على مخالفة الشيخ أهويته عملاً بإشارة أستاذه فإنها طريق لا تكون إلا بعد أن يموت المريد كذا كذا ألف مائة، فإن كل مخالفة للهوى مائة، والأهوية لا تحصر.

وكان سيدي علي بن وفا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: من ليس له أستاذ فليس له مولى، ومن ليس له مولى فالشيطان أولى به، والمراد يكون لا مولى له، أن الحق تعالى يعامله بتعسير الأرزاق ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾^(٢) وفي الحديث: «فكم من لا مطعم له ولا مأوى»^(٣) وليس المراد نفى المولى جملة فإن ذلك لا يصح في العالم.

كان يقول: من وافق أستاذه في أفعاله طابقه فيما أخبر به من معارفه، والعكس بالعكس.

وكان يقول: من كان مع أستاذه بلا إياه كان أستاذه معه بالله، وكل من ظن في أستاذه أنه لا يعرف أسرارهِ، فهو بعيد عن حضرته ولو جالسه ليلاً ونهاراً في زاويته.

علامات فلاح المريد

وكان يقول^(٤): لفلاح المريد ثلاث علامات: أن يحب شيخه بالإيثارة^(٥)، ويتلقى منه كل ما أمره به بالقبول، ويرافقه في كل أمر يرومه.

وكان يقول: من تقرب إلى أستاذه بالخدم تقرب الحق تعالى إلى قلبه بأنواع الكرم.

(١) الصدق: إسقاط حظوظ النفس في الوجهة إلى الله تعالى تعويلاً على ثلج اليقين أو استواء الظاهر والباطن في الأقوال والأفعال وحاصله تصفية الباطن من الالتفات إلى الغير بالكلية.

(٢) سورة محمد، الآية: ١١.

(٣) المأوى: المسكن.

(٤) علي بن وفا.

(٥) الإيثارة: الاختيار والتفضيل.

وكان يقول: من أثر أستاذه على نفسه، كشف الله له عن حضرة قدسه، ومن نزّه حضرة أستاذه عن النقائص، منحه الله بالخصائص، ومن احتجب عنه أستاذه طرفة عين فلا يلومنّ إلا نفسه إذا أوبق بوائق^(١) البين^(٢)، ولا يصل المريد إلى هذا المقام إلا إن جعل مراد شيخه مراده.

وكان يقول: من لم يستحل مقارع^(٣) الأستاذ لم يستحل منه عروس الوداد، تبّاً لمريد جمع بطبعه عن الدليل.. لقد ضل والله عن سواء السبيل.

وكان يقول: إياك أن تصغي لقول حاسد أو عدو في حق شيخك فيصدك بذلك عن سبيل الله، فقد سبقت كلمة الله التي لا تبدّل، وسنة الله التي لا تتحوّل، أن لا ينفخ الحق تعالى روح العلم الإلهي في مخصوص من أهل حضرته إلا انقسم الخلق فيه قسمين: ملك ساجد، وشيطان حاسد، كما وقع في قصة آدم ﷺ.

فاحرص أيها المريد أن تكون لأهل الاختصاص خادماً وخاضعاً إما لتسلم أو لتعلم أو لثرحم، وإياك أن تكون لهم مبغضاً أو حاسداً فإنك إما تُسلب وإما تُرجم وإما تُحرم.

وكان يقول: قلب شيخك أيها المريد حضرة الله تعالى، وحواسه أبوابها فمن تقرب إلى حواس شيخه، بالقرب الشرعية الملائمة له فتحت له أبواب لملك الحضرة.

ومن شأنه: أن لا يأتي شيخه قط إلا بنية أن يهتدي بهديه، ولا يحصل له بذلك إلا بأن يرى نفسه على ضلال وغواية عن طريق أهل الهدى، وهو مضطر إلى كشف تلك الغمّة عنه وإلا فمتى رأى نفسه مستغنية عن تأديب شيخه له فلا يقدر على القيام بواجب هذا الأدب، ولو كان على عبادة الثقلين.

وكان سيدي علي بن وفا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: حكم مدد الأستاذ حكم حبة وضعها في أرض قبول تلميذه ثم سقاها بتفهمه وتأنيده فمهما ظهر من التلميذ أو عنه فهو من ثمرات تلك الحبة وثمراتها ونتاجها، وإن كثرت فإنما هي ملك لفارس الحبة في أرض محل استحقاقه، فكلّ ما ظهر من التلميذ من رشد وصلاح فإنما هو في

(١) بوائق: جمع بائقة وهي الداهية والشر.

(٢) البين: الفراق والهجر.

(٣) مقارع: جمع مقرعة وهي خشبة يُضرب بها.

الحقيقة حق لأستاذه، فليحذر أن يظن في نفسه أنه ظفر بشيء لم يظفر به أستاذه، ومن ظن ذلك بنفسه فهو من أجهل الجاهلين بأستاذه، والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يبدأ شيخه بالسؤال عن شيء مطلقاً إلا لضرورة كأن يسأله عن شيء من الأحكام الشرعية أو عن شيء يأكله هو وعياله في ذلك الوقت بخلاف ما ليس بضروري، فإنه لا ينبغي أن يتبدى الشيخ بالسؤال عنه بل يصير حتى يبدأ به شيخه وإن كان يعتقد في شيخه أنه لا يعرف خواطره فبئس ما اعتقد.

وقال الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام: ﴿إِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾^(١) وإيضاح ذلك أن المريد إذا بدأ شيخه بالسؤال فقد أحوجه إلى الجواب، وفي ذلك ترتب حق له على أستاذه يصير يطالبه به بالظاهر أو بالباطن، وربما كان الجواب عن ذلك يُورث المريد الزهو والعُجب على الإخوان، فإن قال قائل: إن الأعراب كانت تبدأ رسول الله ﷺ بالسؤال ويُقرهم على ذلك، فالجواب: أن رسول الله ﷺ كان مشرعاً بوحي من ربه ﷻ والضرورة داعية إلى سؤاله عن ذلك، وكلامنا فيما لا ضرورة إليه، كما تقدمت الإشارة إليه، فلو توقف الناس عن عدم بداءته بالسؤال لضاعت أكثر أحكامه الشرعية، بخلاف الشيخ فإنه يُسأل عن أمور قد تقررت في الشريعة لا يخشى ضياعها وكان آمناً على أصحابه من وقوعهم في العُجب بعلمهم أو الإخلال بشيء من المأمورات أو اجتناب شيء من المنهيات.

وكان سيدي علي بن وفا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: لا تغترَّ أيها المريد بحلاوة كلام شيخك أستاذك لك وتظن أنك صرت عنده في أعلى مقام.

أسلوب الدعوة إلى الله تعالى

وإن من سياسة الداعي إلى الله تعالى أن يؤلف الضعفاء بالكلام الحلو والإحسان وتخفيف الأوامر، ثم إذا رسخوا في الطريق فله التحكم فيهم كيف شاء فيزجرهم بمُرَّ الكلام ويمنعهم عن لذيذ الطعام ومن مجالسته على الدوام وله غير ذلك.

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٠.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله يقول: من أراد الترقّي على يد شيخه فلا يدخل عليه قط إلا وهو تارك لمعلوماته الدنية ليدله على المعلومات العلية.. أعني بالعلية دقائق العلوم وبالدنية ما كان سهل التناول قريباً من الأفهام، وإلا فالعلوم ليس فيها شيء دني، وإنما تخفض العلوم أو ترفع بالنية لأنها كلها هي علم رسول الله صلى الله عليه وآله المشار إليه بقوله: «فعلمتُ علم الأولين والآخرين».

وكان يقول: إياك أيها المريد أن تستصغر شيئاً من أعمال شيخك فإن وُرد الأولياء الأكابر، إنما هو إسقاط الهوى، ومحبة المولى، ورد النفس عن الباطل، في عموم الأوقات، وللمريدين قَدَم في مثل ذلك.

وكان يقول: أشياخ الناس في كل زمان، علماء، وعبّاد، وزهّاد، وعارفون بأدب الشخص مع أمثاله، فأدبه مع العلماء ألا يحدثهم إلا بالعلوم المنقولة والروايات الصحيحة، فإما أن يفيدهم وإما أن يستفيد منهم، وذلك غاية الريح معهم.

وأدبه مع العبّاد والزهاد أن يرغبهم في الزهد والعبادة، ويحلّي لهم ما استمذّوه منهما، فإذا أقبلوا عليه فليفتح لهم شيئاً من معرفة طريق العارفين، التي هو فيها ليرفع همّتهم عن الاعتماد على أعمالهم واستبعادهم أنهم يدخلون النار. وأدبه مع العارفين، أن يحفظ لسانه وقلبه، قياماً بواجب حقهم وإن لم يؤاخذوه هم بذلك.

ومن شأنه: أن يلزم الأدب مع شيخه ولا يطلب منه قط كرامة، ولا وقوع خارقة ولا كشفاً ولا غير ذلك، فمن طلب من شيخه كرامة، حتى يتبعه فهو إلى الآن لم يؤمن بكون أستاذه من أهل العلم بطريق أهل الله.

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسى رحمته الله يقول: احذر أيها المريد أن تطلب من شيخك كرامة، حتى تتبعه في أمره لك بالمعروف ونهيه لك عن المنكر فإن ذلك سوء أدب وهو دليل شكّك في دين الإسلام لأن ما دعاك إليه شيخك، ليس هو شرعه، وإنما هو شرع رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو تابع لا متبوع. ولولا أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه، لكان كل من خالف أمر داعيه إلى خير، هلك من وقته.

وكان يقول: إياك أن تظن أيها المريد أن أستاذك لا نور له قياساً على حالك أنت فتُحرم فوائده عقوبة لك، فلو كشف لك عن نوره لأضاء ما بين السماء والأرض.

وكان يقول: إياك أن تستغرب من شيخك نطقه بالمغيبات، فإن القلب إذا انجلى أخبر صاحبه بما مضى وبما هو آت وليس ذلك من الغيب الممنوع منه فإن هذا ما نطق به حتى شاهده بنور قلبه فهو عنده من قسم الشهادة لا من قسم الغيب، ثم إن ذلك الغيب لا يكون قط مخالفاً للشرع بين أظهرنا وإنما يكون مؤيداً له فافهم.

وكان يقول كثيراً: إياك أيها المريد أن تستقل بمقام شيخك حين ترى المعرضين عن الله تعالى لا يقيمون له وزناً، فإن الولي في كل عصر لم تزل الناس لا يلقون له بالاً ثم إذا مات ندموا على عدم اعتقادهم فيه حين يرون عدم تخلُّق أحد بأخلاقه الشريفة، ويزول عنهم حجاب الحسد الذي كان منسداً^(١) عليهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وكان يقول: من أين يعرف المعرضون عن حضرة الله أولياء الله حتى يمدحهم، وقد قال أبو تراب النخشي: الأولياء كالعرائس المخبأة في خدورها^(٢)، فإياكم والإنكار على شيء من أحوالهم وأنتم معرضون عن الله، فإن القلب إذا أعرض عن الله صحبتة الوقعة^(٣) في أولياء الله ومن وقع فيهم هلك، فإياكم ثم إياكم.

وكان الشيخ أبو العباس يقول: اعمل أيها المريد على أن تتحد بشيخك فيكون ما عنده من المعارف عندك على حد سواء ويكون تميُّزه عليك إنما هو بالإضافة لا غير، قال: وقد قال لي الشيخ أبو الحسن الشاذلي يوماً: يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت.

وكان يقول: عليك أيها المريد بالعكوف على أعتاب شيخك ولو طردك فلا تبرح وسارقه في القرب منه، فإن الأشياخ لا يكرهون أحداً من المسلمين لحظ نفس وإنما يقع ذلك منهم تأديباً.

وكان يقول: لو علم المريد ما انطوى في شيخه من الأسرار لخضع له ولم يستطع البعد عنه لحظة، ولكان يطوي الطريق البعيدة من شدة عزمه وهمة.

(١) منسداً: مرسلًا ومرخى.

(٢) الخدر: هو كل ما وارك من بيت ونحوه.

(٣) الوقعة: وقع فلان في محبة فلان وقعة أي سبَّه واغتابه وعابه.

قال الشيخ أبو العباس: ولقد كنت ساكناً بباب البحر من مصر وكنت كل يوم أذهب إلى الإسكندرية وأرجع ضحوة النهار أقرأ على الشيخ أبي الحسن كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذي رحمته الله.

وكان يقول: معرفة المريد بمقام شيخه أصعب من معرفة الله ﷻ فإن الله تعالى معروف للخلق بكماله وجلاله وقدرته ولا هكذا المخلوق، ومتى يعرف الإنسان علوَّ مقام مخلوق مثله يأكل كما يأكل ويشرب كما يشرب.

وكان يقول: ينبغي للمريد إذا سمع شيئاً من أستاذه وخاف نسيانه أن يستودعه الله تعالى فإنه لا تضيع عنده الودائع، فينبغي فعل ذلك للعالم إذا خاف نسيانه شيئاً من أحكام الشريعة لينفع به الناس.

وكان يقول: ما توقّف مريد في فهم شيخه إلا لجهله وشدة حجابهِ، فالواجب عليه العمل على جلاء مرآة قلبه ولا يقول لمعلمه أوضح لي الجواب عن ذلك فإنه لا فائدة فيه في طريق القوم، لأنهم لا يقنعون بالعلم وإنما يطلبون الذوق بالباطن ليطابقوا بين اللسان والقلب ويخرجوا من صنعة النفاق^(١).

وكان يقول: عليكم بمعانقة الأدب مع أستاذكم ولو باسطكم فإن قلوب الأولياء كقلوب الملوك تنقلب من الحلم إلى الغضب والانتقام في لمحة، فإذا ضاق ذرع الولي هلك من يؤذيه في الوقت، وإذا اتسع حمل الأذى من الثقلين.

ومن شأنه: أن لا يقيم ميزان عقله على كلام شيخه حتى لو قال له لا تحضر مجلس فلان العالم أو الواعظ فلا ينبغي له حضوره وذلك لأن شيخه أمين عليه في كل شيء يرقيه أو يوقفه أو يؤخره، وغير شيخه لم يلتزم ذلك معه فربما علّمه ما يضرّه ويورثه الإعجاب بنفسه مثلاً فيهلكه، لا سيما إن كان أعذب لفظاً من شيخه.

والنفس من شأنها الخيانة فتفرح بحضور مواضع البحث والجدال ومغالبة الخصوم ولا تقوى على العمل بما تسمع بخلاف مجلس الشيخ فإن غايته تضيق على المريدين ومناقشة لهم ومخالفة لما تهواه نفوسهم فربما نفرت نفس المريد الضعيف الحال من ذلك.

(١) النفاق: هو أن يُظهر المرء خلاف ما يبطن.

وكان يقول: للشيخ أن يُخْرِجَ المريد من ورده إلى ورد آخر فإذا نهاه عن ورد بادر إلى امتثال أمره وليس له الاعتراض عليه بباطنه ويقول: إن الورد خير فكيف ينهاني عن فعله، فربما رأى الشيخ في ذلك الورد ضرراً على المريد بدخول علة فادحة في الإخلاص مثلاً، ورب عمل جاء الشرع بأفضليته فدخلته النفس فصار مفضولاً ولا يشعر المريد بذلك.

وكان الإمام أبو بكر الصديق عليه السلام لا يجهر في قراءته بالليل، وكان عمر رضي الله عنه يجهر فأخبراً بذلك رسول الله ﷺ فقال لأبي بكر: لِمَ لَمْ تجهر؟ فقال: قد أسمعتُ مَنْ أناجي وقال لعمر: لِمَ تجهر؟ فقال: أوقظ الوسنان^(١) وأطرد الشيطان. فقال ﷺ لأبي بكر: ارفع قليلاً، وقال لعمر: اخفض قليلاً. . وذلك ليخرجهما عن مرادهما لمراده لأنهما كانا في مقام التعليم والترية لهما.

وكان يقول^(٢): إذا سألك أستاذك عن شيء من أحوالك الباطنة فأجبه على الفور من غير تفكير، فإن الشيخ إنما يريد أن يعلم مقامك الثابت لك وتفكيرك إنما تريد به الجواب بما هو أعلى من مقامك فيحصل بذلك التلبس على شيخك وتقع في الغش لنفسك.

وكل شيء نطق به الإنسان فوراً فهو مقامه الحقيقي، وإذا نطق القوم ظهرت مراتبهم، وقد وقع أن مريداً حجَّ بغير إذن سيدي أبي العباس المرسى عليه السلام فقال له الشيخ لما رجع: كيف كان حجك في هذه السنة؟ فقال: كان الماء كثيراً والحشيش كثيراً والبقسماط^(٣) كثيراً، فقال له الشيخ: بالله العجب أسألك عن الحج وكيف كان أدبك فيه مع الله تعالى فتجيبني بالعلف، وصار الشيخ يبتسم متعجباً ويقول: قد عرفنا مقامك يا أخي.

وكان كثيراً ما يقول: إذا ضحك الشيخ في وجه أحدكم فاحذروه ولا تجالسوه إلا بالأدب فإنه قد يكون سيفاً ونقمة في حال كونه غيثاً ورحمة.

وكان يقول: لا تفرط قط في كلام غرسه شيخك في قلبك فربما لم يثمر إلا بعد موت الشيخ، لأن زرعهم لا يخيب إن شاء الله تعالى، فاحتفظ يا ولدي على

(١) الوسنان: النعسان.

(٢) الشيخ أبو العباس المرسى.

(٣) البقسماط: اسم لنوع من الخبز يُخبز ويَجفَّف.

كل كلام تسمعه من الشيخ، ولو لم تجد له ثمرة عقيب سماعه والله أعلم.

ومن شأنه: أن يفتح لإخوانه باب الأدب مع الشيخ ويغلق عليهم باب سوء الأدب معه، فلا يكون مقدماً لإخوانه في سوء الأدب مع الشيخ مطلقاً، وإن وقع أنه أساء أدبه معه فليبادر وجوباً إلى كشف رأسه والتوبيخ لنفسه ليرتدع غيره، ولو تأمل المريد بعين الإنصاف لوجد نفسه ظالماً على الشيخ وأنه لا يتشوش من المريد إلا فعله شيئاً ينقص دينه.

ومن أعظم ما يقع فيه المريد من سوء الأدب مع الشيخ عدم حضوره مجلس الذكر الذي رتبته للمريدين صباحاً ومساءً فإن مدد كل شيخ يكون في ورده، ومن ترك ورد شيخه حرم مدده ولكن إن كان للمريد عذر في تخلفه عن المجلس فليذكره للشيخ فإن ظهر له صدق عذره وإلا ناقشه وبين له عدم صدقه ليتوب عن مثل ذلك.

ومن علامة صدقه الندم على فوات ذلك المجلس حتى تضيق عليه الدنيا بما رحبت، ويترك غداه وعشاؤه ذلك اليوم لشدة الأسف^(١) ولا يصير له وجه إلى الناس ولا إلى ضحك ولا لعب نظير من مات له ذلك اليوم ولد عزيز فلا يزال في تشويش حتى يرضى عنه شيخه، فإذا رضي عنه الشيخ فذلك عنوان على أن الله تعالى قبل عذره في تركه ذكره ذلك المجلس.

واعلم يا أخي على أنه يتأكد على جيران الشيخ حضور ورده كل يوم وهم أولى بذلك من الأبعد الذين يسمعون الذكر وهم جالسون في بيوتهم ولا يذكرون الله تعالى لا في بيوتهم ولا في الزاوية. بل الذي ينبغي لجماعة الشيخ وجيرانه أن يكونوا هم الجالسين الناس إلى حضور ذكر الله ﷻ، فإنها حضرة الله التي لا يشابهها شيء من حضرات أعظم ملوك الدنيا، آه آه من صحبة من أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هوى نفسه وكان أمره قُرطاً.

قال سيدي علي المرصفي رحمه الله: ولا ينبغي للمريد أن يتعلل^(٢) في حضور مجالس الذكر في الاشتغال بالعلم فإن شيخه لو رآه مخلصاً في علمه لما قال له

(١) الأسف: الحزن.

(٢) يتعلل: يبدي الحجة ويتمسك بها.

اتركه واذكر الله أبداً، لأن من كان مخلصاً في علمه فهو جليس الله كالذاكر لله على حد سواء فما أمره بحضور مجلس الذكر لِمَا رأى عنده من الرِّياضة وحبِّ الشهوة فأراد له كثرة الذكر لينجلي قلبه ويرفع حجابهِ فيدرك وقوعه في الرياء والعجب ونحو ذلك فيستغفر منه ويتوب.

وقد كان الإمام الشافعي رحمته الله يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، قال بعض العارفين: ومراده العلم الذي لا يدخل به رياء ولا سمعة حتى لا يعارض النصوص التي جاءت في عذاب الذين يراءون بعلمهم.

وكان سيدي يوسف العجمي رحمته الله يقول: ينبغي لكل مرید تخلف عن مجلس ذكر الله بغير عذر أو غير ذلك من مجالس الخير أن يوبِّخ نفسه بحضرة إخوان ويقول مثلاً: يا فوزكم، حضرتم المجلس وجالستم ربكم رحمته الله، ويا شقاوتي تخلفت عنه! ففعل ذلك التوبيخ جابراً لذلك الخلل. ولا ينبغي لمرید أن يسامح نفسه في ترك التوبيخ أبداً لأن في ذلك استهانة بفوات مجالسة الله رحمته الله وباعثاً للإخوان على عدم احتفالهم. وفي الحديث: «من لم يكثُر ذكر الله فقد برىء من الإيمان». وفي القرآن في صفة المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) وبالجملّة فمتى كان المتخلف عن حضور مجلس الذكر لو عرض عليه في حضوره ذلك المجلس ألف دينار مثلاً لم يتخلف فهو كاذب في تخلفه عن الذكر لضرورة فإن ذكر الله تعالى ومجالسته لا يعادلها شيء من الدنيا والآخرة. ولعل أكثر المتعلّلين بالضرورات لو وعد أحدهم بدينار واحد كلما يحضر المجلس لأزال ضروراته كلها قبل وقت المجلس خوفاً على فوات ذلك الدينار، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن شأنه: أنه يمثل أمر شيخه ونهيه إذا قال له لا تمدّ رجليك إلا لضرورة أو لا تقرأ القرآن بعوض^(٢) من الدنيا وإن كان ذلك جائزاً بالشرع لأن الشيخ إنما يأمره بالترقي وقراءة القرآن بالعوض لا ترقي فيها عند القوم، وكل مرید فتح ذلك الباب في زاوية شيخه فقد أساء الأدب في حق شيخه وحق إخوانه وربما عوقب على ذلك بالأمراض التي يصرف فيها أكثر مما جمعه من القرآن.

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٢) بعوض: يبدل.

وكذلك من شأن المريد أن يسد في وظيفة كل من غاب من إخوانه في الزاوية بغير معلوم احتساباً لوجه الله ﷻ. قالوا: ويحرم على المريد أن يخذل كلمة الشيخ في الزاوية بالباطل، كأن يريد الشيخ إخراج أحد منها لمصلحة فيعارضه بنفسه وبإخوانه ويقولون: بأي ذنب تخرجه؟ وفي ذلك خراب أمر الزاوية، بل الواجب عليهم أن يشدوا عضده في ذلك، ثم إذا حصل له التأديب يشفعون في رجوعه بإذن الشيخ.

وسمعت الشيخ سيدي علي المرصفي يقول: من شرط أدب المريد مع الشيخ أن يعادي من عاداه ويوالي من والاه فقد ورد في الحديث الحسن: «أن الله تعالى يأمر ببعض العباد إلى النار، فتقول الملائكة: يا رب إنه كان كثير الصلاة والصيام والحج ويذكرون شيئاً من القُرْبَات، فيقول الله ﷻ: قد كان كذلك ولكنه كان لا يوالي من والاني ولا يعادي من عاداني، فتقول الملائكة: سحقاً سحقاً».

وكذلك لا ينبغي للمريد أن يفتح باب اللوث^(١) لشيخه إذا دخل الزاوية هدية من فاكهة أو غيرها ولم يعطه شيئاً منها ويقول: إن الشيخ قد مسح الخشب على الهدية الفلانية وتخصّص بها أو أعطى منها موالح الرقبة الذين يخاف منهم دون الفقراء اللينين الجانب ونحو ذلك، بل الواجب عليه حمل الشيخ على أحسن المحامل ويقول: سيدي ما حرمنّا منها إلا رحمة بنا ولعلها من وجه شبهة أو تحتها حملة فله الفضل الذي منعنا الأكل منها.

ثم من الواجب على كبار الزاوية أن يزجروا كل من لاث الشيخ بسبب من الأسباب الدنيوية، وإن لم يزجروه بغى^(٢) بعضهم على بعض من باب أولى وعمّهم المقت أجمعين.

ومن شأنه: أن يعتقد كمال شيخه جزماً لينتفي عنه التردد فلو أن جميع أهل مصره مثلاً فهموا شيئاً وفهم أشياخ الطريق شيئاً وجب على المريد تقديم ما فهمه أشياخ الطريق.

وكان الشيخ نجم الدين الكُبري يقول: طريق القوم هي الصراط المستقيم وهو أجلُّ الطرق وأسناها إذ الطرق تشرف بشرف غاياتها وغاية طريق القوم معرفة

(١) اللوث: الاتّهام دون بيّنة تامة.

(٢) بغى: تجاوز الحد.

الحق تعالى والأدب معه في جميع ما شرعه على لسان محمد ﷺ، فالدالُّ على هذا الطريق سيد الأدلاء، لأنه وارث رسول الله ﷺ وعامل بشريعته فهو الحقيق بأن يلقب بشيخ الإسلام وبالوارث وبالأستاذ.

ومن شأنه: أن يسمع إشارة^(١) شيخه له بالسكوت إذا كان يقرأ في كلام القوم، ثم حضر من لا يؤمن به من المحجوبين عنه، وليس له بعد الإشارة أن يقرأ ويجادل ذلك المحجوب.

وقد أجمعوا على أنه إذا دخل عليهم منازع في أذواقهم وعلومهم فمن الأدب قطع الكلام لأن علومهم كعلوم الأنبياء لا تقبل منازعة وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا ينبغي التنازع».

ومن شأن القوم أن لا يتعدوا علوم شريعة النبي الصريحة ولا يتدينوا برأي لا يشهد له ظاهر الشريعة كما قال أبو القاسم الجنيد رحمه الله: «عَلَّمْنَا هَذَا مَشِيدًا^(٢) بالكتاب والسنة انتهى وإنما لم يذكر الإجماع والقياس لأن الإجماع والقياس إنما يثبتان وتقوم دلالتهما بموافقتهما للكتاب والسنة والله أعلم.

وإيضاح ما ذكرناه من ذم التنازع كما قاله الشيخ نجم الدين الكبري: إن علوم القوم خارجة عن تمخض استبداد مدارك العقول من حيث كون العقل ناظرة وباحثة لا من حيث كونها قابلة فهي مبنية على الكشف الموافق للشريعة في باطن الأمر، لأن الشريعة المطهرة جاءت كذلك فترى غالب أحكامها لا يصل العقل إلى إدراك حكمته ببادئ الرأي بل لا بدَّ للشخص من معلم يوقفه على خفايا الحكم والله أعلم.

ومن كان يخبر عما يعاين ويشاهد فلا يجوز لأحد أن ينازعه فيما أتى به إلا بنص صريح أو إجماع وإنما عليه التسليم والتصديق إن كان مريداً، وإذا كان المريد لا يعتقد صدق ما يقول له الشيخ فمتى يفلح؟.

وقد كان الشبلي رحمه الله يقول: لا ينبغي للمريد أن يتكلم إلا فيما يشاهده

(١) الإشارة: الإخبار من غير الاستعانة بالتعبير باللسان، وقيل: ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطاقة معناه وتكون مع القرب والبعد.

(٢) المشيد: المحكم والمدعم.

ويعاينه من العلم، والصمت عليه واجب والفكر عليه مكروه لأنه ربما أخرجه من المقصود فهو غاشي ساع في هلاكه مكثف لحجابه وطرده عن باب حضرة ربه الخاصة، قال: والأولى بالشيخ إذا رأى المريد يجنح^(١) إلى استعمال عقله في النظريات ولا يرجع إلى رأي شيخه أن يطرده عن منزله وإلا خيف عليه أن يُفسد بقيّة أصحابه إذ المريد الصادق ليس له نظر إلى غير ما يقوله شيخه أبداً والله أعلم.

ومن شأنه: إذا سقطت حرمة أستاذه من قلبه أن يخبر أستاذه بذلك ليداويه من المرض العضال، إما بطرده عن صحبة، وإما باستعمال ما يزيل عنه الحجب التي طرأت عليه بواسطة وقوعه في معصية أو نحوها، وإذا طرده فليكن ذلك بالقلب دون اللفظ إلا بسياسة تامة فإن المنكر على الشيخ من أكبر الأعداء وليس له أن يحتمله خوفاً من إفساد بقية الفقراء.

وأكثر من يقع في هذا المرض الذين يجالسون الشيخ كثيراً، ولذلك قالوا: لا بد للشيخ من ثلاث مجالس، مجلس للعامة ومجلس للخاصة ومجلس يعاتبه فيه كل مريد على انفراده، لا يجالس كل نوع إلا غيباً^(٢) يوماً بعد يوم أو بعد أيام، مصلحة للمريد لا تكبراً وقياماً للناموس الطبيعي.

وشرطه في مجلس العامة أن لا يترك أحداً من المريدين يحضر معهم فيه، ومتى سامحهم في الحضور فقد غشّهم، قالوا: ويكون مجلسه للعامة في ذكر ترغيبهم في الصلاة والصوم والصدقة، وبيان ثمرة ذلك، ولا يخرج بهم إلى ذكر شيء من الأحوال والكرامات، وما كان عليه الأكابر لأنهم لا يقدرّون على المشي عليه.

وشرطه في مجلس الخاصة أن لا يخرج عن نتائج الأذكار والخلوات والرياضات، وبيان الطريق الموصلة إلى ذلك.

وشرطه في مجلس الانفراد مع الواحد من أصحابه زجره وتقريعه^(٣) وتوبيخه وتصغير أعماله الصالحة في عينه، ويقول له: حالك يا ولدي ناقص عن مقام

(١) يجنح: يميل ويتابع.

(٢) غيباً: زيارة في الحين بعد الحين.

(٣) تقريعه: لومه وعتابه.

الصادقين وينبهه على دناءة همته، فعُلِمَ أنه لا ينبغي للمريد أن يطلب من الشيخ أن يأذن له في الجلوس معه كلما أراد، فإن الشيخ وإن لم يكن عنده أحد من الخلق فهو حاضر بقلبه مع ربه لا يسعه أن يلتفت إلى أحد سواه كما قال ﷺ: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي» فافهم.

وقد تقدم في الباب أنه لا ينبغي للمريد أن يكلف الشيخ بالجواب إذا ذكر له واقعة وقعت له أو سؤالاً في معنى أحوال الطريق بل يرضى عن الشيخ إذا لم يجبه على ذلك، ولكن قال الأشياخ: ينبغي له إذا لم يجبه عن سؤاله أن يعطيه من الأعمال ما يكشف حجابيه عما سأل ليرقيه إلى ما هو أعلى وأشرف مما طلبه إذا كان أهلاً لذلك، فإن من سبق علمه منزلته ربما اكتفى بالعلم وادّعى مقام شيخه من غير ذوق والله أعلم.

ومن شأنه: أن ينشرح إذا منعه شيخه من الجلوس مع إخوانه أو مع تلامذة شيخ آخر فإن المضرة بذلك سريعة للمريدين، لا سيما إن كان المريد ضعيف الاعتقاد في شيخه ويخاف عليه التزلزل بل ولو كان ثابتاً يخاف عليه من الرياء والوقوع في تزكية نفسه عند جماعة ذلك الشيخ، إذ النفس تشتاق لذكر مناقبها عند من لا يعرفها إلا من يشاء الله.

وبالجملة: فليس للمريدين الاجتماع ببعضهم بعضاً سواء كانوا جماعة شيخ واحد أو جماعة شيخ آخر فإن آفات ذلك كثيرة، وليس لهم الاجتماع إلا في مجلس الورد أو بحضرة الشيخ وكل شيخ سامح مريده في الجلوس في مجالس القيل والقال فقد غشه، إلا أن يسبق لذلك المريد الشقاوة بأن صار الشيخ ينهاه عن مثل ذلك فلم يسمع، فحينئذ للشيخ أن يسكت عنه إذا أدى اجتهاده إلا أن السكوت عنه أنفع لدينه من حيث قلّة صدور المخالفة منه. أما غيره فعلى الشيخ النصح وعلى المريد السمع، وقد كثرت خيانة المريدين للمشايخ ولم يحصلوا من طريق الإرادة سوى الاسم فقط فليوطن الشيخ نفسه على عدم نفع أكثر تلامذته به، كما درج عليه أكثر الأشياخ الماضون، فربما لقن الشيخ الألف نفس وأكثر فلا يفلح منهم إلا واحد.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: ليحذر الشيخ في هذا الزمان من غالب المريدين أشدّ الحذر فإن أكثرهم غير صادق ويفارقون شيخهم ولو على طول ويجتمعون بأعدائه ثم يصيرون ويقعون فيه عندهم ويقولون لمن قال لهم

كيف فارقتم شيخكم؟ ما كل ما يُعلم يُقال، ولو وجدناه على شيء ما فارقتنا فيزكون نفوسهم ويجرحون شيخهم، قال: وما حدثنا إلا بما رأيناه وقع من بعض أصحابنا والنصح من الإيمان.

لا يقدر على حفظ نفسه من التغيير بل تتغير قهراً عليه والله أعلم.

قلت: وإيضاح ذلك أن جميع بني آدم تحت أسر القدرة الإلهية فيغيرون مع الأنفاس وما خرج عن ذلك إلا المعصوم، فالعاقل من لم يعول على أحد.

ومن شأنه: أن يصحب الشيخ للتربية فقط دون علة أخرى من أكل وشرب ووظيفة ونحو ذلك. ومن دخل في صحبة شيخ بعلّة من هذه العلل أو غيرها لا يفلح أبداً ما دامت تلك العلة فيه، وإذا تفرّس الشيخ من المريد أنه أشرك في صحبته للتربية علة أخرى من أكل أو غيره وجب عليه أن يخرج عنه ذلك ويأمره بالأكل من عمل يده وكثرة الذكر منفرداً حتى يربي له يقيناً، فإن تربية اليقين^(١) للمريد مقدمة على الاشتغال مع الجماعة بالذكر وغيره، ومن هنا عُدّ أكثر المجاورين عند الشيخ الانتفاع بالشيخ لكونهم عبيد بطونهم.

وكان الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله يقول: من المحال أن يتربى للمريد يقين مع كون الشيخ ينفق عليه ويهيئ له ما يأكل ويلبس، وكل مريد تفرّس الشيخ فيه الميل إلى ذلك وجب في اصطلاحهم على الشيخ أن يخرج عنه ويأمره بالجلوس في الخرابات والمواقع التي يقل مرور الناس فيها ولا يعرفه فيها أحد، وكل موضع عرفوه فيه يتحول منه ويقول له: عليك بالتجريد^(٢) والاشتغال بالله تعالى على الصفاء. وليمده الشيخ بالهمة فإن فقدتها فبالسياسة، وإذا جلس المريد في موضع لا يمر فيه أحد وجاع فلا بد أن الله تعالى يفتح عليه إما بالصبر^(٣) واليقين وإما بشيء يأكله حتى يفاجئه اليقين الكامل فإذا فاجأه اليقين الكامل وعرف الشيخ

(١) اليقين: هو سكون القلب إلى الله بعلم لا يتغير ولا يتقلّب ولا يحول ولا يزول عند هيجان المحركات وارتفاع الرب في مشاهدة الغيب.

(٢) التجريد: خلوّ قلب العبد وسره عما سوى الله بمعنى أن يتجرّد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه عن الأعواض وهو ألا يأخذ من عَرَض الدنيا شيئاً ولا يطلب عما ترك منها عوضاً من عاجل ولا أجل.

(٣) الصبر: حبس القلب على حكم الرب فصبر العامة حبس القلب على مشاق الطاعات ورفض المخالفات وصبر الخاصة حبس القلب على الرياضات والمجاهدات.

منه أنه تساوى عنده الجلوس في الزاوية والجلوس في البرية على حد سواء فهناك يصلح أن يجلس عنده في الزاوية والله أعلم.

ومن شأنه: أن يلزم الأدب مع شيخه ولا يتجسس له قط على حال ولا حركة ولا سكون ولا يتعشّق إلى ذلك، ولا يقف له على نوم ولا طعام ولا شراب ولا غسل من جنابة، وكل مريد تجسس على مثل ذلك حصل له المقت لأن غالب المريدين ضعفاء الحال. وإذا اطلع على شيء ربما نقصت حرمة شيخه في قلبه لجهله بأحوال الكمّل ومعرفة مشاهدتهم قالوا: وليس للشيخ أن يسامح المريد في تجسسه على حاله بل الواجب عليه اصطلاحاً هجره وزجره مصلحة له. وقد قالوا: خصلتان إذا فعلهما المريد أتلف كل شيء ربه له الشيخ وهما: كثرة الأكل والاطلاع على نوم الشيخ أو أكله أو جماعه فليحذر المريد الصادق من مثل ذلك.

ومن شأنه: أن يزيد في الاعتقاد في شيخه كلما استتر بين الناس، فإن الصادقين يكونون كلما طال عمرهم ازدادوا خفاء. وقد قال الرازي رحمته الله: قد جرت سنة الله تعالى في الكمّل من أوليائه أن يستترهم عن من ليس من أضرابهم^(١) حتى لا يكاد يعرفهم أحد من أهل الظاهر. وفي الحديث: «إن الله تعالى يقول: إن أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري». قلت: يحتمل أن يعرف حقيقتهم غيره تعالى أو لا يعرفهم قبل كونهم أولياء بالفعل غيره أو لا يعرفهم بعد كونهم تحت قبابه غيره، ويحتمل غير ذلك والله تعالى أعلم. قال: وسبب اختفاء الكمل من الواصلين قلّة صدق الطالبين، فإن غالب المريدين صار طلبهم للطريق مخلوطاً بالحظوظ النفسانية والأهواء المضلّة عن سواء السبيل لا سيما وقد ظهر أقوام كثير ادّعوا معرفة الطريق وليسوا بأهل لذلك فقاس الناس الصادقين على غير الصادقين، وراج^(٢) أمر الكاذبين عند الأمراء والأكابر وتعطل أمر العارفين وصار جلاس الكاذبين يرجح على جلاس الصادقين، وصرت تقول لغالب الناس: فلان من أولياء الله ﷻ فلا يصدّقك ويقول: كل هؤلاء مصابون مراؤون.

ومن ثم قال الرازي رحمته الله: يجب على المريد الصادق أن لا يبادر لصحبة كل

(١) الأضراب: الأشباه والنظائر.

(٢) راج: انتشر وكثر مصدّقه.

أحد بل يتمهل ويتربص وينظر في أحوال مشايخ بلده فكل من رآه زاهداً في الدنيا يحب الخمول ويكره الشهرة وأعماله موافقةً للكتاب والسنة، لا يكاد يجد كاتب الشمال شيئاً يكتبه عليه وأوقاته محفوظة عن الضياع لا تجده إلا في عمل مشروع، فمثل هذا يجب على المريد أن يتلמד له ويعكف على خدمته، لا سيما أن يشهد له بالصدق فقراء عصره وكان جالساً بإذن من شيخ صادق والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يقنع في طريق فقره بالآباء والجدود كما عليه أولاد غالب المشايخ بل يجب عليه أن يتخذ له شيخاً يربيه فليست المشيخة بالإرث إنما هي بالجد والاجتهاد.

وكان الرازي رحمته الله يقول: لا ينبغي للشيخ أن يبادر لأخذ العهد على أولاد المشايخ المتمشixin بالآباء والجدود، إلا بعد امتحانهم في الصدق في طلب الطريق ودخولهم تحت أمره ونهيه فإن غالبهم يرى نفسه أفضل من جميع المشايخ الظاهرين في عصره ممن ليس له سلف في المشيخة بل سمعت بعضهم يقول: أنا لا أعتقد في أحد إلا إذا كان أبوه في تابوت، فبلغ ذلك الكلام إلى شيخ ليس أبوه في تابوت فعلم لأبيه سترأ وتابوتاً وهذا كله من خفة العقل.

قال الرازي: وقد أخذت العهد على جماعة من أولاد المشايخ القانعين بالزي^(١) من غير علم ولا عمل فما نتج منهم أحد، وعلمت أن التعب معهم ضائع لا سيما أولاد شيخ الإنسان فإن نفوسهم لا تكاد تنكس أن يأخذوا الأدب عن أحد من مريدي والدهم أبداً ولو بلغ في الطريق لأقصى لغاية، ويقولون: إن هذا لم يكتسب الأدب إلا من والدنا ونحن الأصل.

فإياك يا أخي أن تطلب أن مثل هؤلاء يتلمدون لك وتصير تتحكم فيهم كغيرهم فإن ذلك بعيد جداً، ولكن إن أردت أن تنصحهم فانصحهم على لسان والدهم من طريق بعيدة فتقول: بلغني أن والدكم كان من خلقة كذا وكذا وأنه كان ينصحنى بكذا وكذا وتقدر صفاتهم الخبيثة وتضيفها لنفسك. قلت: وقد حمى الله تعالى من ذلك أبناء شيعي الشيخ محمد الشناوي فكان ولده الشيخ عبد القدوس يحبني أشد المحبة وينقاد لي أشد الانقياد وكذلك ولده الشيخ

(١) الزي: الهيئة والمظهر.

عبد القدوس الذي في زماننا هذا فالله تعالى ينفعنا ببركاتهم فإنهم كادوا أن يتجاوزوا مقام شيخهم سلفهم في الأخلاق المحمدية ﷺ .

قال الرازي: وقد جلس جماعة في عصرنا من غير إذن من أشياخهم وصاروا يأخذون العهد على المريدين من غير علم بالطريق فأفسدوا أكثر مما أصلحوا وكان عليهم إثم قطع الطريق، أي طريق القوم، ربما كان أعظم من إثم قطع الطريق عرفاً في بعض الأحوال واحدهم شيطان في زيِّ إنسان انتهى .

وكان سيدي أحمد الزاهد رحمته الله يقول: لا ينبغي أن يسمى كل من فقراء القلندرية والحيدرية والملاطية على الإطلاق فقراء أي ولياً أو صوفياً فقيراً لأن أكثرهم خارج عن الشريعة، قال: وكذلك الحكم في أكثر فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية فإن أفعالهم يكذبها طريق أشياخهم التي كانوا عليها من الصدق والزهد والكرامات والخوارق والتقيد على ظاهر الكتاب والسنة، فلا يؤمر مريد بالأدب مع هؤلاء بل الأولى له هجر مجالسهم .

قال: والضابط الذي يعرف به الصادق من غيره أن كل من رأيناه متقيداً بظاهر الكتاب والسنة متأدياً بأداب أهل الطريق على وفق سير المشايخ المنقولة في مثل «رسالة القشيري» «والحلية لأبي نعيم» فهو صادق في دعواه المشيخة فيجب علينا التأديب معه كما سيأتي إيضاحه في آخر هذا الباب إن شاء الله تعالى .

ومن شأنه: أن يزداد تعظيمه لشيخه على ممر الأيام وذلك دليل على سرعة نتاجه^(١) في الطريق وسرعة إدراكه فإنه على قدر ما يسقط عنه من حرمة شيخه يطول زمن فتحه .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: احذروا من مكر الأشياخ بكم، فربما طردوكم بالقلب حين لم يتفرسوا^(٢) فيكم خيراً وربما مزحوا معكم مزاحاً خارجاً عن مزاح أهل الطريق فأزالوا حرمتهم من قلوبكم ففارقتموهم وأنتم غير معتقدين فيهم . ومن هنا أجمعوا على أنه ليس لمريد أن يصحب إلا من سكنت

(١) نتاج الشيء: ثمرته .

(٢) تفرس: نظر وتثبت .

عظمته في قلبه وأمن من التزلزل فإن السلامة مقدمة على الغنيمة.

وكان سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: حكم المريد قبل أخذ العهد عليه حكم الجديد النقرة، وحكمه بعد مفارقتها الشيخ بزلة من الزلات حكم النصف الزغل فلا أحد يقربه والله أعلم.

ومن شأنه: أن يعتقد في طريق شيخه أنها على الكتاب والسنة قبل أن يدخل في عهده من طريق التفُّرس والمخالطة وذلك ليأمن الاعتراض عليه، فإن المريد في بداية أمره حاله ضعيف والإنكار على طريق شيخه يوحشه ويورثه الشك في صحة طريقه فلا يفلح على يديه.

قلت: وكان لي رفقة من طلبة العلم يحبونني، فلما تحول عزمي إلى طريق القوم جفوني وصرت كأنني مرقت من الدين عندهم، فقلت: إن طريق القوم ليس فيه ما يخالف ظاهر الشرع فلم يصغوا إلى قولي ومكثوا ينقرونني عنها نحو عشر سنين مع أنني بحمد الله ما طلبت طريق القوم إلا بعد حفظي «المنهاج» وكتاب «الروض» و«التوضيح» و«الألفية في النحو» و«الألفية في علم الحديث» و«تلخيص المفتاح» وعدة كتب وشرحتها على الأشياء.

وكذلك وقع للإمام الياضي التميمي رحمته الله فحكى في كتابه «المنهاج»: أنه مكث خمس عشرة سنة في نزاع فخطر يدعوه إلى الاشتغال بالعلم على طريق العلماء وخطر يدعوه إلى الاشتغال بما عليه الصوفية، قال: وكان الفقهاء يأمروني بموافقتهم ويقولون طريقنا يتضمن طريق غيرنا وطريق غيرنا لا يتضمن طريقنا، فقلت في نفسي بتوجه تام: اللهم بين لي أيَّ الطريقين أقرب إليك، فبينما أنا أمشي في شارع من شوارع زبيد إذ لقيني شخص من أرباب الأحوال وقال: إلى متى تشك في طريق القوم، اسلك منها فإنها أقرب الطرق إلى الله تعالى، قال فقلت له: أريد البيان، فقال: نعم، فدخل زاويته وقال: أرسلوا لنا خلف العالم الفلاني ممن لا يرى الشيخ إذ ذاك رد السلام إذا سلم فخرج النقيب إليه، فقال الشيخ للجماعة: لا أحد يرد عليه السلام إذا جاء ولا يقوم له ولا يفسح له فقالوا: سمعاً وطاعة. فلما حضر قال: السلام عليكم فلم يرد أحد عليه السلام، فقال: حرام عليكم فجلس فلم يفسحوا له فقال: خالفتم السنة فقال له الشيخ: الفقراء في أنفسهم منك شيء، فقال: وأنا في نفسي منهم أشياء وأشار بأصابع كفَّه كلها، فقال لي الشيخ: انظر يا ياضي ما أثمره علم هذا.

ثم قال للنقيب أرسل وراء الفقير الفلاني وامرهم ألا يردوا عليه السلام ولا يقوموا له ولا يفسحوا له ففعلوا معه ذلك فصار يتسم ويقول: أستغفر الله تعالى، ثم وقف عند النعال وأخذ النعال على رأسه وبكى فلم يلتفت أحد إليه، فقال له الشيخ: الفقراء في نفوسهم منك شيء فقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال الشيخ لليافعي: انظر ما أثمره صحبة الفقراء. قال الليافعي: ما أقبلت بكليتي من ذلك الوقت على طريق القوم إلى أن كان ما كان. انتهى.

وقد كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام من أشد المنكرين على الصوفية في بداية أمره ويقول: وهل ثمَّ طريق يُتقرب بها إلى الله تعالى غير ما بأيدينا من العلم فلما اجتمع بالشيخ أبي الحسن الشاذلي وأتلمذ له صار يمدح طريق القوم ويقول: إن هؤلاء القوم قعدوا على قواعد الشريعة وقعد غيرهم على الرسوم.

قال: ومن أصدق دليل على قولي هذا أنه لا يقع على يد فقيه قط كرامة ولو بلغ في العلم ما بلغ إلا إن سلك طريقهم في العمل، إذ الكرامات فرع المعجزات^(١)، وهي دليل على صدق الاتباع للشريعة انتهى.

فعلم أن طالب العلم لو أخلص في طلبه لهذب العلم أخلاقه واستغنى عن الاجتماع بالصوفية وكان هو الصوفي ولكن لما قنع بحفظ النقل ولم يعتنِ بالإخلاص احتاج إلى صحبة من يهذب أخلاقه.

وقد كان الشيخ إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: أقبل يا ولدي على طريق القوم فإنها هي الطريق التي درج عليها السلف الصالح من الصحابة والتابعين لكن بعد معرفتك ما أوجب الشرع عليك معرفته والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن لا يجلس بين يدي شيخه دائماً حتى يفرغ قلبه من حظوظ نفسه في جميع معلوماته طالباً للزيادة، وذلك ليُفرغ عليه الشيخ علماً آخر فوق علمه، وقد كان المشايخ الذين أدركناهم إذا جاءهم فقير يطلب الطريق يقولون له: امسح لوحك وتعال. فإن اللوح إذا كان مكتوباً لا يقبل كتابة أخرى ولو قُدِّر أن أحداً كتب على تلك الكتابة فلا يصح قراءة الأولى ولا الثانية.

(١) المعجزات: وهي للأنبياء سميت بذلك لإعجاز الخلق عن الإتيان بمثلها. والفرق بين المعجزة والكرامة: أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها بينما يجب على الولي ستر كراماته وإخفاؤها.

وأُشد سيدي علي بن وفا في ذلك أبياتاً وهي:

يا طالبني لا يغرُّكَ أنكَ من الأبرار
إن رُمت تسمع قلبي فرُّغ لقلبي سمعك
واعزم على تجريدك وُدَّك وهمك يا فلان
إقضِ أجل أوطارك^(١) ولا ترى أهليتك
أضرم جميع أوطارك بنار صدق محبتي
واسع مجرد مفارق عن كل شيء تألفه
وإن بقى فيك بقية وقفت مع لذاتها
ولا يردُّكَ مانع عن أن تجد هذا المنى
وإن وجدت محبة وصدق وجِدْ يجذبك
إلى آخر ما قال فتأمل يا أخي في هذه الأبيات فإنها جامعة للأدب مع
الأشياء والله أعلم.

ومن شأنه: بل من الواجب عليه أن يبادر إلى مصالحة شيخه إذا غضب عليه
وإن لم يعلمه بذنبه، ومن تساهل في عدم المبادرة إلى صلح أستاذه فهو دليل على
خذلانه^(٢) وربما رجع إلى حالة أنقص من الحالة التي كان عليها قبل صحبة
الشيخ فإن كانت مدة صحبته عشر سنين مثلاً يرجع إلى حالته التي كان عليها قبل
سوء الأدب إلى عشر سنين وكأنه في العشر سنين يعمل في غير معمل وقس على
ذلك.

وقد قالوا: من أكل لقمة من حرام لم يعد إلى حالته أربعين سنة، وعَصَبُ
الشيخ ربما كان من تلك اللقمة ومتى قال لأستاذه: قل لي على ذنبي فقد أساء
الأدب لأنه لا تحجير^(٤) على الشيخ فيما يفعله مع المريد من الامتحانات التي
يختبره بها.

(١) التوهم: التمثل والتخيّل.

(٢) الوطر: الحاجة. ج أوطار.

(٣) الخذلان: البين والانقطاع.

(٤) التحجير: من الحجر وهو المنع.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: من لم يكن شيخه عليه أشد من دخول النار فليس له في الصدق قَدَم وهو دليل على استحكام الخبث في باطنه، وأقبح من ذلك غضبه هو على شيخه وطلبه من شيخه يبدأه في الصلح لأن في ذلك غش للمريد واستهزاء بالطريق ومن شأن الطالب لشيء الذل والمطلوب منه ذلك الشيء العزُّ والمريد هو الطالب.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمته الله يقول: إذا كان العاقُّ ^(١) لوالده الطيني لا يُرفع له إلى السماء عمل فكيف بوالده الروحي الذي يريد أن يجعله جليساً للحق جل وعلا لا يُمنع من دخول حضرته في ليل ولا نهار انتهى.

وسمعت ولدي عبد الرحمن وهو ابن خمس سنين يقول: المريد الصادق إذا غضب شيخه عليه تكاد روحه تزهق ^(٢) منه فلا يأكل ولا يشرب ولا يضحك ولا ينام حتى يرضى عنه شيخه، وإذا غاب عنه شيخه في سفر أو مرض يعدُّ ذلك من جملة شقائه ثم لا يزال عاكفاً على عتبة باب شيخه إذا مرض حتى يخرج فيكون ذلك اليوم عنده أعظم من العيد، والمريد الكاذب بالعكس يفرح إذا غاب عنه شيخه خوفاً أن يناقشه في أحواله، قال لي: وغالب المجاورين الذين عندك في الزاوية يفرحون إذا غبت عنهم انتهى.

فأعجبني اطلاع على هذه الأحوال مع صغر سنه فأسأل الله أن يجعله من خواص أوليائه من فضله وكرمه آمين.

ومن شأنه: أن يشكي خواطره ^(٣) المستقرة للشيخ دون ما لا يستقر، لا يهاب الشيخ في ذلك فإنه طبيبه والطبيب لا يجوز للمريض أن يكتم عنه شيئاً من أوجاعه التي يتعطل بها عن عبادة ربه ويشوش عليه الحضور مع ربه ﷻ، أما الخواطر التي لا تستقر فلا ينبغي له ذكرها لأنها مغفورة وتستغرق العمر كله إذ هي سبعون ألف خاطر في اليوم واللييلة عدد الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور كل يوم، فإن جبريل ينزل كل يوم نهراً فيغتسل منه ثم ينتفض فيقطر منه سبعون ألف قطرة فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكاً، هكذا قال الشيخ محيي

(١) العاقُّ: هو الذي استخف بوالديه وعصاهما وترك الإحسان إليهما.

(٢) تزهق: تخرج.

(٣) الخواطر: ما يخطر بالقلب من أمر أو رأي أو معنى.

الدين بن العربي في «الفتوحات المكية».

ثم لا يخفى عليك أيها المريد أنه لا ينبغي للشيخ التصريح بالخواطر المذمومة على رؤوس الأشهاد إلا إن كانوا كلهم من أهل الصدق، أما إذا كان هناك أخلاط فلا ينبغي التصريح بشيء من ذلك لما يترتب عليه من الآفات أفلها الاستهزاء بأهل الطريق وإساءة الظن بهم.

ودليل القوم في شكواهم الخواطر لأستاذهم ما رواه البغوي في كتاب «المصابيح» وصححه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله إننا نجد في نفوسنا ما يتعاضم أحدنا أن يتكلم به فقال ﷺ: أَوَ قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. فقال: ذلك صريح الإيمان» انتهى. فإنه يفهم من هذا الحديث أنه ينبغي للمريد الصادق وإن علت مرتبته أن لا يتخلف عن مجلس شيخه ولو بعدت داره ليزيده من فضله، إذ الشيخ باب رحمة الله للمريد، لأنهم ما جاؤوا إلى النبي ﷺ إلا من محل بعيد عن مجلس النبي ﷺ، ويستفاد من قول الصحابة رضي الله عنهم في الحديث: «أنا نجد في نفوسنا أن تربيتهم كانت كملت وأن سؤالهم إنما كان في المعارف الإلهية والتجليات»^(١) الربانية التي يخاف من النطق بها الوقوع في الكفر كما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله لهم ذاك صريح الإيمان، وأن سؤالهم لم يكن في شيء من مبادئ السلوك كإصلاح فرائضهم وسننهم لأن ذلك لا يتعاضم في نفس المؤمن السؤال عنه.

ويستفاد من الحديث أيضاً أن المريد إذا عرض خاطره المحتمل للخير والشر بملا^(٢) من الناس يكون بالإشارة والكتابة دون التصريح بحقيقة الأمر فإنهم أخبروه بطريق الإشارة كما تقرر وإنه ما منعهم من التعبير عنه إلا التعظيم لله ﷻ. ويستفاد من قوله ﷺ: «أَوَ قد وجدتموه؟» بهمة الاستفهام أن للأستاذ أن يسأل مريده عن حاله وإن كان يعلمه ويظهر للمريد أنه لم يطلع على خواطره خوفاً أن يخجله ويهتك^(٣) سريرته عنده.

(١) التجليات: إشراق أنوار إقبال الحق على قلوب المقبلين عليه. وقيل: ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب. وهو على ثلاثة أحوال: تجلي ذات، وتجلي صفات الذات، وتجلي حكم الذات.

(٢) الملا: الجماعة.

(٣) يهتك: يُزيل الحجاب فيبدو ما وراءه.

ويستفاد أيضاً من قوله ﷺ للصحابة: «ذلك صريح الإيمان» أن للأستاذ أن يمدح المريد إذا لم يَخَفْ عليه الوقوع في عجب أو نحوه.

ويستفاد من الحديث أيضاً أنه ليس للأستاذ أن يستفصح المريد عن حالة تحقق بها وأدركها ذوقاً، إنما الواجب عليه في الطريق أن يصححها له بالجواب ويقره عليها كما يقره على جميع الأفعال القلبية إذا وافقت الشرع، وأنه ليس للمريد أن يكتنم عن أستاذه شيئاً من الأمور التي أشكلت عليه في الباطن، فقد علمت أن طريق شكوى الخواطر طريق صحيح على الكتاب والسنة خلافاً لمن أنكره من الجهلة، لكن يحتاج الشيخ الذي يزننها للمريد إلى الاطلاع على محل تلك الخواطر من حضرات الأسماء الإلهية فإن الجاهل بتلك الحضرات لا يعرف ميزان تلك الخواطر بل هو يخطئ في ضلال.

وقد وضع السيد الشريف سيدي علي بن ميمون شيخ سيدي محمد بن عراق وغيره رسالة في بيان موازين الخواطر فراجعها إن شئت، والله أعلم يؤوّل لأفعال شيخه التي ربما يفهم أحد من ظاهرها الفساد على أحسن الوجوه فإن لم يجد تأويلاً فليسلم للشيخ لأنه ربما أطلع الشيخ مريده على أمور لا حقيقة لها كما يقع من أهل السيميا^(١) لأن أبدان الأولياء مرايا ولا يرى المريد في المرآة إلا وجه نفسه، على أن الشيخ لا يُطلع المريد على شيء مما يخالف الظاهر إلا لحكمة كما في قصة الخضر مع موسى ﷺ.

ولم تزل الأشياخ تمتحن المريدين ليُظهروا بذلك مرتبتهم لهم أو لإخوانهم. وقد روي أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأبي بكر: «ما أصبح لآل محمد قوت»^(٢) في هذا اليوم، فأتاه بجميع ماله، ثم قال لعمر بن الخطاب فأتاه بشطر^(٣) ماله، ثم قال لأبي بكر: ما تركت لأهلك؟ قال: الله ورسوله. ثم قال لعمر: ما تركت لأهلك يا عمر؟ قال: شطر مالي، فقال ﷺ: «بينكما ما بين كلمتيكما». قال عمر رضي الله عنه: فمنذ ذلك علمت أنني لا أسبق أبا بكر بشيء. انتهى.

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي يقدّم أبا الفتح الواسطي في المحبة على

(١) السيميا: السحر وهو إحداث أشياء خيالية لا وجود لها في الحس.

(٢) القوت: ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام.

(٣) الشطر: النصف.

ولده صالح فقالت له امرأته: كيف تقدم ابن أخيك على ولدك؟ فقال: لم أقدمه وإنما الله قدمه، ثم قال له ولولده: اذهبا فأتياني بشيء من النجيل^(١)، فحشّ ولده حزمة وجاء أبو الفتح بلا شيء فقال: لم لم تأت بشيء من الحشيش؟ فقال: وجدته كله يسبح الله تعالى فاستحييت من الله تعالى أن أقطع من يسبحه، فقال لامرأته: انظري حال هذا وحال ابنك فاستغفرت.

ووقع لسيدي يوسف العجمي أنه كان يقدم فقيراً على جميع أقرانه^(٢) فحسدوه على ذلك فامتحنه الشيخ يوماً وقال له: إذا رأيت امرأة مزينة في الموضع الفلاني فأدخلها علي فإني رأيت أنه مكتوب علي أنني أنا معاً هذه الليلة في الخلوة، ثم قال لإنسان من أصحابه الذين يحسدون ذلك الفقير: إياك أن تخبر بذلك أحداً، فقام معها إلى الصباح ثم أغضب ذلك الإنسان وأخرجه من الزاوية وربطه من بيت الوالي وقال: هو كثير الفساد فقال: ما كثير الفساد إلا الذي ينام مع بنات الخطأ في الخلوة، ثم أتى بجماعة الوالي للشيخ فدخل عليّ الخلوة فشهد الفقراء كلهم والجيران من نساء ورجال أن هذه المرأة هي ابنة الشيخ فافتضح ذلك الصاحب ثم قال للفقير: كيف توافقني على إدخال امرأة لا تعرفها؟ فقال: يا سيدي إني لم أخدمك على أنك معصوم وإنما خدمتك على أنك أعلم مني بطريق الله ﷻ.

ووقع له مرة أخرى أنه ذبح خروفاً وضعه في قُفَّة وقال لبعض المريدين: يا ولدي إني جرى عليّ المقدور وذبحت هذا الشخص فاسترني فيه واحمله وادفنه في الكوم الفلاني وإياك أن تخبر أحداً، ثم أغضب ذلك المريد وسبّه وقال للنقيب: أخرج هذا فإنه مفسد فأخرجه فأتاه الوالي وقال: إنه قتل قتيلاً ودفنه في الكوم الفلاني فذهبوا إلى الكوم وحفروا فأخرجوا الخروف المذبوح فافتضح ذلك المريد.

وذكر اليافعي ﷺ أن بعض الأولياء يُقدِّره الله تعالى على قلب الأعيان^(٣) التي يصح استحالتها فيجعل العسل قَطِرَاناً والقطران^(٤) عسلاً والخمر حلاوة

(١) النجيل: نبات عشبي معمر ورقه كورق البر إلا أنه أقصر.

(٢) الأقران: جمع قرْن وهو المثل في الشجاعة والعلم والقتال وغير ذلك.

(٣) العين: الحاضر من كل شيء. ج أعيان.

(٤) القَطِرَان: عُصارة شجر الأرز والأبهل تطبخ ثم تطلّى بها الإبل.

والحشيش حلاوة فيصير الناس ينكرون عليه وبعضهم أخذ حشيشة ليلعها فقبض شخص على يده فإذا هي مأمونية.

وحكى لي خادم سيدي أبي الخير الكلبياني: أن شخصاً أتاه وأخبره أنه قال للشيخ: إن زوجتي حامل وقد اشتهدت مأمونية حموية ولم أجد لها فقال له الشيخ: اتني بوعاء فأتاه به فتغوط له بها مأمونية سخنة فقال الخادم: وأكلت منها لعدم اعتقادي أنها غائط انتهى.

ومثل هذه الأمور مما لا يعارض النصوص الشرعية، الأولى التسليم لأربابها، لأن الحس قد ساعدهم لوجود طعم الحلاوة أو القطران أو العسل. هذا كله في مواجيد الشيخ، أما إذا أمر المريد بأمر فليس له أن يتناوله على غير ظاهره بل يبادر إلى فعله من غير تأويل والله أعلم.

ومن شأنه: أن يبادر لفعل ما يأمره به شيخه ولو لم يعلم له ثمرة كما مضى عليه المريدون الصادقون بخلاف ما عليه أكثر مریدی هذا الزمان، فيقدم المبادرة إلى امتثال أمر زوجته مثلاً على امتثال أمر شيخه ولذلك تخلفوا عن الوصول إلى مقامات الرجال، فحكم أحدهم من ربط في عنقه صخرات عظيمة مثقوبة بعدد هفواته^(١) وأحكم ربطها في عنقه بحبال وثيقة، وداعيته إلى السير ضعيفة وشيخه يسحبه إلى قُدام بحبل العنكبوت، وداعيته إلى الشهوات تسحبه إلى ورائه بالحبال الوثيقة.

وقد كان الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر يقول: المريد الصادق هو الذي لا يتعب شيخه فيه لما عنده من النهضة والعزم والله أعلم.

ومن شأنه: أن يكون غرضه فانياً في اختيار شيخه فما اختاره شيخه هو المراد، فليحذر المريد أن يتكدر^(٢) من شيخه إذا عمل المريد له طعاماً ودعاه فلم يحضره أو عمل له ثوباً فلم يلبسه، فإن مال المریدین مکروه للأشياخ في اصطلاحهم، إلا إن صار المريد يرى نفسه وماله لشيخه، وعلة كراهة أكل طعام المريد على الشيخ كون ذلك يورثه الإدلال على الشيخ ويصير له المنّة^(٣) على

(١) الهفوة: الزلّة والسقطة.

(٢) يتكدر: ينزعج ويغتم.

(٣) المنّة: الفخر بالنعمة على شخص ما.

الشيخ ولو في باطنه، فيُحرم المريد الفائدة ويصير يستصغر شيخه ويحتقره لقبوله هديته وأكله من طعامه كما سيأتي بسطه إن شاء الله تعالى في هذا الباب والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يطيع في شيخه عدواً ولا بحالة فضلاً عن كونه لا يصاحبه إلا لضرورة شرعية، وإيضاح ذلك أن شيخه لا يكون مسلماً إلا لأمر شرعي دعاه إلى ذلك، وإذا كانت معادة الشيخ إنما هي بوجه شرعي فينبغي للمريد أن يقلد شيخه في أن ذلك العدو يسوغ هجره وكرهته شرعاً يعني كراهة أفعاله لا ذاته، وذلك كما يقلد الناس المجتهد من غير مطالبة بدليل.

وكذلك من أدبه أن لا يباعد لشيخه صديقاً ولا يباغضه ولا يصغي قط لقول من يعترض على شيخه في تصدره لنصح العباد كما يقع فيه طائفة من الجهلة فيقولون عن الشيخ الذي لا ينصح الناس ولا يعظهم ولا يرشدهم ولا يريهم هذا هو الشيخ الصالح الذي لم يفتح على نفسه باب مشيخة، وهذا هو من الجهل المبين^(١) فإن حقيقة المشيخة أن صاحبها يتصدر لنفع العباد في دينهم وذلك واجب، فكيف يمدح من ترك الواجب وعصى الله ورسوله؟

وقد أجمع الأشياخ على أنه لا يجوز لأحد أن يحمل مشايخ الطريق على ما يتبادر إلى أذهان العامة من طلبهم بالوعظ والإرشاد الرياسة على الناس حاشاهم عليه السلام من قصد مثل ذلك فعلم أنه ينبغي للشيخ أن يبين قصده الصحيح للناس حتى لا يقعوا في غيبته^(٢)، وإنه يجب على المريد أن يجيب عن شيخه إذا سمع أحداً يعترض عليه إلا إن نهاه شيخه عن ذلك.

وكذلك يجب عليه أدباً أن يحب كل من أحبه شيخه ويبعد عن كل من أبعد شيخه جملة واحدة، لأنه ربما تزلزل اعتقاده في شيخه ككلام المعترضين بسماع والمنقصين ممن هو محبوب عن مشاهدة لم تدخل دائرته كما هو حكم غالب الناس، لأن غايتهم الوقوف في دائرة الغير لا يكادون يبرحون^(٣) عنها ودائرة الشيخ تبتدىء من بعد نهاية دائرتهم بكثير فالمعترضون على الشيخ معذورون من

(١) المبين: الواضح.

(٢) الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره.

(٣) يبرحون: يغادرون.

وجه في إنكارهم عليه لأنه فعل شيئاً لا تحكم بإباحته دائرتهم غير معذورين من الوجه الآخر، وهو أن فوق علومهم علوم.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: ليس للمريد أن يجالس من يعترض على شيخه أبداً، لأنه ربما أورث عنده شكاً في حال شيخه بكلامه الجافي وميزانه الجائر.

وسمعت مرة أخرى يقول: من أدل دليل على صحة عدم صدق المريد في محبة شيخه أن يسمح بكره أحد من أصحابه أو ينقصه أو يكشف له عورة، فإن ذلك يسوء الشيخ والمحِب لا يسوء محبوبه بسوء، ثم إن تنقيص صاحب الشيخ يرجع إلى تنقيص الشيخ.

وكان يقول: ليس للمريد أن ينقص أحداً من أصدقاء شيخه، ولكن إن أمره الشيخ بالتباعد عن أحد من أصدقائه فلا بأس لأنه ربما أشغل أحدهما صاحبه عن ربه ﷻ، ولا يغتر مريد بإقبال شيخه على ذلك الصديق الذي نهاه عن القرب منه، لأن من شأن الشيخ الإقبال على الناس كلهم محبهم ومبغضهم قبول رحمة وشفقة ونصح، ولا يقطعه ذلك عن الله بخلاف المريد.

ثم إن جميع ما ذكرناه إنما هو في حق المريد الذي يُخاف عليه التزلزل كما أومأنا^(١) إليه زيغاً^(٢)، لا في حق من لا يخاف عليه ذلك لصحة ارتباطه بشيخه، وإلا فقد حكى الشيخ محيي الدين بن العربي رحمته الله: أنه عاды شخصاً كان يكره شيخه فرأى رسول الله ﷺ وصار يقول له: يا رسول الله وهو يُعرض لا يكلمه، فقال: يا رسول الله ما ذنبي؟ فقال: كيف تكره فلاناً لأجل بغضه شيخك؟ أما علمت أنه يحبني؟ فلم لا أفنيت بغضه في شيخك في محبته لي، قال الشيخ محيي الدين: فمن ذلك اليوم ما كرهت أحداً علمت أنه يحب الله ورسوله لأجل أن شيخي يبغضه والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحذر من العجلة فلا يبادر لفعل ما أمره به شيخه إلا إذا كان عالماً بشروط صحة ذلك الأمر.

(١) أوما: أشار.

(٢) الزيغ: الميل عن الحق.

كما أنه لا يدخل إلى الصلاة إلا بعد معرفة شروطها ومعرفة كيفية أفعالها كلها ويميز بين فرائضها من سننها كما هو مقرر في كتب الفقه فلا تكون المبادرة إلا بعد معرفة أركان ذلك الأمر وشروطه.

قالوا: وإذا كان أرسله شيخه في حاجة وكان مكانها بعيداً فمن الأدب أن لا يطلب له شيئاً يركبه إلا إن كان عاجزاً عن المشي إليها عادة، وكذلك لا يطلب للحاجة محملاً إلا إذا عجز عن حملها، فإن أقل مراتب الأدب مع الشيخ أن يكون الحكم معه في ذلك كحاجة نفسه أو حاجة زوجته وأولاده إذا بكوها عليه فطلبوها منه، فإن مراعاة خاطر شيخه مقدم على حاجة زوجته وغيرها.

وقد رأيت من يمشي على نحو المرحلة في هوى نفسه وفي هوى زوجته، وإذا قال له شيخه: اذهب إلى حاجة هي دون ذلك يطلب له حماراً، فمثل هذا لا يرجى له فلاح.

وقد كان سيدي محمد السروري يرسل شيخنا الشيخ محمد الشناوي في الحاجة ماشياً من فارس كورة إلى طندتا فيذهب ويجيء بالحاجة ماشياً.

أخبرني الشيخ محمد الصبيحي أحد أصحاب سيدي أبي العباس الغمري أن سيدي أبا العباس أهدى إليه إنسان قفصاً من دجاج وهو في ناحية نبتيت بالشرقية، فقال: مرادنا أحد يوصل ذلك القفص إلى دارنا بمصر فتواري عنه سيدي الشيخ علي بن الجمال فحمل القفص على رأسه من نبتيت إلى مصر وهي مسافة بعيدة فبلغ ذلك الشيخ سيدي أبا العباس فتكدر لذلك وقال: لم أرد الأمر على ما فعلت، مع أن سيدي الشيخ علي هذا كان قد طعن في السن وله تلامذة كثيرة فرضي الله عن أهل المروآت، فليحذر المريد من قوله لشيخه هات لي حماراً أركبه حتى أقضي لك حاجتك إلا عند العجز الظاهر والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يطاء^(١) فرش شيخه برجله إذا كان في طريق حاجته بل يطويه أو يرفعه ثم يمشي لحاجته داخل بيت الشيخ أو خارجه، وإن أراد أن يطوي رجله ويمشي على فرش الشيخ بركبتيه فلا بأس، وكذلك لا ينبغي أن يدخل لشيخه قط خلوة^(٢) ولا بيتاً إلا بإذنه الخاص فلا يكفيه إذنه العام، كأن أذن

(١) يطاء: يدوس.

(٢) الخلوة: ترك أخلاط الناس وإن كان بينهم. وقيل: الخلوة الأنس بالذكر والاشتغال بالفكر.

لجماعة بالدخول فدخل معهم إلا أن يكون نقيباً ويعرف بالقرينة^(١) أنه يحتاج إليه في مد السماط^(٢) للداخلين أو خدمتهم مثلاً، فهناك يدخل بلا إذن خاص.

وليحذر من الاعتراض عليه في أمره بتقديم الطعام القليل الذي لا دسم فيه للأمرء وتقديم الطعام الكثير اللذيذ للفقراء، ويقول: هؤلاء يستحقون مثل ذلك، فإن ذلك من سوء الأدب مع الشيخ. وكذلك لا يعترض على الشيخ فيما لو فعل هو ذلك فقدم اللذيذ للأمرء والقليل للفقراء وإن للشيخ مشهداً صحيحاً في جميع أفعاله.

وكذلك إذا رسم الشيخ لأحد بشيء من الطعام أو الثياب لا ينبغي له الاعتراض عليه ولو في نفسه. ومن سلك ذلك مع الشيخ فلا بد أن يطرده الشيخ بالقلب ولو على طول لأن من شرط النقيب أن يكون كاتماً لسر الشيخ لا يخبر أحداً بما فعله الشيخ في داره مطلقاً.

وكذلك لا ينبغي للمريد أن يبيت مع شيخه في مكان واحد أبداً كما مرّ تقريره في مبحث: إن من أدبه أن لا يقول لشيخه: دعني أبيت معك. لأن الشيخ ربما لم يقم يتعهد بالقيام والركوع والسجود ونحو ذلك من الأعمال الظاهرة تلك الليلة فيصغر في عين المريد فيُحرم بركة صحبته له، فإن ورود الأكابر في الليل إنما هي أمور قلبية في الغالب من مراقبة ونحوها مما كل ذرة منه ترجع على عبادة المريد ألف سنة. اللهم إلا أن يريد منه الشيخ أن يبيت معه فلا بأس لا سيما في الأسفار أيام المطر. وقد قالوا: لا ينبغي للمريد أن يبحث عن أحوال شيخه في الليل فإن ذلك غير مشكور لأنه كالعورة، وأيضاً فإن الأشياخ في النهار مع الخلق في حوائجهم وفي الليل مع ربهم معية محضة لا يشاركه فيها أحد.

قالوا: وينبغي أن يكون موضع جلوس المريد دائماً تجاه مجلس الشيخ خلف حجاب بحيث لو طلبه الشيخ وجده أي وقت شاء فإن حاجة المريد كلها عند شيخه فلا براح^(٣) له عن بابه دنيا وأخرى.

وقد قالوا: متى غاب المريد عن شيخه ساعة ولم يشتق إليه وأدعى المحبة

(١) القرينة: الدليل.

(٢) السماط: ما يسط ليوضع عليه الطعام، ج: سُمَط.

(٣) البرّاح: المغادرة.

لشيخه فهو كاذب، فكيف بمن يمكث الأيام لا يرى شيخه ولا يشاق إليه، فإن أقل مراتب الشيخ في الاشتياق إليه أن يكون كالزوجة فيحنُّ إليه كما يحن إليها، وأين منفعة الشيخ من منفعة الزوجة، وأين من يشغله عن الله مثل من يشغله بالله، لكن ثم من المريدين الصادقين من يكون سبب بعده عن الشيخ الهيبة له مع بقاء الشوق والمحبة، فمثل هذا لا يضره البعد لأنه لا استهانة فيه بالشيخ والله أعلم.

ومن شأنه: أنه إذا قدم شيخه عليه أحداً من أقرانه من غير ظهور فضيلة لذلك الشخص فمن الأدب التسليم لشيخه، ولا يقول ولو في نفسه: هذا لا يستحق التقديم، فربما فعل الشيخ ذلك امتحاناً لنفس المريد الذي ادعى التواضع لإخوانه، وأنه صار يرى نفسه أحقرهم وكأنه تحت نعالهم، لا بياناً لمقام ذلك الشخص، فعلم أن من أدب المريد أن يقدم على نفسه حتماً كل شخص قدمه شيخه عليه.

وقد تقدم في هذا الباب أن من أراد أن يقدمه شيخه فليسلك طريق الإخوان ويؤثرهم على نفسه ويتحمل بعد ذلك أذاهم، فإن الله تعالى قدّمه عليهم إن شاء الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَكَ يَا مَرْيَمُ لَمَّا صَبَرُوا﴾^(١) فما فرحوا بالإمامة حتى بلغوا مقام التحقيق في الصبر بحيث شهد لهم تعالى به، وقد قالوا: المريد الصادق يكاد يملك قلب شيخه من كثرة الأدب معه ومع الإخوان لما هو عليه من المروءة والخدمة، والمريد الكاذب بالعكس فتتفر منه قلوب الناس أجمعين، وأجمعوا على أن كل مريد نازع الشيخ في شيء فعلة فهو ناقض العهد الذي أخذه عليه سابقاً بالسمع والطاعة، وكان لسان حال هذا الكاذب يقول: هذا الشيخ لا يعرف شيئاً وهو مغفل وأنا أعرف منه. وهو عقوق محبط^(٢) لعمل عند القوم، فمثل هذا لا هو مريد الشيخ ولا الشيخ يعده من مريديه والله أعلم.

ومن شأنه: أن يزيد في احترام أصحاب شيخه الخاصين به وإكرامهم، ويبجلهم^(٣) أكثر من إخوانه في العموم، وكذلك أولاد شيخه، وإذا لطم ولد الشيخ الصغير وجه أحد فيشكوه إلى أبيه أو وصيه أو شيخه ولا يلطموه كما لطمهم أديباً مع الشيخ حتى لو مسك ولده وقال: الطموه كما لطمكم، فليس من

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٢) حبط عمله: بطل.

(٣) بجل: وقر.

الأدب لظُمه فإنه جزء من الشيخ لا سيما إن كان ولد الشيخ شريفاً لأنه جزء من رسول الله ﷺ، وبالجمله فلا ينبغي له التحكم في ولد شيخه مطلقاً، بل إن كان والده حياً شكوه له فيحكم فيه بما يرى، وإلا احتملوه رعاية لأستاذهم والله أعلم.

ومن شأنه: أن يتجرد لخدمة شيخه إذا دعاه للسفر معه إلى بلاد الريف أو غيرها، ولا يعارضه في السفر ليلاً أو نهاراً إلا لضرورة أو بإذنه، ويتعفف عن أطعمة الناس الذين يعزمون على شيخه جهده، ولا يأكل في مدة السفر إلا بقدر الحاجة الشرعية، فإن في ذلك فوائد:

منها: قلة حاجته للبول والغائط وإخراج الريح لا سيما في المركب أو البلد الذي هو قليل الماء، أو الطريق.

ومنها: عدم تحمل مئة الفلاحين في ذبحهم الجدي أو العنز أو الإوزة أو الدجاجة وعينهم فيها لأنها كانت تسد عنهم مسداً في أمر ظلمة النازلين بالبلد من كاشف أو ملتزم والفقير يأكل ذلك ويذهب ليس يحمل شيئاً من همهم.

ومنها: عدم اللوث بالفقراء من الفلاحين، وقولهم في المجالس: ما رأينا أشره نفساً من جماعة الشيخ الفلاني. ولا يخفى على المريدين أن الناس اليوم قد صاروا في جمرة من نار المظالم لا تنطفئ إلا بموتهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم إن كان المكان الذي ينام فيه الشيخ مُحَوِّفاً فمن الأدب للنقيب أن يبيت سهراناً على وجه المناوبة وهذا أرفق، وليحذر المريد إذا رده الشيخ عن دخوله معه دار الضيافة أن يتكدر من ذلك فإنه ربما امتحنه بذلك. وكذلك لا ينبغي له التكدر إذا بلغه أن شيخه شكاه منه لبعض إخوانه وقال له: فلان شره^(١) النفس، فربما كان قصد الشيخ شخصاً آخر من الفقراء قليل الحياء خوف أن يقول له ذلك فيفجّر على الشيخ في بلاد الفلاحين ويبهذل شيخه فأضاف الشره إلى غيره ممن رآه وطئ الجانب ويحمل مثل ذلك الكلام فكلمه في حكاية المريد لعلمه بثبوت وده فليكن مالح الرقبة على حذر فإنه هو المقصود بالكلام.

وكذلك إذا قال الشيخ لمريد في نحو القضية السابقة: ما أنت حولي إلا

(١) الشره: وهو اشتداد الحرص على الطعام والاشتهاء له.

لأجل بطنك دون المحبة لي! لا ينبغي له أن يتكدر بل ينبغي له أن يشكر الله على ذلك الذي حذره من الأكل من طعام الناس دون إخوانه لأنه لا سيما وطعام الفلاحين غالبه للعلل وأمراض أقلها ليصير الشيخ يشفع فيهم عند الكاشف أو شيخ العرب أو عند أستاذهم، وقلّ فلاح يسلم من مثل ذلك.

وكذلك لا ينبغي للمريد أن يتكدر من شيخه إذا مشاه في السفر وركب غيره بل يفرح لذلك لأن شيخه يريد بذلك أن يرقّي همته إلى استحلاء أفعال الحق تعالى معه لمخالفة هواه فإن من لم يستحلّ مقارعة الأستاذ لم يظفر منه بالوداد والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحرص على أن لا يدخل عليه محبة لغير شيخه وغير من أمر الله تعالى بمحبتهم من الأنبياء والأولياء وصالح المؤمنين، فإن أحب ما يكون المريد إلى شيخه إذا نظر في قلبه فلم ير فيه محبة لغيره من أقرانه ولا مراعاة لسواه، وكذلك الحكم في نظر الحق تعالى إلى قلب عبده إذا نظر إليه فلم يره غير ربه ولا يميل إلى سواه اصطفاؤه واجتباؤه وجعله من خواص أهل حضرته، فالمريد الصادق عمله دائماً في نظافة قلبه من كل دنس وشبهة، لأن الحق تعالى غيور ومحل بلوغ العبد إلى مقام محبة الله تعالى له كما ذكرنا أن لا يتأثر ممن يؤذيه وينقصه في المجالس لأن تأثير هذا يدل على مراعاة الخلق دون الحق فآثر^(١) نظر العبيد ورجح مراعاتهم على نظر الحق تعالى، وذلك أبغض ما يكون عند ربه ﷻ لأنه كما كان الذي لا يراعي في قلبه سواه أحب الناس إليه، فكذلك يكون من يراعي سواه أبغض الخلق إليه فافهم، فالله يجعلنا ممن يراعيه آمين آمين.

ومن شأنه: أن لا يشاور شيخه على أمر ابتداء إلا إن تقدم منه إذن قبل ذلك، وأما إذا كان تقدم منه المنع كأن قال له: لا تبتدئي قط بكلام إلا إن ابتدأتك أنا بالكلام، فلا ينبغي له أن يبتدئه ولو ابتداء لا يلزم الشيخ جوابه، إذ على المريد السكون بين يدي الشيخ دائماً كالмит بين يدي الغاسل، وربما كان في الجواب عن ذلك الأمر الذي ابتداء به الشيخ ضرر به أو بالشيخ كأن قال لشيخه: خذني معك إلى الحج أو المكان الفلاني أو دعني أجلس بين يديك كلما بدا لي ونحو ذلك، وقد درج الأشياخ كلهم على عدم تمكينهم المريد مع الشيخ والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يتقدم على شيخه في المشي وغيره بل يكون مشيه تبعاً لشيخه في الظاهر والباطن، فإن تقدم عليه لحاجة فلا بأس كأن يتقدم ليجسَّ (١) له المخاضة أو يكشف له عن حفرة في الطريق في الليالي المظلمة ونحو ذلك، فإن ذلك من جملة إثارة شيخه عليه بالنفع دون الضرر.

قالوا: ولا ينبغي له أن يستدبر شيخه أبداً إلا بإذن ويكون ذلك مع استشعار المريد الخجل والحياء حتى كأنه يمشي على الجمر فإن شيخه أعظم حرمة من الكعبة، وقد استحب بعض العلماء للإنسان إذا فارقتها أنه يلتفت إليها بوجهه ويمشي القهقري حتى يتوارى عنها بجدار أو يبعد جداً.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: لا يعرف مريد مقام شيخه حقيقة إلا إن أشرف على مقام الكمال، فهناك يعرف ما يدعوه الشيخ إليه، أما قبل ذلك فلا يكاد يعرف للشيخ مقاماً ومن لازم ذلك سوء الأدب معه ومخالفته دائماً أمره غالباً والله أعلم.

ومن شأنه: أن يرى نوم شيخه أفضل من عبادته هو لسلامة شيخه من العلل والأمراض فليس نومه تهاوناً بعبادة ربه وإنما ذلك لمشاهدته بذوقها، وتقدم قولنا أن نوم العارفين يسمى ورداً، فيقال فلان في ورد النوم، والورد من لازمه الوارد، والوارد من لازمه الترقّي فافهم.

واعلم يا أخي أن كل من ظن أن عبادته أفضل من نوم أستاذه فقد عكَّه والعاق لا يرفع له إلى السماء عمل. وقد أرسل ذو النون المصري شخصاً إلى أبي يزيد يقول له: إلى متى الدَّعة (٢) والراحة وقد سارت القوافل؟ فأرسل أبو يزيد يقول له: ليس الرجل من يسافر مع القافلة وإنما الرجل من ينام إلى الصباح ويصبح أمام القافلة، فقال ذو النون: هذه درجة لم تبلغها أحوالنا. فكان ذو النون كالمرید لأبي يزيد في هذه المسألة.

ويعرف من هذه الحكاية ما حكى الإمام أحمد كان يمدح الإمام الشافعي بين أهله كثيراً، فاتفق أن الإمام الشافعي نام عند أحمد ليلة وأهل أحمد يرقبونه فلم يروه قام ولا صلى فقالوا: أين ما كنا نسمعه منك في حق هذا، فقال الإمام

(١) يجسَّ: يطأ.

(٢) الدَّعة: الرَّفاهية.

أحمد: إنه استنبط الليلة في هذه الضجعة مائة حكم من القرآن تنتفع بها الأمة لا تزن صلاتي أنا طول الليل حكماً واحداً مما استنبطه، فاستغفر أولاده وعياله في حق الإمام الشافعي رحمه الله. هكذا درج عليه المريدون مع أشياخهم والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يتزوج أبداً امرأة رأى شيخه مائلاً إلى التزوج بها ولا امرأة طلقها أو مات عنها، ومما يشهد لذلك ما ورد أن عمر رضي الله عنه عرض ابنته على أبي بكر رضي الله عنه أن يتزوجها قال: لما تزوجها رسول الله ﷺ عاتب عمر أبا بكر في ذلك فقال أبو بكر: إنما منعني من ذلك أنني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، وكذلك مما يشهد لما استشهدنا به أن المهاجرين الأولين طلبوا من سلمان الفارسي أن يؤمّ بهم فقال سلمان رضي الله عنه: كيف أؤم قوماً هدانا الله للإسلام على يدهم؟ وأبى ولم يؤم بهم.

وقد قدمنا أن للوارث من الأدب ما للموروث وإن تفاوت المقام فلا يقال مثل ذلك خاص برسول الله ﷺ لأننا نقول ذلك حرام بنص القرآن وهذا أدب لا غير مع قولنا بجوازه فافترق الأولياء لمن رسول الله ﷺ؟.

ورأيت في مناقب سيدي محمد الحنفي الشاذلي القطب الغوث رحمه الله أنه لما حضرته الوفاة قال لزوجته: إياك أن تتزوجي أحداً بعدي فيخرب الله تعالى دياره وأنا لا أحب أن يخرب ديار أحد من أجلي.

وكذلك بلغنا عن سيدي محمد الشوعي أحد أصحاب سيدي مدين والمدفون في زاويته تجاه قبته أنه تزوج بكراً فمكثت معه يسيراً ومات عنها وهي بكر، وكان قال لها: لا تتزوجي بعدي أحداً أقتله، فلما مات خطبها شخص واستفتى العلماء فقالوا له: هذا خاص برسول الله ﷺ فدخل بها فلما جلس عندها قبل أن يمسيها خرج الشيخ له من الحائط بحربة فطعنه فمات لوقته.

وقد شاهدت أنا شخصاً خطب زوجة سيدي محمد بن عنان بعد موته فأجابته وكتب كتابها، فبينما هو نائم تجاه قبر سيدي محمد خارج شباك ضريحه إذ خرج له سيدي محمد من القبر وطعنه في جنبه وصارت كالكبدة المشوي فأراها لي وأخبرني بالقصة وقال: احملوني إلى بلادي فمات في الطريق.

هذه وقائع وقعت فمن شك فليجرب، اللهم إلا أن يأمر الشيخ بذلك لما رأى لزوجته من الحظ والمصلحة مثلاً فلا بأس بذلك، فينبغي للمفتي في مثل

ذلك أن يتوقف ويقول: أنا لا أفتي على أحد من أرباب الأحوال كما كان شيخ الإسلام زكريا يقول، وتبعه الشيخ شهاب الدين والله أعلم.

ومن شأنه: أن يراعي عيال شيخه بالخدمة والافتقار بالطعام وغيره كلما سافر شيخه ويقوم مقامه في خدمتهم فإن ذلك من الوفاء بحق شيخه، وهناك أن يرتقى لخدمة الخلق أجمعين من حيث كونهم عيال الله كما أشار إليه حديث: «الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله». فإن الحق جل وعلا يحب من يحسن إلى عبيده لأجله، فالشيخ كذلك لأنه على الأخلاق الشرعية.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: من أدب المريد أن ينفق على أولاد شيخه وعياله في غيبة الشيخ وحضوره كل ما يحتاجون إليه حسب طاقته ولو لم يجد إلا ثوبه أو عمامته باعها واشترى لهم بثمانها ما طلبوه منه ولا يشح على عيال شيخه ببيع عمامته أو جوارحه مثلاً إلا من لم يشم رائحة الأدب مع الشيخ، لأن الذي يعلمه الشيخ له من آداب الحضرة الإلهية لا يقابل بعوض في الدارين فليحذر المريد إذا أنفق ماله كله على شيخه وعياله أن يرى أنه كافأه على أدب واحد مما علمه له.

وقد أنفق سيدي أبو العباس المرسي علي سيدي محمد الحنفي ثلاثين ألف دينار كانت معه وقال: لو وجدت معي أكثر منها لأنفقت عليه. وكانوا إذا لاموه على ذلك يقول: لأدب واحد تعلمته من الشيخ خير من كنوز الدنيا كلها لو كانت بيدي وأنفقتها عليه.

وكذلك أنفق سيدي محمد علي شيخه ابن أبي حمائل ماله كله ثم عوضه الله تعالى غيره بعد ذلك بدعاء الشيخ وقال له: يا محمد نحن لا حاجة لنا بالدنيا ولو طلبناها لأتتنا ولكن قد اخترنا التقلل منها اقتداء بالسلف الصالح، ولما أنفق سيدي محمد الشناوي ماله على الشيخ قال الشيخ أبو الحمائل: اللهم عوض عليه خيراً مما بذل فصار ماله أضعاف ما كان، هذا ما أخبرني به شيخنا رحمته الله فعلم أن في الإحسان إلى عيال الشيخ محبة الله له وشيخه وذلك أسرع في الفتح.

واعلم أن جميع ما ذكرناه إنما هو في حق مريد يرى أن جميع ما بيده لشيخه فلا ينافي ذلك ما قدمناه في هذا الباب من نهى الشيخ أن يأكل من طعام المريد

أو يأكل منه هدية لأن ذلك في حق المريد الذي لم يصدق مع الشيخ وحكمه حكم الأجنبي فافهم والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يقيم بصره في وجه الشيخ بل يغض بصره عن رؤيته ما أمكنه وذلك لأمر يذوقها السالكون لا تسطر في كتاب، ومن أخلاقه ﷺ أنه كان لا يثبت بصره في وجه أحد، وكان إذا رأى الهلال صرف بصره عنه بسرعة، قال بعضهم: ويحتمل أن ذلك إنما هو لكون التجلي الإلهي في حديث الرؤيا شبه به فافهم.

وكان الشبلي يقول: من أدمن النظر إلى وجه شيخه فقد خلع رِبْقَةً^(١) كمال الحياء من عنقه، وتقدم في هذا الباب أن الشبلي يقول: سئلت عن لحية الجنيد هل كان شبيهاً أكثر؟ فقال: لم أحقق النظر إليها قط لأنني كنت أكلمه وأنا مطرق رأسي لأن المقصود سماع الكلام لا رؤية شخصه.

كان سيدي علي المرصفي ﷺ يقول: لكن إذا ثبت المريد في مقام الأدب مع الشيخ ولم يلزم من كثرة رؤية وجهه استهانة به بل قصد برؤية وجهه الشفا والللحظ فلا بأس، كما جوّز العلماء حمل آيات من القرآن في التعاويذ، لأن القرآن المقصود بها أن يكون حاملها في بركتها لا الاستهانة بها ترميه والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يستعظم شيئاً من أحواله أن يذكره للشيخ كالزنا والكبر والعُجْب والنفاق ومحبة الرياء ونحو ذلك من المعاصي المستقبحة شرعاً، بل يذكرها كلها له ليعرفها فيداويها كما مرّ تقريره في مبحث الكلام على الخواطر في هذا الباب. وربما كتم المريد عن شيخه شيئاً من هذه الأمراض فاستحکم العارض أو احتاج إلى أن يتعب في إزالته أشد التعب.

وكل مقام يدخله المريد من مناهل الطريق له حلاوة لا يقدر قدرها، فلولا شيخه يرقبه لأقام فيه حتى مات لا ينتقل عنه، إذ الشيخ موضوع لتقريب المريد من الطريق وطيبها للمريد، فلو كان لكونه خبر الطريق قبله وعرف منها مناهلها وحفرها ومهالكها.

فلما رأى استحلاء المريد لشيء من أحوال الطريق يقول له المطلوب أمامك

(١) الرِبْقَة: حبل ذو عُرى أو حلقة.

ويبين له علل ذلك الأمر الذي وقف معه وأنه من حظوظ النفس، وهناك تطلب نفسه الانتقال عنه لأن من شأنها طلب الزيادة ما دامت ترى أن وراء مقامها مقاماً.

وكان الشبلي رحمته الله يقول: دخلت يوماً على الجنيد وهو جالس مع عياله أتواجد وأنا سكران من حلاوة أحوالي، فلما صحوت من ذلك قال لي: لا يخلو حالك من أمرين: إما أن تكون غائباً بحالك ولذته عن الحضرة أو حاضراً، فإن كنت غائباً عن الله فيها متلذذاً بحالك الفاني فلا يليق بك الطرب لأنك محجوب عن الله، وإن كنت حاضراً فذلك سوء أدب، فقال الشبلي: التوبة يا أستاذ فتاب، فانظر كيف بين الجنيد له نقص حاله في الحالين وتوبته منه والله أعلم.

ومن شأنه: إذا كان مجاوراً عند شيخه على وجه التأديب أن لا يخرج من الزاوية إلا بإذن من الشيخ أو من النقيب أو من فقيه الزاوية لا سيما الخروج للسوق فإنه قد يورثه قلة الحياء وكثرة الكلام والمحاجة عن نفسه لسرقة طبعه من أهل السوق.

وقد بلغنا أن فقراء سيدي محمد الغمري في المحلة الكبرى كان يأتي الواحد أبوه أو عمه فلا يتجرأ أن يذهب للقاءه بقصد أن يسلم عليه حتى يشاور النقيب ويقول: إن الأدب مع شيخي مقدم على الأدب مع أبي الطيني.

ومن هنا قالوا: من كان له أبوان لا يفلح في الطريق لأنه يصير مذبذباً بين ما يريد هذا وما يريد هذا، كما يؤخذ ممّا يشملُه نوع من وجوه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِلهٌ إِلَّا اللهَ لَفَسَدَتَا﴾^(١) ثم إن أبا التربية لا يدعو الولد دائماً إلا إلى الآخرة، وأبوه الطيني الغالب أنه لا يدعو ولده إلا إلى الأمور الدنيوية فيقول له: اقرأ بالعجل وتعال نعلمك مباشراً في بلدنا أو تخطب بالناس وتأخذ رزقة الجامع ونحو ذلك، وهذا غاية نظره منه، ومنه قراءته القرآن والعلم مثلاً ولا يذوق شيئاً مما يأمره به الشيخ، فإن كان أبوه الطيني يدعو إلى خير فهو أبوه من الجهتين فيتأكد عليه حقه جزماً.

وكان سيدي أبو السعود الجارحي يقول لمن يريد صحبته: هل لك أب؟ فيقول له: نعم، فيقول: أين هو؟ فيقول: في البلاد مثلاً، فيقول له: اذهب إليه

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

أنا لا أصحب من له أب غيري.

وكان شيخنا الشيخ محمد الشناوي يرخص للولد في موافقة أمه إذا دعته إلى خلاف ما دعاه إليه الشيخ في بعض الأوقات لقلة صبرها وجهلها بما يفعله الشيخ مع ولدها وليس عندها أحسن لابنها من أن الله تعالى يطيل عمره لها في عافية مع اتساع رزقها، والاقتصار على ذلك خلاف ما يطلب الشيخ بيقين وأهل الطريق على عدم مراعاة الوالدة في مثل ذلك لبنائها على الجد والاجتهاد، وإذا تعارض عندنا مفسدتان لارتكبنا الأخف منهما، أو أمران دنيوي وأخروي، قدمنا الأخروي بشرطه، وإيضاح ذلك أن الأشياخ عجز عن كونهم يسيرون بالمريد في الطريق مع إعانة شيئين فأكثر في وقت واحد.

وأجمعوا على وجوب قطع العلائق والالتفات إلى الأهل والعيال دون الله تعالى ولو جرى عليه الاشتغال بالله وحده، ثم إذا ذاق ما ذاق الرجال وكمل حاله وصار لا يشغله شيء في الكونين عن ربه، فهناك يقولون له: التفاتك للعالمية وتصريفها في آمالها المشروعة كما درج عليه كُمل الأولياء هو الكمال، فعلم أنه الواجب على الشيخ منع المريد من كل علاقة ما دام سالكاً وأنه لا يتيح له أخذ شيء من الدنيا إلا بعد كماله ورجوعه للحق فإنهم لو أمروه بمخالطة الناس وإعطائهم حقوقهم لربما عجز عن السير.

وكان سيدي يوسف العجمي رحمته الله يقول: كل ما يشتغل به المريدون عن الله تعالى من الحفظ من تجارة أو عمل حرفة أو اشتغال بعلم الإخلاص فيه حكم من ربط في عنقه حبلاً وثيقة تجره إلى ناحية قفاه وشيخه يجره إلى أمامه بحبل العنكبوت.

وكان يقول: إذا اشتغل المريد بالله وحده سار كما يسير الطائر، وإذا اشتغل بالله وبغيره زحف كما يزحف الزَّمن^(١) مع ضعف عزيمته طالباً وصوله إلى البلاد البعيدة والله أعلم.

ومن شأنه: أن يفرح إذا نقصه شيخه بين إخوانه وناقشه على النظرة والخطرة، والنقيير والقطمير^(٢)، فإن ذلك دليل على شدة اعتناؤه به ورجائه له

(١) الزَّمن: المريض مرضاً يدوم طويلاً.

(٢) القطمير: الشيء الهين الحقير.

الخير والترقي، ولولا ذلك لكان أهمله كما أهمل من لم ير فيه خيراً، فليحذر المريد من موافقة هوى نفسه وتغيره على الشيخ ويقول: إن ذلك دليل على كراهة الشيخ لي ولا ينظر.

وقد أجمعوا على أن الشيخ إذا رأى مريده على سوء أدب أو غفلة أو يلغو في مجلس ولم يزجره ولم ينهره^(١) فقد مكر به وسعى في طرده عن صحبته، وذلك لأن المريد إذا تهادى في الغفلة واللغو وعدم المناقشة حتى استحكمت الغفلة فيه لا يصير يصغي لكلام الشيخ بل تنفر منه نفسه ويقول: إن هذا يأمرني بأمر لا يطاق.

كما وقع لي ذلك مع جماعة من الزاوية، وخرجوا عن طاعتي وصاروا يجالسوني بلا داعية ولا انقياد خوفاً من لوث^(٢) الناس بهم إذا قطعوا مجالستي بالكلية فلم يزدادوا بذلك إلا مقتاً نسأل الله العافية.

ومن شأنه: أنه يرى ملازمة شيخه للأدب والتربية أحب إليه من السفر والحج الذي اعتقد فريضته على نفسه، لاحتمال خطأ اعتقاده بأن يكون جاهلاً بواجبات الحج والسؤال عنها كما على غالب الفلاحين وجهلة العوام، أما إذا توفرت أسباب الوجوب فمحال من الشيخ منعه، وإن فرضنا أنه منعه من ذلك فليس هو شيخ وإنما هو عاصٍ لله تجب مخالفته لأن الشيخ الحقيقي أمين على المريد في ترجيح أعماله على بعضها فلا يأمره بتقديم مفضول مثلاً إلى أن يرى في الأفضل علة قاذحة^(٣) في الإخلاص أو حصول عجب أو كبر بذلك على أقرانه ونحو ذلك.

وقد رأينا كثيراً ممن حج بغير إذن شيخه حصل له في الطريق غاية الندم وصار يتمنى أنه لو قدر على الرجوع لرجع، وموضوع العبادات كلها التقرب إلى الله بها مع انشراح القلب، وأما مع السخط والندم فهو فيها إلى الإثم أقرب.

ثم لا يخفى أن مشاوره الشيخ إنما هو في سفر الحج لا في الحج لا سيما إن كان المريد مع شيخه في مكة، فإن ذلك لا يكاد يكون فيه مشقة ولا سُخط لخفة مؤنته وقصر مدته، فلا يحتاج فيه إلى شيخه كما لا يحتاج إلى مشاورته في

(١) ينهره: يزجره ويُغضبه.

(٢) اللوث: الاتهام دون بينة.

(٣) قاذحة: مؤثرة ومُعيبة.

حضور المسجد للجمعة والجماعة وصوم رمضان ونحو ذلك، لكن لو وقع أن المريد أُقيم في عمل قيل إنه أرجح من حج النفل مثلاً، فلا بد من مشاوره الشيخ في ذلك ليخبره بأنها أرجح حتى يقدمه.

وكان سيدي يوسف العجمي رحمته الله يقول: إنما يصلح السفر للرجال إذا كملوا، وأما المريد فإقامته في خدمة شيخه ساعة ساعة أفضل له من خمسين حجة على الجهل بآداب الحج وشروطه، وما رأينا قطُّ مريداً فُتِّحَ عليه من حيث سفره إلى مكة وسياحته في الجبال ونحوها بغير إذن شيخه أبداً، بل بعضهم حُجِبَ هناك لسوء أدبه ولسان حال شيخه يقول له: اصبر حتى أعلمك الأدب مع الله تعالى في دخول حرمة وبيته ثم سافر على وجه الأدب، فلا ينبغي الاعتراض على شيخ منع مريده الحج إلا بعد الاجتماع بالشيخ وسؤاله عن العلة في ذلك، فإن لحوم الأولياء سُمِّ على من اعترض عليهم بغير حق والله أعلم.

ومن شأنه: إذا أقام في زاوية شيخه أن يقنع بالخبز الحاف ويلبس الخيش بسد باب الاشتغال بالدنيا مما أمكن، وقد أجمع الأشياخ على أن كل مريد لم يخلص النية في الإقامة عند شيخه للتربية وجلس لعة أخرى لا يفلح في الطريق أبداً ولو كان شيخه من أكبر الأولياء، ولا يزداد على ممرِّ الأوقات إلا إداراً ومقتاً لاستهزائه بالطريق وبالشيخ وتظاهره بمحبة الطريق كذباً وزوراً.

وقد مضى المريدون الصادقون كلهم على الإخلاص في محبة الشيخ والطريق، حتى أن سيدي الشيخ شهاب الدين المرحومي شيخ الشيخ أبو السعود الجارحي رحمته الله أقام عند سيدي الشيخ مدين سبع عشرة سنة لم يذق له طعاماً ولا شرب عنده ماء، وكان يخرج يشتري له من السوق ما يأكله وما يشربه ويقول: لا أحب أن أشرك في الإقامة عند شيخني أمراً آخر، فقليل له: كل من طعام شيخك بقصد التبرك به لا غير فقال: لم أبلغ إلى تلك الدرجة انتهى.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: ما طالت الطريق على المريدين المقيمين عند الشيخ إلا بعدم إخلاصهم في صحبته، ولو أنهم أخلصوا وتركوا العلل لحصل لهم كمال الانقياد للشيخ ووصلوا إلى حضرته في مدة يسيرة، كما كان يقع للصحابة مع رسول الله ﷺ.

ولكن لما عدم المريدون الإخلاص الكامل كان أمرهم في سلوكهم على

التدريج شيئاً فشيئاً ولا يكمل انقيادهم إلى الشيخ إلا بعد سنين بل غالب المشايخ الذين أدركناهم ماتوا بغصصهم ولم يفتح على أحد من مريديهم ولكن باب الفتح مفتوح ما شاء تعالى.

وكان سيدي أبو السعود الجارحي رحمته الله يقول: كل مرید أقام عند شيخه لأجل وظيفته أو خلوته أو لأجل ما يحصل له على يديه من حين ترك الخرقة، فهو خائن لا يجيء منه شيء ولو مكث عند الشيخ عمر نوح عليه السلام.

وسمعه يقول: ينبغي للشيخ إذا اجتمع به تاجر فطلب الصحبة وأتاه بجميع ماله وقال: قد خرجت عنه أن يحفظه عنده ولا يتصرف فيه لأن الغالب على مردي هذا الزمان الكذب، فربما تهوّر المرید في الخروج عن ماله أول مرة بغير صدق، ثم لما فترت^(١) همته احتاج إلى ماله وصار يطالب الشيخ به بالحال والقال كما وقع لي ذلك مع عدة جماعات.

وسمعه مرة أخرى يقول: جلس عندي مرة جماعة وادعوا طلب الطريق وحكموني في أنفسهم، فأخرجت عنهم وظائفهم في الزاوية وأعطيتها لإخوانهم فنقضوا العهد وفارقوني وصاروا يرافعون في عند الحكام.

وعلمت أن كل من جلس عند شيخه لأجل قراءة سبع أو حضور أو أكل أو شرب أو لإكرام الناس له لكونه من جماعة الشيخ فقد تودّع من صلاحه للطريق، لأن ذلك حكم الاشتغال بالدنيا والجرف التي كان تركها ودخل في صحبة الشيخ بعدها.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي للمريد أن يشتغل بحرفة ولا وظيفة إلا بإذن شيخه، ومتى عرّض له بتركها فليس له فعلها.

وقد وقع لسيدي محمد الغمري أنه اشترى له قطناً وصار يعمل منه عراقي ويخيطها ويتقوت بها أيام مجاورته عند سيدي أحمد الزاهد فنهاه عن ذلك، فقال: يا سيدي، إنما قصدت رفع كلفتني عن الإخوان حين رأيتهم في ضيق عيش فقال: يا محمد الفقراء إنما يتركون الدنيا اختياراً بعد أن عرّضت عليهم ولو أن أهل مصر كلهم كانوا عيالي ما اهتممت لأجلهم انتهى.

(١) فترت: لانت بعد شدة.

وكذلك سمعت سيدي أبا الحسن الغمري يقول: لو صار عندي ألف من المجاورين ما حملت لهم همماً، لأنني أعلم أن الله تعالى لا يضيّعهم كشفاً وبقيناً لا ظناً وتخميناً، وما قيّدهم عندي إلا ويسوق لهم أرزاقهم. وكثيراً ما يأتي الشيطان إلى المريد في بداية أمره ويقول له: كيف تركت ما كان بيدك من الدنيا وجلست في هذه الزاوية؟ فتأكل من أين؟ وتشرب من أين؟ وتلبس من أين؟ وما تعودت نفسك بالشحاذة^(١). وسؤال الناس. فقل له: اخش لعنة الله، لأنه تعالى إذا كان يرزقني وأنا مذبرٌ عنه فكيف يضيعني وأنا مقبل على خدمته؟ وهناك يفارقه إبليس والله أعلم.

ومن شأنه: أن يتمثل أمر شيخه للإكثار من ذكر الله سرّاً وجهراً ولا يكون له شغل إلا ذلك ولا يزيد على الفرائض والسنن المذكورة، فقد أجمع الأشياخ على أنه ما ثمَّ طريق للمريد أسرع جلاء من دوام الذكر، فهو كالحصى للنحاس المصدىء فهو وإن كان ساعياً في الجلاء كذلك لكن يحتاج إلى طول زمان بخلاف جلّائه بالحصى الذي هو بمثابة الذكر.

ومن هنا قالوا: لا ينبغي للشيخ أن يأخذ العهد على مريد إلا بعد تضرّعه^(٢) بعلوم الشريعة بحيث يصير يُعدُّ للمناظرة، كما درج عليه السلف الصالح وهي طريق الشاذلية رحمهم الله ومن تبعهم.

وإيضاح ذلك أن الطريق عزيزة لا تقبل إلا من اشتغل بها وحدها فمن أعطاها كلّهُ أعطته بعضها، ومن كان وراءه التفات إلى مطالعة درسه مثلاً فلا يصح له الإقبال على الذكر بكلّيته بل يصير في محاربة مع نفسه، وإن اشتغل بالذكر كان كالمختلس لا سيما اعتراض عليه، ويقولون له: كيف ترك الاشتغال بالعلم وتشتغل بأمور وهمية؟ فيحصل له التردد في طلب الطريق فلا يفلح فيها.

ومن هنا اختار القوم للمبتدئ من المريدين مذهب المحدثين وهو ما صرحت به الشريعة أولاً دون ما ولّده العلماء بالاستنباط منها إلا إن أجمع عليها بقصد التخفيف على المريد. ثم إذا رسخ في الطريق وقوي حاله وعمل بجميع ما صرحت به الشريعة من أمر ونهي، هناك يؤمر بالعمل بما ولّده المجتهدون

(١) الشحاذة: سؤال الناس بالاحاح.

(٢) تضرّعه: غزارة علمه وارتواؤه من العلوم ونهوّه بها.

والبحث عن أي مواضع استنبطوه من الكتاب والسنة.

وربما صفت سريره فأطلعه الله تعالى على مستند أقوال العلماء من غير نظر في كتاب، كما وقع لسيدي علي المرصفي وسيدي محمد الشناوي بإخبارهما لي ذلك، ويسمى هذا علم التعريف بالأحكام الشرعية، فلا يكون إلا من باطن الشريعة لأنها هي المادة التي يقتبس العارف منها.

وأجمعوا على أن أقل حصول ثمرة في الذكر أن يصير يحضر^(١) بقلبه في صلاته لا يخطر في باله شيء من الأكوان من حين يُحْرَم^(٢) إلى حين يسلم، ومتى خطر بباله في فرض الصلاة أو نفلها غير الله تعالى فالواجب عندهم الإكثار من الذكر لأنه إلى الآن لم يحصل له ذكرٌ وارد الكمال.

وسمعت سيدي علي الخوّاص رحمه الله تعالى يقول: إنما حثّ الأولياء على الذكر لما فيه من جلاء القلب ليصير المرید يأتي الصلاة والعبادات كلها على الوجه المأمور به شرعاً لا غير، ومتى كان له حجاب أو ميل إلى شهوة من الشهوات فمن لازمه الإتيان بالعبادات على وجه النقص عما أمر به.

قالوا: وإنما لم يشتهر عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين الإكثار من الذكر ليلاً ونهاراً على طريق القوم الآن لسلامتهم من العلل، فكانت قلوبهم سليمة وأخلاقهم محمدية ليس عندهم رياء ولا كِبَر ولا عُجْب ولا نفاق ولا غير ذلك مما يطرق المريدين الآن، بل ربما يكون كل شيء حصوده من الأخلاق الرديّة^(٣) يطلع مكانه شيء آخر. ومن هنا أجمع العلماء على وجوب مجاهدة النفس وأمروا المرید بالسفر إذا لم يجد له في بلاده شيخاً يريه والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يخالف شيخه إذا أمره مباحاً من مباحات الشريعة ولا يحتج عليه بأدلة الإباحة، لأن الشيخ إنما مراده الترقّي للمريد والمباح لا ترقى فيه من حيث هو مباح. ومراد الشيخ أن تكون أوقات المرید كلها معمورة بامثال أمر أو اجتناب نهى فلا يوجد إلا في عمل يؤجر عليه، وما جعل الشارع المباح إلا

(١) الحضور: حضور القلب لما غاب عن عيانه بصفاء اليقين قال النووي: إذا تغيبت بدا وإن بدا غيبي.

(٢) يُحْرَم: تكبيرة الإحرام.

(٣) الرديّة: السيئة.

لتنفس فيه الضعفاء من مشقة التكاليف لغلبة الملل عليهم من كثرة التحجير في الأمور الشرعية، ولولا أن سبق في علم الله تعالى وقوع الملل منهم لما شرع لهم المباح بل كانوا كالملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وقد تقدم إجماع القوم كلهم على أن كل مرید ترخص ونام ولغى في الكلام وأكل اللذيذ من الطعام لا يرتجى منه خير، إن الطريق كلها جد وجهاد لا صلح فيها مع النفس ما دامت نفساً ولا راحة حتى يموت العبد، فاعلم أن من شأن المرید الصادق المجدد الأخذ بعزائم^(١) الشريعة دون رخصها^(٢).

قالوا: ولا ينبغي للمريد أن يتشبه بشيخه في فعله المباح ولا غيره بحكم الإرث لرسول الله ﷺ بخلاف المرید.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه» يعني حتى في حال مزحه مع الأطفال والعجائز وغيرهم.

ونقل الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في «الخصائص»: أن رسول الله ﷺ كان مكلفاً بالحضور مع الله تعالى حال خطابه للخلق، فلا يشتغل عن الله تعالى بشيء.

ونقل الإمام القشيري عن سهل بن عبد الله التستري إنه كان يقول لي: منذ ثلاثين سنة أكلم الله والناس يظنون أنني أكلهم. انتهى.

وذكر العلماء: أن لرسول الله ﷺ أجر الواجب من حيث إنه ﷺ منتزع لأتمته مبین لهم الأحكام، فكَذلك الحكم للشيخ يبين للمريدين ما جهلوه من أمور دينهم ويثاب على فعل المباح إذا أتوا به عرفياً صحيحاً بخلاف المرید لحجابه عن ذلك.

فليحذر المرید من قوله للشيخ كيف تنهاني عن المباح الفلاني وتفعله أنت؟ فإن ذلك جدال بغير علم ويصير به ناقضاً للعهد والله أعلم.

ومن شأنه: أن يقدم أمر شيخه على جميع أهوية نفسه، فإذا أمره بتنظيف المستراح^(٣) وخدمة الفقراء في المطبخ والعجين رأى ذلك مقدماً على كل ما

(١) العزيمة: الفريضة التي أوجبها الله. جمع عزائم.

(٢) الرخصة: ما يُغَيَّر من الأمر الأصلي إلى يسر وتخفيف كقصر صلاة السفر. وهي خلاف العزيمة.

(٣) المستراح: مكان الغائط.

يترجح عنده فعله، لأن الشيخ أعرف منه بطريق الترقى كما أن البيطار يعرف من أمراض الدواب ما لا يعرفه أصحابها.

وقد خالف في هذا الأمر أقوام فحرموا بركة صحبتهم لشيخهم، وحرموا الترقى إذ النفس من شأنها التلبس على صاحبها فما فعل طاعة إلا ولها فيها دسيئة تمنع الإخلاص، وقد قالوا: اعمل بإشارة شيخك فإن خطاه أرقى من صوابك أنت.

وسمعت سيدي علي المرصفي يقول: من خالف نفسه فقد أفلح، ومن وافقها وخالف شيخه فكأنه جعلها شيخاً له مع شيخه. ومن له شيخان لا يفلح، لأن القوم أجمعوا على أن توحيد القصد واجب ليجعلوا لهم همّاً واحداً، وقالوا: من لم يكن مقصده واحداً متعلقاً بواحد لا يشم من توحيد الحق تعالى رائحة.

وقالوا: متى خرج المريد بحركة واحدة لشيئين حاجة مثلاً والصلاة، فقد أشرك في القصد إلا أن تكون الحاجة مطلوبة شرعاً، وذلك لأن الشرك ظلم عظيم على اختلاف أنواعه، وهو مشتق من الظلمة، ومن دخل الظلمة يحار^(١) في الطريق، ومن حار فيها فلا ترجيح عنده، ومن فقد الترجيح فقد الترقى، ومن فقد الترقى لا يفلح.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمته الله يقول: ما من صنعة ولا حرفة إلا ويمكن للعارف الكامل أن يوصل المريد منها إلى حضرة ربه رحمته الله، وقد دخل الصحابة رحمهم الله في دين الإسلام وهم على حرف وصنایع فأقرهم رسول الله رحمته الله على حرفهم وصنایعهم ولم يأمرهم بالخروج عنها، وصار يريهم ويعلمهم أمور دينهم إلى أن بلغوا مراتب الكمال وبعضهم وصل لدرجة الكمال من أول وهلة.

وبالجملة فما دام المريد له اختيار وتدبير ورؤية خلاف ما يأمره به شيخه فهو في مقام العداوة لشيخه والمحاربة له والمنازعة.

وفي كلام سيدي محمد بن وفا رحمته الله موشح:

ألقيت عن عاتقي سلاحي وصرت سلفاً على الطريق

(١) يحار: يتردد ويتوه.

طرحت نفسي وباطّراحي نجوت من فجّها^(١) العميق
فكن يا أخي سلماً لشيخك لا ضارباً والله يتولى هداك.

ومن شأنه: أن يبادر لامتنال أمر شيخه ولا يتوقف على معرفة الدليل على أمره به فإن ذلك من أكبر قواطع الطريق، فإن علم الاستدلال إنما يكون للأشياخ والمجتهدين لا للمقلدين، وليس قصد الشيخ من المريد إلا أنه يصير يتكلم من مواجيدته وما يقذفه الحق تعالى في قلبه من معاني الآيات والأخبار، إلا أنه يصير يحفظ عبارات الناس وينقلها كالناسخ.

وأجمعوا: على أن الشيخ متى سامح المريد في التحري عليه ومطالبته بالدليل على كل شيء أمره به أو نهاه عنه فقد أفسد حاله، وربما سرى ذلك إلى بقية جماعته فيتلف حالهم، ويدخل باب الجدل.

فيجب على الشيخ أن يطرد مثل هذا عن مجلسه بحسن عبارة لا بالعنف، إذا توفرت عنده قرائن الالتباس مع أخلاقه المعروفة عند القوم. وذلك كأن يقول له: يا ولدي إنك قد صرت من أهل العلم بحمد الله وما بقي عندي علم يكفيك فانظر إلى أحد يزيدك علماً ولا تخالفني تغش نفسك.

ثم إذا أخرجه الشيخ عن صحبته فإن كان فيه خير ومن الله تعالى عليه بالهداية فسوف يرجع إلى شيخه، ويلزم معه الأدب وإن لم يكن فيه خير فقد استراح منه.

وأخبرني شيخني شيخ الإسلام زكريا رحمته الله^(٢) قال: سافرت من جامع الأزهر إلى المحلة الكبرى فأخذت الطريق عن سيدي محمد الغمري رحمته الله، وأقمت عنده أربعين يوماً وقرأت كتاب «قواعد الصوفية» نحو أربعة كراريس، وكنت أبحث معه على طريق الفقراء فقال لي: يا زكريا خذ كلام القوم بالتسليم فإنه لا يفتح في طريقهم إلا من سلم لهم فقلت: سمعاً وطاعة.

ولم أعد بعد ذلك إلى البحث معه في شيء أبداً، وببركة ما أسلم لم يشكل علي شيء من حين تركت مباحثته إلا وبادر هو لإزالة الإشكال عني من ذات

(١) الفج: هو الطريق الواسع البعيد.

(٢) زكريا الأنصاري.

نفسه. وكنت إذا بحثت معه يتكدر مني أكابر الجماعة ويفرح بذلك أصاغرهم لأن الشيخ كان مجيباً وكانوا لا يتجرؤون على سؤاله، وعلمت حينئذ أن طريق القوم كلها أدب ومطالبات بالحقائق بخلاف أهل النقول انتهى، والله أعلم.

ومن شأنه: أن يعظم حضرة شيخه كأنها حضرة الصلاة فلا يجلس بين يدي شيخه قط بقميص واحد إلا أن يكون متجرداً من الدنيا ليس عنده غيره أو يكون في شدة حرّ مثلاً.

قالوا: وينبغي للمريد أن يلبس لمجالسة شيخه أحسن ثيابه ويتوب إلى الله تعالى من كل ذنب كلما أراد أن يجالسه، فإن المتلطف بالذنوب لا يصلح له دخول حضرة الشيخ وإنما يصح له دخولها إذا تطهر ظاهراً وباطناً من كل ذنب.

قالوا: وإذا كان مكان الشيخ بعيداً وخرج لزيارته فليذهب إليه وحده، ولا يدخل معه بأحد، لأنه ربما كان مع الشيخ أدب يخصه به لا يصلح اطلاع العوام عليه.

وكذلك لا ينبغي له إذا خرج لزيارة شيخه أن يُشرك معه حاجة أخرى، فإن أشرك معه حاجة أخرى لقيه الشيخ بنصف البشاشة أو ثلاث حوائج لقيه بثلاث البشاشة. وهكذا فإن الشيخ لا يلقى المريد إلا بقدر ما جاء به.

وقد دخلت مرة على سيدي علي الخواص ومعي شخص فقال: لا تعد تأتي معك بأحد، ثم قال لي في أذني: من غلبته شهوته فهو حمار، وقد كنت عزمت على ترك أكل شيء من الشهوات ثم غلبتني نفسي فأكلته. وخرجت مرة لزيارة أخي أفضل الدين وكان في حارة الشيخ، فلما زرته قلت أزور سيدي علي كذلك، فلما أقبلت عليه لقيني بنصف البشاشة التي كان يلقاني بها لما أخرج لزيارته وحده وقال لي: حكم العدل مطلوب ففهمت المقصود، ومن ذلك اليوم ما أشركت معه أحداً والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يتساهل أبداً في مدّ رجله تجاه شيخه لا حياً ولا ميتاً لا ليلاً ولا نهاراً مراعاة للأدب مع شيخه غيبة وحضوراً، وما رسخ مريد في هذا الأدب مع شيخه إلا وترقى منه إلى مقام المراقبة لله تعالى إذ الشيخ إنما هو سُلّم للترقي، ومحل إدمان^(١) يدمن فيه المريد كأن الأشياخ يقولون للمريد: تعال أدمن

(١) الإدمان: إدامة الشيء وعدم الإقلاع عنه.

فيها دون الحق تعالى حتى تذهب رعونات نفسك كلها، فإذا ذهبت الرعونات فقد صَلَّحت لمعاملة الحق جل وعلا.

فاعلم أن كل من لم يُحكم المقام في الأدب مع شيخه لا يقدر على الأدب مع الحق جل وعلا، ولا يشم له رائحة، فيستفيد المريد من حرمان شيخه كأنه يطلبه ويمنعه منها وهو راض بذلك رضاه عن الله كذلك إذ لم يقسم له ما طلبه ويسعد بصبره على جفاه من غير سبب ظاهر صبره على تصارييف القصي.

وهكذا فمن لم يرضَ بفعل شيخه لا يرضى بأفعال الله، ومن لم يصبر معه لا يصبر مع الله، وهكذا في سائر الأمور، فكل وليّ الله يحب أن الخلق يدمنون فيه ويفدي جانب الحق تعالى عن سوء الأدب بنفسه فافهم.

وإياك أن تظن بالأشياخ أنهم إنما يأمرون المريد بالأدب معهم حباً لتميئزهم عنه في المقام رياسة، فإن ذلك سوء ظن بالأشياخ، وإنما أمروهم بالأدب معهم ليترقوا إلى الأدب مع الله تعالى، وقد بلغنا أن إبراهيم بن أدهم مدّ رجله مرة في الليل فنودي في سره ما هكذا ينبغي مجالسة الملوك فما مدّ إبراهيم رجله في الخلوة حتى مات انتهى.

ويقع لي ذلك كثيراً مع الأشياخ فربما أردت مد رجل فيمتد لي في كل وجه ولي تجاهها فأنام جالساً. ووقع لي ذلك مع سيدي محمد بن عنان فسحب رجلي بيده وقال: مدّها ناحيتي فاستيقظت ونعومة يده في رجلي وكان ذلك بعد موته ﷺ، فاعمل يا أخي على ذلك تجد ثمرته والله أعلم.

ومن شأنه: أن يبادر لامتثال أمر شيخه له بالذكر جهراً بالملا ولا يتعلل بالحياء فإن للأشياخ في ذلك أغراضاً صحيحة، وقد قالوا: من لم يكسر قفص طبعه لم يكشف له حجاب، وقد أنشد سيدي عمر بن الفارض ﷺ في ذلك:

تمسّك بأذيالِ الهوى واخلع الحياء وخلّ سبيل الناسكين وإن جلوا
ومراده بخلع الحياء كسر قفص الطبع وهو الاستحياء من ذكر الله تعالى أو التواجد بحضرة الناس لا الحياء الشرعي، فإن ذلك من إيمانه. ومراده بسبيل الناسكين مراعاة العباد في حركاتهم وسكناتهم وإظهار الحشمة بحضرة الناس، مع اعتمادهم على أعمالهم دون الله تعالى، وهذا الأمر قلّ أن يسلم منه عابد لا شيخ له، ولو أنه اتخذ له شيخاً لكسر قفص طبعه.

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمته الله يقول: الواجب على المريد في بداية أمره رفعُ صوته بالذكر في الملا^(١) حتى يتحرَّق حجابُه، لأن ذلك يجمع شتات قلبه.

ثم إذا تمكن في الذكر وأنس بالحق تعالى دون الخلق فهناك لا يصح له مراعاة أحد من المخلوقين دون الله تعالى، ثم إذا أكثر من ترك الذكر برفع الصوت بحضرة الناس أصحاب الأنفس كالقاضي الجاهل بنفسه والمباشر حصل عنده خجل كأنه ارتكب معصية فمثل هؤلاء يجب عليهم الذكر برفع الصوت حتى يخرج عن الكبر والله أعلم.

ومن شأنه: أن يتخذ له حجاباً بينه وبين أولاده وعماله كلما يذكر حتى لا يدخل أحد عليه منهم إلا بإذنه فيشوش عليه، وربما رَعَقَ^(٢) الذاكر في وجه الداخل فيحصل له مرض أو خرس كما وقع لسيدي تاج الدين الذاكر مع جارتة.. دخلت عليه وهو يذكر ففتح عينيه وصاح فيها فتكسحت، وصار يخدمها ويشيل القذر من تحتها حتى ماتت بعد سنين، وكان يعتذر إليها ويقول ما وقع لك لم يكن بخاطري والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يرفع صوته في محل يتأذى أحد به، من قارئ ومدرس ونحو ذلك كأن يجلس يذكر الله تعالى في مثل جامع الأزهر فإن الجامع إنما يجلس الناس فيه الآن لطلب العلم وتلاوة القرآن وذكر الله تعالى عقب الصلوات فقط، وربما أنكر عليه أحد من المجاورين فمقت، وربما قال له شخص: لا تؤذنا بذكرك فيقع في سوء الأدب مع الله تعالى فيمنعه من أن يقول لا إله إلا الله، وربما رفع صوته بحضرة أحد من المنكرين فاستهزأ به فوقع في الكفر، وربما كدَّر عليه فكسبه بإنكاره عليه فاشتغل قلبه بمخاصمته وانقطع عن الله ﷻ. وأثقل ما جاء على قلوب الغافلين ذكر رب العالمين فينبغي للذاكر أن يذكر الله تعالى في المساجد المهجورة فإن في ذلك عدة مصالح.

ومن قال من المجادلين: أنا أحب ذكر الله وإنما أتأذى برفع صوته امتحناه وقلنا له: اجلس بنا نذكر الله تعالى بصوت خفي واترك درسك النحو مثلاً، فإن

(١) الملا: الجماعة من الناس.

(٢) رَعَق: صاح.

استحلى ذلك كلما دعوته إليه فهو صادق في محبة سماع ذكر الله وإلا فلا يخفى حاله .

وأين هذا القول من قول سيدي عمر بن الفارض رحمته الله في كلمة لا إله إلا الله :

تُهَذَّبُ أخلاق الندامى فيهندي	بها لسبيل العزم من لا له عزم
ويكرم من لا يعرف الجود كفه	ويحلم عند الغيظ من لا له حلم
ولو نضحوا ^(١) منها ثرى ^(٢) قبر ميت	لَعَادَتْ إليه الرُّوحُ وانتعش الجسم
ولو قرَّبوا من حالِها مُقْعَداً مشى	وتنطق من نجوى مدامتها ^(٣) البكم
وفي سكرة منها ولو عمر ساعة	تري الدهر عبداً طائعاً ولك الحكم
إلى آخر ما قال والله أعلم .	

ومن شأنه: أن لا يجلس أبداً في مجلس شيخه الخاص بأبناء الدنيا فإن المريد ليس له في ذلك منفعة، بخلاف الشيخ فإنه مأمور بالإقبال على الناس كلهم قبول رحمة وشفقة، وتعليم وتأديب .

فلا ينبغي للمريد أن يتأثر من شيخه إذا زجره عن الجلوس مع هؤلاء، لأنه إنما زجره خوفاً عليه أن يسرق طبعه من طباعهم فيتلف ويتعب شيخه في معالجته . وليحذر المريد من اعتراضه على الشيخ في مجالسته لأبناء الدنيا فإن ذلك إنما هو تأليف لهم ليصرفهم عن محبة الدنيا بالمسارقة شيئاً فشيئاً، إذ المشايخ إنما شغلهم بالأعوج ليقيموه، وأما المستقيم المنقاد فهم في راحة منه . فاعلم أن كل مريد جلس مع شيخه في مجلس أبناء فقد أساء الأدب والله أعلم .

ومن شأنه: أن لا يزور أحداً من أشياخ العصر إلا بإذن شيخه صريحاً أو تعريضاً^(٤) ولو كان ذلك المَزُور من أكبر أصدقاء شيخه . فإن من شرط المريد أن لا يكون له إلا شيخ واحد كما تقدم تقريره في أوائل الباب .

(١) نضحوا: رشوا .

(٢) الثرى: الأرض .

(٣) المدام: الخمر . ويعنون بها خمرة التوحيد .

(٤) التعريض: عدم التبيين والتصريح .

وإذا كان المريد لا يرى أن شيخه لا يكفيه عن غيره فقد اتخذه شيخاً.

قالوا: ولا يجوز الاعتراض على الشيخ إذا منعوا مريدهم من الاجتماع بغيرهم وحملهم على حب الرئاسة على أقرانهم، بل الواجب حملهم على أحسن المحامل، وبأنهم ما قصدوا بمنع المريد من زيارة غيرهم إلا خوفاً عليه من تزلزل اعتقاده فيهم فلا يفلح على يد هذا ولا على يد هذا.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمته الله: وكم فسد من الزيارة مريدون ثم فارقوا مشايخهم وصاروا يحيطون عليهم وعلى جماعتهم، ويقولون لمن سألهم عن سبب فراقهم: لو رأينا منهم خيراً ما فارقناهم وما كل ما يعلم يقال، وهناك يهلكون بالكلية لا سيما إن اجتمعوا بعد مفارقتهم لشيخهم على من ينكر عليه فإنه يزيدهم منه نفرة^(١) وتنقيصاً، ولكن إذا أراد الحق تعالى رد ذلك المريد إلى الخير وألهمه رشده وجمعه على من يعتقد في شيخه فيحسن اعتقاده فيه حتى يندم على فراقه ويطلب الرجوع إليه، ثم إذا رجع وجب على الشيخ قبوله إذا شهد له قلبه بالصدق، وإلا فلا ينبغي له قبوله لئلا يتلف بقية الفقراء.

وبالجملة فلا يكمل أدب مريد مع شيخه إلا بعد إشرافه على مقام الشيخ ومعرفته بكماله، وإلا فمن لازمه الإخلال بحقه وذلك لأنه لا يشهد مع الشيخ إلا مقامه هو فكل نقص رآه في الشيخ فإنما هو حال ذلك المريد، وهو لا يشعر إذ الشيخ مرآته كما تقدم تقريره مراراً في هذا الباب، فلو قدر أن المريد كمل أدبه مع الشيخ لأوصله إلى حضرة ربه في لحظة والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن يعظم شيخه كل التعظيم ولا يطلب منه أن يأتي إلى منزله أو يأكل من طعامه، وفي كلام الإمام الشافعي رحمته الله: وهان عليك من احتاج إليك.

وقال بعض العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾^(٢) قال: هي الاستغناء عن المدعويين فإن الداعي إذا كان متاجاً إلى مال المريدين هان في عيون المدعويين فلا يؤثر كلامه فيهم عادة والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يلبس لشيخه ثوباً ولا نعلأ ولا يجلس له على فراش ولا

(١) النفرة: الإعراض والهجر.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

يسبّح على سبحة لا في غيبته ولا في حضوره إلا إن إذن له الشيخ في ذلك. وقد لبس بعض المنشدين في مجالس الفقراء جوخة سيدي محمد الحنفي الشاذلي بغير إذنه وكانت موضوعة على الحبل فنظر إليه سيدي محمد نظرة فمشى بها ولم يلتفت إليه فحصل له تمزيق من ذلك اليوم وصار يفعل محرمات، وكان عليه قبول عظيم في مصر فلم يصر قلب ينظر إليه بمحبة ولا وُد. هذا شيء عايناه وما رأينا أحداً سلك الأدب فعطبه^(١) أحد أبداً.

قال الأسياف: ولا ينبغي للمريد إذا وهبه شيخه ثوباً أو نعلًا أو قلنسوة أو سواك أن يبغى به بدلاً، فربما يكون الشيخ طوى للمريد فيه شيئاً من أخلاق الرجال كما طوى عليه السلام الرداء لأبي هريرة رضي الله عنه - وكان كثير النسيان - قال أبو هريرة: فما نسيت شيئاً بعد ذلك مما سمعته أو رأيته.

وبلغنا أن الجنيد وهب الشبلي سواكاً فأعطوه في ذلك مائة دينار، فأبى. قلت: ومما وقع لي أني وهبت الشيخ شرف الدين الواسطي بمكة جبة تجاه الحجر الأسود فأعطوه فيها ثلاثين ديناراً ذهباً فأبى، وكذلك خلعت على الشيخ تقي الدين بن المقتول ثوب صوف أخضر تجاه وجه عليه السلام فأعطوه فيه خمسين ديناراً فأبى والله أعلم.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا يقول: إذا وهب الشيخ للمريد قميصاً أو نعلًا فنبغي له أن يوقره فلا يعصي الله في ذلك الثوب ولا يمشي بذلك النعل إلى موضع معصية، وليجتهد أن يكون على أخلاق شيخه من الحياء والكرم والزهد في الدنيا وترك المعاصي جملة تعظيماً لملبوس شيخه. قال: وهكذا درج المريدون الصادقون مع أسيافهم.

وسمعت سيدي علي الخوّاص عليه السلام يقول: من أدب المريد إذا زار شيخه ووقع بصره عليه أن ينزع نعله ويمشي حافياً إلا أن يكون في الأرض شيء من المؤذيات انتهى.

وقد فعلت أنا ذلك كثيراً مع سيدي أبي الفضل شيخ بيت بني الوفا ومع سيدي علي الخوّاص عليه السلام والله أعلم.

(١) عطبه: أهلكه.

ومن شأنه: أن لا يطعن في من ولأه شيخه نائباً عنه في أمر دين أو دنيا لتدريس علم ووعظ ونظر وقف أو جباية مال أو نقيباً ونحو ذلك.

فمن اعترض على شيخه في ذلك فكأنه ينادي بأعلى صوته على رؤوس الأشهاد: ألا اشهدوا على أنني نقضت عهد شيخي فلاناً ورجعت عن طريق القوم وذلك لأنه كان بايعه على السمع والطاعة في كل ما يأمره به وينهاه عنه، وأن يحمل أفعاله على أحسن المحامل لكونه أعرف منه بأمور الدنيا والآخرة.

فاعلم أن من اعترض على شيخه بشيء من أفعال شيخه ولو سراً أو جادلاً في الوقف أو النقيب الذي أقامه، فقد نقض العهد الذي كان عاهد شيخه عليه، وخرج عن العهد والطاعة. والواجب على الشيخ تأديبه وزجره أو إخراجه من الزاوية، وكأنه يرى شيخه ضعيف العقل وهو أتم نظراً من شيخه، فإنه لو يعتقد أن شيخه أتم نظراً منه لما اعترض عليه بقلبه أبداً. ثم إن هذا الأمر لا يقع قط من صادق وإنما يقع ممن دخل على الشيخ بالتليس ولذلك نقض عليه في المستقبل بسوء الأدب.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: ما لم يعتقد المريد في شيخه أن يقدر بعون الله على تدبير المملكة كلها وإلا فهو ناقص الاعتقاد وجاهل بالشيخ.

ثم إن الشيخ لا التفات له إلى الدنيا لإقباله على حضرة ربه ﷻ، فيوليه حينئذ الحق تبارك وتعالى. وإذا كان الحق وليه قضم كل من خان من نائب أو جاب أو مستحق دلس^(١) عليه في أمر تحت نظره وولايته ويأخذ للشيخ والفقراء حقوقهم منه، إما بمرض لا شفاء له منه حتى يموت وإما بفقر أو كشف حال، وإما بالعقوبة يوم القيامة انتهى.

وبالجملة فلو كانت وجوه المريدين مقبلة على حضرة ربهم لاحترموا كل من قدّمه شيخه عليهم، ولكن للأشياخ أسوة^(٢) برسول الله ﷺ حين طعنوا في توليته لأسامة بن زيد لكونه من الموالي فقال رسول الله ﷺ: «إن أسامة لحقيق^(٣) بالإمرة وإن أباه من قبله كان حقيقاً بها» ثم إنه ﷺ خطب الناس وقال: «أيها

(١) دلس: خدع وزور.

(٢) الأسوة: القدوة.

(٣) الحقيق: الجدير.

الناس اسمعوا وأطيعوا يعني لأمرائكم وإن تأمر عليكم عبد حبشي.. الحديث» كل ذلك أدب مع الله تعالى الذي ولّاه وقسم له الولاية.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن هذا الاعتراض المذكور على الشيخ لا يقع من المريدين الصادقين في محبته أبداً، إنما يقع من أهل الجفا والبعد. ولم يبلغنا عن أحد من خواص أصحاب رسول الله ﷺ أنه اعترض على رسول الله ﷺ بظاهره ولا بباطنه مطلقاً، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُوكَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١) والأشياخ ورثته ﷺ في مقام الأدب معهم وإن تفاوت المقام.

فإياكم أيها المريدون والاعتراض على الشيخ ولو بقلوبكم، فإن ذلك يكدر قلب شيخكم ويوقف عنكم حصول الإمداد كما جربناه مع أشياخنا والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يغفل عن الدعاء بأن الله تعالى لا يوقعه على شيء من عيوب شيخه بتقدير جهودها، فإن ظهور عيب الشيخ للمريد يكون سبباً لنفرته عن شيخه، ثم لا يقع ذلك إلا للمريد أشقاه الله ولم يرد له الكمال، وقليل من المريدين من ثبت في صحبته شيخه بعد أن رأى له منه شيئاً من النقائص.

وكان الشيخ محيي الدين النووي يقول: ما خرجت قط لأحد من مشايخي في الطريق إلا تصدقت عنه في الطريق وقلت: اللهم استر عني عيب معلمي، ويقول: من سلك ذلك مع شيخه نال بركته والله أعلم.

ومن شأنه: أن يستغنى^(٢) صحبة شيخه إذا تعدى العمر الغالب وأشرف شيخه على معترك المنايا، فإن ذلك وقت الثمرة فيعطي الشيخ ثمرة جميع مجاهداته طول عمره أو آخره ويعطي جوامع الكلم في الطريق، فإيا سعادة من لازمه أو آخر عمره وزاد في خدمته.. فإنه يمنحه ثمرة جميع مجاهداته بلا تعب ولا نصب، فيساوي شيخه في مقام العلم ويصير لشيخه عليه حكم الإفاضة لا غير والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يكلف شيخه قط المشي إليه ليسلم عليه من سفر أو يعود من مرض أو يعزيه من موت أحد، بل يذهب هو إلى شيخه فيسلم عليه أو يعزيه.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٢) يستغنى: يحرص على الشيء كما يحرص على الغنيمة.

ومتى تغير قلبه عن شيخه إذا لم يأت به فقد أساء الأدب معه فيجب عليه تجديد العهد، وقد وقع مثل ذلك لشخص من أكابر مریدی سیدی علي المرفصی فطلب من الشيخ أن يأتي إلى بيته فيسلم عليه لما جاء من الحج فلم يتفق ذلك، فهجر شيخه فانقطع عنه الإمداد إلى أن مات والله أعلم.

ومن شأنه: أن يجهد في أن يكون مع شيخه بالأدب باطناً كما هو معه ظاهراً فلا يتكلم قط في حق شيخه من قدامه بكلمة يستحي أن يواجهه بها، فإن ذلك من أكبر خيانة يقع فيها المريد، وذلك كأن يتحدث مع أحد من الناس ويقول: يا ترى هل شيخي يجامع كل ليلة؟ أو ترى هل كان شيخي يقع في المعاصي قبل دخوله مثل ما يقع لنا أم لا؟ وهل كان يراني وينافق ويحب الدنيا أم لا؟ فإن ذلك كله فضول^(١) ولا ثمر له إلا فتح باب الاستهانة بمقام الشيخ لا غيره، فيجب على المريد أن ينظر إلى شيخه بالتعظيم فلا يصور في ذهنه حالة نقص عند الشيخ أبداً، لا في الماضي ولا في المستقبل، لأن الفقير ابن وقته.

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: كيف يصح التعبير عن شيء من صفات القلوب وهي بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء، فربما شرع الإنسان يتكلم في تجريح أحد فينقلب من النقص إلى الكمال قبل أن ينقضي كلامه، فيقع التجريح على حالة ماضية لا يصح وصفه بها الآن انتهى، والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يجلس بين يدي شيخه إلا وهو مستيقن كما يجلس العبد بين يدي السلطان، وليحذر كل الحذر من الإكثار من مجالسة الشيخ فإن كثرة مجالسته تذهب هيئته عند غالب المریدین كما يذهب حرمة الكعبة لأهل مكة ولمن جاورها، فأين بكاؤه عند رؤيتها من جمود عينيه أيام المجاورة؟ والقاعدة أن كل شيء كثرت مشاهدته هان في العيون، والشيخ هو كعبة المريد الذي يتوجه إليها في سائر مهماته فافهم.

ومن هذا الذي قررناه حرم غالب نقباء^(٢) الأشياخ وأولادهم ونسأؤهم بركتهم لكثرة مشاهدتهم له وإدلالهم عليه والله أعلم.

(١) الفضول: الزائد على الحاجة.

(٢) النقباء: هم المختارون لرعاية شؤون طائفة ما.

ومن شأنه: أنه إذا كان جالساً عند شيخ في وقت درس أو غيره وقام، فمن الأدب أن لا يوليّه ظهره حتى يبعد أو يتواري عنه بجدار ونحوه، وكل من لم يتأدب مع شيخه لا يشم من الأدب رائحة، لأن الشيخ هو الذي يُدخل المريد من بابه إلى حضرة ربه ﷻ، وليس له باب غيره ومن لم يكن له واسطة في أبواب الملوك لا يمكنه الدخول والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يلزم شيخه بالباطن الجواب عن مسألة سألها إياه، أو حكاية حكاها له، أو واقعة وقعت له بل يذكر حاجته ويسكت، فإن أجابه شيخه فذاك، وإلا فليُعرض بقلبه عن طلب الجواب لئلا يصير شيخه محكوماً عليه بالزامه الجواب، وهذه طريقة أخرى بخلاف ما عليه طلبة العلم.

الفرق أن طالب العلم مقصوده الاطلاع على النقل ليصير يفتي به الناس ويدرس به ولو لم يذقه، بخلاف الفقير فإنه لا يقنع بدون الذوق لذلك الأمر في نفسه، لأن كل ما لا ذوق للعبد فيه يفارقه عند طلوع روحه بخلاف ما ذاقه فإنه يموت عليه ويبعث عليه.

وسمعت سيدي علي المرصفي ﷺ يقول: ما تجرأت قط على سؤال أحد من مشايخي في واقعة من الوقائع، ولا هجرت قط على مكالمتي لأحد منهم، إنما كنت أنتظر بداءته لي بالكلام بعد أن يظهر لي أنه فارغ لمكالمتي مستعد لكلامي، فحينئذ فالكلمة مع التبجيل والتعظيم كما أكلّم أعظم ملوك الدنيا.

وقد روى الترمذي وغيره مرفوعاً: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه». فاعلم أن احترام الشيوخ توفيق وهداية والإخلال بذلك عقوق وخذلان والله أعلم.

ومن شأنه: دوام ربط قلبه مع الشيخ والانقياد له ورؤية اعتقاده أن الله تعالى جعل جميع إمداده لا يخرج إلا من باب شيخه، وإن شيخه هو المظهر الذي عينه الله تعالى للإفاضة عليه منه، ولا يحصل له مدد وفيض إلا بواسطته، ولو كانت الدنيا كلها مملوءة من المشايخ، وذلك ليقطع الالتفات إلى غيره لأنه ليس لذلك الغير عنده وديعة فافهم.

وكان الشيخ زين العابدين الخوافي ﷺ يقول: يجب على المريد أن يرى استمداده من شيخه الخاص هو بعينه استمداده من النبي ﷺ، وأن استمداد

رسول الله ﷺ من الحق تعالى ليتصل المريد بطريق أهل الله حقيقة، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

قال: واعلموا أن ربط المريد قلبه بالشيخ أصل كبير في سرعة الفتح، بل أصل الأصول، وأن حكم الشيخ حكم الحداد، وحكم غيره حكم الآلات، فكما أن المطرقة والسندان والمنفخ والفحم والنار وغيرها من الآلات إذا جُمع من غير جداد لا يصح عمل، كذلك آلات الطريق من الذكر والخلوة والمجاهدة إذا اجتمعت لا يفلح بها المريد ولا تنجلي مرآة قلبه، فربط القلب بالشيخ هو الأصل في ذلك كله كما جربناه، وما أتى على المريدين انقطاعهم عن الفيض والترقي إلا من عدم ربط قلوبهم بالشيخ على وجه التسليم والإذعان والهمة الصادقة، ومن أعظم شيء يقطع القلب عن الربط الاعتراض على الشيخ بالقلب.

قال الشيخ زين الدين الخوافي رحمه الله: وقد جرب جميع المريدين فوجدوا الاعتراض يقطع الفيض والإمداد، فكما يجب على المريد أن لا يعترض على نبيه ﷺ كذلك يجب عليه أن لا يعترض على شيخه بل يوافقه في كل شيء يأمره به وينهاه عنه من الخير، سواء أكرهته نفس المريد أم أحبته، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) وما يأمركم شيخكم أيها المريدون إلا بما يأمركم به ربكم والله أعلم.

ومن شأنه: أن يعتقد أن كل ذرة من أعمال شيخه أفضل من جميع عبادته ألف سنة، ومن هنا قال أبو سعيد الخزاز: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين، ومعناه أن إخلاص المريد معلول برؤية أنه يخلص بخلاف العارف فإنه منزّه عن الرياء جملة، وما رآه المريد من صورة رياء في حق شيخه إنما هو صفته هو، وكيف يصح من عارف رياء وهو يشهد كشفاً ويقيناً أن الله تعالى خالق له ولجميع أفعاله ليس له من أعماله إلا نسبة التكليف فقط.

وقال أحمد بن أبي الحواري مرة لشيخه أبي سليمان الداراني: إني لأجد لذة في معاملتي مع الله تعالى إذا كنت وحدي، ولا أجد تلك اللذة إذا كنت بين الناس، فقال له: إنك إذاً لضعيف، ولو قويت لاستوى عندك نظر الخلق وعدم نظرهم.

قلت: وإيضاح ذلك قولهم: إن رياء العارف أفضل من إخلاص المريدين، إن العارف لا يرى من الخلق إلا وجه الحق، فلو قُدِّرَ أنه رياء فإنما ذلك عملاً بحديث: «أروا الله من أنفسكم خيراً» وعملاً بآية: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾^(١) فهو رياء محمود لا مذموم، فما وقع رياء من عارف للخلق أبداً ما دام كاملاً. ويؤيد ما قلناه قول سهل بن عبد الله لي: منذ ثلاثين سنة أكلّم الله والناس يظنون أنني أكلّمهم انتهى.

ومن شأنه: أن لا يُدبِرَ عن محبة شيخه وخدمته إلا لضرورة يعذره شيخه بها، فقد قالوا: من أدبر عن شيخه لحظة واحدة بعد أن خدمه سبعين سنة مثلاً كان ما فاتته من تلك اللحظة أكثر مما ناله في السبعين سنة، فيا خسارة من أدبر عن شيخه فإن حكمه حكم من أدبر عن خدمة ربه، وأكثر المريدين جاهلون بمثل ذلك، ولذلك عدموا النفع فاعلم ذلك.

ومن شأنه: أن لا يُصِرَّ على وقوعه في سوء أدب لا ظاهراً ولا باطناً، لأن المريد الصادق إذا ربط قلبه بالشيخ وتأدب بأدابه الظاهرة سرى المدد الباطن من قلب الشيخ إلى قلب المريد كسراج يقتبس من سراج. وإذا جاء المدد من الشيخ ووجد قلب المريد متلطخاً^(٢) بسوء أدب رجع المدد. وكما أن كلام الشيخ ينصح باطن المريد الصادق فكذلك إمدادات الشيخ الباطنة، فمن نظف باطنه من جميع المخالفات وسلك الأدب مع الشيخ انتقلت جميع الإمدادات والأحوال والعلوم التي في قلب الشيخ إلى قلب ذلك المريد.

فيا سعادة من حصر أنفاسه مع الشيخ وانسلخ من إرادات نفسه وأفنى مراده في مراد شيخه، ومُزجت روحه بروحه على حكم الملاصقة ليرتقي من حكم عدم الاختيار مع الشيخ إلى عدم الاختيار مع الله تعالى، ويصير يفهم من الله تعالى كما كان يفهم من الشيخ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ومن شأنه: أن يزيد في تعظيم شيخه كلما باسطه وحادثه، وليحذر من ترك ملاحظة الأدب جملة، فإن المريد الصادق لا يزداد بمباشرة شيخه له إلا احتراماً وإكراماً وتبجيلاً واحتشاماً، وأنشدوا في ذلك:

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) تلطّخ: تلوث.

كلما ازداد بسطة وخضوعاً زدت فيه مهابة وجلالا
وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: من شرط المريد أن يزيد في
إجلال شيخه على الدوام حتى يفارقه، وهو يشهد فيه أنه أكمل الموجودين،
وليحذر من أن يرد على شيخه كلامه ولو كان النقل الراجح بيد المريد، فإن
الشيخ إنما يقول للمريد ما يرى فيه ترقّيه فليقف المريد عند قول شيخه ولا ينازعه
ولا يجادله ولا يماريه^(١)، ومتى خطر له نزاعه ولو في خاطره فليبادر إلى التوبة
من ذلك على الفور، فإن النزاع بالباطن هو عين الاعتراض في الظاهر، وهو
حرام على المريدين، وكل مريد اعتراض بباطنه فهو مسخرة للشيطان، وعورته
مكشوفة عند أهل الطريق والله أعلم.

ومن شأنه: أن يعتقد أن طريقته أشرف الطرق كلها لكونها محررة على
الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر، وإن لم يعتقد ذلك، فمن لازمه كشف
نفسه إلى ما هو أشرف عندها، وذلك يفرق قلب المريد عن السير فلا يفلح فيما
هو فيه.

وكان سيدي يوسف العجمي رحمته الله يقول: من لم يعتقد في طريقه أنها طريق
الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين لم يحصل منها على حاصل، ويجب عليه
أن يعتقد أن أشياخ الطريق أعلم بالله وبأحكامه وبالعلوم الربانية والأسرار الإلهية
من غيرهم.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: يجب على المريد أن يعتقد في
شيخه أنه على شرع بين ربه وبينه من أمره، ولا يزن أحواله بميزان عقله هو، فقد
يأتي من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن، كما وقع
للخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام.

فيجب على المريد التسليم على أن ذلك لا يصدر قط من شيخ كامل إنما
يصدر من ناقص فإن الكامل يجري مع الخلق بحكم العادة ولا يظهر عليه شيء
مما يذمه ظاهر الشرع أو تستغربه العادة.

فاعلم أن مراد القوم بالشيخ الذي يجب الانقياد له من كان متّصلًا من

(١) يماريه: يناظره ويجادله.

الكتاب والسنة، ومثل هذا لا يجب عليه التقيد بما هو دونه في العلم فافهم والله أعلم.

ومن شأنه: إذا وجهه شيخه في حاجة ورأى الصلاة تقام في مسجد في الطريق فلا يعرج على الجماعة بل يمضي في حاجة شيخه ثم يصلي بعد ذلك في الوقت، لا سيما إن كانت تلك الحاجة ضرورية كإغاثة ملهوف انتهى.

قلت: هكذا قالوه، ويستروح له بأنه ﷺ أرسل جماعة من أصحابه في حاجة وقال: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» ففعل بعضهم ذلك بعد أن خرج وقت العصر وبعضهم صلى العصر حين خاف خروج وقته وقال: لم يرد منا تأخير الصلاة حقيقة. وإنما أراد منا الاستعجال، فلما أخبروا بذلك رسول الله ﷺ لم يعتف أحداً من الفريقين: ففعل أحد هذين الفريقين يشهد للقوم.

ولكن الذي ينبغي لكل مرید في هذا الزمان أن يقدم صلاة الجماعة على الحاجة التي أرسله شيخه فيها لقصور غالب مشايخ هذا الزمان من بلوغ مقام الإرث لرسول الله ﷺ في معرفة ما هو الأفضل من العبادات بالنسبة إلى كل مرید فافهم والله أعلم.

ومن شأنه: أنه يوفي بكل شيء شرطه عليه الشيخ سواء أكان صعباً على المرید عادة أم سهلاً، فإن طريق القوم كلها مجاهدة ومكابدة^(١) وليس فيها راحة البتة، وأجمعوا على أنه ليس للمرید أن يشترط على الشيخ شرطاً حتى أنه يطيعه وينقاد له، كما أنه ليس للميت شرط على غاسله، وكل مرید صدق مع شيخه فلا فرق بينه وبين الميت.

وأجمعوا على أنه ليس للمرید أن يكلف أحداً من إخوانه وغيرهم خدمة نفسه التي يقدر هو عليها عادة وذلك ليرفع كلفته عن الخلق وينزه^(٢) نفسه عن تحمّل منهم^(٣) عليه ما أمكن، وليحذر من التشبيه بالشيخ في مثل ذلك جهده فإن الشيخ ربما ضعفت جوارحه عن خدمة نفسه من شدة ما جاهد نفسه طول عمره، وربما كان الناس يتقربون إلى الله تعالى بخدمتهم له ويرون له الفضل عليهم الذي أهّلهم ولا هكذا المرید.

(١) كابد الأمر مكابدة: قاسى شدته.

(٢) ينزه: يبعد نفسه ويصونها عن أمر ما.

(٣) ومنهم: إحسانهم وإنعامهم.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته يقول: من الأشياء من يدفع الناس على خدمتهم له بالقلب فلا يسأله أحد أن يقضيه حاجة، وذلك لأن الكامل من يخرج بثمرة أعماله من الدنيا كاملة متوفرة لا ينقص من رأس ماله شيء، قال: وكان شيخنا منهم كان رحمته يخبز خبزه على رأسه ويقضي جميع حوائجه بنفسه ولا يسأل أحداً من إخوانه شيئاً من ذلك رحمته والله أعلم.

ومن شأنه: أن يعتقد أن شيخه عارف بالله ناصح لخلق الله، وأجمعوا على أن من شرط المريد الأمانة لأنه بصدد حمل الأسرار ولا توهب الأسرار إلا للأمناء فلا يجوز له إفشاء سر من الأسرار إلا أن يأمره الشيخ أو الشرع إذاعته، وربما غلب عليه الحال فأفشى سر الربوبية فوقع له كما وقع للحلاج في هذا الزمان الذي استتر فيه الأولياء الصادقون والعلماء العاملون وصار الفقير إذا وقع في ورد له لا يهتدي غالب الناس إلى خروجه من تلك الورطة، وربما قتل ذلك الفقير ظلماً، فالكتمان واجب على المريد حتماً والسلام.

ومن شأنه: أن لا يدخل على شيخه ولا يجلس بين يديه أبداً إلا على طهارة ظاهرة وباطنة مسلماً مستسلماً، وهكذا درج جميع المريدين مع أشياخهم. وقد كان الشيخ أبو مدين المغربي رحمته يقول: ما دخلت في ابتداء أمري على شيخي حتى أغتسل وأطهر ثوبي وعصاي وجميع ما عليّ وأطهر قلبي من جميع علومي ومعارفي الظنية، ثم أدخل بعد ذلك فإن قبلني وأقبل عليّ، فذلك عنوان على سعادتي وإن أعرض عني وتركني رأيت العيب مني والشؤم عليّ. وأجمع القوم: على أنه لا يجوز للمريد أن يعتقد في عاص الإصرار على معصيته أبداً، فإن هذه المصيبة يقع فيها أكثر المريدين فتوقفهم عن السير.

وليتأمل المريد في قول علماء الشريعة: إن الظالم إذا أخذ من أحد دراهم ثم توارى^(١) عنا بحائط مثلاً إنه يجوز لنا الأكل مما رأيناه في يده ولا يجوز لنا ظن استصحاب تلك الدراهم فيفتي بحرمة الانتفاع بها إلا على وجه التورع فقط إحساناً للظن بذلك الظالم المسلم. وأيضاً فقد قالوا: إن الله تعالى عباداً لا تضرهم المعصية أي لعدم إصرارهم عليها، فلعل ذلك العاصي أو الظالم يكون منهم، وكل من لم يظن بنفسه السوء وأن جميع الناس خير منه فلا يفلح في

(١) توارى: استتر.

الطريق ولو أعطي من المعارف والكرامات ما أعطي.

وكذلك أجمعوا على أن كل مريد دخل على شيخ ليختبره فهو ممقوت جاهل، فإن الشيوخ لا يُختبرون البتة، ولا يطلب منهم كرامة ولا كلام على هواجس^(١) النفوس، ومن طلب ذلك منهم فقد جهل وأساء الأدب معهم، وربما استحکم فيه المقت فلا يفلح على يد شيخ بعد ذلك والله أعلم.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمته الله يقول: لا يطلب من الأشياء الكلام على الأسرار وإنما يطلب منهم معرفة الأمراض والأدواء لا غير.

وقالوا: إن المكاشفات إنما هي من أحوال المريدين دون العارفين والله أعلم.

ومن شأنه: إذا جلس مع الشيخ أن يلزم السكوت ولا يتلفظ بحضرته قط، إلا إن وجد أمانة^(٢) على إذن الشيخ له في ذلك، وما لم ير أمانة فالواجب عليه أدباً السكوت. وليحذر من رفعه الصوت بحضرته ولو في علم، فضلاً عن الكلام العاري.

وكذلك لا ينبغي له أن ينبسط ويكثر الضحك، بل يجلس على حكم الأدب والوقار، وقد قالوا لا يكون كثرة الضحك إلا من سُكر القلب، وإذا سكر القلب عقل اللسان.

وقد بالغ بعض المريدين في الوقار للشيخ حتى صار لا يستطيع ينظر إلى وجه الشيخ أبداً.

قال السهروردي رحمته الله: ضَعُفَتْ مرة فدخل عليّ شيخي أبو النجيب فرشح^(٣) جسدي عرقاً من هيبتة فشفيت من وقتي وكنت في غاية الحمى وأتمنى العرق لتخفف عني الحمى، فكنت لا أجد ذلك، قال: ولقد كنت يوماً في البيت خالياً وعندي منديل وهبه لي الشيخ فوقع على الأرض فصدم رجلي اتفاقاً، فتألم لذلك باطني، وهالني لمس قدمي لشيء من أثر شيخي، فوجدت بعد ذلك بركة عظيمة من الله ﷻ لاحترامي لأوليائه.

(١) هواجس: خواطر.

(٢) أمانة: علامة.

(٣) رشح: نضح وسال.

وكان أبو القاسم القشيري رحمته الله يقول: ما دخلت على الأستاذ أبي علي الدقاق في بدايتي إلا صائماً بعد أن أغتسل، وكثيراً ما كنت أحضر باب مدرسته فأرجع من الباب احتشاماً^(١) منه أن مثلي يدخل عليه.

وكنت إذا تجاسرت^(٢) ودخلت وبلغت وسط المدرسة تصحبني الهيبة فأصير أرعد من هيبة، وكثيراً ما كان يحصل لي شبه تخدير في جسدي حتى أنه لو غرز أحد بي إبرة لما أحسست بها. قال: ولا أعلم أنني اعترضت بقلبي على شيء من أحواله حتى مات.

وكان أشياخ الطريق يقولون: كل من لم ينتفع برؤية شيخه لم ينتفع بصحبته بالقبول، خرج نور الاقتداء من قلبه.

ومن لم ير شيخه نائباً عن رسول الله ﷺ في إرشاده لم يصل إلى طريق الحق، لأنه من لم يتأدب مع شيخه لم يتيسر عليه الأدب مع الحق. واعلموا أن كل من أهله الحق تعالى لحضرته فلا بد أن يخرج له عارفاً يقتدي به لموضع صدقه، وإنما فقد المريدون الأشياخ لعدم صدقهم.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله يقول: من كتم شيئاً من أحواله عن شيخه كان خائناً والله لا يحب الخائنين، ومن خطر بباله اتهام شيخه في شيء من أحواله عظمت محنته^(٣) ومن سافر عن شيخه قبل أن يتمكن من أحواله فقد تفرقت همته والله أعلم.

ومن شأنه: إذا وقع بينه وبين أخيه شحناء^(٤) أن لا يتحكم على شيخه ويطلب منه أن يكون معه على أخيه، بل الواجب عليه انتظار ما يحكم به الشيخ عليه، فإن للشيخ أن يعاتب أيهما شاء فيقول للمعتدي: لم اعتديت على أخيك؟ ويقول للآخر: ماذا أذنبت حتى اعتدى أخوك عليك وسلط عليك؟.

ويحكى حديث الطبراني مرفوعاً: «ما توادَّ اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما».

(١) الاحتشام: الاستحياء.

(٢) تجاسرت: تشجعت.

(٣) المحنة: البلاء والشدة.

(٤) الشحناء: البغضاء والتعادي.

وفي كلام سفيان الثوري رحمته الله: ما عصى الله عبد وهو يعرفه إلا سلط عليه من لا يعرفه حتى تشتد عليه العقوبة.

وكان سيدي محمد الغمري رحمته الله يقول لما خاصمه أحد من إخوانه بغير حق: هلاً قابلت أخاك بالعفو والصفح وفقاً به وإعطاء للفتوة والصحة حقها، ثم يقول للآخر: إنك قد تعديت الشريعة باعتدائك على أخيك.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: خيار الناس من إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أسأؤوا استغفروا والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يخاطب شيخه إلا على وجه الاستفهام، ولا يبدأ بالكلام، ولا يجيب إلا على حد الاحترام، ولا يجهر له بالقول كجهره لإخوانه من المريدين.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إياكم أن ترفعوا أصواتكم إذا كلمتم شيخكم في حاجة، ولا تنادوه باسمه المجرد عن الكنية واللقب كما ينادي بعضكم بعضاً، ولكن فخموه وعظموه بحكم الإرث لرسول الله ﷺ، فإن الله تعالى نهانا أن ننادي باسمه فنقول: يا أحمد يا محمد كما ينادي بعضنا بعضاً، بل نقول: يا نبي الله، يا رسول الله، وكذلك الشيخ تقول له: يا سيدي، يا ولي الله، يا واسطتنا عند الله، ونحو ذلك.

وسمعت رحمته الله يقول: ينبغي للمريد أن يتذكر حالة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام كلما أشكل عليه شيء من أحوال شيخه، فإن موسى عليه الصلاة والسلام كان كلما أنكر على الخضر شيئاً وأطلعه على حكمته يرجع عن إنكاره لوقته مع أن إنكار موسى عليه الصلاة والسلام لم يكن إلا على وجه الاستفهام لعصمته، إذ الأنبياء أكمل الناس أدباً وأكثرهم حياءً وتسليماً فافهم.

وكان الجنيد إذا تكلم بشيء وعارضه أحد من المريدين يقول: وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون.

وكان يقول: من كتم عن شيخه من أحواله ولم يذكره له ولو إيماء^(١) وتعريضاً فقد خانته وصار منه على باطنه عقدة في الطريق، ولو أنه كان ذكر للشيخ

(١) الإيماء: الإشارة.

ما في ضميره لحلّ له بكلامه عقدته والله أعلم.

ومن شأنه: إذا ظهر شيخ في بلده وانقلب إليه المريدون والأكابر دون شيخه أن لا يلتفت إليه، ومتى التفت إليه فهو دليل على فساد ابتداء الصحبة معه، وقد قالوا: كل مريد لا يعتقد في شيخه أنه أعلم بتربيته من غيره لا تعتقد صحبته معه ولا يصح سريان شيء من أسرار قلب الشيخ إليه، فإن المريد كلما أيقن بتفرّد الشيخ بالمشيخة في البلد كلما قويت محبته وتمكنت صحبته، وحكم العكس بالعكس.

وأجمعوا على أن كل مريد اشتغل بوقائعه وكشفه دون مراجعة شيخه فقليل انقطعت الوصلة بينه وبينه، فإن المريد وإن فُتِحَ عليه بالعلوم والأحوال فباب علم الشيخ وأحواله أوسع وأكثر.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: يجب على المريد أن يحكي جميع وقائعه لشيخه فما رآه الشيخ من الله تعالى أمضاه ووافقه عليه، وما كان من غير أمر الله أمره بالإضراب عنه، فإن الواقعة إذا كان فيها شبهة فيرجو زوالها ببركة ذكرها للشيخ.

ويستفيد المريد علماً بصحة الوقائع والكشوف كما تبرأ ساحتها من جهة الأدب مع الشيخ، وتبرأ ساحة الشيخ بتعليمه الأمور وإخراجه من مواطن التلبيس، وربما تحمل عنه الشيخ ذلك الأمر الذي حلّ به، لقلّة غشه وكثرة شففته وصحة إيوائه إلى جناب الحق تعالى.

وسمعت رحمته الله أيضاً يقول: يجب على المريد أن يذكر جميع وقائعه للشيخ لأنه أعلم بمقامه ومصالحه ومفاسده من نفسه، ولأنه جرّب الأمور ومارس الأحوال وركب الأهوال، وبلغ مبلغ الرجال.

وحُكِمَ المريد حكم من دخل في ظلمة بيرية قفراً^(١) لم يسلكها قط، فلا يعرف مواقع الخطر فيها، ولا يميّز بين النفع والضّر، وحكم من اتخذ له طبيباً عارفاً بالداء والدواء فصار يصف له دواءه وهو يتناول الأمور المضرة له موافقة لهواه والله أعلم.

(١) القفْر: الخلاء من الأرض. لا ماء فيه ولا ناس ولا كلاً.

ومن شأنه: إذا سافر شيخه من مكانه وتركه فيه أن يلزم شهود مكان شيخه الذي كان يقعد فيه ويسلم على شيخه كلما مر على مكانه في وقت من الأوقات كأنه ما غاب عنه، ويراعي حرمة في غيبته كمراعاته لها في حضوره.

وأجمعوا على أنه لا ينبغي للمريد إذا رأى شيخه خارجاً إلى مكان أن يقول له: أين؟ وكذلك أجمعوا على أنه لا ينبغي للمريد أن يقول له: دعني أنا عندك، أو أكل معك، أو أفارقك لعمل حرفة أو نحوها، بل ينظر في ذلك كل ما يراه الشيخ له في ذلك، وربما أجابه الشيخ إلى ذلك فحصل للمريد غاية الإبعاد ونفرت نفس شيخه منه بعد ذلك.

وكذلك كل ما فيه داعية إلى الإدلال على الشيخ وترك للحرمة معه ثم لا يفتح المريد بعد ذلك أبداً ما دام هذا حاله.

ومن شأنه: إذا شاوره شيخه في فعل أمر من الأمور أن يرد الأمر في ذلك إلى الشيخ، كما كان الصحابة يقولون: ﷺ كان أعلم من جميع أصحابه بأمور الدنيا والآخرة، وإنما كان يشاورهم تأليفاً لقلوبهم وبيانا لمقامهم في الأدب معه أو في المعرفة لذلك الأمر الذي استشارهم فيه، وكذلك الحكم في الشيخ بحكم الإرث لرسول الله ﷺ. إن مشورة الشيخ للمريد ليس هو لافتقار الشيخ إلى رأي المريد.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: ليس من أدب المريد أن يسأل شيخه عن حكمة مجالسته لمكان جلوسه فيه، ولا أن يسأله إذا انتقل عنه لم انتقلت، وليحذر أن يظن شيخه أن جلوسه في ذلك المكان أو انتقاله عنه بحكم العادة بغير نية صحيحة إذ الشيخ محفوظ عن أن يفعل شيئاً من غير غرض شرعي.

وكذلك ينبغي له أن يحذر من تأويل كلام شيخه عن ظاهره إذا أمره بأمر بل يبادر إلى فعل ذلك الأمر من غير تأويل، كما وقع لبعض الصحابة حين قال لهم رسول الله ﷺ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة» وقد تقدم ذلك قريباً.

وكان سيدي يوسف العجمي ﷺ يقول: من أدب المريد أن يقف عند كلام شيخه ولا يتأوله، وليفعل ما أمره به شيخه وإن ظهر أن شيخه أخطأ. فقد قالوا:

إن على المرید اعتبار ما یخیل أنه خطأ من كلام شیخه أحسن من صوابه هو، لحفاء مدرك كلام شیخه علیه وخروجه عن تلبسات النفوس، وإن قال: إني تخيلت أنك أردت كذا وكذا فهو في إدبار عن طريق الإرادة، وما أتى على أكثر المریدین الخذلان^(١) إلا من التأویل فإنه حظ النفس، ومن وافق حظ نفسه لا یفلح، والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا یصلي في موضع یستدبر فيه شیخه ما أمكن إن كان حاضراً، إلا إن عارضه في ذلك أمر شرعي كأن یصلي في الصف الأول وشیخه في الصف الثاني فإن هذا لا یضر والله أعلم.

ومن شأنه: إذا ذكر الله تعالى أو فعل عبادة من العبادات أن یستحضر نظر شیخه إليه لیتأدب ویضم شتات قلبه، وهذا واجب علیه ما دام تحت إذن شیخه. فإن أذن له شیخه في التربية والاستقلال بنفسه كان بعد ذلك حاله حال شیخه مع ربه، كما سیأتي بسطه إن شاء الله تعالى أواخر الرسالة.

ومن شأنه: أن لا يدعی أنه من أهل محبة القوم حتى یرى الخلق کلهم أحسن حالاً منه، لا سيما جماعة شیخ آخر فإن كل من خرج من تحت تربية شیخ ورأى نفسه أعلى من أحد من المسلمین فهو ممقوت، لأن هذا هو الذنب الذي طرد لأجله إبليس، وهذا لا یخفى على كثير من المریدین والحمد لله رب العالمین.

خاتمة: إن قال لنا مرید فما صفات الشیخ الذي علينا الأدب معه والانقياد لقوله والتقليد له في كل ما یأمرنا به؟ فالجواب: صفته أن یكون متبحراً في علوم الشريعة بحيث لو اجتمع علیه مشایخ الإسلام من علماء المذاهب الأربعة وناظروه في جميع الفقه لأجابهم بنقول المذاهب وقطعهم بالحجج الباهرة والاستدلال على كل ما لم تصرح الشريعة بحكمه، ویقوم في تقرير مذاهب الأئمة الأربعة مقام أهلها. ثم بعد ذلك یكون متقیداً بالكتاب والسنة في أقواله وأفعاله وعقائده عارفاً بمیزان الخواطر كلها من خاطر النفس أو الشیطان أو المَلِك أو الخاطر الرباني، ویعرف الفرقان بین هذه الخواطر.

(١) الخذلان: الفشل والانقطاع.

ومن شرطه أيضاً: أن يكون عارفاً بالعلل والأمراض المتعلقة بالأبدان والأرواح ليغني المريد عن سؤال غيره، عارفاً بكل ما يرقى المريد أو يقطعه عن الترقى من سائر الأعمال والأحوال إلى أن يبلغه إلى مقامات الرجال ووقوعه على عين الحقيقة.

ومن شرطه أيضاً: أن يكون له قدرة على جذب المريد واستخلاصه من أيدي العوائق^(١)، لكن يشترط مع ذلك صدق المريد وعمله بإشارة شيخه ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٢).

فإن قيل: متى يصح تلقيب الشيخ بالأستاذ؟

فالجواب: إذا جمع هذه الخصال الثلاث وهي أن يكون عنده دين الأنبياء وتدبير الأطباء وسياسة الملوك، فكل من جمع هذه الثلاث فهو الملقب حقيقة بالأستاذ لأنها أركان جميع المقامات.

وسمعت سيدي علياً الخواص وسيدي علياً المرصفي وأخي أفضل الدين رحمهما الله يقولون مراراً، يصدق بعضهم قول بعض: أربع مراتب قد زاحم الناس الأسياف عليها في هذا الزمان بغير حق، وهي تلقين الذكر ولباس الخرقة وإرخاء العذبة وإدخال المريد الخلوة، فإن لكل منها شروطاً لا بد منها لأنه متى فقد الشرط فقد المشروط.

ومن قال: إن هذه الشروط التي تذكرها ليست بشرط عند أهل الطريق لكونه هو عاجز عن تحصيلها فيه فقد جهل، كما وقع فيه بعض المتشيعين في هذا الزمان بغير حق.

فأما شرط من يلحق لذكر التلقين الحقيقي وهو التلقين النامي عند الأشراف على مقام الكمال فهو أن يقدره الله تعالى على أن يخلع على المريد جميع ما قسم له من علم لا إله إلا الله فلا يصير يجهل شيئاً من أحكام الشريعة التي صرح بها الشارع ﷺ من واجبات ومندوبات ومحرمات ومكروهات ومباحات، فيغنيه بعد ذلك التلقين عن مطالعة كتب الفقه، بل يصير يدرس الناس في جميع مذاهب

(١) العوائق: الأمور الشاغلة والممانعة عن الشيء.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٦.

الأئمة المجتهدين، ومن لم يقدره الله تعالى على ذلك فهو متشبه بأهل الطريق لا متحقق لصفاتهم فله أجر التشبه بهم لا غير.

وأما شرط من يُلبس المريد الخرقة الإلباس الحقيقي عند الإشراف على مقام الكمال أيضاً فشرطه أن يقدره الله تعالى على سلب جميع الصفات الردية التي في المريد، حال أمره له بنزع الخرقة التي عليه عرقية أو رداء أو إزاراً أو قميصاً، فلا يتخلف عند المريد بعد نزعها خلق سيئ، ولا شيء من رعونات النفوس، بل يصير باطنه كباطن الطفل ممسوحاً من كل رذيلة.

ثم إن الشيخ يُلبسه كذلك ما كان عليه نظير ما نزع منه ويفرغ عليه جميع ما قسم له من الأخلاق المحمدية التي كان يصل إليها بالعلاج والمجاهدة والرياضة فينصبغ بها انصباعاً فلا يكاد يظهر منه بعد ذلك رعونة نفس ولا خلق ردي. فمن لم يقدره الله تعالى على مثل فهو متشبه كذلك بالقوم وليس هو من محققهم فله أجر التشبه بهم لا غير.

وأما شرط من يرخي للمريد العذبة الإرخاء الحقيقي فأن يقدره الله تعالى على أن يخلع للمريد سر النمو والزيادة في كل شيء نظر إليه المريد أو مسه بيده حتى لو مد العمل والحجر أو الخشب امتد معه فيكون إرخاء العذبة لهذا من باب إظهار التحدث بالنعمة فيثاب على ذلك.

وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ لما أرخى العذبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قصر معه جذع سقف بيت فاطمة ولم يصل إلى الجدار الآخر فمده فامتد معه، وكان يتوضأ كاملاً من كف واحد من الماء. فمن لم يقدره الله تعالى على خلع هذا السر على المريد إرخاء العذبة له إنما هو على وجه التشبه بالقوم فله أجر نيته إن صلحت، فإن المريد ربما تمشيخ بإرخاء العذبة ورأى نفسه بها على غيره وذلك حرام، كما أفتى به ابن حجر وغيره.

وشرط من يُدخل المريد الخلوة هو أن يطلعه الله تعالى من طريق كشفه الصحيح الذي لا يدخله نحو أن ذلك المريد يقدر على فعل جميع شروط الخلوة ولا يُخلُ بشيء منها وذلك ليحصل له ثمرة الخلوة، وكذلك يطلعه الله تعالى على حصول جميع ثمرات الخلوة للمريد ليدخله على بيته من الله تعالى ومعرفة، فإن من لم يقم بأداب الخلوة ولم يحصل له ثمراتها فليس هو بمريد صادق، كما أن

كل شيخ لم يطلعه الله تعالى على ثمرات الخلوة فليس هو بشيخ صادق وهو مقتول في نفسه بنفسه، وهو من المستهزئين بأهل الطريق فحكمه حكم حلم من الخيال إذا خرج من باب قاض أو أمير فيصير الصغار يضحكون عليه. وذلك عين مقت الله تعالى للعبد، نسأل الله العافية.

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق:

من شرط المرید إذا كان يذكر الله تعالى في خلوة وظهر له شيء من الصور أن يذكر ذلك لشيخه لا سيما إن قال له: أنا الله لا إله إلا أنا أو سبحاني ونحو ذلك، وليحذر أن يكتمه عن شيخه ويميل إليه فإنه يهلك في ذمته، وليقل آمنت بالله، سبحان من ليس كمثله ثم يتغافل عن شهود تلك الصورة ويتلهى عنها بالذكر ما أمكن حتى يتجلى له سر من أسرار مذكوره فيغنيه عن الذكر به.

ومن شرطه: أن لا يعلق همته ما دام في الخلوة بحصول كرامة ولا يستند في خلوته أبداً إلى جدار ولا غيره بل يذكر ربه امتثالاً لأمره مطرقاً رأسه، مغمضاً عينيه من حين يفتح المجلس إلى أن يفرغ منه، ملاحظاً لقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني».

ومن شرطه: أن يثبت إذا ترادفت عليه الخواطر الردية وليحذر من قوله في نفسه ما كان لي حاجة في هذا الطريق ولا بهذه الخلوة، فإنه لا بد للسالك من ترادف الخواطر الردية عليه أوائل دخوله الطريق وفي الخلوة لكون إبليس يجيئ^(١) عليه ويركب عليه يحاربه بخيله ورجله، لكونه رآه عازماً على أن يكون من جلساء الحق جل وعلا، وهو حسود لله تعالى، ولكل من رأى عنده طلب تقريب من حضرة الحق تعالى فهو يحرص على أن يغيّر نيته ويرده ناكساً على عقبه فلا يحب لنا خيراً قط، ولكن يجب على المرید الاستغائة بشيخه كلما عرض له عارض من جهة النفس أو الشيطان فإنه ببركة استناده إلى شيخه تندفع عنه العوارض إن شاء الله تعالى.

ومن شرطه: أن يعوّد نفسه قلة الكلام وقلة الأكل قبل دخوله ليحب العزلة ويقلّ كلامه ويكثر سهره.

(١) يُجِيئُ: يجمع الجيوش.

ومن شرطه: أن يخلص النية في دخوله الخلوة بإذن الشيخ، ولا يجوز له دخولها بنية غير صالحة ولا بغير إذن من الشيخ.

وينبغي له أن يقصد بها تهذيب أخلاقه ليستريح الناس من شره، فإن في الحديث مرفوعاً: «شرُّ الناس من تركه الناس اتِّقاءً فحشه».

ومن شرطه: أن يدخل الخلوة^(١) بالهيبة كما يدخل المسجد من حيث إنه حضرة الله الخاصة ويستعيز بالله من شر نفسه كلما دخلها وينقطع عما سواه من زوجة وأولاد ومال، فلا يكاد يخطر على باله شيء من ذلك، لأن خطور ذلك من علامة الالتفات إلى وراء وقد أجمعوا على أنه لا يصل إلى مطلوبه من كان عنده التفات إلى ورائه.

ومن شرطه: أن لا يدخل في الخلوة حتى يدخلها شيخه قبله ويصلي فيها ركعتين بحضور وهمة وجمعية قلب مع الله تعالى ثم يفرض ذلك في قلب المريد ليقترب عليه الفتح.

ومن شرطه: أن لا يلتفت إلى ما يقع له من الكرامات بل يقبل ذلك أدباً مع الله تعالى لشكره عليه من غير وقوف معه، فمن وقف مع شيء من ذلك فإنه خير الدنيا والآخرة. وكذلك الكرامات للرجال بمثابة الحيض للنساء ومن قوي يقينه بالله تعالى لا يحتاج إلى كرامة تثبته في دينه.

ومن شرطه: أن يرى روحانية شيخه متصلة به لا ينحجب عنه شيخه لاتصال روحه بمريد آخر، بل روحانية الشيخ تمد مريديه كلهم ولو كانوا مائة ألف ألف مثلاً. وليحذر أن يرفض واسطة شيخه له ويتوجه إلى الله بلا واسطة فإنه يتمزق ولا يحصل على طائل لجهله بالله ﷻ.

ومن شرطه: أن يكون دائم المراقبة^(٢) لينظر الله تعالى إليه فلا يغفل عن هذا المشهد لحظة، فمن غفل عن ربه كذلك رَدَّته الغفلة إلى أنقص من حاله الذي كان قبل دخوله الخلوة.

(١) الخلوة: هي العزلة عند بعضهم، وغير العزلة عند البعض الآخر. فالخلوة من الأغيار، والعزلة من النفس وما تدعو إليه ومما يشغل عن الله تعالى، فالخلوة كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود.

(٢) المراقبة: محافظة القلب عن الردية. وقيل: هي أن تعلم أن الله تعالى على كل شيء قدير. وقيل: حقيقة المراقبة أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ومن شرطه: أن يكون صائماً مدة الخلوة وذلك لأن الجوع يحلل من الأجزاء الترابية والمائية بقدر ما يكون فيصفو القلب.

ومن شرطه: أن لا يختلي إلا في خلوة مظلمة لا يدخلها شعاع شمس ولا ضوء نهار وذلك ليسد عن نفسه طرق الحواس الظاهرة، فإنها شرط لفتح حواس القلب.

ومن شرطه: دوام الطهارة فلا يمكث لحظة محدثاً بل يبادر للطهارة كلما أحدث وذلك لتألؤ الأنوار^(١) في قلبه.

ومن شرطه: أن لا يتكلم إلا بكلام مشروع ويسد باب كلام اللغو جملة، فإن الأنوار الربانية تخرج من قلب المريد إذا تكلم بلغو ويصير قلبه مظلماً خالياً من النور الحاصل بالخلوة، ولا يضره الكلام مع شيخه في وقائعه ولا لخادمه الذي جعله الشيخ خادماً مدة الخلوة لكن يكون ذلك قدر الضرورة.

ومن شرطه: أن تكون الخلوة التي يمكث فيها بعيدة عن سماع كلام الناس، لأن سماع كلام الناس يؤثر في القلب ظلمة بخلاف الكلام المشروع كما مر.

ومن شرطه: أن يخرج للوضوء والصلاة مطرقاً رأسه غير ناظر إلى أحد مغطياً رأسه ورقبته بشيء، لأنه ربما حصل له عرق في الخلوة فلفحه الهواء لما خرج فضعف وانقطع عن آداب الخلوة، وليحذر من ملاحظة الناس له ورؤيتهم له بالتعظيم إذا خرج للوضوء والصلاة، فإن ذلك سُم قاتل.

ومن شرطه: أن لا يصلي منفرداً بل في جماعة، فقد قالوا: ما حصل لأحد خُبْلٌ^(٢) في عقله إذا اختلى إلا من تركه الصلاة في جماعة، وليحذر من الشبع وكثرة شرب الماء فإن ذلك يقسي القلب ويورث الحجاب ويظلم القلب ويورث الكسل والبطالة وجلب النوم.

ومن شرطه: السهر الدائم، فإن ذلك يذيب الأركان الأربعة ويحللها وهي الماء والتراب والهواء والنار، وهناك ينظر إلى عالم الملكوت فيشتاق إلى مرضاة ربه وينفر من كل شيء يُغضب ربه.

(١) الأنوار: عبارة عما ظهر من كثائف التجليات وتكون للصفات، وإنما سميت تجليات الحق أنواراً على وجه التشبيه لأن من شأن النور أن يكشف الظلمة ويذهبها وكذلك تجلي الحق يكشف عن ظلمة الجهل ويظهر العلم به.

(٢) الخُبْل: فساد في العقل.

ومن شرطه: أن لا يتسلل في خاطر^(١) ولا في التعقل في فهم آية أو حديث فضلاً عن غير ذلك، لأن الخلوة ليست تحلُّ لمثل ذلك.

ومن شرطه: أن لا يفتح باب خلوته لأحد غير شيخه، ولما اختلى ﷺ في غار حراء كان لا يصحب أحداً معه.

ومن شرطه: أن لا يعيّن للخلوة مدة إذا بلغها خرج فمن عيّن أربعين يوماً مثلاً وحدّث نفسه بالخروج إذا مضت، خرج من الخلوة في أول يوم بهذا الخاطر. لأنه يورث الشتات والتفرقة للقلب مدة الخلوة، فيجب على المختلي أن يجعل الخلوة قبره لا يخرج منها إلى يوم القيامة، ذكره الشيخ نجم الدين البكري وقال: إنه أمر دقيق لا ينتبه له غالب الفقراء انتهى.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: من أحكم معنى الخلوة - بالخاء المعجمة - صار الوجود له جلوة - بالجيم - وصار يخاطب سر الحق تعالى، ومن قلوب الخلق ما لا ينحجب عن ربها بحجاب إلا حجاب العظمة، انتهى.

وأما ثمرات الخلوة التي لا ينبغي لشيخ أن يدخل المريد الخلوة إلا إن علم من طريق كشفه حصولها له فهي خمسة وعشرون من أنواع الكشف.

وقد أجمعوا على أن حصولها من علامات صحة الفتح، وإن من لم تحصل له فاشتغاله بالعلم والكسب والصنایع والجرف أفضل له من دخول الخلوة.

فيقال لمن اختلى: ماذا حصل لك من الكشوفات والعلوم؟ فإن رأيناه كاشفنا بهذه الخمسة وعشرين كشفاً صدّقناه وإلا أعرضنا عنه.

فأول الكشوفات التي تحصل للمختلي: أن يكشف له عن عالم الحشر الغائب عنه فلا يحجبه ظلمة ولا جدار عما يفعله الناس في قعور بيوتهم، لكن يجب عليه التوبة من هذا الكشف فوراً لأنه كشف سلطاني، وينبغي له أن يسأل الله تعالى أن يخلق باسمه الستار.

والفرق بين الكشف الحسي والخيالي أن يغمض العبد عينيه عند رؤية شخص

(١) الخواطر: خطابات ترد على القلوب تكون بإلقاء ملك أو شيطان أو حديث نفس فإن كان من الملك فلإلهام أو من الشيطان فوسواس أو من النفس فهو اجس.

أو عند رؤية فعل، فإن بقي له الكشف^(١) فهو خيالي، وإن زال فليعلم أن الإدراك قد تعلق بمكان مخصوص.

ثانيها: أن تنزل عليه المعاني العقلية في الصور الحسية فلا يصير بعد ذلك يحتاج إلى إتعاب فكر في تحصيل شيء مما طريقه العقل.

ثالثها: أن يؤتى بأوانٍ فيها شراب فينبغي له أن يشرب اللبن منها، وإلا فاللبن ثم العسل، وإن جمع بين اللبن والعسل فهو أفضل، وليحذر من شرب الخمر فإنه يورث الشطح^(٢)، فإن كان الخمر ممزوجاً بماء المطر فليشربه دون الممزوج بماء الأنهار والآبار والعيون، وعليه بالذكر حتى يرتفع عنه عالم الخيال ويتجلى له عالم المعاني المجردة عن المواد.

رابعها: أن يتجلى له المذكور ويغني عن الذكر في حضرة المشاهدة^(٣).

خامسها: أن يعرض عليه الحق تعالى مراتب المملكة كلها فلا ينبغي له الالتفات إليها.

سادسها: أن يكشف له عن أسرار الأحجار المعدنية وغيرها فيعرف سر كل حجر وخاصيته في المضارّ والمنافع ويعرف عمل الكيمياء الصحيحة التي لا تتغير على مرور الأزمان، فلا ينبغي الالتفات إلى شيء من ذلك.

سابعها: أن يكشف له عن أسرار النبات حتى تناديه كل عشة وتخبره بما فيها من الخواص، ولا ينبغي له الالتفات إلى ذلك، فمن التفت إلى ذلك طُرِدَ، وليكن غذاؤه عند حصول هذا الكشف بما كثرت رطوبته وحرارته.

ثامنها: أن يُكشف له عن أسرار الحيوان كله حتى الحشرات ويسلّم عليها وتُعرفه بما أودعه الله فيها من الخواص النافعة والضارة وبما تعبدُ الله تعالى به من أنواع التسبيح والتمجيد. وهنا نكتةٌ جليّة وهو أن المختلي إن رأى العوالم مشغلة بالذكر الذي هو عليه في الخلوة فليعلم أنه كشف خيالي لا حقيقي فإن

(١) الكشف: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً.

(٢) الشطح: كلام يترجمه اللسان عن وَجْدٍ يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه مستلباً ومحفوظاً.

(٣) المشاهدة: رؤية الذات اللطيفة في مظاهر تجلياتها الكثيفة فترجع إلى تكثيف اللطيف.

خياله هو الذي أقيم له في الموجودات، وإن رآها مشغلة بأنواع أذكارها هي فهو كشف حقيقي.

تاسعها: أن يُكشف له عن سريان عالم الحياة التي هي سبب الإحياء وما تعطيه من الأثر في كل ذات وكيف تندرج العبادات في هذا السريان فيعرف نشأة الصلاة الحية من الميتة.

عاشرها: أن يكشف له عن اللوائح اللوحية ويخاطب بالمخاوف وتتنوع عليه الحالات ويقام له دولاب يعاين فيه صور الاستحالات وكيف يصير الكثيف لطيفاً وعكسه.

حادي عشرها: أن يكشف له عن نور نظائر السر حتى يطلب التستر منه فليدُم على الذكر ولا يَخَفْ فإنه ينقطع عنه ويندفع.

ثاني عشرها: أن يكشف له عن نور الطوابع وصورة التراكيب الكلية وتعرَّف آداب الدخول إلى الحضرة الإلهية وآداب الوقوف بين يدي الحق جل وعلا، وأدب الخروج من عنده إلى الخلق، وهناك يعرف أن كل شيء نقص من الظاهر زَيْدٌ في الباطن والذات واحدة وما تَمَّ نقص حقيقة.

ثالث عشرها: أن يكشف له عن مراتب العلوم النظرية ويعرف صور المغاليط التي تطرأ على الأفهام وسريان السر الإلهي في العالم.

رابع عشرها: أن يكشف له عن عالم التصوير والحسن والخيال ويمده كل شيء في الوجود بما عنده.

خامس عشرها: أن يكشف له عن مراتب القطبية وعوالمها وكل ما شاهده قبل ذلك فهو من عالم اللسان، وهناك يعطى عالم الرموز والإجمال والوهب.

سادس عشرها: أن يكشف عن عالم العزة فيعرف جميع الأداة السليمة والشرائع المستقيمة المنزلة من عند الله بواسطة محمد ﷺ على أتم وجوها ويميز قول الله من قول خلقه ولو حكاه تعالى عنهم ويتأيد عنده الأحاديث التي قيل بضعفها بالكشف، ويعرف أيضاً جميع المقامات ومراتبها في الحضرة الإلهية وتقابله كلها بالتوقير والتعظيم.

سابع عشرها: أن يكشف له عن غامضات الأسرار^(١).

ثامن عشرها: أن يكشف له عن عالم الحيرة والقصور والعجز وخزائن الأعمال وهي من الجنان عليون فقط.

تاسع عشرها: أن يكشف عن جميع الجنان ومراتب أهلها كلهم وهو واقف على طريق ضيق، ثم عن جهنم ودركاتها^(٢) ومراتب أهلها، وهناك يعرف كشفاً و يقيناً الأعمال الموصلة إلى كل من الدارين.

العشرون: أن يكشف له عن أرواح أهل محبة الله ﷺ فيراهم حيارى سكارى قد غلب عليهم سلطان الوجل^(٣).

حادي عشرينها: أن يكشف له عن نور لا يرى فيه غير نفسه فيأخذه فيه وجد^(٤) وهيمن^(٥) ويتمايل كتمايل السراج ويجد في نفسه لذة لا يقدر قدرها.

ثاني عشرينها: أن يكشف له عن صور كصور بني آدم وستور تدفع وستور بياض ولهم تسبيح يدهش العقول فلا يذهل حين يرى صورته فيهم.

ثالث عشرينها: أن يكشف له عن أسرار الرحمانية فيعرف عاقبة أمره ومنزلته من حضرات الأسماء.

رابع عشرينها: أن يعرف منازع جميع أحوال المجتهدين من الكتاب والسنة ويخرج من الخلوة وقد نحى نفسه من ديوان الفقراء الصادقين، وأما من يخرج منها وهو يرى أنه خير من أقرانه فهو ممقوت بإجماع أهل الطريق، إذ هو وقت اللبس الذي أخرج به آدم من حضرة الله كما مرّ قبيل هذه الخاتمة.

خامس عشرينها: أن يعطيه الله تعالى المشي على الهواء والماء ويصير يتصرف بهيمته في الكون بإذن الله تعالى، وتطوى له الأرض ويخلع عليه هناك من الخلع ما لم يخطر على باله. فهذه ثمرات الخلوة والحمد لله رب العالمين.

(١) الأسرار: عبارة عما بطن في كثائف التجليات من المعاني اللطيفة وهي للذات.

(٢) الدركات: منازل بعضها تحت بعض في طبقات جهنم.

(٣) الوجل: الخوف.

(٤) الوجد: الحب الشديد.

(٥) الهيمان: شغل المرء حباً بالشيء.

وكان أخي أبو العباس الحريني يختلي الأربعين وأكثر ويقول: كل خلوة لا تمنح صاحبها هذه العلوم فهو عبث ناقص الاستعداد، وهي: علم حضرة الجمع الأكبر وعلم مزلات الأقدام، وأسباب السعادة والشقاء، وعلم الفرق بين الكرامة والاستدراج في سائر الأحوال، وعلم جميع مراتب العالم عند الله تعالى على اختلاف طبقات الخلق ومعرفة أنساب جميع الحيوانات إلى أبيها الأول.

ومنها: علم التجليات الإلهية وعلم بطون عالم الشهادة في عالم الغيب وعكسه، ومن هذا العلم زلّ بعض أهل الكشف فقال: بعدم حشر الأجساد حين رأى أرواحاً تتحول في أي صورة شاء صاحبها، وغاب عنه أن الأجساد تنطوي في الأرواح في الآخرة عكس حالها في الدنيا.

ومنها: علم جواهر القرآن كلها في مقام الإسلام وفي مقام الإيمان وفي مقام الإحسان وفي مقام الإيقان.

ومنها: علم مراتب الملائكة في الدار الآخرة على التفصيل وعلى الجمع بين الضدين، وإدخال الواسع في الضيق، وطَيّ الزمان، وشهود الجسم الواحد في مكانين فأكثر من مكانين، فأكثر في آن واحد.

ومنها: علم كلام الحيوانات من حيث تسبيحها بحمد ربها حال صلاتها، ومعرفة الأداة المتعلقة بملائكة الأرض وملائكة الهواء بين السموات كلها، وعلم البرازخ^(١).

ومنها: علم إبراز الغيوب من خلف الحجب، وعلم الظلالات الأقدسية وعلم كيفية الحروف المسطرة في اللوح المحفوظ، وعلم طول العالم وعرضه من الجهات الست.

ومنها: علم حضرات الفردانية والصمدانية وعدتها سبعون ألف حضرة ومعرفة الأحكام المتعلقة بأهل كل حضرة بحيث يسير يملئها^(٢) كلها من قلبه.

ومنها: علوم فتق الرتق^(٣) بالعروق وفصل الوصل بالحقوق وعلم الأسباب

(١) البرزخ: هو عالم الشهود بين عالم المعاني والأجسام أي بين الآخرة والدنيا.

(٢) أُملى عليه الكتاب: قاله له فكتب عنه.

(٣) الرتق: قد يطلق على نسب الحضرة الواحدية باعتبار أن لا ظهور لها وعلى كل بطون وغيبة كالحقائق المكونة في الذات الأحدية قبل تفاصيلها في الحضرة الواحدية مثل الشجرة في النواة.

التي من أجلها اتُخذت الأصنام والأوثان أرباباً من دون الله، وما شبهه كل صاحب ملة ونحلة في مخالفته شريعة نبيه.

ومنها: علم حضرات الرجوع، ولماذا يرجع كلام الباري جل وعلا؟ هل هو لذاته أو لصفة قائمة زائدة عليها أو لعلمه أو نسبه خاصة؟ وما محل الإعجاز في جميع الآيات.

ومنها: علم تطورات الحروف ملائكة حال النطق بها بحيث يصير صاحب هذا الكشف يرى الجو كله ملائكة من كلام الخلق.

ومنها: علم ملامات مَنْ مَسَّ الشقاء من العصاة وتمييزه عن مَنْ لا حَظَّ له في الشقاء أصلاً برؤية جبهته، وعلم التضمير في نحو قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(١) ومعلوم لا يسارع إلى المغفرة إلا بالوقوع في الذنوب وقد ثبت النهي عنها وهو علم شريف.

ومنها: علم الغيب الذي انفرد به الحق جل وعلا، والغيب الذي يطلع خواص عباده عليه، وهل بين كل أرض وسما ملائكة أم لا؟.

ومنها: علم الشرائع الماثوثة^(٢) في جميع العالم وعلم جميع المعجزات والكرامات واستخراجها كلها من مقام محمد ﷺ.

ومنها: علم مظاهر الآيات البرزخية والكرامات الكونية، وعلم ما خصَّ الله تعالى به أصحاب الكهف من العلوم والأسرار، وعلم الانفهامات الملكية والصحف الفردوسية وحضرة الديمومية.

ومنها: علم الآداب التي تجب على تباع كل أمة ومستحباتها عن غيرها.

ومنها: علم الكنوز ومعرفة حلِّ طلسمات^(٣) جميع الكنوز بأي حرف شاء من حروف الهجاء على عدد مخصوص وحال مخصوص، ويتصرف في جميع كنوز الدنيا بما شاء لكنه يترك ذلك اقتداءً بجمهور الأنبياء والأولياء.

ومنها: علم ضمِّ المعاني بعضها إلى بعض كالألفاظ وهو علم غريب لأن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) الماثوثة: المتشعبة.

(٣) الطلسمات: الأشياء الغامضة.

المعاني لا توجد إلا مع الألفاظ، وتجرّد المعاني عن الألفاظ محال في العقل.

ومنها: علم فكّ المعنى من الأسرار وتفهم مراتب الإيمان، وإيضاح السر وعلم التفاضيل بين الأنبياء والأولياء على التعيين كما هم في حضرة الله تعالى.

ومنها: علم حضرة الحجب الشهوانية في الدنيا والآخرة وما يحجب العبد منها عن الله تعالى وما لا يحجبه.

ومنها: علم فوائد الأدلة والبراهين ومنه يعلم أن كل ما ولّده العقل في باب معرفة الله تعالى فهو مردود على صاحبه، قال تعالى: ﴿كَلِمَ بَيِّنَاتٍ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(١)، فافهم.

ومنها: علم الطبائع ومنه يعلم الإنسان أنه قابل لجميع المحامد والمذام من حيث طينته، وأنه ما خرج عن المذام سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وصاحب هذا العلم لا يصير يفرح بالمدح ولا يحزن بالذم لأنه لم يرّد عليه شيء غريب وهو من أشرف علوم الكشف.

ومنها: علم تمييز الحق من الباطل في سائر الأقوال والأفعال والعقائد، وإدراك الباطل ميتاً لا روح فيه، والحق حيّاً، كما يدرك الحب الياّس من الأخضر من غير إقامة دليل على ذلك من الكتاب والسنة لو فُقدا والعياذ بالله تعالى.

ومنها: علم القبض والبسط^(٢)، ومنه يشهد صاحب المقام بسط الحق تعالى في حال قبضه وقبضه في حال بسطه وهكذا من حيث إنه تعالى جامع للأضداد إلا ما أخرجته النصوص الشرعية من ذلك، كما هو معروف عند أهل الله تعالى.

ومنها: علم جميع الطرق التي لا يدخل منها إبليس على جميع السالكين ومعرفة الأمور التي تسد جميع طرقه عنهم وهو من أشرف العلوم.

ومنها: علم الصفات والأحكام التي كانت للأرواح قبل دخولها في هذا الجسم والصفات التي تكون عليها بعد دخولها، ومنه يعرف السالك الوجه الذي حصل من اجتماعات حتى كان العذاب عليهما جميعاً فإن لكل واحد منهما على أفراد غير مكلف، انتهى.

(١) سورة الإخلاص.

(٢) القبض والبسط: هما حالتان بعد الترقى من حال الخوف والرجاء فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للطالب والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمريد.

فهذا بعض علوم الخلوة التي ذكرها أخي أفضل الدين رحمته الله.

وكان سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: كل خلوة لا يطلع صاحبها إذا خرج منها على هذه العلوم فلا ثمرة لها وهي غير مشروعة بل هي إلى الرياء أقرب:

فأولها: أن يكشف له عن علم آداب رَدَى الحجب وعدتها سبعون ألف حجاب وذلك ليرفع عنه إذا دخل في الصلاة، وأن يعطى علم آداب المشاهدات العيانية^(١) والمكالمات البَيَّانية.

ثانيها: أن يعطيه الله تعالى معرفة أهل الجنة ومعرفة ممن يدخل الدار من الموحدين ممن لا يدخلها.

ثالثها: أن يعطيه الله تعالى علم جميع ما أحصاه الله تعالى في الإمام المبين من العلوم وعدتها ما يحصل من ضرب ثلاث مائة وستين ألفاً في مثلها تسع مرات وثلاث.

رابعها: أن يعطيه الله تعالى معرفة أحكام علم الكتاب والسنة في مقام الإسلام ومقام الإيمان ومقام الإحسان ومقام الإيقان، ويصير يعرف شروط كل عبادة وأركانها وسننها وآدابها في كل مقام من هذه الأربعة مقامات وهو علم عزيز.

خامسها: أن يعطيه الله تعالى علم فك رموز الحقائق وحلّ معميات الدقائق.

سادسها: أن يعطيه الله تعالى علم آداب الدخول إلى حضرة الله الخاصة بالصلاة وأمهايتها عشرة آلاف أدب، وأما فروعها فلا تنحصر، وما قدرها الله حق قدره.

سابعها: أن يعطيه الله تعالى علم استخراج جميع الكتب المنزلة من القرآن العظيم وتمييز جميع الشرائع عن بعضها وما تزيد كل شريعة أو تنقص عن الأخرى.

وكان سيدي إبراهيم المتبولي يقول: لما دخلت الخلوة أطلعني الله تعالى

(١) المشاهدة رؤية الذات اللطيفة في مظاهر تجلياتها الكثيفة فترجع إلى تكثيف اللطيف فإذا ترقق الوداد ورجعت الأنوار الكثيفة لطيفة فهي المعانية فترجع إلى تلطيف الكثيف.

على رجوع جميع الكتب المنزلة إلى القرآن، ورجوع القرآن كله من حيث معانيه إلى الفاتحة، ورجوع الفاتحة إلى الباء، ورجوع الباء إلى النقطة، وصرت أستخرج جميع مذاهب المجتهدين من أي حرف شئت من حروف الهجاء.

ثامنها: أن يعطيه الله علم حضرات الأسماء ومعرفة إسناد كل قول في الشريعة إلى اسم إلهي.

تاسعها: أن يعطيه الله تعالى علم كل علامات الساعة وأمهاها ألف علامة لا تقع كل واحدة إلا بعد سنة، ويصير يعرف الأمور المبرمة والأمور المعلقة من المنكرات فيشدد في المعلقة ويخفف في المبرمة لئلا يعارض فيما أخبر به الشارع.

عاشرها: أن يعطيه الله تعالى معرفة سائر الألسنة الخاصة بالإنس والجن فلا يخفى عليه فهم كلام أحد منهم ولو تشكل في غير صورته الأصلية.

حادي عشرها: أن يعطيه الله تعالى علم سر القدر الذي طوى علمه عن الخلائق ما عدا محمد ﷺ ومن ورثه في المقام من طريق الكشف.

ثاني عشرها: أن يعطيه الله تعالى ما ينطوي عليه كل إنسان من الخير والشر بمجرد رؤية أنفه.

ثالث عشرها: أن يعطيه الله تعالى معرفة غسالات الخطايا في الماء الذي يتطهر الناس منه، فيصير يميز بين غسالة الكبائر والصغائر والمكروهات وخلاف الأولى برؤية ذلك الماء فلا يخطيء.

رابع عشرها: أن يعطيه الله تعالى علم الطبائع ومعرفة ما يقبل الانتقال عن طبعه وما لا يقبل من سائر الحيوانات.

خامس عشرها: أن يعطيه الله تعالى معرفة العلوم التي يختص بها الإنسان، والعلوم التي يختص بها الملك، والعلوم التي تختص بها البهائم، وما يدخل مع الإنسان قبره من العلوم ويدوم معه إلى الآخرة، وما ينقطع حكمه بالموت.

سادس عشرها: معرفة ترتيب الأسماء الإلهية في الظهور وما أول اسم ظهر وما هو الذي تلاه في الظهور وهكذا، وما هو الاسم المهيمن على سائر الأسماء.

سابع عشرها: أن يعطيه الله تعالى معرفة الآداب التي تختص بالبعث والنشور والحشر إلى دخول الجنة، ومعرفة الآداب التي تكون في الجنة، وهل هي مستنبطة من آداب الشريعة أم يوحى بها الله إلى أهل الجنة، فإن الأدب مع الله لا يختص بمكان بل هو واجب على الدوام.

ثامن عشرها: أن يعطيه الله تعالى علم نسبته جميع الأمور إلى الله تعالى، وإلى الخلق ومنه يعرف مسألة خلق الأفعال التي عجزت عقول العلماء عن تحقيقها.

تاسع عشرها: أن يعطيه الله تعالى معرفة الجمع بين أقوال جميع المجتهدين وأتباعهم، ورجوعها كلها إلى عين الشريعة من غير ترجيح قول على آخر كشفاً و يقيناً لا ظناً وتخميناً.

عشرونها: أن يعطيه الله تعالى معرفة أسرار القرآن والسنة المسمى بعلم الحقيقة^(١)، ويطابق بينها وبين الشريعة^(٢) ويرأها حقيقة واحدة لها مرتبتان: عليا وسفلى.

حادي عشرينها: أن يعطيه الله تعالى معرفة جميع العلوم حتى يهلك صاحبها في عين ما يظن سعادته بها كعلوم البراهمة ونحوها.

ثاني عشرينها: أن يعطيه الله تعالى علم تطورات الأقوال والأفعال والأغراض ومعرفة ما تطورت منه تلك الصور على اختلاف أجناسها بمجرد رؤيتها.

ثالث عشرينها: أن يعطيه الله تعالى وزن الرجال ومعرفة مقام كل إنسان برؤية تدوير فمه أو بأصر عينه.

رابع عشرينها: أن يعطيه الله تعالى معرفة تفاصيل الآيات والصور وجميع الأنبياء على اختلاف طبقاتهم وما فضل به كل واحد عن بقية أجناسه.

فهذه أربعة وعشرون علماً من ثمرات الخلوة في يوم وليلة، وما زاد فبحسابه إلى أربعين يوماً. انتهى كلام سيدي علي المرصفي رحمته الله.

(١) الحقيقة: شهود الحق في تجليات المظاهر.

(٢) الشريعة تكليف الظواهر.

ومن شأن الشيخ أن لا يجلس للمشيخة وفي بلده من هو أقدم هجرة في الطريق منه إلا أن يكون هو أعلم بها منه ثم يصير يستأذنه في إرشاد المريدين لهيئة النائب عنه .

وكذلك أجمعوا على أنه لا يجوز للفقير التصدر لأخذ العهد وغيره مما يتعلق بطريق المشيخة إلا بعد أن يجلسه شيخه أو يجلس بإذن من ربه ألقاه في سره بالشروط المعروفة بين القوم، وقد أذن لي شيخي بحمد الله بالجلوس كما مرّ بيانه في المقدمة وهو الشيخ العارف بالله سيدي محمد الشناوي رحمته الله والحمد لله رب العالمين .

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمته الله : وإذا علم الشيخ أن المريد قد استقل وكملت تربيته ودخل أوان فظامه وجب عليه أن يقطع عنه الإمداد من جهته ويتركه مع ربه إن شاء أقامه الله بين العباد وإن شاء ستره بينهم، ولا حكم بعد ذلك للشيخ عليه .

قال : ويجب على المريد إذا ساوى شيخه أو جاوزه أن يلزم الأدب معه ولا يجوز له أن يسيئ معه الأدب أبداً، بل يحترمه وإن لم يكن مقتدياً به، قال : والذي نختاره دوام الاقتداء بشيخه .

فاعرض يا أخي ما في هذا الباب من الآداب على نفسك فإن رأيتها متخلقة بها فاشكر الله تعالى، فإنك قد صرت مريداً . وإن رأيت نفسك غير متخلقة بهذه الآداب فإياك أن تدعي أنك مريد فإن ذلك زور وبهتان، وليكن ذلك آخر الباب والله تعالى أعلم .

الباب الثالث

كيف يعامل المريد إخوانه

اعلم رحمك الله تعالى أن آداب الفقراء لا تنحصر لأنها مجموع ما في الكتب الإلهية والأحاديث النبوية والآثار الصحابية والآداب السلفية، ولكن تجمع آداب الفقير مع إخوانه كلهم أن لا يعاملهم إلا بما يحب أن يعاملوه به، وأن يرجو لهم من الخير والمسامحة في ذنبهم ما يرجوه لنفسه، وأن يحملهم في جميع ما يقعون فيه من مواطن الفهم على أحسن المحامل مما يحب أن يحملوه عليه لو وقع هو في ذلك، ويرجو لهم قبول التوبة ولو فعلوا من معاصي أهل الإسلام ما فعلوا، كما يرجو ذلك لنفسه إذا وقع فيما وقعوا. . فمن فعل بتفاصيل ما قلناه فقد وفى إخوانه حقوقهم إن شاء الله تعالى.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن المريد لا يقدر على التخلق بجميع آداب إخوانه لأنه مشغول بحق الله تعالى عن حقوقهم، فلا يقدر على الجمع بين حق الله تعالى وحق عباده، وإنما يؤمر ببعض أخلاق لا بد منها في طريق الخلطة والمجاورة مما هو كالواجب في طريق العشرة.

ثم إذا انتهى سيره وبلغ مبلغ الرجال فهناك يطالب بالتخلق بأخلاق الكمال كلها.

وأيضاح ذلك أن الأخلاق المحمدية لا تخلع على أحد إن دخل حضرة الله تعالى الخاصة التي يدخلها السالك عند كمال سلوكه في العادة، وتلك حضرة محرم دخولها على من بقيت فيه بقية من رعونات النفوس، بدليل عدم صحة الوضوء والصلاة لمن ترك لمعة من أعضاء الطهارة لم يصبها الماء أو التراب.

ثم إذا استقر في تلك الحضرة خلع عليه من الأخلاق المحمدية ما قسم له فيرجع متخلقا بها من غير كلفة عليه في ذلك.

وأمر أن يعطي كل ذي حق حقه على الكمال من والد وزوجة وولد وصاحب وجار ونحوهم. ولو أننا أمرناه في بدايته بذلك لما قدر على السير في الطريق

لضعفه عن الجمع بين حق الله تعالى وحق عباده كما مرَّ.

ثم وتقدير أنه كان يعمل بها فهي كالأشياخ بلا أرواح لكثرة العلل والدسائس في أعمال المرید، إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق:

من أدبه مع إخوانه أن لا ينظر لهم أبداً إلى عورة ظهرت، ولا إلى زلة سبقت، إذ هو معرض للوقوع في مثلها. ثم إذا وقع فهو يحب من جميع إخوانه أن يرحموه ويعتذروا عنه ويقولوا: إن إبليس هو الذي أوقعه بإرادة الله وإنه أوقع من هو أعظم منه نحو ذلك. فكذلك ينبغي له أن يعاملهم بإقامة العذر وعدم الازدراء^(١).

فكما كره منهم الشماتة فيه وعدم إقامة العذر له، فكذلك الحال فيهم يكرهون من يشمت بهم ويعايرهم، ولو قيل لهم اجعلوا الشامت فيكم كالمعتذر عنكم لا يسمعون ولا يقدرّون فكذلك الحكم فيه.

وقد أجمعوا على أن كل فقير اطلع على شيء من عيوب الناس ولو من طريق كشفه فهو في حضرة الشيطان لا في حضرة الله تعالى ولا حضرة ملائكته.

وقالوا: كل كشف اطلع صاحبه على شيء من عيوب الناس فهو كشف شيطاني يجب عليه التوبة منه.

وقالوا: من نظر إلى عيوب الناس وحملهم على المحامل السيئة قلّ نفعه وخرب سره وعدم الانتفاع بصحبة شيخه، فالواجب عليه أن لا يتعدى النظر إلى عورة نفسه ليسترها، وأما غيره فإذا أخبره وقدر على سترها فعل، وإن كانت تحتاج إلى علاج فليدله على الشيخ، لأن المرید ليس هو مُعدّاً لإصلاح غيره وإنما هو مشغول بإصلاح نفسه فقط ليخرج عن رعوناتها.

وفي حديث الطبراني مرفوعاً: «من تتبّع عورات الناس^(٢) تتبّع الله تعالى عورته، ومن تتبّع الله عورته فضحه ولو في جوف رحله» انتهى.

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: والله لقد أدركنا أقواماً لا عيوب لهم فتجسّسوا على عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوباً.

(١) الازدراء: الاحتقار.

(٢) تجسس عليهم.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: كل من لم يستر على إخوانه ما يراه فيهم من الهفوات^(١)، فقد فتح على نفسه باب كشف عورته بقدر ما أظهر من هفواتهم.

وسمعت سيدي أحمد الزاهد رحمته الله يقول: إذا رأيتم أحداً من إخوانكم على معصية لم يتجاهر بها فاستروه، فإن تجاهر بها بينكم فوبخوه، ولا تُفشوا ذلك لمن لم يعلم به، فإن لم ينزجر فوبخوه بين الناس مصلحة له لا تشفياً للنفس فلعله يرعوي^(٢) وينزجر، وما دام يعصي في قعر داره ويغلق بابه عليه فهو لم يتجاهر، إلا إن كان هناك أطفال يحكون ما يرون فإنهم كالرجال.

وكان الحسن البصري يقول: إذا بلغكم عن أحد زلة ولم تثبت عند حاكم فلا تعيروه بذلك، وكذبوا من أشاعها عنه إن لم يثبت ذلك عند حاكم، لا سيما إن كان هو ينكر ذلك، لأن الأصل براءة الساحة حتى تقام البيينة العادلة عند الحاكم ثم بعد ثبوت ذلك عنه فإياكم أن تعيروه أيضاً فربما عافاه الله وابتلاككم.

وكان سيدي محمد الغمري رحمته الله يقول: إذا رأيتم الفقير يتتبع عورات الفقراء في الزاوية فهو من أهل السوء، وكل شيء حملهم عليه فهو وضفه هو، ويجب على الشيخ إخراجه إن لم يتب لثلاث يتلف حال الفقراء ويخيلهم من بعضهم بعضاً، وإن لم يخرج إلا بالحكم الشرعي فاشتكوه له وأخرجوه وأقيموا عليه الوزن بالقسط^(٣) ولا تسامحوه، يخرب عليكم الزاوية عن قريب.

وكان يقول: ينبغي للنقيب أن لا يمكّن الشباب العزّاب ينامون في خلوة واحدة أبداً، لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فربما وسوس لأحد اللّوث بهم وحملهم على محامل سيئة ليسوا من أهلها، فيشغل قلوب الفقراء المتهمين والسامعين.

ولا ينبغي لأحد من فقراء الزاوية وغيرهم أن يعترض على النقيب في منع العزّاب من ذلك فيرجع اللّوث عليه بسبب ذلك، لأن تفرقة أطفال المجاورين الذين يقرؤون القرآن هي من وظيفة النقيب لأنه لسان حال الشيخ. فإذا أعطى

(١) الهفوات: السقطات والزلات.

(٢) يرعوي: يكف ويتردد.

(٣) القسط: العدل.

طفلاً لفقيه يقره ويريه فليس لأحد الاعتراض عليه، بل الواجب على كل أحد أن يفر من مواطن التُّهم.

فقد قال السيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من سلك مسالك التهم فلا يلومنَّ من أساء به الظن.

قالوا: وما للشيطان سلاح في خراب الزاوية وإهلاك دين أهلها أعظم من تحريشه^(١) بينهم ووسوسته لهم بمخالفة أغراض بعضهم بعضاً، فيزين لكل واحد أنه قائم بالحق ومن يعارضه على الباطل فلا يكاد كل من الفريقين يرجع عما أراده.

وكان سيدي محمد الغامري وكذلك سيدي مدين رحمهما الله إذا جاء زاوية أحدهما أمرد جيد الوجه لا يقبله، ويقول: إن حكم من يمكِّن الأمرد الذي تميل إليه النفوس العفوية من الإقامة في زاويته حكم من يجعل على سطح داره قطع لحم ويطلب من الحَدَّادي^(٢) أن لا تنزل عليها انتهى.

فليتنبه الفقراء المقيمون في الزاوية لمثل هذه الدسائس ولا يعترضوا على الشيخ ولا على النقيب إذا أخرج أحداً من المُرْد ومنعهم المجاورة، فإن ذلك من عين الصواب والله أعلم.

ومن شأنه: أن ينفق على نفسه وعلى إخوانه كلما فتح الله تعالى به عليه من الحلال أولاً فأولاً، ولو كانت فجلة أو خيارة، ولا يعود نفسه الاختصاص بشيء عن إخوانه مطلقاً. فإن من أثر نفسه على إخوانه في الشهوات لم يفلح أبداً، وما صار الناس رؤساء في الطريق إلا لكرمهم وإيثارهم وسلامة صدورهم من الحقد والحسد والضغائن.

وقد أجمع الأشياخ على أن المريد متى أخر نصفاً واحداً على اسم حوائجه المستقبلية مع حاجة أحد من إخوانه إلى ذلك خرج عن طريق الفقراء بالإجماع. قال المحققون: وكلامنا في الحلال، أما ما فيه شبهة فلا يمسه بحال.

وكان الشيخ أبو القاسم الجنيد يقول: ليس لفقيه أن يمسه من الدنيا شيئاً إلا أن ينوي إنفاقه على الحج مثلاً فيؤخر لأجله لكن بإشارة شيخه. وقالوا:

(١) التحريش: الإغراء والفساد.

(٢) الحَدَّادي: جمع حِدَاة طائر من الجوارح ينقض على الجرذان والدواجن والأطعمة ونحوها.

الفقير ابن وقته لا نظر له إلى ماضٍ ولا مستقبل، والواجب عليه العمل على تنظيف باطنه من سائر ما يكرهه الله تعالى، وهو كل شيء تميل إليه النفوس من الشهوات التي نهى الله تعالى أصفياه عنها.

وهذا شأنه ما دام سالكاً في الطريق، فإذا كمل حاله وبلغ مبلغ الرجال فهناك يعرف ما يأتي وما يذر^(١)، فإن ترك الدنيا كان ذلك بحق وإن أخذها كان ذلك بحق، لأنه خرج عن شبح الطبيعة وصارت الدنيا في يده لا في قلبه فيتصرف فيها تصرف حكيم عليم غير بخيل على أحد بها، إلا إن منعه الشرع من إعطائه كأن كان ذلك يشغله عن الله أو يفعل به معصية. ثم إذا خرجت الدنيا من قلبه فله تقديم نفسه وإيثارها على غيره إذا كان أحوج عملاً بالعدل في ذلك، فإن نفسه أقرب المحتاجين إليه.

وقد أجمعوا على أن المريد متى ترخص في ادّخار الدنيا من دراهم أو طعام أو ثياب تربى في باطنه البخل والشح والحرص ضرورة، فيحتاج بعد ذلك إلى علاج شديد، وهيهات أن يزول بعد ذلك. ومن شك فليجرب، ولم يتخذ الله تعالى قط ولياً بخيلاً. وإن كان الولي يمنع في بعض الأوقات لحكمة، فلا يخرج ذلك عن الكرم لأنه في ذلك متخلق بأخلاق الله تعالى، فإن من أسمائه المانع، أي لحكمة لا بخل، تعالى الله عن ذلك.

وقد كنت في صغري أرمي كل شيء يأتي من الدنيا هواناً بها مع أنني كنت محتاجاً إلى درهم منها، وإنما كنت أفعل ذلك لأتعود الكرم وهواناً بالدنيا في عيون المحبين لها ومجاهدة لنفسي، فرأيت أنني خرجت عن محبتها بالكلية فنمت فرأيت القيامة قد قامت ونصب الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف كما ورد، وهو منصوب إلى جهة العلو كالحبل المتدلي من سقف، وأكثر الناس يصعدون عليه فيزلقون ويقعون في النار. فأردت صعوده فلم أقدر فقال لي: افتح كفك اليسار ففتحته فأخرج من بين أصابعي شيء مقدار السفاية^(٢) فقال: هذا الذي منعك، فأردت الصعود فاستيقظت قبل الصعود. فكان ذلك من الله تعالى تنبيهاً على عدم حبس الدنيا فالحمد لله رب العالمين.

(١) يذر: يترك.

(٢) السفاية: ما دق من التراب.

ومن شأنه: أن يكون عنده شفقة على دين إخوانه أكثر من شفقته عليهم في أمر دنياهم، فينبههم في أوقات المراسم وتفرقة المواهب الإلهية كالأسحار والأوقات الفاضلة، ويكون ذلك بسياسة ولين لفظ وسيادة، لا بغلظة واحتقار، فربما تحركت نفوسهم فلا يسمعون له.

وكذلك ينبههم قبل الوقت ليدخل وقت الصلاة وهم على أهبة^(١) فلا يخافون فوت الإحرام مع الإمام أو فوت السنة الراتبية قبل الفريضة، كما عليه طائفة المتوسوسين ويقولون: الوقت متسعاً، وكثيراً ما يفوت أحدهم صلاة الجماعة كلها.

وكان بعض السلف إذا فاتته صلاة جماعة يعيدها وحده سبعاً وعشرين مرة مجاهدة لنفسه وإن كان جمهور العلماء على المنع من ذلك. ومن السلف الإمام المزنّي صاحب الإمام الشافعي كان يعيدها خمساً وعشرين مرة إذا فاتته الجماعة.

وقد رأيت مرة شخصاً من طلبة العلم بالجامع الأزهر جالساً يطالع في علم المنطق وصلاة الجماعة في العصر قائمة، فقلت: ألا تصلي؟ فقال: الوقت متسع، فقلت له: صحيح ولكن هل تقدر تجمع لك في صلاتك مثل هذه الجماعة؟ فقال: لا؟ فقلت له: فقم فصل ولا تغش نفسك.

وينبغي لمن بات قائماً يصلي من أول الليل إلى آخره أن لا يرى نفسه على أحد من إخوانه الذين ينبههم وقت السحر، بل يرى نومهم أخلص من عبادته هو فإن القلم مرفوع عن النائم دون القائم، فربما كتب القلم فلان قام طول ليله رياء وسمعة، وكان يجد في قلبه حلاوة إذا اطلع عليه الناس في ظلمات الليالي وهو قائم بين يدي الله ﷻ لا يستحي من مراعاة عبيده بين يديه، ومثل هذا الإثم أقرب.

فعلم أن كل من قام ورأى نفسه أفضل من النائمين على غير وجه الشكر لله تعالى استحق اللعن والطرْد، فإن ذلك هو ذنب إبليس الذي طرد به من حضرة الله ﷻ، فافهم.

وأجمع الأشياخ كلهم على أنه يجب على العبد أن يرى نفسه دون كل جليس

(١) الأهبة: العُدّة والاستعداد.

من المسلمين، ومن لم يرَ نفسه كذلك كان من المتكبرين، والمتكبرون في جهنم. فإن رأى نفسه خيراً من جميع أقرانه كان في النار تحت الكل، وإن أُدخل الجنة كان في الجنة تحت الكل، عكس من رأى نفسه دونهم.

وكان سيدي عبد العزيز الديريني رحمته الله يقول: من أراد أن يصير الوجود كله يمدّه بالخير فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم في الدرجة لأن المدد الذي مع الخلق كالماء، والماء لا يجري إلا في المواضع المنخفضة دون العلية أو المساوية. فمن رأى نفسه مساوية لجليسه فمدده واقف لا يجري إليه، أو أعلى منه فلا يصعد إليه ذرة من مدده، وقد أوضحنا ذلك أول كتاب العهود فراجع.

ومن وصية سيدي أحمد بن الرفاعي وهو محتضر^(١): من تمشيخ عليكم فأتلمذوا له فإن مد لكم يده لتقبّلوها فقبلوا رجله، وكونوا آخر شعرة في الذنب فإن الضربة أول ما تقع بالرأس انتهى.

فلولا أن هذه الخصلة جامعة لكل خير ما ختم سيدنا أحمد تربيته لأصحابه بها.

وقال يعقوب الخادم يوماً: يا سيدي أوصني، فقال: كن خادماً لإخوانك، مؤثراً لهم على نفسك، محتملاً أذاهم بعد ذلك، واحذر أن ترى نفسك أعلى منهم فتقع في حفرة ثم لا يساعدك منهم أحد.

ثم قال: أي يعقوب أنظر إلى نخلة البلح لما قامت بصدرها وتعالّت على جيرانها كيف جعل ثقل حملها عليها، ولو حملت ما حملت لا يساعدها أحد، وانظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت خدها على الأرض ولو حملت مهما حملت لا تحسّ بثقله تذكرة لأولي الأبصار.

وكان كثيراً ما يقول: من لم يكن له خدّ يداس لم يصِرْ له كفّ يُباس. لكن هنا نكتة ينبغي التفطن لها وهو محل تلمذتنا لمن تمشيخ علينا ما لم يورثه ذلك عجباً وكبراً، فإن علمنا ذلك ولو بالقرائن امتنعنا من تعظيمه وتقديره رجلاً رحمة به لا كبراً عليه، والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن لا يزاحم على إمامه في الزاوية أو غيرها لما في ذلك من

(١) المحتضر: من حضره الموت فهو يوشك أن يفارق الحياة.

تحمل بسهو المأمومين مع ضعف حاله، بل هيهات أن يقدر على تحمل سهو نفسه وغفلته عن ربه.

وأيضاً فربما جرّه ذلك إلى استحكام محبة الرئاسة فلا يفلح على يد شيخ بعد ذلك، وعلامة محبته للرئاسة تكذّره إذا انعزل منها، وعلامة إخلاصه أنه يشرح إذا عُرِّل.

وقد بلغنا أن الشيخ جلال الدين السيوطي رحمته الله كان يصلي العصر في المدرسة البيرونية وحده لعذر، فجاء إنسان وصلى خلفه فلما سلم قال له: يا أخي، لا تعد تصلي خلفي، فإني عاجز عن تحمل نقص صلاة نفسي، فكيف أقدر على تحمل نقص صلاتك؟ وهذا من قاعدة: السلامة مقدمة على الغنيمة، ولكل رجال مشهد، فإياك والاعتراض عليه فإن كان رجلاً أعلم منك بيقين، بل كان مجتهداً مطلقاً ومنتسباً لأبي يوسف والمزني وابن القاسم كما رأيت ذلك بخطه رحمته الله، فإن المجتهد المطلق على قسمين منتسب وغير منتسب، فالمنتسب هو من بلغ حد الترجيح في أقوال مذهب إمامه ولم يخرج عن قواعده، وغير المنتسب هو من أنشأ مستقلاً لم يسبقه إليه أحد والله أعلم.

ومن آداب الفقير أن لا يكون مقدماً لإخوانه في سوء الأدب مع الشيخ أبداً.. كأن يخرج من تحت يد شيخه وتربيته بغير إذنه ويطلب الدنيا بالوظائف والحرف ويصير يوسع على نفسه ويأكل الشهوات ويمنع إخوانه من ذلك، حتى لو قال له الشيخ أنفق على إخوانك نصفاً واحداً لا يجيب.

وفي ذلك إساءة أدب مع الشيخ ومع إخوانه، لأن جميع من في الزاوية يصير يحتجُ بفعله ويقول: إن الشيخ كان رجلاً يقول لفلان أخرج عما بيدك، وبذلك يتلف ضعف المريدين. ثم من أقبح ما يقع فيه الفقير استهائته بغضب شيخه عليه لأنه عنوان على غضب الحق جل وعلا عليه، ومن استهان بذلك لعنه الله تعالى.

ومن علامة استحكام المقت فيها أن يصير يُدعى إلى مكان عليه من الأدب مع الشيخ، قيل: إن تبدل وتغير فلا يجيب ويثقل عليه حضور مجالس الذكر والأوراد ويجعل بدلها نوماً أو كلام لغو على باب المسجد وغير ذلك، ويحصل له قبض لما يقال له: اسهر الليلة مع شيخك أو وحدك، ولا يكاد يخفُّ عليه شيء من ذلك، وربما دعاه شخص من أبناء الدنيا إلى السهر معه في طبخ طعام

عرس ونحوه فيسهر معه طول الليل ولا يجد في نفسه ثقلًا من ذلك، وإن كلمه إنسان في ذلك يقيم لنفسه الحجج الواهية^(١).

ومثل هذا لا ينبغي للشيخ أن يقيم عليه ميزاناً بل يجعله كالأجنب ولا يقول في نفسه: إن هذا كان مريداً لي فلا أتركه من المناقشة، فربما فجر على الشيخ وصار يقطع في عرضه في المجالس، كما وقع ذلك لبعضهم، فلينبه الشيخ لزمانه ويلحق بالاحق اللاحق، فإنه في النصف الثاني من القرن العاشر صاحب العجائب والغرائب.

وليكن على علم سيدي الشيخ أنه ما خالف مريد شيخه وخرج من تحت تربيته إلا استحوذ عليه الشيطان وصار يركبه كما يركب الحمار ويصير هو الناطق فيه عنه، وربما كان الشيخ يجهل مثل ذلك فيصير يتعجب من قلة حياته وقبح عبارته، ويعتقد أن ذلك من كلام مريده، والحال أنه من كلام إبليس.

وقد وقع لي أن مريداً خرج من تحت تربيتي فغضب من نصحي مرة فكشفت رأسي وغالطته واستغفرت في حقه كما أفعل مع الأجانب الذين ليس بيني وبينهم صحبة، ورأيت ذلك أهون من مقاطعته وأقل إثماً له وللاخوان فإنهم ربما استغابوه ووقعوا في عرضه لئلا يخرج من طريقتهم وغير وبدل.

ثم الذي ينبغي للشيخ مسارقة مثل هذا بالنصح من طريقة بعيدة ومدحه في بعض الأوقات وقوله: إنك قد وحشتنا كثيراً ويأمر إخوانه بذلك، فربما خمدت ناره وحنَّ إلى إخوانه. ومن ترك مثل هذه السياسة كان كمن غضب في البرية على غنمه حين شردت عنه وروَّح إلى البلد وتركها للذئب يفترسها والله أعلم.

ومن شأنه: أن يكون سدهاء ولحمته مسامحته لإخوانه في كل شيء أدَّوه به من قول أو فعل أو سوء ظن، لا سيما إخوانه المقيمين في الزاوية من البطالين، فإن إبليس ما له شغل إلا اشتغال مثل هؤلاء ببعضهم بعضاً، إذ ليس معهم نور يحرق إبليس، ولم تزل الأشياخ تبتلى بإقامة جماعة من المخايل^(٢) عندهم فيصبر الشيخ عليهم ويحذر إخوانهم من سلوك طريقهم لئلا يُتلفونهم بمشاهدة أحوالهم الناقصة.

(١) الواهية: الضعيفة.

(٢) المخبول: من فسد عقله وذهب فؤاده.

وقد كان سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: يجب على المريد البطال أن يفرح بتحذير شيخه الناس بمجالسته لئلا يلحقه إثم من تبعه في الكسل، ومتى تكرر مثل ذلك فقد نقض عهد شيخه.

وكان سيدي أحمد الزاهد يقول: ما صبر مريد على الكلام في عرضه واشتغل بالله ورضي بعلمه تعالى إلا جعله الله تعالى إماماً يقتدى به عن قرب، وما تعلق مريد من كلام قيل فيه إلا صار وراء الناس.

وكان سيدي محمد الغمري رحمته الله يقول: من أراد أن يكون إماماً يقتدى به فليخلص النية في خدمة إخوانه، ويصبر على جفائهم له وكلامهم في عرضه، وحملهم له على المحامل السيئة في خدمته لهم وجميع أحواله.

وكان الإمام الحسن يقول: من أدب المريد أن يخدم إخوانه ثم يعتذر إليهم بأنه ما قام بواجب حقهم ثم يُقر بالخيانة لهم على نفسه تطبيقاً لقلوبهم، ولو علم أنه بريء الساحة ما لم يترتب على ذلك حدّ وتعزير^(١)، وإلا دخل فيمن ظلم نفسه، وذلك حرام كما تقدم تقريره في الباب قبله.

وقد كان الإمام أبو بكر بن فورك رحمته الله يقول: ما سُمّي السندان بذلك إلا لصبره على دقّه بالمطارق والله أعلم.

ومن شأنه: أن يعامل إخوانه بالكرم والإيثار بحقوقه، فلا يكون له التفات إلى الدنيا ولا إلى مطالبة ناظر ولا جابٍ بمعلوم وظيفته إلا إذا كان مضطراً، وإن وقع أنه طالب الجابي أو الناظر بعنف اعتذر إلى إخوانه وقال: اعذروني فإني كنت مضطراً فلا أحد يتبعني في ذلك إلا أن يكون مثلي، خوفاً أن يتشبهوا به ويحتجوا بفعله فيصير عليه التبعة^(٢) في ذلك..

وكان الإمام القشيري رحمته الله يقول: ظلمة الركون^(٣) إلى المعلوم تطفئ نور الوقت، فليحذر الفقير من دعواه عدم الركون أو أن مثل ذلك لا يضره، وليرجع إلى قول شيخه في ذلك فإن نهاه عن الركون إلى المعلوم وعدم المطالبة به

(١) التعزير: عقوبة فيما دون الحد الشرعي.

(٢) التبعة: المسؤولية.

(٣) الركون: الميل والسكون إلى الشيء.

فليسمع منه فإنه أمير عليه وعلى ما يرقّيه والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يصدق في إخوانه تماماً وإن نُقل إليه أن إخوانك يكرهونك وقال: رأيتهم كلهم البارحة متحلّقين يجرحونك ويذكرون نقائصك ونفسك الخبيثة، فليقل له: يا فلان أنا من محبة إخواني وودهم على يقين ومن كلامك على ظن ولا أترك يقيناً. فبذلك يتحرى النّمام ولا يعود ينقل إليك شيئاً.

وإن قلت له: أنا لا أصدقك حتى أجمع بينك وبينهم وأنظر هل يصدقونك فيما قلت عنهم أو يكذبونك، فإنه لا يعود يأتي إليك بالنميمة عنهم أبداً كما جربنا ذلك.

وما لإبليس سلاح يفسد به حال المريدين المقبلين على الله تعالى من أن يشغلهم ببعضهم بعضاً، لعلهم بأن عبدهم الرياء وطلب المقام عند الخلق، وأنهم يقابلون كل من سعى في هدم مقامهم، ولو علم إبليس أنهم أخلصوا لله تعالى كان أشغلهم بأمر آخر غير هذا، فليكن الفقراء على حذر منه مثل ذلك والله أعلم.

ومن شأنه: أن يقوم بخدمة إخوانه ويكون مقدماً لهم في الخدمة، فلا يرمي بنفسه إلى الكسل والخمول، ويمتنع من مساعدة الفقراء في قضاء حوائج الزاوية، ويحتج بالذكر أو القرآن، بل ينظر أولاً في تحصيل أمور المعاش التي يورث قلبه الالتفات إليها، ثم بعد ذلك يذكر ويقرأ.

وليتأمل من لا يخدم الفقراء لو أنهم كلهم قالوا: شيء لا يلزمنا القيام به، كيف يصير كل واحد منهم يجري على اللقمة ويقدمها على سائر مهماته في الدين، فمن لم يخدم فلا أقل من شكر من يخدمه والاعتراف بفضله، فليسمع المريد للشيخ أو النقيب إذا قال له أنقل الحطب، أو احمل قفّة القمح إلى الطاحون، أو إيت بها، أو احمل طبق الخبز إلى الفرن، أو اجمع الوقيد للفرن، ونحو ذلك، فإنه لا بد لأهل الزاوية ممن يقوم لهم بذلك، إما بأنفسهم وإما بغيرهم.

فاعلم أنه ينبغي للشيخ إخراج كل من أبى الخدمة لأنه يتلف بقيّة الجماعة ويفتح عليهم باب تعسير الوصول إلى أرزاقهم، فإن الله تعالى ليسهل على العبد طريق رزقه بحسب ما العبد عليه من خدمة الله تعالى وخدمة عباده.

ولا ينبغي لمن له مروءة من المجاورين أن يكون عَيْلَةً^(١) على غيره، أو يعيش في جماعة العجائز والأرامل والعميان الذين في الزاوية. وقد كسل عندي جماعة عن الخدمة لأنفسهم وإخوانهم فعسر الله تعالى عليهم أسباب أرزاقهم. وكذلك وقع جماعة من فقراء الزوايا فذهب من وقْفهم نحو الثلث للظلمة، ففتشناهم فوجدنا ثلثهم ترك الاشتغال بالعلم والقرآن وصاروا طول نهارهم جالسين على حوانيت^(٢) التجار والسوق أو جالسين في الزاوية لا دنيا يحصلونها ولا آخرة.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمته يقول: إن الله تعالى ييسر الرزق لمن خدمه خالصاً مخلصاً وخدم إخوانه. كذلك وسمعتة يقول أيضاً: لا يسهل الله تعالى على أحد رزقه ويوسع عليه أبداً ما عاش إلا إذا كان يتعطف على إخوانه بكل ما زاد عن حاجته.

وكذلك القوم لا ييسر الله تعالى عليهم أرزاقهم ويسعها عليهم إلا إذا تعاطف بعضهم على بعض بكل شيء زاد عن حاجتهم، وبالجمله فمن كان قائماً في مصالح الخلق كان الوجود كله يُمدّه ويساعده، ومن اشتغل بمصالح نفسه فقط دون إخوانه تخلف الوجود عن مساعدته وربما صار يقاسي في تحصيل رزقه ووجده أشد التعب، ومن شك فليجرب.

كما أن الشيخ إذا خصص نفسه عن الفقراء ولم يؤثرهم على نفسه بشيء، أو لم يشركهم فيما بيده من الطعام وغيره، يتوقف عليه رزقه، كذلك والمريد الصادق ينظر في صفات شيخه التي هو عليها إن طلب أن يكون مثله في سعة الرزق أو غيره.

وقد حوّل الله تعالى عن جماعة من الفقراء الرزق لما شحوا على الفقراء بما يدخل في يدهم وتخصصوا به وصاروا يسألون الناس بالحال والقال، وكان لسان حال جناب الحق تعالى يقول لملائكته: أنظروا في حال عبادي فكل من رأيتموه يؤثر الناس على نفسه بطعامه وثيابه وجميع ما يدخل يده فزيده في الرزق، وكل من رأيتموه يصطاد على اسم الفقراء ثم يتخصص به فحوّلوا عنه الرزق.

(١) عَيْلَة: بحاجة إلى من يكفله ويُعيّله.

(٢) الحوانيت: المحلات التجارية.

فلينتبه المريد لمثل ذلك ويؤثر إخوانه على نفسه بالخدمة لهم وإدخال الراحة على نفوسهم وأبدانهم، وليسمع للشيخ فإن مقصود الشيخ أن تصير جماعته كلهم مثله لكل واحد زاوية وفقراء وسماط والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن لا يكون مقدماً لإخوانه في التكاسل عن حضور مجالس الذكر بالكلية، أو عن الحضور في أول المجلس، أو عن حضور صلاة الجماعة أو مجلس العلم أو الأدب، فمن كان مقدماً لإخوانه في ذلك أساء الأدب معهم وكان عليه وزر كل من تبعه. وفي الحديث: «لا يزال قوم يتأخرون - يعني عن صلاة الجماعة - حتى يؤخرهم الله في النار». ومذهب الإمام أحمد رحمته الله أن صلاة الجماعة فرض في الصلوات الخمس، ولو أنه صلى وحده عصي الله تعالى.

ثم إن الذي ينبغي لكل من تخلف عن مجلس خير أن يهت^(١) نفسه ويوبخها بحضرة إخوانه ويقول لهم: احذروا أن تتبعوني في ذلك فإني أخطأت في تخلفي عن ذلك الخير.

وقد سبق إلى مثل ذلك سفيان الثوري رحمته الله فكان يتهم نفسه ويقول لأصحابه: احذروا أن تقتدوا بأفعالي فإني رجل قد خلطت في ديني.

وينبغي له إذا تخلف عن أول المجلس وجاء في أثنائه ولو في الدعاء بعد الفراغ أن يحضر ولا يستحي أبداً، كالحكم فيمن أتى الجماعة وهم في التشهد الآخر يستحب له الإحرام ليحصل له جزء من فضل الجماعة أو أجزاء صغار.

ولا ينبغي لفقيه تخلف عن خير أن يقيم الحجج على إخوانه إذا لاموه على ذلك فإنه مجادلة عن النفس بالباطل، بل الذي ينبغي له المبادرة إلى الاستغفار وقوله: جزاكم الله تعالى عني خيراً، وهذا دليل على شدة محبتكم لي وأنكم أشفق على ديني مني، وذلك ليعودوا عليه بالنصح ثاني مرة، بخلاف من يجادل عن نفسه ويقول لهم: أعرف أنكم تكرهونني من قبل اليوم، فإنهم لا يعودون إلى نصحه خوفاً من شدة غضبه والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن لا يكون مقدماً لإخوانه في الخروج من مجلس الذكر قبل الفراغ منه، لا سيما إذا احتبك المجلس في شدة الذكر فإن ذلك يضعف قلوب

(١) يهت: يطعن.

الذاكرين، وليستعد للمجلس بقلّة الأكل والشرب حتى لا يحتاج إلى تجديد طهارة عن الحدث من حين يجلس إلى حين يفرغ، لا سيما مجلس الذكر من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، فقد ورد: «من صلى الجمعة وجلس لذكر الله تعالى إلى العصر كان له كتاباً في عليين» وفي الحديث: «المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً».

ومن شأن ضعفاء المريدين أنهم يستهينون بالعبادة إذا لم يكثروا الفاعلون لها ويشد عزمهم لها إذا كثروا العاملون لها، فلا ينبغي لعاقل أن يكون سبباً لضعف همة إخوانه عن الخير.

وقد عدت مرة لبعض المجاورين نزول الميضة^(١) والخروج لباب الزاوية عشر مرات من صلاة الجمعة إلى العصر فنزلت وراءه الميضة فرأيت يدير الأخلية واحداً واحداً يتأمل فيها ويقف ساعة ثم يطلع الزاوية، فعرفت أن ذلك ترويحاً لنفسه من حضرة الذكر، ولو أنه كان صادقاً لم يفارق المجلس لينظر مواضع القدر التي هي مجلس للشياطين، فالعاقل من تنبه لنفسه وأكرمها على الخير حتى تصير تحب الخير ولا تمل منه إلا في النادر.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: إياكم أن تخرجوا من حلقة الذكر إذا احتبك^(٢) المجلس آخر الذكر، لأن ذلك يضعف همة الضعفاء. ولعل ذلك هو المعنى الذي حرم لأجله الانصراف من صف القتال إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً^(٣) إلى فئة أخرى يقاتل معهم، والذاكر مقاتل في سبيل الله للشيطان بيقين، فليس له الانصراف أدباً من ناحية المجلس إلى أخرى إلا متحرفاً لقتال مكان أو متحيزاً إلى من فيه، يذكرون الله تعالى بقلوب ضعيفة فيقوي قلبهم على الذكر ويتردد عنهم إبليس بذكره، فإنه إذا رأى قلب الذاكر غافلاً افترسه وركب على قلبه فيستأصله ويهلكه. فإذا جاءه من يذكر بهمة وعزم استخلصه من يد الشيطان كما يُستخلص المقاتل الأسير من يد العدو. وقد أباح الله للمقاتل أن يقف في أي مكان كان من صف القتال وما حرم عليه إلا الانصراف والله أعلم.

(١) الميضة: المكان الذي يتوضأ به.

(٢) احتبك: اشتد وقوي.

(٣) تحيز: مال وانضم.

ومن شأنه: أن لا ينصرف من مجلس الذكر الذي يكون مع الشيخ ولو لحاجة ضرورية إلا بعد استئذانه الشيخ صريحاً أو بالإشارة، لا سيما مفارقة من علت رتبته من أصحاب الشيخ فإنه يتعين عليه المشاورة جزماً لئلا يقتدي به غيره فتضعف حلقة الذكر، لأن المجالس إنما جعلت ليقوي بعض الناس بعضاً، فإذا كسل واحد كان جاره نشيطاً، وكلما عظم الفقراء أمر مجلس الذكر واعتنوا به كلما علت همة الفقراء، وكلما استهانوا بحضوره كلما انحطت همة غيرهم، لا سيما الأكابر من جماعة الشيخ، فإن أحدهم إذا انصرف من المجلس قبل فراغه كان كأمير العسكر إذا خرج من القتال مكسوراً فإن غالب الجيش يتبعه.

فليحرص أكابر المجلس على أن أحدهم لا يقوم من المجلس حتى يفرغ لئلا يقتدي به الناس، فإن إبليس لا يفارق هذه المجالس أبداً، فربما رأى الفقير مقبلاً على الله في ذكره وهو في جمعته معه فيقول له: قم فانظر السوق من على باب الزاوية أو اذهب إلى بيتك فانظر ماذا يصنعون وارجع، ومقصود إبليس بذلك أن يخرج من تلك الجمعية والحضور مع الله تعالى ويُنقص أجره.

فإذا وسوس بذلك لفقير فينبغي له أن يرد كيده في نحره ويقول: اخساً^(١) لعنك الله أتريد أن تخرجني من حضرة الله تعالى إلى حضرتك؟ فإن لم يرتد عنه خاطر إبليس فليعرض ذلك على الشيخ ويستأذنه في ذلك فإن أذن له في الخروج فذلك وإلا لزمه مخالفة إبليس، فإن الله تعالى جعل الأنبياء ونوَّابهم من الدعاة إلى الله تعالى أمناء على الأمة في كل ما يرفقي درجاتهم، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾^(٢). ومجالسة الأشياخ في الذكر وقراءة القرآن والعلم أمر جامع بيقين.

فلا ينبغي لأحد أن يفارقهم حتى يستأذنه، ثم إذا استأذنوا الشيخ في المفارقة لحاجة لم ينبغ لهم أن يقوموا دفعة واحدة فيضعفوا قلب الباقيين بل يقومون متراسلين واحداً بعد واحد مثلاً.

ثم إذا فرغ أهل المجلس من الذكر وأرادوا الجلوس فليرجعوا إلى أماكنهم التي كانوا جالسين فيها قبل الزحف إلى قلب الحلقة، ولا ينبغي لهم بعد الذكر

(١) إخساً: أدلك الله.

(٢) سورة النور، الآية: ٦٢.

أن يجلسوا في جانب الحلقة ويتركوا الجانب الآخر خالياً فيدخل لهم الشيطان من ذلك الموضع، كما ورد ذلك في صفوف الصلاة فإن الشارع أمرهم أن يتراصوا في الصفوف لئلا يدخل الشيطان بينهم فيوسوس لأحدهم في صلاته بما ليس له به حاجة. ومعلوم أن مجالس الذكر إنما هي محاربة للشيطان، وكلما بُعد العدو كان أقوى لنا من التحامه بنا.

قال الأشياخ: ولا ينبغي للمنشد أن ينشد بعد فراغ الذكر إلا بعد استقرار نفوس الذاكرين وفروغهم من وارد الذكر، فلا ينبغي الإنشاد على أثر الذكر لأن ذلك يفرق قلوب الجماعة.

وكذلك لا ينبغي للمنشد أن يتخذ الإنشاد عادة سواء احتاجوا إليه في التنشيط أم لم يحتاجوا إليه بل يجعل الإنشاد خاصاً بكل وقت رأى همتهم فاترة عند الذكر، وهذا من باب قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾^(١). وما دامت الهمة قوية فلا ينبغي له الإنشاد لأن قلوبهم مجموعة على حضرة الله تعالى وإلقاء بالهم لمعاني ما ينشده المنشد يفرقهم عن الله تعالى.

وكان سيدي مدين لا يدع المنشد ينشد إلا بعد سكتة، فيسكت الجماعة حتى يرى منهم الملل ساعة ثم يأمر المنشد فينشد، فإذا اجتمعت حواسهم ذكر بهم، فلا يزال كذلك حتى يفرغ المجلس، وربما رأى همة الفقراء قوية فيمنع المنشد من الإنشاد جملة.

ومن هنا قالوا: ينبغي أن يكون المنشد هو الشيخ لأنه أعرف بجمعية قلوبهم وبتشيتها، فإن لم يتيسر فرجل صالح له إمام بمصطلح الفقراء ما سيأتي بسطه عند مبحث السماع في الخاتمة إن شاء الله تعالى.

ثم إذا دعوا وانصرفوا من مجلس الذكر فلا ينبغي لأحدهم أن يتحدث مع أخيه بكلام مطلقاً إلا لضرورة شرعية، لأن الكلام اللغو بعد مجلس الذكر يطفئ نور الحاصل بالذكر. فلينصرف الفقراء كلهم ساكتين مطرقتين إلى خلاويهم أو أمكنتهم التي يجلسون فيها ويشرعون فيما أقامهم شيخهم فيه بإذن الله تعالى من قراءة أو ذكر أو اشتغال بعلم وقضاء حاجة ونحو ذلك.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

قال الأشياخ: وإنما أوجبوا على المريد مواصلة الأذكار بعضها بعضاً لتتراكم أنوارها على القلب وترحل عنه الظلمات الحاصلة بارتكاب الحرام والشبهات في القول والفعل. وقالوا: من لغا في مجلس فكأنه لم يذكر شيئاً، وربما كان لغوه ساعة يرجح في الظلمة على نور ذلك المجلس كله، فينبغي للشيخ أو النقيب أن ينبه الفقراء على مثل ذلك ويقول لهم: يا فقراء قوموا مأجورين إلى أوردكم ولا تخلطوا نور الذكر بظلمات اللغو حتى أن ذلك يصير عادة الفقراء ولا يحتاجون إلى تنبيه والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه ويقرب عليهم طريق الوصول إلى مراتب الكمال كما يحب ذلك لنفسه وذلك بالاستغفال بالذكر على الدوام، فإن الله تعالى قد جعل لكل مريد مناهل وعقبات لا يصل إلى مقام الكمال إلا بقطعها كلها، فإن شاء قطعها في جمعة، وإن شاء في شهر، وإن شاء في سنة، وإن شاء في عدة سنين على قدر عزمه وهمته. ثم إنه بعد الوصول يتنعم بأقدار الحق تعالى الجارية عليه بقية عمره، فأطول الناس نعيماً مَنْ قطعها في جمعة وبعده من قطعها في شهر وبعده من قطعها في سنة وهكذا.

وأنشد سيدي الشيخ أبو النجا اللغوي المتأخر رحمته الله في قطع هذه الحجب من موشح:

أجل مرأتك ترى الحق اليقين
تنظر ما فاتك على طول السنين
تحمل للدبوس وللمسكين تدوس
وافعل لا تفعل تحير فيها العقول
أينو قال: محبوس في قفصوا يدوس
واخرج عن ذاتك لتفرح بآخرين
يا عبد الحندوس^(١) لفقدوا عبوس
دخان المشعل ودقات الطبول
ما أسرع ما يعزل ومن بعد الوصول
إياك الناموس يطلع كالقادوس

مَمْلَا وانندق روس

إلى آخر ما قال والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن يراعي مواطن غفلة إخوانه عن الذكر في الزاوية، فيذكر الله تعالى وحده في وقت غفلتهم لتتزل الرحمة على إخوانه فيحسن إليهم بذلك

(١) الحندوس: الظلمة.

ويكتب له أجر عظيم، ويشهد له يوم القيامة بذكر الله كل من سمع صوته من ناطق وصامت ولا يشهدون له إلا ويقبل شهادتهم. وربما قام ذكر الواحد في وقت غفلة إخوانه في الأجر والثواب بعدد من غفل منهم، والله تعالى يحب من عباده من يحب ذكره ويراه قوتاً^(١) وشفاء له من كل داء. وأخبرني سيدي محمد السروري رحمته الله أن جماعة تراهنوا على أنهم يجدون زاوية سيدي محمد الغمري في المحلة الكبرى ساكنة عن الذكر في ليل أو نهار فلم يجدوها فكانت كالكعبة بالنسبة للطائفتين، فهكذا كانت جماعته.

وأخبرني الشيخ شمس الدين الطنيسي أحد أصحاب سيدي الشيخ أبي العباس الغمري أن ولد المجاور أو عمه كان يأتي إلى الزاوية فلا يتجرأ أحد منهم أن يسلم عليه حتى يشار النقيب، وكان أحدهم إذا كلمه أخوه كلمة سب أو تنقيص لا يرد عليه بل يحفظها - إن لم يصفح عنه - إلى يوم المناقشة الذي كان لهم، وكان الشيخ يغلق عليهم باب المكان الذي يجلسون فيه ويأخذ مفتاحه تحت ركبته حتى لا يدخل عليهم غريب ثم يتحاكمون بين يدي الشيخ فيأخذ للمظلوم حقه من الظالم.

وكان الذي يسامح أخاه أكرم عند الشيخ من الذي يأخذ حقه، وكان يقول لهم: لا ينبغي لفقير أن يمسك على أخيه كلمة جفا في حال غضبه لأن بعض العلماء لا يقول بصحة طلاق الغضبان لتزلزل عقله، كان يقول: كل من مسك على الناس كل كلام قالوه فيه كثر أعداؤه وانحطت همته إلى سافلين.

وفي كلام سيدي أحمد بن الرفاعي رحمته الله: من انتصر لنفسه وأجاب عنها تلف وتعب، ومن سامح الناس وفوض أمره لمولاه نصره من غير أهل ولا عشيرة والله أعلم.

ومن شأنه: إذا كان مجاوراً في زاوية الشيخ أن يحمل النهر^(٢) والكلمة الجافية من كبراء الزاوية كالخطيب والإمام والنقيب والجابي ما داموا سالكين، لأن الناقص يرى له الفضل على إخوانه بتربيتهم وتعليمهم الأدب وخدمتهم، فلا ينهر أحداً إلا وهو يرى نفسه عليه، فإذا كمل سلوكه صار يرى فضلهم عليه الذي

(١) القوت: طعام يمسك الرمح.

(٢) النهر: الزجر والإغصاب.

كسبوه الأجر، ولذلك يمثل أمرهم إذا استقضوه في حوائجهم لكن بإذن الشيخ إن كانت الحوائج لهم، وإن كانت للزاوية فلا يحتاج إلى إذن من الشيخ خاص بل ذلك داخل في إذنه، للنقيب أن يستعمل في حوائج الزاوية من شاء من المقيمين.

وقد تقدم أنه يحرم على المجاورين التعصب بالباطل لحظ النفس على كل من أقامه الشيخ نقيباً أو جابياً أو خادماً، والطعن عليه بنحو قولهم: هذا لا يصلح لهذه الوظيفة.

ويجب عليهم التسليم له، فإن الطعن فيمن أقامه الشيخ يؤدي إلى ضرر شديد وتشويش القلوب بعضها من بعض ويوقف عليهم أسباب معاشهم، وربما خرجوا من كثرة الشكاوى للحكام والنكد^(١) من الزاوية وعملوا صناعاتاً ومحترفين أو يسعوا على وظائف ضعفاء الفقراء ومساكينهم، فلا يُخلوا في الحارة مسجداً ولا سيلاً في يد أحد إلا سعوا إليه فتمقتهم قلوب المؤمنين بعد أن كانوا يتبركون بهم، لأنهم أخرجوا قلوبهم من الخير وملأوها بحب الدنيا ومضايقة أهلها قبل أن يُخربوا زاويتهم.

وربما سكن إبليس عندهم في الزاوية وصار هو الشيخ لهم إن داوموا على الشرور والنزاع، فلا يزال يوسوس لهم في أمر بعضهم بعضاً بسوء الظن ونقل الكلام والفتن حتى لا يخلي لهم وقتاً لعمل الدنيا ولا لعمل الآخرة، وينقادون^(٢) له أكثر مما ينقادون لشيخهم الإنسي، وذلك لأن شيخهم الإنسي كان يدعوهم لكل شيء يخالف هوى نفوسهم، وإبليس يدعوهم إلى كل ما تهواه نفوسهم ويحجبهم عن شهود قبيح أفعالهم حتى لا يكاد أحد منهم يتوب من زلة وقع فيها ولا يستغفر.

وتقدم أنه ليس لإبليس مصيدة يصطاد بها فقراء الزاوية أعظم من التحريش بينهم واشتغالهم ببعضهم بعضاً فيقطعهم بذلك عن الاشتغال بالله ﷻ، ويصيرون كالشياطين لا يذكرون إلا النقائص ولا يطاعون إلا على العورات، وتتجلى لهم صفاتهم القبيحة فيظنون أنها صفات غيرهم والله تعالى أعلم.

(١) النكد: المنع.

(٢) ينقاد: يطيع وينساق.

ومن شأنه: إذا كان فقيهاً أن لا يعارض النقيب إذا استعمل أحداً ممن يقرأ عليه في قضاء حوائج الفقراء كالحبز والعجين بل الواجب على المجاور خدمة نفسه وإخوانه بنفسه أو بأولاده الذين يقرؤون عليه، وكل من خالف في ذلك ومنع أولاده أن يخدموا أحداً مع أكلهم من طعام الزاوية نسبوه إلى غرض فاسد، ولائوا به، وقذفوا عرضه، لا سيما إن كان الأولاد وجوهم نظيفة.

هذا كله إذا استخدمهم النقيب بالإذن العام، فإن صرَّح شيخ الزاوية له باستخدامهم فليس للفقير منعه من ذلك قطعاً.

فليكن الفقيه الذي يقرأ أطفال الزاوية حاذقاً^(١) يلحق بلاحق اللاحق ولا يخلي أحداً من إخوانه يظن به سوء، ويرغب أولاده في قضاء الحاجة على ما جرت به العادة بالتناوب أو بحسب ما يراه الشيخ، فإنه ثم من لا ينفع في القراءة لتشتت ذهنه وينفع في الخدمة كما هو مشاهد في الزوايا، فيمكث الواحد العشرين سنة ولا يحفظ القرآن، فمثل هذا تبين لا يصلح أن يكون فقيهاً فيستخدم أو يتعبد بالذكر والأوراد وإلا جرَّته البطالة إلى الفواحش، فينبغي لفقراء الزاوية كلهم أن يرغبوا أولادهم في قضاء الحاجة من غير ترجيح أولاده على أولاد غيره والله أعلم.

ومن شأنه: ترغيب إخوانه المترددين إلى الزاوية في ذكر الله تعالى مع الفقراء صباحاً ومساءً، ولا يتخذوا جلوسهم في الزاوية للغو والغفلة وذكر تواريخ الناس، فإن إبليس بالمرصاد لمثل هؤلاء، فيحضرون على نية مجالسة الشيخ أو غيره ويعصون الله في بيته! فليكن الفقير رحمة على إخوانه ويحب كثرة الإخوان في الذكر محبة في الله ﷻ لا حباً في المشيخة، كما يقع فيه بعضهم. ويتعين كثرة الحث على الحضور إذا كان الورد طويلاً، كسهر ليلة الجمعة أو العيد أو ليالي القدر، فربما ملَّ بعضهم فينام ويسهر البقية. وإذا كانوا جماعة قليلة فربما غلب عليهم النوم كلهم فبطل المجلس.

وإن نام أحدهم لحظة بين الظهر والعصر منعه في السهر الآتي، وقد كان ﷺ يقول: «استعينوا على قيام الليل بالقليلة وبأكلة السحر على الصيام». وكان سيدي عبد العزيز الديريني رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: النوم قبل الظهر دواء السهر الماضي، وبعد

(١) الحذق: المهارة.

الظهر دواء السهر المستقبل انتهى. والمريد الصادق يغار على زاوية شيخه أن يختل^(١) نظامها في ورد أو وظيفة، بل كل شيء رآه معطلاً فعله الله تعالى كما مرَّ بسطه في هذه الرسالة والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحذر إخوانه من سلوك مواطن التهم بحيث يصير أحدهم إذا نسب إليه فسق من حرام أو فاحشة يصدق الناس فيه ذلك، فللشيخ أن يؤنبه^(٢) على سلوكه مسالك التهم ليسد الباب الذي أتاه من تصديق الناس في كشفه الفواحش، ولو أنه كان حفظ ظاهره من الوقوع في أسباب قلة الدين ما قبل أحد فيه الزور والبهتان، بل كان الناس يكذبون من أضاف إليه شيئاً من النقائص ويقولون: حاشا لله أن يقع فلان في مثل ذلك، فاعلم أن محل تأديب الشيخ له إنما هو على تساهله في عدم حفظ ظاهره لا على التهمة والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحثَّ إخوانه على مجلس الذكر صباحاً ومساءً برحمة ورفق إذا تعوَّق^(٣) الشيخ عن الحضور، ولا يعلق ذلك بحضور الشيخ فإن الشيخ له أورد آخر غير أورد المريدين، وإن حضر معهم فإن ذلك لما يراه من ضعف قلوبهم وهمتهم عن الخير لا غير.

وتقدم أنه ليس للمريد أن يتشبه بالشيخ في أحواله إلا إن أمره الشيخ بذلك، فليلزم المريد ورده الذي أقامه الشيخ فيه ولا يتخلف عن الذكر مع الجماعة إلا لضرورة يعذره بها الإخوان. وقد كان شخص من مريدي سيدي الشيخ مدين يذكر مع الجماعة، ثم ترك الذكر وصار يذكر وحده، فقال له الشيخ في ذلك فقال: يا سيدي إن الاجتماع إنما جعل لمن همَّته ضعيفة وقلبه ميت، وأنا بحمد الله قلبي صار حياً لا أحتاج أن أتقوى بغيري، فأمر الشيخ بإخراجه من الزاوية، وقال: إن مثل هذا يتلف الجماعة فيصير كل فقير يقول: أنا لا أحتاج إلى الاجتماع بغيري في الذكر فيذهب شعار الزاوية، فإن من شأن النفس الخيانة والدعاوى الكاذبة ففي الاجتماع امثال أمر الشيخ وقيام الشعار والله أعلم.

ومن شأنه: أن يرشد إخوانه ويعلمهم الآداب الشرعية والصوفية من غير أن

(١) يختلُّ: يضطرب ويخرج عن طبيعته.

(٢) يؤنبه: يوبِّخه ويلومه.

(٣) تعوَّق: مُنِعَ أو شُغِلَ عن الشيء.

يرى نفسه عليهم بذلك، فقد يكون أحدهم أكثر إخلاصاً لله تعالى منه وأحسن معاملة له، فلا يلزم من كونه أعلم من المرید أن يكون أفضل منه عند الله تعالى، وهذا أمر شَدَّ^(١) عنه كثير من مشايخ هذا الزمان فيظن بنفسه أنه أفضل من مریده عند الله من حيث كونه أعلم منهم، فليتنبه الشيخ المفضل لما ذكرناه والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن يدل إخوانه على دخول حضرة ربهم من أقرب الطرق التي يعرفها، ويرشد إلى كل ما فيه توبيخ لنفوسهم إذا تخلفوا عن مجالس الخير، فلعل ذلك التوبيخ يجبر خلل ترك ذلك الخير.

ولا ينبغي للفقير أن يسامح نفسه بترك التوبيخ والهرت لثلا تتبعه الكسالى على ذلك، كما لا ينبغي للمتخلف أن يعتذر بالأعذار التي لا يقبلها الشيخ والإخوان، فيغش نفسه، وليقدّر أن إنساناً يعطيه ألف دينار لو حضر مجلس الذكر مثلاً فإن رأى نفسه تفوّت الألف وتعتذر بضرورة استغرقت الوقت فهو صادق في تخلفه ذلك اليوم عن الذكر، وإن رآها حريصة على الحضور لأجل ألف دينار ويقطع علائقها كلها التي تزاحمها وقت حضور ذلك المجلس فهو كاذب في تخلفه عن الخير بعذر، فإن قول سبحان الله لا إله إلا الله أرجح عند المؤمن من ملء الأرض ذهباً.

قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾^(٢) قال ابن عباس: الباقيات الصالحات هي قول العبد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فشيء شهد الله تعالى بأنه خير للعبد لا يجوز له ترجيح ضده عليه، بل ربما كفر بذلك، وقد رأينا من إخواننا من يتعلل بثقل النوم عليه وقت صلاة الصبح الأولى، فلا يكاد يحضر فيها أبداً، ثم إذا كان له حاجة في القلعة أو عند شخص يخاف يفوته يستيقظ تلك الليلة من التسيب، وذلك دليل على كذبه في دعواه غلبة النوم وقت الصبح، وإنما ذلك من ضعف داعيته^(٣) للخير، فليتنبه الفقير بمناقشته.

(١) شَدَّ: انفرد عن الجماعة أو خالفهم.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٣) الداعية: الذي يدعو إلى دين أو فكرة والمراد هنا نوازع الدعوة إلى الخير فيه.

ولذلك رأيت جماعة بمجرد ما يجلسون معي في مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ ينعس أحدهم ويصير يتمايل يميناً وشمالاً، فأضع له في فمه قطعة حلاوة أو أعد له في يده دراهم فيعتقد أنها له فيستيقظ لوقته ويذهب عنه النوم، وذلك من أقوى الأدلة على ترجيح الدنيا على ذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ. ومثل هذا يتخذ له شيخاً يلطف كثافته حتى يقلب تلك الداعية التي للدنيا لجهة الآخرة، ويصير يستيقظ إذا ذكر الله تعالى وينام إذا أعطي دراهم أو حلوى، ويذوق طعم الإيمان الكامل والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن يكون مقداماً لإخوانه في كل عمل شاق من أعمال الدنيا والآخرة، كنقل الحطب والقمح إلى سطوح الزاوية، وكسهر الليالي الكاملة. وذلك من ادّعى أنه أقدم هجرة عند الشيخ فهو أحق بذلك من الحادث القريب العهد بالمجاورة، فإن المجاورين كلهم ناظرون إلى فعل كبراء الزاوية.

ومن هنا قالوا: ينبغي للفقير أن يكون أبعد الناس عن الريبة ومواطن التهم وارتكاب الرذائل ليسمع له إخوانه إذا نصحهم، فلا يأمرهم بقيام الليل مثلاً ثم ينام هو، ولا يزهدهم في الدنيا وعدم جمعها ويرغب هو فيها ويجمعها، ويعامل بها الناس قراضاً^(١) وتجارة ونحوهما. ولسان حال الفقراء الذين يأمرهم بأمر ولا يفعل هو يقول له: انصح أنت نفسك ويقعون في عرضه. فليحذر كبراء الزاوية من مثل ذلك، وشيخهم أولى بكل ما ذكرناه، فينبغي له أن يساعد الفقراء في نقل القمح أو الحطب أو الحصاد أو الدّراس أو الحرث ولو مرة أو يوماً، فإن بذلك يحصل النشاط للفقراء، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا خرج أصحابه لجمع الحطب يخرج معهم ويجمع له حزمة ويرجع بها إلى الدار، وكذا كان يفعل الإمام علي عليه السلام ويقول: لا ينقص الكامل من كماله ما جرّ من نفع إلى عياله والله أعلم.

ومن شأنه: أن يتظاهر بعداوة من عادى أحداً من إخوانه بغير حق قياماً بواجب حقوقهم، فلا يجوز له عداوته بالباطن إلا إن كان من أهل الكشف وكشف له عن شقاوته في الآخرة والعياذ بالله تعالى، وكذلك من حقوق إخوانه

(١) القراض: إعطاء القرض.

عدم مصافاة من وقع في فساد وأخرج من الزاوية وعدم العزومة عليه بالأكل أو الجلوس معه إذا دخل الزاوية لصلاة أو غيرها خوفاً من تغيير قلوب الإخوان، فمراعاة خواطبرهم أولى من مراعاة خاطر من ثبت فساد ورميه الفتن مثلاً. وهذا يقع فيه كثير ممن لم ينظر إلى عواقب الأمور، فينبغي أن يتنبه الساذج^(١) لمثل ذلك. وكان الواجب على إظهار العداوة موافقة إخوانه الصادقين في الزاوية، لكن مع إرشاد ذلك المفسد إلى إظهار الندم وسياقه السياقات لإخوانه حتى يطيّبوا عليه قياماً بواجب حقه القديم، فإن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن صحبة ساعة فلا ينبغي لأحد أن يطيّب خاطره على ذلك المفسد حتى يطيّب خاطر الجميع ولا يبقى منهم واحد. ثم ما يقع فيه غالب فقراء الزاوية كثرة الوقوع في غيبة من أخرج بفساد، وذكر واقعته لكل داخل أو لكل من سأل ما سبب إخراجهم وذلك لا يجوز، وربما وقعوا في عرضه على سبيل الغيبة والتشفي منه، فيعودون أفسق منه وأسوأ حالاً، وربما ابتلوا عن قريب بما ابتلي هو به، فيُفتضحون ويُخرجون كذلك، فيجب الكف عن عرض كل من خرج من الزاوية وتركه ولا يجوز اللوث به ليالي وجمعاً وشهوراً. وربما تاب الله تعالى عليه عقب الذنب فلا تجوز غيبته بحال ويصير ذلك من الزور والبهتان عليه، فليحذر الفقراء من مثل ذلك. وربما رجع الفقير إلى الزاوية بوجه من الوجوه ويصير بعضهم يحكي له ما قالوه فيه فيشتد في عداوته على من وقع فيه حتى لا يكاد أحدهم يسامح أخاه في الدنيا ولا في الآخرة، فتأملوا ذلك أيها الإخوان واعملوا بما أوضحت لكم والله أعلم.

ومن شأنه: أن يرشد إخوانه إلى ترك البغي^(٢) على من بغى عليهم ولا يأمرهم قط بمقابلة الباغي ويقول: مقابلة الفاسد من وجوه النظر، كما يقع فيه غالب المتهورين في دينهم، وفي الحديث الصحيح: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك».

وفي زبور داود عليه الصلاة والسلام: يا داود لا تبغ على من بغى عليك إن أردت أني أنصرك، فمن بغى على من بغى عليه تخلف عنه نصرتي. وفي الزبور أيضاً: لا تستبطن الإجابة لدعائك في حق عدوك فإني إنما أبطئ إجابة دعائك

(١) الساذج: البسيط في تفكيره.

(٢) البغي: الاعتداء وتجاوز الحد.

لأعاملك بنظير ذلك إذا ظلمت إنساناً ودعا عليك، فإن طلبت إجابة دعائك بسرعة فلا تستغرب سرعة إجابة دعاء عدوك عليك. انتهى والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يغفل عن خدمة من مرض من إخوانه في الزاوية لا سيما في الليل حين ينام الناس ويتركونه ولا أهل له ولا أصحاب يفتقدونه، فإنه يتعين عليه خدمته أو حمله إلى المارستان^(١).

وقد ورد أن العبد يُسأل يوم القيامة عن حقوق جميع إخوانه وأصحابه، ثم إن كان الفقير المريض ليس معه شيء ينفقه على المريض فينبغي لإخوانه أن ينفقوا عليه من مالهم، أو يقترضوا له على ذمة الله ﷻ، وإذا حملوه إلى المارستان فلا بد من توفية حقه في التردد إليه وتوصية الناظر والقيّم^(٢) عليه، ولا يزال يتردد إليه إلى أن يبرأ^(٣) أو يموت، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه والله أعلم.

ومن شأنه: أن يخدم عميان الزاوية والعجائز والأيتام ويقود الأعمى إلى مكان حاجته، ويفلّي^(٤) له ثيابه ولحيته من القمل إذ طلب منه ذلك، وكذلك يرفع للأعمى ثوبه، فإن ذلك مما يقرب إلى الله ﷻ لكون هؤلاء في كفالة الله ﷻ وهو وليهم. وكلما أدخل أقوياء الزاوية السرور على العميان والأراامل والأيتام كلما سهل الله تعالى عليهم أسباب رزقهم ووسعه عليهم، وحُكّم العكس بالعكس.

وكان سيدي علي الخواص رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: من أراد نزول الرحمة عليه فليخدم العميان والأيتام، وكلما زاد العبد في الرحمة على العباد زاده الله درجات في الجنة.

وكان سيدي الشيخ عثمان الحطاب رَحِمَهُ اللهُ يَخْدُمُ الْعَمِيَّانَ وَالْأَيْتَامَ وَيَغْسِلُ لَهُمْ ثِيَابَهُمْ وَلِحَاهُمْ، وَيَقُودُهُمْ إِلَى مَوَاضِعِ حَاجَاتِهِمْ، وَيَطْبَخُ لَهُمْ، وَيُنْقِي لَهُمُ الْقَمَحَ، وَيَحْمِلُ لَهُمُ الْقَفَّةَ مِنَ الطَّاحُونِ وَيَقُولُ: هذا شرفي، والله أعلم.

(١) المارستان: المستشفى.

(٢) القيّم: السيد وسائس الأمر.

(٣) يبرأ: يُشْفَى من مرضه.

(٤) فِلِّي: ينظف ويخرج الأشياء الغريبة من الشيء.

ومن شأنه: أن يخدم الأشراف الذين جاؤوا في الزاوية زيادة على خدمة غيرهم، وليحذر من مخاصمة أحد منهم فإنها كالمخاصمة لجدهم ﷺ، وإذا بغى عليه أحد الأشراف يرى ذلك تشبيهاً بجريان المقادير من الله ﷻ فيتلقاه بالصبر والرضى.

وكذلك من شأنه: أن يأخذ بيد الظالم ويكفه عن ظلمه بالقول والفعل، وإلا فسدت فقراء الزاوية، وليس له أن يرى الفقراء يتضاربون بالعصي أو يتشاتمون وهو ساكت، بل يردهم عن المخاصمة ما أمكن، لكن بحسن سياسة ولين قول. وكثيراً ما يرى بعض الفقراء يتركون الدخول بين المتخاصمين زاعمين أنهم أسوأ حالاً منهم، وذلك لا ينهض حجة في ترك الأخذ على يد الظالم، فيجب عليه كف الظالم ولو كان أسوأ حالاً منه. ووقع لبعض مشايخ الزوايا الساذجين أن اثنين من الفقراء تضاربوا بحضرته بالعصي حتى أذموا بعضهم بعضاً فقالوا له: يا سيدي ألا تكفهم عن بعضهم فقال: النجاسة لا تطهر غيرها، وهذا من جملة السذاجة والشرع أولى بالاتباع والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يدخل على إخوانه غماً إذا أرسله الشيخ في حاجة إلى شخص من الولاة أو غيرهم ممن لا يعتقد في الشيخ فسب الشيخ، أو لم يقض الحاجة، فمن الأدب أن يقلب ذلك الجواب إلى ضده بسياسة ولا يدخل على الشيخ وإخوانه غماً بحكاية الكلام الجافي في حق الشيخ بل يكون حسن السفارة^(١)، ولا يبلغ الشيخ عن إخوانه إلا خيراً.

وقد يكون ذلك الشخص الذي يشفع فيه الشيخ عند الأمير لا يستحق الشفاعة فيه لكثرة قبح ذنبه، فيصبر الشيخ حتى تبلغ العقوبة حدها فيه.

ثم الذي ينبغي له كلما لقي صاحب شيخه الذي نقل عنه أنه أساء الأدب مع الشيخ أن يسلم عليه من عند الشيخ ويغالطه ولا يعاتبه على شيء مما كان وقع فيه في حق الشيخ لا سيما من كان صاحباً بالاسم فقط من أكابر الحارة فإن مغالطتهم واجبة لئلا يصير أعداء للشيخ فيؤذونه ويؤذون جماعته. وإذا وقع أن الشيخ أرسل النقيب إلى أحد من تجار الحارة يقترض منه ثمن قمح أو حطب أو

(١) السفارة: من السَّفير وهو (الرسول والمصلح) والسَّفارة تطلق على هذا العمل.

نحو ذلك فلم يعطه شيئاً وأظهر المنع مثلاً فينبغي له أن يقلب الحديث للشيخ كما فعل مع الولاة وليس له أن يبلغ الشيخ ذلك، والمحسن مخير إن شاء يحسن أو لا يحسن، لا تحجير^(١) عليه في ماله إلا بالشرع.

والحسنة لم تنحصر في الشيخ ولا في جماعته، فليكن الشيخ وجماعته على حذر من العتب على أحد من التجار في هذا الزمان فإنهم ربما كانوا أضيق معيشة من الشيخ لقلة المكاسب في هذا الزمان وعفة أنفسهم عن الشحانة من بعضهم بعضاً، بخلاف الفقراء سداهم ولحمتهم، سؤال بالحال أو بالقال إلا من شاء الله تعالى.

وبالجملة: فكل فقير تشوش ممن لم يقرضه أو لم يهبه أو لم يتصدق عليه، فهو لم يشم من طريق الفقراء رائحة وهو مغتاط^(٢) على من لا ذنب له كالحسودي.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا أرسلت قاصدك في حاجة فلم تُقَضَ في ذلك الوقت فلا تتكدر من القاصد ولا من المسؤول فيها، فإنه ما أبطأ بها إلا وقتها الذي ضربه الحق تعالى لها، فلا يمكن أن يكون في غيره والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن يراقب قلبه من جهة إخوانه، فمهما رأى عنده تغييراً وتشويشاً من أحد من المسلمين فليرجع على نفسه باللوم، وليسع في إزالة ذلك من قلبه ويقيم العذر لأخيه فيما وقع فيه معه قياماً بواجب حق الأخوة، ويرى أنه أخطأ في تشوشه من أخيه، ولو بلغ له مرتبة الصدق. وقد قال الإمام الشافعي رحمته الله: لا تثق بوؤد من لا يجبك إلا معصوماً^(٣). وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله يقول: عليكم بصحبة الصوفية، فإن للقبیح عندهم وجوهاً من المعاذير، فاعلم أنه من احتقر أخاه بسبب زلة وقع فيها فما وفي حق الأخوة وأحق ما يحتاج إليك أخوك إذا عثرت دابته. وأجمعوا على أنه لا يثبت للعبد قدم في طريق الفقراء حتى يتخلق بالرحمة على جميع العالم طائعه وعاصيه كل بما يناسبه والله أعلم.

(١) التحجير: المنع.

(٢) المغتاط: المُغَضَّب أشد الغضب.

(٣) معصوم: مطاوع.

ومن شأنه: أن يرشد من حضرته الوفاة من إخوانه إلى الوصية وطلب براءة ذمته، ولا يستحي من ذلك، وليسهر عنده إلى الصباح كما مرّ تقريره قريباً، وربما يكون الأجل في ذلك الوقت فيفارقه على وفائه بحقه. وقد استحيى أقوام من قولهم للمريض: أوص. فمات وحقوق الناس عليه، ووقع بين ورثته ما لا خير فيه، وذهب أكثر التركة للحكام، فإذا لقنه الشهادة فسمعه يقول: لا، فلا ينبغي له أن يسيء به الظن، فإنه إنما يقول لا من أجل الشياطين الذين يحضرون الأكابر ليفتنوهم عن دين الإسلام، كما وقع للإمام أحمد بن حنبل رحمته الله أنه كان يقول في حال طلوع روحه: لا، بعد، فقالوا له في ذلك فقال: إن الشيطان ظهر لي وهو عاضٌ على أصبعه ويقول: فتنتي يا أحمد، فكنت أقول له لا بعد، أي لا أيأس منك ومن فتنتك إلا إن طلعت روحي على التوحيد.

وليحذر الفقير من ذكر مريض بسوء فربما كانت مَنِيَّتُهُ في ذلك المرض فيختم على عمله ويذهب إلى الآخرة من غير براءة ذمة خصمه، وهذا الأمر قلّ من يسلم منه، فلينتبه الفقير لمثل ذلك والله أعلم. . أن يكون سداً ولحمته الصفح والعفو عن زلل الإخوان ولا يعتدي على من اعتدى عليه، وإن كان الحق تعالى قد أباح ذلك بشرط المثلية، إذ المثلية متعذرة فربما زاد ونقص، وربما أثرت فيه تلك السيئة أقل مما أثرت في خصمه، ونحو ذلك فالمجازاة رخصة للضعفاء لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(١).

وكان سيدي علي الخواص رحمته الله يقول: أعفُ عمن ظلمك عملاً بأمر الشارع لك بذلك، ولا تقل قد أباح لي الشرع أن أقابله بمثل ما فعل، فكم من المباح تركه أفضل. وكان يقول: اترك حقك لأخيك ما استطعت، وأقل^(٢) عشرة أهل المروءات والهبات من إخوانك ما استطعت، وعليك بالنظر في محاسن الناس دون مساوئهم، فإنه ما من مسلم إلا وفيه خلق حسن ولو كان من أفسق الناس. وكان يقول: إذا هجرت أخاك المسلم بشرطه فلا تزد في هجرك على ثلاثة أيام بلياليها، وابدأ بالسلام بعد الثلاث لتكون خير الرجلين، وعليك بتحمل الأذى وتجبرُ مرارته من جميع الأنام^(٣)، ففي الصحيح مرفوعاً: «لا أحد أصبر على

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٢) أقل: اصفح وتجاوز.

(٣) الأنام: جميع ما على الأرض من الخلق.

أذى من الله» انتهى، إن رزقه وخيره فائض على من جعل له زوجة وولداً وكفر بأنيائه وكتبه، فليتحمل الفقير الأذى تخلقاً بأخلاق الله ﷻ.

ومما وقع لي وأنا طائف بالبيت في سنة سبع وأربعين وتسعمائة، أنني نظرت في قلبي فلم أعرف دعاء واحداً مما ورد أن أقوله في الطواف، فسمعت قائلاً يقول لي من داخل الحجرة: قل: اللهم أفرغ عليّ من الأخلاق المحمدية ما أتحمّل به الأذى من جميع العباد، اللهم أفرغ عليّ من الأخلاق المحمدية ما أتلقى به جميع الأقدار الجارية عليّ بالرضا والتسليم، اللهم أفرغ عليّ من الأخلاق المحمدية ما أكون به هادياً مهدياً، اللهم أفرغ عليّ من الأخلاق المحمدية ما تصير به حركاتي وسكناتي كلها مرضية عندك، اللهم أفرغ عليّ من الأخلاق المحمدية ما أتجمل به بين يديك في الدنيا والآخرة، فكانت بعد ذلك هي أكثر دعائي بعد الدعاء الوارد والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا ينسى إخوانه من الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة والعفو كلما وجد الوقت صافياً مع ربه ﷻ، سواء كان في ليل أو نهار أو سجود أو غيره، ومن فوائد ذلك الوفاء بحقوقهم، يقول الملك الموكّل بالدعاء: ولك مثل ذلك ودعاء الملك لا يُردُّ.

وسمعت سيدي علي الخواص ﷻ يقول: إذا وجد أحدكم الوقت رائقاً^(١) من الكدورات فليسال الله تعالى المغفرة لجميع المسلمين من أهل عصره وهذا من أعظم حقوق المسلمين، ولا يتنبّه له كلٌّ إلا بحكم التبعية لنا من مخصوصين. وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم - يعني الإيمان الكامل - حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وفي القرآن العظيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾^(٢) ويقاس عليه من تأخر عنا بالإيمان أو ساوانا، ثم إن طلب المغفرة لهم يكون على نوعين: إما بأن الله تعالى يحول بينهم وبين الوقوع فيما لا ينبغي، وإما أن لا يؤاخذهم إذا عصوا وليس للمغفرة تعلق ثالث، ويكون العصاة الذين يدخلون النار من الموحدين مستثناة شرعاً لثلاث يعترض معترض على تعميم الدعاء بالمغفرة انتهى والله أعلم.

(١) الرائق: الخالص.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٠.

ومن شأنه: أن يعترف بالفضل لكل من أحسن إليه من إخوانه لا سيما من بدأه بهدية فإنه لا يقدر مكافأة بدأته بها، ولهذا فُضِّل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على غيره من الصحابة بسبقه إلى الإسلام من غير توقف ولا رويّة، فليكن الفقير حاذقاً منصفاً فإن سبق بالهداية فلا يرى فضله، وكذلك المكافأ أنه كان السابق، وليحذر الفقير من أن يأخذ ولا يكافىء، بل الذي ينبغي له أن يكافىء كل من أحسن إليه ولا يتهاون في ذلك، كما عليه طائفة ممن تعودوا الأخذ من الناس بصدقاتهم وهداياهم، فإن الفقير الصادق يهرب من تحمل من الناس ما أمكن. وكان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول: لا نقم بجزاء من بدأك بالهدية أبداً، ولا يُجْزى من بدأك بقوله: أنا أحبك، فلو أحببته بعد ذلك ما عسى أن تحبه لا تبلغ درجة تقدم حبه إياك، إذ حبك إنما هو نتيجة عن حبه إياك والله أعلم.

ومن شأنه: إكرام كل وارد عليه من إخوانه فلا يأكل وحده شيئاً أبداً ما استطاع، وعليه بعدم التشويش ممن قال له: أنا أبغضك، بل ينبغي له التفتيش على الصفات التي بغضه لأجلها ويزيلها، ثم ينظر، فإن زال بغضه وإلا كرر التفتيش ثانياً وثالثاً. فاعلم أنه لا ينبغي أن يؤذيه في نظير قوله أن يبغضه. وقد ورد أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: أعوذ بالله منك، فقال: «لقد استعذت بعظيم، الحقّي بأهلك» فطلقها ولم يقربها إكراماً لكونها استجارت بالله. فاعلم أن كل فقير قال له أخوه: أعوذ بالله منك من شرك ولم يكفه شره فهو قليل الأدب مع الله تعالى لا يرجى له فلاح، فإن من آذى من استعاذ بالله منه كان الله تعالى خصمه كما قال بعضهم والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يحدث أخاه بكذب لأن في ذلك استهانة بحقه، وفي المعاريض مندوحة^(١) عن ذلك إذا اضطر إلى الكلام. وكذلك من حق الأخ أن يقوم له أخوه إذا ورد^(٢) عليه ولو كره هو ذلك، لا سيما إن كان الوارد من حملة القرآن أو العلم.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمته الله يقول: ينبغي للفقير أن لا يساعد أخاه على ما فيه نقص لدينه كأن يعلم منه محبة القيام له في المحافل^(٣)، إذ القيام

(١) المندوحة: السعة والفُسحة.

(٢) وَرَدَّ: حضر.

(٣) المحافل: أماكن اجتماع الناس.

حينئذ فيه مضرة على دينه ودين أخيه.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: إياك أن تترك القيام لأخيك في المحافل فربما تولد من ذلك الحقد والضغائن فتعجز بعد ذلك في إزالته، وقد كان الناس إذا قام لهم أحد في المحافل يتوشوشون وصاروا إذا لم يقم لهم أحد يتكبدون ثم يصيرون يُظهرون فيمن لم يقم لهم المعاييب، فينبغي للفقير أن يدور مع أهل الزمان بطريقه الشرعي، وإلا حصل له تعب عظيم. وربما خرج من بلده أو من حارته من كثرة الأذى، وأصل ذلك كله قلة سياسته وقلة معرفته بطبائع زمانه. وقم يا أخى لأخيك وفاء بحقه لا لظنك أنه يحب القيام له، فإن ذلك سوء ظن به. وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: لا تقصّر في حق أخيك اعتماداً على مروءته انتهى، فإن لك في تأدية حقه أجر من حيث حق الآدمي، وأجر من حيث امتثالك أمر الله تعالى بالأدب. وكان الشيخ محيي الدين بن العربي يقول: إذا انتسب أخوك إلى أحد من الأكابر من أولياء أو أمراء فاحذر أن تطعن في نسبه ولو في نفسك فتدخل بين ذلك الشخص وبين الله تعالى وبين صاحب الفراش، فتقع في إثم كبير، بل ورد أن الطعن في الأنساب كفر والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يشح^(١) على أخيه إذا سألته المساعدة في التزويج ولو بقميصه وقبقابيه الزائد، أو شيء من القمح فإن الإعانة في ذلك من أفضل القربات، بل ذكر بعض المحققين أن الإعانة في النكاح أفضل من إعانة الغزاة والمكاتبين^(٢)، إذ هو أفضل نوافل الخيرات، ومنه يتفرع من يجاهد ومن يفعل سائر الخيرات. والأجر يعظم السبب، فلولا النكاح ما وُجد مجاهد ولا عابد لله تعالى.

وهذا أمر يتهاون به غالب الفقراء، وبعضهم يقول: وإيش قام على الفقير في التزويج في هذا الزمان، وينقره منه ليعتق نفسه من مساعدته، وما درج السلف الصالح على مثل ذلك والله أعلم.

(١) يشح: يبخل.

(٢) المكاتبين: هم العبيد الذين يكتبون بينهم وبين أسيادهم اتفاقاً على مبلغ يقسطه لهم فإذا دفعوه صاروا أحراراً. وهذه هي المكاتبه.

ومن شأنه: أن لا يكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب، ولو لاث الناس به، لقلة ورع الناس اليوم في المنطقة وعسر معرفة الألفاظ التي يكفر بها الإنسان دون غيرها. إذ التكفير أمرها. بل أقل ما فيه أنه إخبار عن إنسان بأنه خالد مخلّد في النار لا تجري عليه أحكام الإسلام، لا في حياته ولا بعد مماته.

ثم إن مرجع ذلك إلى العقيدة، ومعلوم أن الإنسان يعجز عن تحرير معتقده في عبارة فضلاً عن معتقد غيره. وفي الحديث: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه» ومعنى ذلك أن المكفّر هو الكافر لأنه كفّر مسلماً لإسلامه فافهم.

وينبغي للفقير أن لا يعود لسانه بالكلام المرّ لإخوانه فيكون من شرار الناس. وفي الحديث: «شرُّ الناس من تركه الناس اتّقاءً فُحشه^(١)» فهذه شهادة من رسول الله ﷺ بأن الفاحش البذيء من شرّ الناس.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: احذروا سبّ أحد من المسلمين فربما سبّ أحدكم أبا إنسان فسب الآخر أباه.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: التورّع في المنطقة أشد من التورع في اللقمة والثياب والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يحقر أحداً من خلق الله ﷻ إلا عند أمر الله فإن الله تعالى ما احتقره حين خلقه وصوّره، وكيف يعتني الحق تعالى بعبد ويخرجه من العدم إلى الوجود وتجيء أنت تحقره!! فهذا من الجهل المحض. وما أمرك الله تعالى أن تحتقر أحداً من عباده، وإنما أمرك أن تنكر على أفعاله المخالفة لما شرعه لا غير، فتأمر العاصي وتنهاه وأنت غير محتقر له، فربما كان في علم الله أنه أعلى منك مقاماً وأنت من الفاسقين ويصير يشفع فيك يوم القيامة. وتأمل قوله ﷺ في شجرة الثوم: «إنها شجرة أكره ريحها» فما كره ذاتها وإنما كره ريحها. فاعلم أن عداوتنا للكفار والعصاة عداوة صفات، بدليل أنهم إذا أسلموا وحسّن حالهم حرّم علينا كراحتهم والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن يقدّم حوائج إخوانه الضرورية على عباداته من سائر النوافل،

(١) الفحش: الكلام القبيح.

لأن الخير المتعدي نفعه أفضل من القاصر على فاعله، لا سيما إن أمره شيخه بذلك، كما مرّ في الباب قبله.

اللهم إلا أن ينهاء شيخه عن خدمتهم فليس له ذلك، لأنهم ربما كلّفوا في مقام المجاهدة لنفوسهم. والخدمة لا تكون عادة إلا للسادات الذين فرغوا من علاج أخلاقهم، وصاروا يرون نفوسهم أحقر الخلق أجمعين، بحيث لو حَقَّرهم الناس وازدروهم لا يتغير منهم شعرة، لأنهم يشهدون ما قاله الناس فيهم دون ما يعلمونه هم من أنفسهم.

وقد قدمنا في الباب الأول أنه ينبغي لمن يخدم إخوانه أن لا يرى بذلك نفسه عليهم فيشقى في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلكثره تعب بدنه والخدمة، وأما في الآخرة فلحرمانه الثواب. وإنما الأدب أن يرى خدمته لهم من باب الواجب عليه وفاء ببعض حقوقهم. وقد جرّب الأشياخ كلهم نفوسهم فوجدوا أنه لا يستحق السيادة إلا من تواضع لله تعالى.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمته الله يقول: لا ينبغي للمريد الإنكار على الشيخ إذا نهاء عن خدمة مريض من إخوانه، فربما كان ذلك المرض عقوبة له، بل يجب عليه أن يعتقد أن الشيخ أرحم بذلك المريض منه، لكن إذا بلغت العقوبة حدّها فهناك يأمره بخدمته.

وكان أبو سليمان الداراني وغيره يقولون: لا تصلح هذه الطريق إلا لأقوام كنسوا بأرواحهم المزابل، انتهى والله أعلم.

ومن شأنه: أن يبادر لخدمة بيوت الخلاء احتساباً لوجه الله تعالى، ولو كان لها خادم بأجرة، فيزيل ما على الملاقي وحول الميضأة من القذر، وليكن ذلك أوقات غفلات الناس، ضحوة النهار أو في السحر، بحيث لا يراه أحد، فإن للنفس لذة وحلاوة إذا عرفت بالتواضع أعظم من لذة الكبر لأصحابه. وكانت هذه وظيفة الإمام الغزالي وسيدي علي الخواص والشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري رحمهم الله تعالى.

وإذا رأى المطهرة ناقصة من الماء فينبغي له أن يكملها مساعدة للقيّم^(١)،

(١) القيّم: السيد وسائس الأمر.

لأن سنة السلف أن لا يتطهروا إلا من ماء لا مئة لأحد عليهم فيه، وإذا ملأ الفسقية^(١) شيئاً صار كأنه ملأ ماء طهارته، وينبغي أن يسقط مئته فيه عن المتوضئين. وبالجمله فما خدم أحد إخوانه إلا صار على وجهه نور وأنس، ولا تكبر عن ذلك أحد إلا صار على وجهه ظلمة.

وقد كان سيدي علي الخواص إذا لبس مرقعته التي يكنس فيها المساجد وينظف فيها الأخلية كأنها جواهر تضيء، فالزم يا أخي خدمة الإخوان يرض عنك الرحمن وتدخل أعالي الجنان والله تعالى أعلم.

ومن شأنه: أن يتخذ عنده الموسيقى والسكين والإبرة والمقص والمخرز والخيط ونحو ذلك مما يحتاج إليه عادة، وذلك ليرفع كلفته عن إخوانه وينفعهم بعاريته^(٢). وكذلك من أدبه أن يتخذ عنده المشط والخلال والسواك والقطيفة لمسح الأعضاء، والسجادة للصلاة عليها فيفرشها حيث أدركته الصلاة في غير المسجد. وتقدم في الباب الأول أن السلف الصالح ما اتخذوا السجادات للضخامة، حاشاهم من ذلك، وإنما هو لمصلحة الصلاة.

وقد أجمعوا على أنه لا يدخل الحضرة الإلهية من في قلبه مثقال ذرة من كبر. كما ورد في دخول الجنة. فإن الحضرتين كلاهما بين يدي الله ﷻ، ولو في صلاته وهما: عز النفس وشهود الغنى في نفسه عن فضل ربه غفلة لا حضوراً. فاعلم أن من تخلق بالذل والفقر لا يمنع من دخول حضرة الله تعالى في وقت من الأوقات.

ومن شأنه: إذا وقع في سوء أدب في حق أخيه أن يبادر إلى الاستغفار بكشف الرأس والوقوف عند النعال واضعاً يده اليسرى على اليمنى ليخالف هيئة الصلاة، مطرقاً برأسه إلى الأرض، نادماً على ما وقع منه في حق أخيه مثلاً، فإن لم يقبل أخوه اعتذاره فمن الأدب أن لا يجلس بل يبقى قائماً إلى أن يرحمه أخوه.

ويجب عليه أن يرجع على نفسه باللوم ولا يجيب عنها ذرة واحدة، بل يعترف بأنه ظالم على أخيه، فإن طال به الوقوف حتى خرج عن العرف، فينبغي على إخوانه أن يوردوا له الحديث: «من أتاه أخوه متنصلاً^(٣) من ذنب فليقبل ذلك

(١) الفسقية: حوض من الرخام ونحوه مستدير غالباً تمج الماء فيه نافورة.

(٢) العارية: الشيء المعار.

(٣) تنصل: تبرأ.

محققاً كان أو مبطلاً فإن لم يفعل لم يرد الحوض». رواه الترمذي وغيره.

وسمعت سيدي علي الخواص رحمته الله يقول: إذا جاء أخوك معتذراً فاقبلوه لا سيما إن أ طال الوقوف مستغفراً، فإن لم يجد أحدكم في قلبه رقة له فيرجع على نفسه باللوم ويقول لها: يأتيك أخوك مستغفراً في حقتك فلا تقبله، فكم وقعت أنت في حقه ولم تلتفتي إليه فأنت إذاً أسوأ حالاً منه.

ومراد القوم بذلك كله زوال الكدر لا غير، ومن رضي الكدر لنفسه فليس له في الطريق قدم، فإن رأس مال الإنسان هو قلبه والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يكون عنده حسد لإخوانه إذا كثرت طاعاتهم وانقلب الناس إلى اعتقاد فيهم، بل يفرح لهم كلما كثرت طاعاتهم، ويكون حريصاً على وقوع الأدب منه في إخوانه، وإذا عمل بأدب وجب أن يكون كلهم كذلك يعملون به حتى لا يتميز عنهم بشيء. وما زاد القوم على غيرهم إلا بمراعاتهم الأدب في كل شيء ومع كل شيء، حتى أنهم يوجهون أباريقهم كلها إلى القبلية ويرون ذلك من الأدب، وإذا كان الإناء لا وجه له كالكوز^(١) والزبدية جعلوا لها وجهاً بالنية ووضعوه للقبلية التي هي محل مناجاة الحق جل وعلا. وقد دخل جماعة زائرين على فقراء كانوا مشهورين بالخير فوجدوا أباريقهم لغير القبلية فردوا ولم يسلموا عليهم، وقالوا: لو كان هؤلاء من أهل الأدب لوجهوا أباريقهم إلى القبلية.

وسأتي في الخاتمة في آدابهم في السفر أنه يستحب لأحدهم إذا سافر أن يشدّ وسطه، ويقرب خطاه، فإنه يذهب شدة التعب. وفي الحديث: «إذا أحدكم سافر فليشدّ وسطه وليقارب بين خطاه». وإنه يستحب لأحدهم إذا سافر أن يودّع إخوانه بالعناق إن كانوا رجالاً، وإلا ودعهم بالإشارة إن كانوا صغاراً، ثم يسلم عليهم ويمشي القهقري، غير مولّ وجهه عنهم حتى يتوارى عنهم بجدار أو يبعد عنهم جداً. ثم إذا رجع ووصل إلى مقصده فلا يبادر إلى الاغتسال من عياء^(٢) السفر بل يصير إلى اليوم الثالث أو الرابع، وفي ذلك سر يذوقونه. وأما في الظاهر فهو أن المسافر يمسح من التعب، فربما ضربه الغسل وأورث عنده ضربان المفاصل بخلاف أعضاء الوضوء لكونها مكشوفة غالباً فلا يضرها ماء الوضوء

(١) إناء بعروة يُشرب به الماء.

(٢) العياء: التعب الشديد.

والله أعلم.

ومن شأنه: أن لا يرى نفسه على أحد من جماعة شيخ آخر فإنهم إخوانه في الطريق، لأن طريق أهل الله واحدة، ترجع إلى واحد وإن تعددت. وما اتخذ الناس لهم شيخاً إلا ليهذب أخلاقهم ويزيل رعوناتهم حتى يصير أحدهم يرى أن الناس كلهم ناجون وما هالك إلا هو.

فامتحن يا أخي نفسك بهذا الميزان، فإن رأيت نفسك صارت كذلك فأنت صادق في ادّعائك أنك انتفعت بصحبة شيخك، وإلا فما حصلت على شيء. وهذا الأمر قد كثر في فقراء هذا الزمان فيصحب أحدهم الشيخ إلى أن يموت ثم يصير مقرضاً^(١) في طوائف الفقراء لا يعجبه أحد منهم، مع أنه لا رآهم على كبيرة ولا إصرار على صغيرة. وهذا من أكبر المقت، نسأل الله العافية.

وترى أحدهم يقول: ما بقيت عيونا ترى أحداً مثل شيخنا فيقال لهم: ماذا انتفعتم به؟ فلا يجد شيئاً يقول. وكل جماعة يقولون: شيخنا قفل بعده باب الله، فلا يكاد ينتفع بأحد من أولياء عصره نسأل الله العافية.

ومن شأنه: أن يرى محاسن إخوانه ويعمى عن مساوئهم جملة واحدة، فلا يتجسس لهم قط على عيب حتى يحققه.

وقد كان الشيخ أبو مدين الكمساني رحمته الله يقول: الفتوة هي رؤية محاسن الإخوان والغيبة عن مساوئهم. وكان يقول: أنصف إخوانك واقلب النصيحة ممن هو دونك تدرك شرف المنازل، وكان يقول: من أخوج أخاه إلى سؤاله عن حاجة من الحوائج التي يقدر عليها فما وفى بحق صحبته ولا أخوته. وكان يقول: من لم يتفقد عيال أخيه في غيبته بما يحتاجون إليه فقد خان الصحبة.

وكان يقول: من ميّز بين ثيابه وثياب أخيه في الملك فما شمّ للصحبة رائحة، وإنما صحبته نفاق.

وكان يقول: ليس بأخيك من احتجت إلى استئذانه في أخذ شيء من كيسه.

وكان يقول: لا تكمل صحبتك إلا بانسراح صدرك بكل ما أخذه الإخوان

(١) المقرض: المقص. والمراد الأذية.

من مالك وثيابك وطعامك، ومتى وجدت انقباضاً لذلك فأنت منافق في صحبتك.

وكان يقول: من حق أخيك عليك أن تتحبب إليه بكل ما يحب حتى لا يجد في نفسه حرجاً من جهتك في شيء يتصرف فيه من مالك، ومن وجد ضيقاً في صدره وحزاة إذا أخذ شيئاً من مالك فما قمت له بواجب حقه عليك، فإن الحزاة التي يجدها أخوك حين يأخذ مالك مثلاً، إنما هي لبقية بقيت عليك من البخل، فاعمل يا أخي على الإحسان إلى إخوانك حسب طاقتك ليكون موتك عندهم أشد عليهم من موت أبيهم الشفيق، والحمد لله رب العالمين.

وقد كان رجل يعول^(١) ألف نفس فلما مات سمعوا صرير نعشه على أعناق الرجال، فأنشد شخص:

وليس صرير^(٢) النعش ما يسمعونه ولكنها أصلاب قوم تقصف
وليس عبير المسك ما تنشقونه ولكنه ذاك الثناء المخلّف

ومن شأنه: أن لا يحب العلو على أحد من إخوانه في أمر من أمور الدنيا، فقد أجمع الأشياخ على أن حب العلو على الناس من أقوى أسباب الانتكاس. هب أن العاصي من إخوانك ناقص المقام، فأنت أنقص منه، لأنك ترى نفسك عليه، فإنك إذا تأملت وجدت نفسك في التكبر أعظم منه فلم نفسك أولاً قبل غيرك.

وقد كان الشيخ أبو مدين رحمته الله يقول: انكسار العاصي خير من صولة^(٣) المطيع.

وكان يقول: من أحبّ العلو على إخوانه، فقد فتح باب الظلم من ولاة زمانه، ومن رأى نفسه على مشايخ عصره فقد فتح باب ظهور الدجاجة الفتّانين في الدين. فإن الدجل هو التمويه بالباطل في صورة حق، كما يدّعي الدجال الأكبر أنه يحيي ويميت، ويفعل الأمور التي لا تليق إلا بالحق جل وعلا، من

(١) يقول: يقوم بما يحتاج إليه عياله من طعام ونحوه.

(٢) الصرير: الطنين.

(٣) الصولة: السطوة والقهر.

باب الاستدراج والمكر به والله تعالى أعلم هو الفاعل في كل ذلك.

فاعلم أن من ينصح إخوانه لا يخرج من الإثم إلا إن رأى نفسه دون المنصوح، فينصح أخاه في حال رؤية أن أخاه أحسن حالاً منه، فإياك يا أخي والدعاوى الكاذبة ثم إياك، والحمد لله رب العالمين.

ومن شأنه: أن لا يغفل عن نصيح نفسه وإخوانه، فلا يطمع في ما في يد الخلق، ولا يصحب مبتدعاً، ولا امرأة، ولا يرى في شيخه نقصاً، ولا يغفل عن ذكر ربه، ولا عن شكره، ولا يتخلف عن مجالس الذكر ولا عن خدمة الصالحين واحترامهم، فإن فعل ابتلاه الله بالمقت بين العباد.

وقد قالوا: الطمع في الخلق شك في إيهام للخالق.

وقالوا: احذر من صحبة المبتدع إبقاءً على دينك، ومن صحبة النساء إبقاءً على قلبك.

وقالوا: من ظهر له في شيخه نقص عديم النفع به.

وقالوا: من غفل عن ذكر ربه فقد حُكِمَ الشيطان على نفسه.

وقالوا: من جالس الذاكرين انتبه من غفلته، ومن خدم الصالحين ارتفع بخدمته.

وهذه الأمور لا يستهين بها إلا جاهل تسرقه الطباع، فعليك يا أخي بالعمل بها والله يتولى هداك.

ومن شأنه: التواضع لكل من رفعه الله تعالى عليه في علم أو عمل أو جاه ونحو ذلك، أدباً مع الله تعالى الذي رفعه عليه، فإن الفقير الصادق دائر مع رضا الحق تعالى لا مع حظوظ نفسه.

وقد حكى لي شيخنا الشيخ محمد الشناوي رحمته الله أن شريفاً جلس عند سيدي ياقوت العرشي فصار الناس يقبلون يد ياقوت ورجله ولا يلتفتون إلى الشريف، فأخذ في نفسه من ذلك ما يأخذ البشر، فقال له سيدي ياقوت في أذنه سرّاً: يا سيدي إنما عظموني لأنني تبتعت جدودك في أخلاقهم، فانا تبتعت جدودك، وأنت تبتعت جدودي، يعني في الجهل، فلذلك عظموني دونك، انتهى.

ومن شأنه: أن يحثَّ إخوانه على مراعاة الله تعالى بقلوبهم، ولا يكفي أحدهم بشكر الناس له على ما يظهره من أعماله، مع أنه يجاهر ربه بالمعاصي فيما بينه وبين ربه، فإن ذلك من علامات المقت. وما قنع أحد بشكر الناس إلا كشف الله تعالى عورته وفضحه ولو على طول عقوبة له، وقد كان الشيخ أبو مدين عليه السلام يقول: الحق تعالى مطلع على السرائر والظواهر والضمائر، في كل نفس وحال، فأیما قلب رآه مؤثراً^(١) له، مراقباً له، حياً من رؤيته إليه، حفظه من الطوارق^(٢) والعوائق والمحن ومضلات الفتن.

وكان يقول: من لم يراقب نظر الله تعالى إليه، نظر أحوال نفسه بعين الدعوى، وأفعاله بعين الیاء، وأقواله بعين الافتراء.

وكان يقول: عمرك كله نفس واحد، فاحرص أن يكون لك لا عليك، وليس للقلب إلا وجهة واحدة، فمتى توجه إليها حُجب عن غيرها.

وكان يقول: إياك أن تراقب غير الله وتميل إليه إلا بإذنه، فمن فعل ذلك سلبه الله مناجاته.

وكان يقول: أضُرَّ الأشياء على العبد مخالطة من لا يرى حب ربه في أفعاله وأقواله وعقائده. وفي رواية أخرى: مِنْ أضُرَّ الأشياء على المريد صحبة عالم غافل عن مراعاة ربه بقلبه، ومنصرف جاهل بأحكام الشريعة، وواعظ يداهن^(٣) الناس ويرخص لهم طلباً لميلهم إليه والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحذّر إخوانه من الوقوع في الدعاوى التي لا يكون على ظاهرهم منها دليل، بل ولو كان على ظاهرهم دليل يحذّرهم من الدعوى أيضاً، ويأمرهم بستر المقام حتى يتولى الله تعالى إظهارهم بغير مراد منهم، وقد هلك في هذا الأمر خلق كثير. وقد قال الأشياخ: كل من رأيتموه يدّعي مع الله تعالى ما لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذروه، وكل من خرج إلى الخلق قبل وجود الإذن الإلهي الخاص فهو مفتون وهو مسخرة للناس، وما خرج الأولياء إلى الخلق إلا بعد أن هُددوا بالسلب إن لم يفعلوا.

(١) مؤثراً: مفضلاً غيره على نفسه.

(٢) الطوارق: ج طارقة وتعني عشيرة الرجل، والمراد الحفظ من الأذى والحوادث المفاجئة.

(٣) يداهن: يداري ويلين في القول.

قلت: وقد جاء شخص يطلب مني أن ألقنه كلمة التوحيد، فرأيته يحب الرئاسة، ومعلوم أن التلقين من غير مجاهدة على مصطلح الناس اليوم يزيده رعونة، فلم أجبه إلى ذلك، فاجتمع بعدي بعدة مشايخ ونكث عهدهم، وصار كل من نصحه يفارقه ويصير يحطّ عليه، وادّعى أن جماعة من أشياخ الطريق الذين ماتوا أتوه في النوم وقالوا له: ابرز إلى الناس، ولعله إبليس، فجمع له بعض جماعة من العوام وصار يقول لهم: أنا اليوم أكبر الأولياء وأوسعهم دائرة، والأقطاب^(١) كلهم من تحت أمري، فصار الناس يسخرون به وبالفقراء الموجودين في عصره، فحكمه حكم خلبوص المغاني، إذا خرج في بابة قاضي أو أمير فيضحك الناس عليه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولا يخفى أن الكرامات فرع المعجزات، وإن لم تكن كرامة الإنسان مصدقة لدعواه فهو كذاب، كما درج عليه السلف الصالح والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحثّ إخوانه على دوام الجُمِية^(٢) في الأبدان والقلوب والنفوس، وذلك بترك المخالفات وعدم الركون إلى الأغيار وترك الدعاوى، فإن من وقع في واحدة من هذه الخصال ولم يحتم عنها فهو معدود من رَعاع^(٣) الناس وأراذلهم، فكما أن قلوب من يحتمي تكون معمورة بذكر الله، كذلك يكون قلب من لا يحتمي محلاً للغفلة والوسواس.

وقد كان الشيخ أبو مدين يقول: لا ينفع مع الوقوع في المخالفات عمل، كما أنه لا ينفع المريض ما يصفه له الطبيب من غير حمية، وكما أنه لا يضر مع التواضع بطالة، كذلك لا ينفع مع الكبر عمل، انتهى والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحذّر إخوانه من أن يطلبوا بعباداتهم مقاماً أو حالاً، فإن من طلب لنفسه حالاً أو مقاماً فهو بعيد عن طرقات المعارف، وكذلك ينبغي له أن يحثهم على عمارة أوقاتهم بالموافقات ويسألهم أن يحثوه كذلك.

وقد أجمع أهل الطريق على أن كل من طلب بأعماله مقاماً سقط من عين

(١) القطب: هو القائم بحق الكون والمكوّن وهو واحد وقد يطلق على من تحقق بمقام وعلى هذا يتعدد في الزمان الواحد أقطاب في المقامات.

(٢) الجُمِية: الامتناع عما يضر.

(٣) رَعاع: غوغاء وسفلة.

رعاية الله ﷻ. وقالوا: إن أقامك ثُبَّتْ وإن أقمت نفسك سقطت. وقالوا: من لم يستعن بالله تعالى على نفسه صرعته. وقالوا: من طلب الظهور بنفسه خرب قلبه وتعسر عليه الوصول إلى شيء من أحوال الصادقين، فهو يدَّعي الصلاح والحق تعالى يكذِّبه وملائكته وأولياؤه، ثم يحشر يوم القيامة في جملة المنافقين.

ومن شأنه: أن يحث إخوانه على العمل على تحصيل مشاهدة الحق تعالى في حال عملهم، فإن الأخ الصادق ربما يقوم في بعض الأوقات مقام الشيخ. وقد طالت الطريق على غالب الناس من غفلتهم عما قلناه، فحجبوا بالأعمال عن المعمول له، ولو أنهم كانوا لاحظوا المعمول له لاشتغلوا به عن رؤية الأعمال شتآن بين من همته الحور والقصور، وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور.

وقد كان الشيخ أبو العباس المرسى يقول: من لم يقم بآداب أهل البدايات، فكيف يستقيم له مقامات أهل النهايات.

وسمعت سيدي علي الخواص ﷺ يقول: كل عمل لا يحضر فيه العبد مع ربه فهو كالميتة، وهو بالنفاق أشبه، وذلك لأنه يوهم الناس أنه حاضر مع الله تعالى حال مناجاته، والحال أنه مع الخلق، وهو نفاق. ﴿إِنَّ الْمُتَفَيِّقِينَ فِي الذَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١) وإنما كانوا كذلك للعبهم بالأديان. ومن هنا أباح الشرع نكاح الكتايات^(٢) للمسلم وحرّم نكاح من لا كتاب لها فافهم انتهى.

وسمعت أيضاً يقول: إنما أشغلهم برؤية أعمالهم لأنهم لم يصلحوا لمعرفته والله أعلم.

ومن شأنه: أن يحذّر إخوانه من كل شيء يؤذيهم ويوقفهم عن السير، وقد قالوا: من ضيّع حقوق إخوانه ابتلاه الله تعالى بتضييع حقوقه.

وكان الشيخ أفضل الدين لا يكاد يترك نصيح إخوانه في شيء ويقول: من غشّ إخوانه فهو دليل على غشه لنفسه، ورأى مرة شخصاً يرُدُّ ما يعطيه له الناس فقال: يا أخي ترك الدنيا للدنيا شرٌّ من أخذها ففتش نفسك فربما أتاك أخوك بشيء فرددته خوفاً أن يسقط مقامك وجاهك من قلبه لا الله تعالى.

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٢) الكتايات: أهل الكتاب اليهود والنصارى.

وسمعتة مرة أخرى يقول: إياكم أن تفتحوا على أنفسكم باب تقدير مقامات الطريق لإخوانكم، فتقطعوا بذلك عن السير، فإن ذلك إنما هو من وظيفة الأشياخ انتهى والله أعلم.

وكذلك أن يحذر إخوانه من مجالسة أهل البدع فإنها مجربة لإماتة القلب. وقد كان السلف الصالح كلهم يقولون: من كان فيه أدنى بدعة فاحذروا من مجالسته، فمن تساهل في ذلك عاد عليه شؤمها ولو بعد حين.

وقد كان الشيخ أبو مدين رحمته الله يقول: بلغنا عن مالك رحمته الله، أنه كان يقول: من اكتفى بالتعبد دون الفقه خرج وابتدع، ومن اكتفى بالكلام في العلم دون الاتصاف بحقيقته تزندق^(١) وانقطع، ومن اكتفى بالفقه دون العمل به اغترأ وانخدع، ومن عمل بما علم تخلّص وارتفع، ومن لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من تبع والله أعلم.

* * *

(١) الزندقة: القول بأزلية العالم وتطلق على كل شك أو ضال أو ملحد.

خاتمة

آداب القوم وشروطهم العامة من مريد وشيخ

اعلم رحمك الله أن دائرة طريق القوم تبتدىء من بعد انتهاء دائرة غيرهم، لأن كل أدب في الشريعة في باطنه أدب آخر يسميه أهل الله تعالى الاعتبار^(١)، أي يعبر من ظاهر الفعل إلى باطنه، فتكون صورة الفعل واحدة والقصد يختلف، كمن يريد بعبادته الأجر في الآخرة، ومن يريد بها القيام بواجب حق الربوبية، وإنه لا يستحق على ربه بخدمته شيئاً حتى يطلبه منه.

فصورة قاصد الثواب كصورة من لا يطلبه على حدّ سواء، ونظير ذلك أيضاً من يغسل أعضائه من الحدث الظاهر أو النجس ومن يغسلها بالتوبة من سائر المعاصي حال غسلها فنية الأول مقصورة على رفع الحدث والنجس الظاهر، ويزيد عليه الثاني رفع النجس الباطن من استعمالها - أي الأعضاء - في غير ما شرع لها، لا سيما القلب الذي هو أمير البدن كله فإنه إذا فسد أفسد الجسد كله، فلا بد من غسله من سائر المعاصي، كالكبر والعجب والنفاق والرياء والحسد والحقْد واحتقار الناس وغير ذلك. ويجمع الآفات كلها محبة الدنيا، كما أشار إليه قول عيسى عليه الصلاة والسلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». فلم يخرج عنها خطيئة واحدة. ولعل من قَصُر بصره على الحدث الظاهر لا يخطر في باله التوبة من حب الدنيا أبداً.

وقد كان الفضيل بن عياض رحمته الله يقول لأصحابه: اجلسوا بنا نتوب من الذنب الذي لا يهتدي إليه الناس، وهو حب الدنيا، من مال وطعام وكلام ومنام، فإن هذه الأربعة هي محبة الدنيا انتهى.

(١) الاعتبار: أن يرى الدنيا للفناء والعاملين فيها للموت وعمرانها للخراب وقيل هو اسم المعتبرة وهي رؤية الدنيا كلها باستعمال النظر في فناء جزئها.

واعلم يا أخي أن كل من دخل الطريق بحق وصدق علم أن في القوم مجتهدين في طريق الباطن، كالمجتهدين في الطريق الظاهر. فكما أن المجتهدين في الشريعة استنبطوا منها آداباً وأحكاماً وشروطاً وواجبات ومحرمات ومكروهات، فكذلك المجتهدون في طريق القوم، فإياك والإنكار عليهم إلا بعد دخول طريقهم، وهناك لا تنكر عليهم إلا ما خالف جميعهم أو جمهورهم إذا علمت ذلك.

فأقول وبالله التوفيق:

من آدابهم: أن يجتمعوا في الأكل على السفرة، ولا يأكلون فرادى إلا لعذر شرعي، ولهم أن يشتركوا في الخبز دون الإدام^(١) وعكسه.

قال سيدي يوسف العجمي رحمته الله: وكان السلف الصالح يجتمعون في الخبز والمِرْقَة جميعاً ويأكلون على وجه الإيثار، فلما غلب على بعض الفقراء الحرص والشره قسموا الطعام دفعاً للظلم.

وليحذر فقراء الزاوية أن يتخلق أحد منهم بكبر فلا يجلس على سِمَاط الفقراء ويطلب الأكل وحده في الخلوة، فإن ذلك علامة على عدم فلاحه في الطريق، وهو بداية خروجه من يد التربية. ويقع ذلك كثيراً لمن صاحب أبناء الدنيا وأظهر لهم الضخامة فهو يستحي منهم أن يرويه وهو جالس مع العميان والمساكين، يأكل على سِمَاطهم، ولو أن تخلفه عن الأكل معهم كان تورعاً من أكل الصدقات مثلاً.. لما كان يأكل من خبز الزاوية إذا خلا وحده، فتأمل والله أعلم.

ومن آدابهم: أن لا يعض أحدهم اللقمة واللحمة والقلقاسة^(٢) فيجدها حارة مثلاً فيردها إلى الوعاء، لأن ذلك تعافه^(٣) النفوس. وكذلك لا ينبغي له أن يتناول لقمة كبيرة ثم يقطعها بفمه ويرد باقيها للقصعة. وكذلك من الأدب أن لا ينظر إلى جليسه في الأكل، لأن ذلك ربما أخجله، وإذا وضع الخادم السِماط وأراد أنهم يأكلون قال بأعلى صوته: الصلاة الصلاة.

(١) الإدام: ما يُسْتَمَرُّ به الخبز.

(٢) القلقاسة: بقلة زراعية عُسْقُولِيَّة من الفصيلة القلقاسية.

(٣) تعافه: تكرهه وتركه.

ولهم في ذلك حديث يستندون إليه وهو قوله ﷺ: «وإماطتك الأذى عن الطريق صلاة وإعانتك أخاك على دابته ليركبها صلاة إلى أن قال وكل معروف صدقة». والأكل من المعروف، لأنه في الأصل إما واجب أو مندوب فافهم.

قالوا: وإن كان الشيخ حاضراً فينبغي أن يقول الصلاة لأنه صاحب الإذن حقيقة، والنقيب إنما هو نائبه في ذلك.

ومن آدابهم: قلة التحدث على الأكل، وقلة الضحك والمزح، فإنهم حقيقة على مائدة الله ﷻ، وهو ناظر إليهم وإلى آدابهم وإيثارهم لبعضهم وشكرهم له.

قالوا: ولا بأس بالحكايات اللطاف في الأمور المتعلقة بآداب الأكل مما فيه ترغيب في قلة الأكل أو النهي عن الإكثار منه ونحو ذلك.

وقد سمعت الشيخ أبا بكر الحديري يحكي عن الأكل للشيخ محمد المنير بن عنان وللشيخ عبد الحليم وللشيخ محمد العدل وللشيخ محمد بن داود، أن طفلياً حضرته الوفاة فقال له ولده: يا أبت أوصني وصية أذكرك بها، فقال: يا ولدي إذا جئت إلى سماء ولم يُفْسَحوا لك فاجلس وراء أحد منهم وخرش في ظهره فإذا التفت إليك قل له: أضيّق عليكم؟ فيخجل ويقول: لا، ويفسح لك حياء منك، فإذا فسح لك فادخل وزاحمه فإنه يتأخر عنك فتملك أنت السماء، فضحك المشايخ كلهم ﷺ.

ومن آدابهم: كذلك إذا جلس أحدهم على مكان السماء أن لا ينتقل عنه إلى مكان آخر إلا لمصلحة بعد مشاورة الشيخ أو الخادم، ولا ينبغي للخادم أن يخصّ أحداً بطعام إذا كان الطعام متنوعاً، فإن في ذلك تفرقة لقلوب الضعفاء من الفقراء، وإن احتاج أحدهم إلى شرب الماء في وسط الأكل فلا بأس، ولكن يأخذ عروة الكوز مثلاً الخنصر والبنصر أو يأمر أحداً يسقيه بيده النظيفة، ولا يأخذ الكوز أبداً بالأصابع التي يأكل بها الطعام، لا سيما الزفر كالسمك أو البصل أو الثوم.

قال الشيخ نجم الدين البكري: وإذا شرب فليشرب ووجهه إلى القوم ولا يصرف وجهه عنهم كما يفعله العوام بقصد الاحترام، وإذا كان هناك أحد يجهل هذا الأدب فليعلمه به قبل أن يشرب ليحفظه من الإنكار عليه بالجهل.

قال: وكذلك لا ينبغي له أن يؤثر أحداً ظاهراً ولا من هو فوقه في الدرجة

من شيخ أو أمير أو عالم، وإنما يؤثر على من هو دونه في العادة الظاهرة للناس، وإلا فمعلوم أنه لا يجوز له أن يرى نفسه على أحد إلا على وجه الشكر، وإلا فقد يكون من يراه الناس دونه أعظم من الحاضرين كلهم عند الله تعالى.

قالوا: ولا ينبغي له أن يواجه أحداً بالإيثار بل يَنْحِي^(١) له الطعام قليلاً قليلاً، فإن كان أخوه محتاجاً إليه مدَّ يده إليه وجَّره إلى عنده وإلا تركه.

ولا ينبغي أن يقول أحدهما للآخر: خذ أنت هذا الورك^(٢) فيقول الآخر: ما يأخذ إلا أنت، فتصير عيطة وخبطة ويجعلوا لذلك الورك قدراً عظيماً.

وكان أخي أفضل الدين رحمته الله إذا أُلِحَّ عليه في أكل شيء يمتنع من أكله ويقول: إن إلحاحه علي دليل على شدة بخله، وطعام البخيل داء كما ورد في الحديث.

قال الشيخ نجم الدين البكري رحمته الله: وإذا قال الخادم أو الشيخ «الصلاة» أول الأكل وهناك فقير لا يريد الأكل فمن الأدب جلوسه معهم على السفرة موافقة لهم، ولو لم يأكل، كما قالوا فيمن دعي للوليمة أن يحضر ثم إن شاء أكل وإن شاء ترك. قال: وإذا قال الشيخ أو الخادم للفقراء آخر الأكل أشكروا الله تعالى فمن الأدب المبادرة إلى القيام.

قالوا: ولا ينبغي لأحدٍ ممن قام أن يقرأ القرآن أو يؤذِّن أو يصلي حتى يفرغ الفقراء كلهم من غسل أيديهم إلا لضرورة شرعية، لضيق الوقت، أو خوفاً من انقطاعهم عن الرفقة إذا كانوا مسافرين.

قالوا: وإذا فرغ أحدهم من غسل يده فليدُع لمن يصب عليه بنحو طهره الله من الذنوب، وليتحذر الذي يصب على الفقراء من وقوع الصابون في الغسالة التي في الطشت أو البالوعة، فإن وقع منه فليصب عليه ماء طيباً ثم يستعمله.

واختلفوا في أخذ الصابون أو الأشنان^(٣) من صاحب الدستور هل يأخذ منه

(١) نَحَّى الشيء: أبعد وأزاله عن مكانه.

(٢) الورك: ما فوق الفخذ.

(٣) الأشنان: شجر من الفصيلة الرِّمَامِيَّة ينبت في الأرض الرملية يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي.

باليمنى أو باليسرى، ولكل واحد وجه. وكذلك اختلفوا في كنس الحصر أو البسط بعد الطعام، فمنهم من قال: يكنس باليسرى ويجعل اليمنى لدفع الفتات الذي على الأرض، ومنهم من قال: يكنس باليمنى لجريان العادة بذلك، فإنه طعام يستحب أكله كما ورد.

ومن شأنهم: أن لا يقول أحدهم: لي أو ثوبي أو نعلي إلا مع الحضور، إن ذلك من نعم الله تعالى عليه، دون أن يقول ذلك مع الغفلة وأدعاء الملك، وإنه ينبغي لأحدهم أن يقول: أين الثوب؟ أين النعل؟ ونحو ذلك، والسر في ذلك أن من شرط القوم أن لا يروا لهم مُلكاً لشيء يتخصصون به عن إخوانهم، بل كل من احتاج إلى شيء مما في يد غيره عادة أخذه منه بطيبة نفس، وهناك تنزل عليهم الرحمة إن شاء الله تعالى.

ومن آدابهم مع الله تعالى: وقليل فاعله أن يتعرضوا لنفحات الحق تعالى الواقعة في الليل والنهار فإن له تعالى نظرات إلى قلوب عباده في كل يوم وليلة، فيمنحهم تعالى فيها من لطائفه ومعارفه وأسراره ما يشاء بقدر استعدادهم، فإذا فرقك شخص ساعة واحدة، أو أعرض عنك نفساً واحداً، وأنت جالس معه ثم عاد إليك وجب عليك التهيؤ للقائه بالحرمة والتعظيم إحساناً للظن به، لأن الله تعالى نفحه نفحة أو نظر إليه نظرة من تلك النظرات فصار بها أعلى مقاماً منك.

ثم إن كان ذلك الأمر صحيحاً فقد وفيت معه الأدب، وإن لم يكن كذلك فقد تأدبت مع الله تعالى حيث عاملته بما تقتضيه المرتبة الإلهية من الكرم على كل وارد على حضرتها.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمته الله: وهذا الأمر قلّ من يتفقد نفسه فيه من الفقراء، وذلك لاستحكام الغفلة على قلوبهم والله أعلم.

ومن آدابهم: أن لا يحتجوا عن أحد إلا لعذر، ولا يقولوا لمن قصدهم في حاجة أن ارجع وتعال لنا وقتاً آخر، ولا يمنعوا سائلاً أبداً إلا لحكمة لا لبخل ولا شح، كما مرّ تقريره في الأبواب السابقة.

وكذلك من أدبهم إخراج الميل إلى الكونين من قلوبهم دون الله تعالى، والإيثار بجميع ما يدخل في يدهم على إخوانهم المسلمين.

كذلك من أدبهم الاغتراب عمداً عن كل موضع عظمهم الناس فيه وخافوا

منه الفتنة وهجران من لا خير فيه، مع عدم اعتقاد السوء فيه، فيعامله معاملة من يسيئ به الظن من غير سوء ظن، وإن كان تركه للخلق خوفاً من أن يشغلوه عن الله تعالى فهو غرض غير صحيح والله أعلم.

ومن آدابهم في السماع المعروف بين القوم أن لا يفعلوا فيه خوفاً من الوقوع في النفاق.

قال السهروردي رحمته الله: ومن أدلة السماع ما روي أن الله تعالى خاطب الذر في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(١) واستفرغت عذوبة ذلك الكلام الأرواح.. فلذلك كانت تطرب وتحرك كلما سمعت أمراً مطرباً، لأنه يذكرها بالسماع الأول.

وكذلك كان الجنيد رحمته الله يقول: وكان أبو علي الدقاق رحمته الله يقول: الحرام من السماع سماع العوام لبقاء نفوسهم ورعوناتها، والمباح منه سماع الزهاد لحصول مجاهداتهم، والمستحب هو سماع أصحابنا لأنه يحيي قلوبهم.

وكان الحارث المحاسبي يقول: مما يتمتع به الفقراء سماع الصوت الحسن مع الديانة.

وسئل ذو النون المصري رحمته الله عن السماع عند الصوت الحسن فقال: معلول وإن كان فيه مخاطبات وإشارات. وسئل عنه مرة أخرى فقال: هو وارد حق يزعج القلوب إلى حب القرب من حضرة الحق تعالى، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق، أي خالف باطنه ظاهره. وكان الجنيد رحمته الله يقول: تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن. فذكر منها السماع، قال: وذلك أنهم لا يسمعون إلا عن حق، ولا يقومون إلا عن وجد.

وكان الجنيد رحمته الله يقول: السماع فتنة لمن طلبه، ترويح لمن صادفه. وكان يقول كثيراً: السماع يحتاج إلى ثلاثة أمور المكان والزمان والإخوان.

وكان أهل عصر سيدي عمر بن الفارض يقولون: كل سماع لا يحضره سيدي عمر فليس فيه بسط، وذلك لأنه كان يحرك الجماعة. وعمل بعض الأكابر جمعاً ودعا الفقراء فأنشد القول إلى أن سئم فلم يحصل لأحد منهم وجد،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

فأرسلوا وراء سيدي عمر يجعله فحضر، فقال للمنشد: أنشد ما بدا لك فأنشد يقول:

لي بالحجاز وديعةً خلّفتها أوّدعها يوم الفراق دموعي
فقام سيدي عمر ودار وتواجد فتواجد كل من كان هناك، ذكره الشيخ عبد الغفار القوصي رحمته الله. وكان الشبلي رحمته الله يقول: السماع ظاهره فتنة وباطنه عبّرة^(١)، فمن عرف السماع وفتنه خاف منه. وكان يقول: لا يصلح السماع إلا لمن ذبح نفسه بسيوف المجاهدات^(٢) وأحى قلبه بنور الموافقات، وهو لأهل المعرفة غذاء لأرواحهم.

وكان أبو علي الروزباري رحمته الله إذا سئل عن السماع يقول: ليتنا نخرج منه رأساً برأس. وكان أبو عثمان المغربي رحمته الله يقول: من ادعى السماع بصدق ولم يستمع من صرير الباب وصوت الطيور تصفيق الرياح فهو مفتر مدّع، وذلك لأن الباعث للسماع عند الصادقين شهودهم أن كل شيء ورد عليهم إنّما ورد من حضرة الله تعالى، فهم من صاحب الحضرة لا مع من ورد عليهم، ولذلك تساوى عندهم صوت الحمار وصوت أحسن الناس صوتاً، ثم إذا غلب حال القوم في السماع فمن الأدب التسليم لهم إذا صاحوا أو مزقوا ثيابهم أو بكّوا على حسب ما يكون أحوالهم. وكان أبو عثمان الحيري يقول: السماع على ثلاثة أوجه: فوجه للمريدين والمبتدئين يستدعون بذلك الأحوال الشريفة، ولكن نخشى عليهم من ذلك الفتنة والرياء. ووجه للصادقين يطلبون بذلك الزيادة في أحوالهم. والوجه الثالث لأهل الاستقامة^(٣) من العارفين^(٤)، وهو تساوي الحركات والسكون عندهم.

وكان أبو سعيد الجداري يقول: من ادعى أنه مغلوب في السماع فعلامته الصحيحة أن لا يبقى في ذلك المجلس محق إلا أنس به، ولا مبطل إلا

(١) العبرة: العظة.

(٢) المجاهدات: صدق الافتقار إلى الله تعالى بالانقطاع عن كل ما سواه. وقيل بذل النفس في رضا الحق.

(٣) الاستقامة: أن تجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعصية. وحقيقتها لا يطبقها إلا الأنبياء وأكابر الأولياء وهي على ثلاثة ضروب: استقامة اللسان على كلمة الشهادة، واستقامة الأركان على الجهد في العبادة، واستقامة الجنان على صدق الإرادة.

(٤) العارف من قصد التوجه إلى الله تعالى ووصل إلى شهود الحق ورسخ فيه.

استوحش منه .

وكان الشيخ محيي الدين يقول : إذا كان الرجل ممن لا يجد قلبه مع الله تعالى إلا في السماع ، فالواجب عليه ترك السماع أصلاً ، لأن في ذلك مكرراً إلهياً خفياً لا يعرفه كل أحد . وإن كان يجد قلبه فيه وفي غيره ، ولكن يجده في النغمات أكثر ، فحضوره حرام ، لا نعني بسماع النغمات الغناء بالشعر فقط ، وإنما نعني به سماع النغمات بالغناء وغيره .

قال : وإذا وجد الفقير قلبه في سماع القرآن لحسن صوت القارئ ، ولم يجد قلبه فيه إذا سمعه من قارئ آخر ، فسماعه معلول ، وتلك الرقة التي يجدها في قلبه من الطبيعة الإنسانية ، ذكره في الباب الثالث والثمانين ومائة من «الفتوحات»^(١) .

وكان الجنيد يقول : إذا رأيت المرید يميل إلى السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة .

وكان سهل بن عبد الله عليه السلام يقول : معنى السماع علم استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو ، والعبارات تقصر عنه ، ولكن الصادقون تشير إليهم المعاني فيستريحون بذلك من تعب الحجاب .

ولما دخل ذو النون المصري بغداد في المحنة التي عمد من مصر إليها ، اجتمع عليه صوفيتها ومعهم موال فاستأذنه بأن يقول بين يديه شيئاً فأذن لهم فأشد يقول :

صغيرُ هواك عذْبني	فكيف به إذا احتنكا ^(٢)
وأنت جمعت في قلبي	هوئى قد كان مشتركا
أما ترثي لمكتئب	إذا ضحك الخلي بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه وصار الدم يقطر من جبينه ولا ينقط على الأرض منه شيء ، فقام رجل من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : هو الذي يراك حين تقوم فجلس .

(١) الفتوحات المكية للشيخ محيي الدين بن العربي .

(٢) احتنك الرجل : صار حكيماً مهذباً .

قال أبو علي الدقاق: كان ذو النون في هذه الحكاية صاحب إشراف على ذلك الرجل حين نبهه أن ذلك ليس من مقامه، وكان ذلك الرجل صاحب إنصاف حيث قبل ذلك وجلس بسرعة ولم يفعل.

وكان الشبلي إذا استمع يملح شجرة الجميز أو الجوز من قوة حاله انتهى.

ورأيت سيدي محمد السروري يستمع في زاوية المتبولي، فحمل على كفه الأيسر تيغاراً كبيراً ملائناً ماء فصار يدور به، ورأيت مرة أخرى حمل المنشد بيد واحدة ورمى به على رجل آخر. وكان إبراهيم المارستاني يقول: بلغني أن موسى عليه الصلاة والسلام قصّ يوماً في بني إسرائيل فمزق واحد منهم قميصه، فأوحى الله تعالى إليه: قل له مزق لي قلبك ولا تمزق لي ثيابك.

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي رحمته الله أن الشيخ أبا محمد الهاشمي الشريف رحمته الله سئل عن السماع فقال: لا أدري ما أقول فيه، ولكنني حضرت في دار شيخنا أبي الحسن التميمي سنة سبعين وثلاثمائة وقد عمل دعوة دعا فيها الإمام أبا بكر الأبهري شيخ المالكية، والشيخ أبا القاسم الداركي شيخ الشافعية، والإمام طاهر بن الحسين شيخ الحديث، والشيخ أبا الحسن ابن سمعون شيخ الوُعَاظ والزهاد^(١)، وابن مجاهد شيخ المتكلمين، والقاضي أبا بكر الباقلاني، وابن الحسن شيخ الحنابلة، وجماعة أخرى من العلماء، فقالوا لشخص حسن الصوت: أسمعنا شيئاً، فأنشد لهم شعراً من جملته:

غَطَّتْ أَنَامِلُهَا فِي بطنِ قُرطاس^(٢) رسالة بعبير لا بأنفاس

أُنْظِرْ فديتك لي من غير محتشم فغن حبك لي قد شاع في الناس

فكان قولي لمن أدى رسالتها قف لي لأسعى على العينين والراس

قال السيد الشريف: فبعد أن رأيت هؤلاء الأشياء يسمعون لا يمكنني أن أفتي بعدم السماع، فإن هؤلاء هم أكابر مشايخ العراق، حتى أنه لو سقط السقف لم يبق في العراق من يفتي في حادثة انتهى.

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب «المنن والأخلاق» في الباب الثامن

(١) الزهاد: هم الذين قصدوا التوجه إلى الله تعالى وغلب عليهم الترك.

(٢) القرطاس: الصحيفة التي يكتب بها.

منها .

وكان يوسف بن الحسين الرازي رحمته الله يقرأ القرآن ويسمعهن فلا يحصل عنده تواجد، فسمع يوماً شخصاً يقول:

رأيتك تبني دائماً في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني
فصاح وبكى حتى ابتلت ثيابه ولحيته، ثم قال: تلوموني على قول بعض
أهل الدار إني زنديق وهو ذا، أقرأ القرآن من الصباح إلى المساء لم يقطر من
عيني قطرة، وقد قامت عليّ القيامة بهذا البيت .

وقيل لإبراهيم الخواص رحمته الله: ما سبب ترك الإنسان عند سماع الأشعار ويجد
في سماعها ما لم يجد في سماع القرآن؟ فقال رحمته الله: إنما لم يغلب على الناس
التواجد عند سماع القرآن لثقل ما فيه من التكليف، فكأنه صدمة لا يمكن التحول
معها، بخلاف سماع الأشعار لأنها تروّج القلب لعدم التكليف فيها .

وكان ابن الدراج يقول: مررت على قصر حسن على الدجلة فرأيت رجلاً
بهياً^(١) المنظر وبين يديه جارية تغني وتقول: في سبيل الله وُدّ كان مني لك يذل .
كل يوم تبدل غير هذا بك أجمل . فسمعها شاب عليه مرقعة تحت القصر فقال
لها: أعيدي فأعادته، فقال الشاب: هذا صورة تلوّني مع الحق تعالى، ثم شهق
شهقة خرجت روحه، فكفناه ودفناه فعلم بذلك صاحب القصر فقال: أشهدكم أن
كل شيء بيدي الله تعالى، وكل ممالئكي^(٢) أحراراً، ثم جعل في وسطه إزاراً
وعلى كتفه رداء فخرج ولم يعرف له بعد ذلك خبر .

وقال أبو سعيد الخراز رحمته الله: رأيت عليّ بن الموفق في السماع وهو يقول:
أقيموني أقيموني فأقاموه فقام فتواجد . وقام الداعي ليلة إلى الصباح بهذا البيت
والناس قيام يبكون:

أرددوا فؤاد مكـتـئـب ليس له من حبيبـه خلف
قال القشيري رحمته الله: وكان الإمام سهل بن عبد الله التستري يسمع القرآن والذكر
وغير ذلك فلا يتغير، فلما كان في أواخر عمره صار يتواجد ويقول: ضعفنا والله

(١) بهي: حسن وجميل .

(٢) الممالئك: العبيد .

عن التحمل وصار واردنا أقوى منا .

وكان أبو عثمان المغربي يقول: سمعت على البثر تقول: الله الله الله .

وكان خير النساج رحمه الله يقول: قص موسى عليه الصلاة والسلام يوماً على بني إسرائيل فزقق^(١) واحد منهم فانتهره موسى فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى بحبي باحوا، وبطيبي تاحوا، وبوجدي صاحوا، فكيف تنكر عليهم! انتهى .

وكان عود بن عبد الله له جارية حسنة الصوت، فكان يأمرها بالغناء فتغني له بصوت حزين حتى تبكي القوم .

وكان أبو سليمان يقول: كل قلب لا يحركه إلا الصوت الحسن فهو ضعيف، فيداوى كما يداوى الصبي إذا أردت أن تنومه . وكان يقول: الصوت الحسن لا يدخل في القلب شيئاً، وإنما يحرك ما كان ساكناً فيه من الشوق إلى الله تعالى .

وكان لسيدي عمر بن الفارض جوارى يغنين له فيقوم ويتواجد وكان يتغالى في شرائهن لأجل حسن صوتهن .

وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله يقول: السماع في كل وقت أنفع ما يكون للضعفاء يأخذ كل عضو نصيبه منه فما ينزل على العين يبكيها، وما ينزل على اللسان يصيح به، وما ينزل على اليد تمزق به الثياب وتلطم به الوجه، وما يقع على الرجل يرقص به . انتهى .

وحكى الشيخ تاج الدين بن عطاء الله أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام سئل عن سماع الغناء فقال: مثل ماذا؟ فقال: مثل قول القائل:

غُنَّت فأخفت صوتها في عودها فكأنما الصوتان صوت العود فقال الشيخ عز الدين: أعدّه عليّ، فقال السائل: يكفيني منك في إباحته انتهى .

وسمعت سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: يحرم على الشيخ الذي يقتدى به أن يسمع من آلات اللهو لأنه يفسد أتباعه لغيهم^(٢) عن مشهده انتهى .

(١) زقق: صاح .

(٢) الغي: الضلال .

وأجمع القوم على أن كل ما جمع القلوب الشاردة عن حضرة الله ﷺ فهو حسن، قلت والمراد بحضرة الله ﷺ حيث أطلقت في لسان القوم شهود العبد أنه بين يدي الله ﷺ، فما دام هذا مشهده فهو في حضرة الله، فإذا حجب عن هذا المشهد فقد خرج منها والله أعلم.

وذكر الشيخ محيي الدين وغيره: أن من أدب القوم في السماع أن لا يكون هناك من ليس من أهل طريقة أو من أهل طريقهم، لكنه ينكر السماع ولا يقول به، وذلك لأنه يقبض القوم بتغيره لكونه أقوى منهم، إذ النفس تحب السماع بالطبع، وإنما تكره لمشاهدتها حالة أخرى أعظم من السماع، فلذلك كان لها سلطان على نفوس السامعين لبطونها، فعلم أنه يجب في صحة السماع أن يكون جميع السامعين على قلب رجل واحد.

قالوا: وإن وقع أن يكون القَوَال من القوم أو من المعتقدين فيهم كان أحسن.

قالوا: وإذا القوال من العوام الخارجين عن طريق القوم فينبغي لهم أن يزيده في العطاء لينبعث ويخلع، ويباسطوه حتى يميل إلى القوم، لأن النفس مجبولة^(١) على حب من يحسن إليها.

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول: لا ينبغي من الفقراء أن يطلبوا من القوال إنشاد شيء معين، بل يتركوه على حسب ما يُنطقه الله تعالى به، وذلك أبعد عن حظوظ النفس، ولكن إن كان الشيخ حاضراً وأمر القوال أن ينشد شيئاً معيناً فلا بأس، لأنه أعلم بما يحرك قلوب الجماعة انتهى.

قال الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله: وإذا ظهر للقوم سامة^(٢) من القوال أو كسل أو رأوا صوته يفرق قلوبهم، فمن الأدب أو يسكتوه. ويجب عليه أن لا يتشوش منهم، فإن تشوش فلا يصلح للإنشاد إلا إن تاب انتهى.

وإذا أسكتوه فيشتغلون بنفوسهم أو يأخذون في الذكر حتى يحصل للقوال باعث ويحصل بإنشاده الجمعية، لكن يكون الذكر على طريقة واحدة موزونة وهي

(١) مجبولة: مخلوقة طبعاً.

(٢) السامة: الملل.

أحسن عند المحققين من سماع القوال، وأقوى في الاستعداد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قالوا: وإذا حرك القوال صاحب حال ووقع منه شيء من ثيابه فهو القوال خاصاً، فإن في الحديث: «من قتل قتيلاً فله سَلْبُهُ».

قالوا: وإذا كان التواجد من معنى آخر خلاف قول القوال، ووقع منه ثوب فهو للجماعة، فيشركهم فيه القوال لأنه من الجماعة. والمتواجد مصدق فيما يدعيه من حصول السبب الذي تواجد منه، فلا ينبغي أن يكذبه أحد، إذ التهمة لا تكون بين القوم.

قالوا: وإذا تحرك شيخ القوم وسقط منه شيء فالحكم فيه للشيخ ليس لهم أن يتحكموا في خرقة شيخهم، ولكن يجب على الشيخ أن يقسمها بينهم ولا بد، فإن أمسكها ولم يحكمهم فيها ولا قسمها بينهم فقد خرج عن طريق القوم. وللجماعة أن يجتنبوه، للمريدين أن يقتدوا به في مثل ذلك أبداً.

ثم إن إمساكه الخرقة قد يكون لأحد أمرين: إما لبخل ما طرأ عليه لعدم عصمته، وإما لطلب الستر لحالهم لسوء هذا الأدب حتى يسقط من عين الجماعة، وكل من هذين الأمرين لا يليق بالمريد اتباع هذا الشيخ فيه وإن تبعه فلا يفلح لأنه إذا كان بخيلاً فأقبح من كل قبيح صوفي^(١) شحيح، وإن كان متسترأ بذلك الفعل لعله بنفسه لا يعرفها المريد، والمريد إنما ينتفع بشيخه في الأخلاق والآداب التي ظاهرها محمود.

قال الشيخ محيي الدين: وكل من قام في السماع عن غلبة فللجماعة أن يقوموا لقيامه، وليس لهم أن يقوموا لقيام من بقيت عليه بقية من الإحساس والشعور، بل يحرم عليه هو القيام، لأنه منافق ظهر بصورة الصادقين لا بمعناهم. اللهم إلا أن يقوم متواجداً معرفاً الجماعة بتفعله، وأن يطلب به تحصيل الوجد، فللجماعة أن يقوموا لقيامه فإن مذهبهم الموافقة والمساعدة، وذلك الفقير صادق في دعواه، وإن كان الأولى به وبكل قائم في السماع أن لا يقوم إلا بحالة فناء وغلبة.

(١) الصوفي: هو الفاني بنفسه الباقي بالله تعالى المستخلص من الطبائع المتصل بحقيقة الحقائق.

قالوا: ولا سبيل إلى بيع الخرقه إذا وقعت فإن في ذلك استهانة بالفقراء، إذ الخرقه مثلاً إذا دخلت في النداء في السوق أو غيره تدنس^(١) بأيدي الغافلين، وذلك استهانة بطريق القوم في عيون الناس من العوام.

قالوا: وليس للفقراء أن يتحكموا في خرقه من ليس من أهل طريقهم ولا في خرقه من لا يقول بذلك من العبّاد^(٢) والزهاد، ولكن إذا ضمهم معهم مجلس وتحكم الفقراء في شيء من ثيابهم فلا بأس، وبغير إذنهم لا يجوز.

بل يخرجون به من طريق أهل الله تعالى، لأنه ليس من حكمة أكل أموال الناس بالباطل، وإنما جوزنا مثل ذلك للفقراء فيما بينهم لرضاهم بذلك وتواطئهم وصار ذلك عرفاً بينهم بطيب نفس، بحيث إن الفقراء لو ردوا على أحدهم بخرقته لتكدر ولم يرجع فيها لأنه أخرجها من ملكه ولا بد، فإياك والاعتراض في القوم في ذلك والله أعلم.

قالوا: وينبغي للقول أن يقف على يمين الشيخ أو نائبه، فمهما أشار عليه الشيخ به أنشده إلا أن يكون المنشد عالماً بما يحرك قلوب الفقراء لشدة ارتباطه بالشيخ في الباطن، فله أن يقف حيث شاء.

قالوا: وإذا سقطت عِمامة الشيخ عن رأسه أو وضعها هو اختياراً لثقلها أو لشدة حر ونحو ذلك، فمن الأدب موافقة الفقراء له في ذلك، فيضعون كلهم عمامتهم كذلك، وإن رمى الشيخ عمامته للقول أو رداه فلهم أن يوافقوه بصدق، وليحذر أحدهم أن يرمي خرقته للقول من غير إشارة فإنه ترك الأدب.

وإذا وقع من أحد من الفقراء خرقه أو عمامة في غير وجد، فيستحب للنقيب رفعها عن مواقع الأقدام إكراماً لها، وإن كانت عمامة الشيخ رفعها كذلك وصار قائماً بها إلى أن يطلبها الشيخ بالقرينة^(٣) أو الإشارة، فهناك يتقدم النقيب ويضعها على رأس الشيخ قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم مع استشعار الحياء والأدب.

(١) تدنّست: اتّسخت.

(٢) العبّاد: هم الذين قصدوا التوجه إلى الله تعالى وغلب عليهم العمل.

(٣) القرينة: الدليل.

قال الشيخ محيي الدين: ولا ينبغي أن ينشد في مجالس الفقراء إلا الشعر الذي قصد به قائله ذكرَ الله ﷻ بلسان التغزل أو غيره، فإنه من الكلام الذي أُهِّلَ^(١) به لله تعالى فهو حلال قولاً وسماعاً، وهو ما ذكر اسم الله عليه، بخلاف الشعر الذي قصد به قائله غير الله فإنه بمنزلة من يتوضأ بالنجاسة قربة إلى الله تعالى، لأن القول في الحديث حدث بلا شك، وهو مما أهل لغير الله. . والنية لها أثر في الأشياء، والشاعر ما قصد إلا التغزل في محبوبه المخلوق. انتهى ذكره في الباب الثامن والتسعين والثلاثمائة من «الفتوحات».

وسمعت شيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري يقول: لا ينبغي إنشاد مثل كلام سيدي عمر بن الفارض على مجلس شربة الخمر، فقد وقع لشخص أنه أشد قوله: شربنا على ذكر الحبيب مدامة. . . إلى آخرها على مجلس خمر فحوّل الله تعالى غائطه إلى فيه وبوله إلى أنفه، فلم يزل كذلك إلى أن مات والله أعلم.

ومن آدابهم: البعد عن مواطن التهم، وليس من طريقهم مؤاخاة النسوان والأحداث ولا مكالمتهم لغير ضرورة، وما قال بإباحة النظر إلى المستحسنات التي نهى الشارع عنها إلا قوم فُجَّار^(٢)، خرجوا عن الطريق ولبسوا على العامة بلبس الزي، حتى ظن من لا معرفة له بميزان الشريعة أنهم من الأولياء مع أنهم أفسق الفاسقين. وهم على جانب عظيم من الكسل والفتور على الخير.

وكل من رأى زيهم الذي لبسوه وتقصير ثيابهم وحفّ شواربهم وتصغير عمامتهم وإرخاء عذبتهم تمشيحاً لا اتباعاً للسنّة اعتقدتهم ظاهراً، وربما كان ذلك حتى يرتب الولاية له جوالي أو شيئاً من الدنيا كما هو مشاهد في خلق كثير، فلما بنوا أمرهم في الطريق على قواعد فاسدة ونيات خبيثة، وسوس لهم إبليس بإظهار التواجد والسماع مع النسوان والشباب، وقال لهم لا تمنعوا النساء والشباب الخير وحضور مجالس الذكر قياساً على الصلوات في المساجد، ثم وسوس لهم بالميل إلى التلذذ بمجالستهن وكلامهن حتى أمالهم إلى طلب الفسق بهن، فما وجدوا لذلك سبيلاً، فمثل هؤلاء يجب على كل مؤمن تحذير الناس من صحبتهم، ومن كان صادقاً في السماع فليستمع في نفسه من غير حضور مع هؤلاء

(١) أُهِّلَ: رفع صوته بذكر الله.

(٢) الفاجر: المنبعث في المعاصي غير المكترث.

الفسقة والله أعلم.

ومن شأنهم: أن لا يقعد معهم في مجلس سماعهم منكر عليهم، كما مر آنفاً ولا يكون هناك من المنكرات، حتى لو التبس نعل فقير بغيره، أو ركوته بغيرها، أثر ذلك فيهم قساوة القلب، ولم يقدروا على الاستماع، لأن إبدال النعل بغيره من الورع تركه، لأنه يُظلم قلب الفقير وبغيره.

وقد بلغنا أن أبا يزيد عليه السلام وجد وحشة في تواجده فقال: إني أجد في قلبي وحشة فانظروا سبب ذلك ففتشوا فوجدوا نعل فقير قد أبدلت في المسجد مع شخص من أصحاب أبي يزيد، فطلبوا صاحب النعل فوجدوه من أكبر المنكرين عليهم.

ومن شأنهم: أن يعاملوا كل وقت بما يناسبه، ومتى أدخلوا على ما يقتضيه وقت آخر تكدر عليهم وقتهم. وقد وقع لسيدي علي المرصفي عليه السلام أنه بات عنده معلاق وعنب فوجد في قلبه كدورة فأخرجها للفقراء في الليل فرجع إليه صفاء قلبه. هذه حكايته لي وقع نظيرها لغيره أيضاً.

ووقع أيضاً لبعضهم ممن كان تدفق في الورع أنه وجد في قلبه كدراً^(١) حال ذكره، ففتشوا ذلك فوجدوا القارورة التي فيها الدهن قد استعاروها ليشتروا فيها الدهن مرة للمصباح فاشتروه فيها مرة أخرى بغير إذن أصحابها فزال الكدر والله أعلم.

فإذا كان الكدر يحصل للفقراء في مثل هذه الأمور، فكيف بالخصام والضرب بالعصي والمعاداة! فالله يلطف بنا آمين.

ومن شرطهم: أن لا يجلسوا مع مجادل ينكر على أهل الطريق أحوالهم لحديث عن النبي ﷺ: «لا ينبغي التنازع». وعلوم أهل الله إنما هي علوم رسول الله ﷺ لأنهم متقيدون بالشرعية لا يخرجون عنها إلى رأي أو قياس إلا في النادر، وفي القرآن العظيم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) فشمّل الجاهلين بطريق أهل الله.

(١) الكدر: ضد الصفاء.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

وكذلك من شأنهم: المؤاخذة بالنسيان وبكل أمر يوقفهم عن الترقى لأنهم سيأرون على الدوام، وليس لهم أن يسامحوا مريداً بزلة واحدة غيرة للشرع ومصلحة للمريد، بخلاف حقوقهم، فيسامحون الناس فيها وإن كثرت.

قال الشيخ محيي الدين: وإنما آخذوا المريد بالنسيان لأن طريقهم طريق حضور مع الله تعالى في عموم الحالات، والنسيان فيها نادر، والنادر لا حكم له بخلاف طريق غيرهم، فإن الغالب فيها الغفلة، فلذلك لم يسامح أهلها المريد بالنسيان إلا في أماكن معروفة في كتب الفقه، كما إذا نسي ركناً من أركان الصلاة أو نسي الطهارة وصلى فإنه يعيد جزماً انتهى.

ومن شأنهم: أن ينصفوا^(١) الناس من أنفسهم بينما لا ينصفون أنفسهم من أحد، كما أن من شأنهم قبول الاعتذار ممن اعتذر إليهم مع أن الاعتذار إنما يقع ممن ليس هو من أهل الطريق، فإن أهل الطريق يقيمون للخلق المعاذير قبل أن يتع منهم الاعتذار.

فاعلم أنه لا اعتذار بين عاميين، وإنما الاعتذار بين مريدين أو بين عارف ومريد، فالعارف يتنزل ويعترف للمريد مداراة له، وهو لا يحتاج إلى اعتذار من انمريد والله أعلم.

وقد كان الشيخ محيي الدين بن العربي رحمته الله يقول: الاعتذار تركية للنفس وتهمة للمعتذر إليه انتهى.

ومن شروطهم: أن لا يغش أحد منهم أحداً، وإنما يتعاملون بالمناصحة^(٢) والانقياد لبعضهم بعضاً في الخير وعدم المنافرة والاعتراض بالفهم لا بالأمور التي وردت صريحة في الكتاب والسنة. وأجمعوا على أنه لا يصح ممن ثبت له قدم في الطريق بغض ولا شحناء ولا حسد ولا بغى ولا غيبة ولا نميمة ولا حقد ولا مكر ولا رياء ولا نفاق، فإن فعل ذلك فهو عدو الله.. فكيف يدعو غيره إلى الله تعالى!

فاتمحن يا أخي من يدعي أنه من الواصلين بهذا الميزان يظهر لك صدقه أو

(١) أنصف: عدل.

(٢) المناصحة: إرشاد الناس بعضهم بعضاً إلى ما فيه الصلاح.

كذبه، لأن الواصل لا يرى في الوجود فاعلاً حقيقة إلا الله فيرسل غضبه وحسده على من؟! وإن نزل عن هذه الدرجة وجد جميع المسلمين عبيد الله ومن أمة رسول الله، فكيف يؤذي عبد ربه أو أمة نبيه في حضرته، فإن الواصل دائماً في حضرة الله وحضرة رسوله لا يبرح، فيقال لمن ادعى الوصول وأذى أحداً: أنت كذاب والله أعلم.

ومن شروطهم: أن لا يعدوا أحداً بوعد إلا في النادر، لأن صدق الوعد إنما يكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم^(١)، وأما غيرهم فربما وعد وأخلف فيصير فيه خصلة من النفاق. وسواء كان الموعود به جليلاً أو حقيراً كله واحد. ثم إن وقع أن الفقير وعد أحداً بوعد ولم يف به وجب الوفاء به واستغفار الله تعالى، كما هو مذهب الإمام مالك رحمه الله.

ومن شروطهم: الورع والتثبت في كل ما يروونه عن رسول الله ﷺ لقوله: «من كذب عليّ متعمداً - وفي رواية بإسقاط متعمداً - فليتبوأ^(٢) مقعده من النار» وهو حديث متواتر بقيد التعمد. وفي الحديث أيضاً: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع». وفي رواية لمسلم: «حسب المرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» ذكرها مسلم في صدر صحيحه.

وقد قالوا: الورع في المنطق أعزُّ من الكبريت الأحمر.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا يقول: لا تعتمد على رواية أحد من هؤلاء المتعبدین من غير علم حتى تجربه في الصدق والعلم. فكثيراً ما يروي شيخ الزاوية شيئاً ويضيفه إلى رسول الله ﷺ والحال أنها رؤية منام لبعض العارفين وهو يعتقد أنها جاءت عن رسول الله ﷺ من طريق المحدثين، فعليه اللوم وإن كان ذلك مبنياً على حسن الظن بالناس، لأن لحسن الظن مواضع ليس هذا منها.

وقد تقدم في الباب الأول وغيره أن من شرط من يطلب طريق القوم أن يكون متضلّعاً من علوم الشريعة المطهرة، حتى لا يصير عنده التفات إلى غير الطريق التي سلكها.

(١) العصمة: ملكة إلهية تمنع من فعل المعصية والميل إليها مع القدرة عليها.

(٢) تبوأ: نزل وأقام.

وإن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة، تحرير الذهب والجوهر، فمن لم يكن من أكابر العلماء لا يفلح فيها، لأن له في كل حركة وسكون ميزاناً شرعياً يجب عليه علمه قبل الفعل والله أعلم.

ومن شأنهم: شدة الورع وكثرة التوقف على الأكل مما بأيدي أهل زمانهم حتى يعلموا ورعه في كسبه، وقد خالف قوم من أهل زماننا هذا فادّعوا المشيخة وصاروا يأكلون عند المكّاسين^(١) في رمضان وغيره ويقولون: نحن قوم لا يؤثّر فينا الحرام، وهذا من الافتراء القبيح على أهل الطريق أنهم كانوا كذلك، فالحمد تعالى يغفر لنا ولهم.

فيجب على كل مسلم أن ينكر صنيعهم قياماً بواجب حق الشريعة والعلماء العاملين والأولياء الصالحين. ولو أن هؤلاء اعترفوا بأنهم خالفوا طريق السلف الصالح حتى لا تتبعهم العامة على ذلك لكان أخفّ إثماً.

وقد قدمنا أن سفيان الثوري رحمته الله كان يتهم نفسه ويقول لأصحابه: إياكم أن تقتدوا بي حتى تزنوا أحوالي على الكتاب والسنة، فإنني رجل خلطت في ديني وأكلت من جوائز السلطان. وكذلك بلغنا عن الحسن البصري أنه كان يقول ذلك والله أعلم.

ومن شأنهم: حفظ آداب الشريعة لا سيما أواخر أعمارهم، ولا يقدمون على فعل شيء حتى يعرفوا أنه موافق للشريعة، وإذا شكوا في أمر سألوا عنه العلماء وعملوا بما يفتونهم به من التشديد أو الرخصة بشرطها.

وقد ألف سيدي الشيخ محمد بن عنان رحمته الله رسالة من أولها إلى آخرها في الحث على اتباع الشريعة وسؤال العلماء عما فيه شك وسبب ذلك أنه كان في بلاد الشرقية بين قوم الغالب عليهم البدع، ولا يتيسر للفلاحين أن يشتغلوا بالعلم حتى يصير أحدهم يعرف جميع الحلال والحرام من نفسه من غير سؤال العلماء، وكان الشيخ محمد هذا على قدم السلف الصالح، وما كنت أمثله إلا بطاووس اليماني أو بشر الحافي، لشدة ما هو عليه من اتباع السنة المطهرة وعدم تضييع شيء من أوقاته في غفلة عن الله، بل كان ليلاً ونهاراً مقبلاً على ربه ﷻ رضي الله عنه.

(١) المكّاسون: الذين يجمعون الضرائب من التجار.

وكان سيدي علي الخواص يقول للمتعبدين من الفقراء: عليكم بسؤال العلماء عن أمر دينكم، ولا تعملوا شيئاً إلا بعد علمكم بأنه موافق للشرعية. وكان يقول: من خان في آداب الشريعة الظاهرة، فأحرى أن يخون في علم الحقيقة والأسرار الإلهية.

ومعلوم أن الحق تعالى لا يهب أسراراً إلا للأمناء من عباده، وكل من ابتدع في الشريعة شيئاً فقد آثر هواه على شرع ربه الذي اختاره الله ورسوله للأمة والله أعلم.

ومن شأنهم: إذا دخل أحدهم في الطريق، وهو ذو زوجة أو مال، أن لا يتغير عن حالته إلا بإذن شيخه فلا يطلقها إلا باختياره، ولا يتزوج إذا كان عازباً، ولا يرم ماله للناس، ثم يصير يسأل الناس، وقد مرّ إيضاح ذلك في الأبواب السابقة في مواضع، ولذلك من شرط الصادقين منهم أن لا يبيت أحدهم على دينار ولا درهم كما مرّ، ولا يأخذ من الناس من أموالهم بالسؤال ليفرقها على المحاييج^(١)، إلا إن كانت زكاة، أو كان كاملاً في الطريق، يرى الخلق كالأطفال في حجره، يريهم ويفعل معهم ما هو الأصح لهم.

فمثل هذا الاعتراض عليه كالاعتراض على الخضر عليه الصلاة والسلام، فيما فعله مع موسى عليه الصلاة والسلام فإن قول الخضر عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾^(٢)، مثل قول نبينا ﷺ: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾^(٣). فكما أن الخضر عليه الصلاة والسلام هو شيخ الأولياء في علوم الحقيقة، بحكم النيابة لرسول الله ﷺ، فعلم أنه لا ينبغي الاعتراض إلا على من لم يبلغ حد الكمال من المتمشixin بأنفسهم، فيسألون الناس إلحافاً^(٤) فينفرون منهم، فيقلّ نفعهم على يدهم. ويقولون نحن ملامتيّة، وذلك جهل، فإن الملامتيّة هم الكمل من رجال الله تعالى، ومبنى طريقهم على الحياء والعفة، كما هو مبسوط في كتب القوم، وهي طريق الشيخ الجنيد بعينها والله أعلم.

ومن شأنهم: عدم الاعتراض على الشيوخ، إذ الاعتراض عادة لا يكون فيها إلا من الأعلى إلى الأدنى، لأنه هو الذي يعترض بعلم.

(١) المحاييج: المحتاجون.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٥٠.

(٤) الإلحاف: السؤال أو السؤال دون حاجة.

وكان سيدي علي الخوَّاص رحمته الله يقول: لا يُسمَّى اعتراض الأعلى على الأدنى اعتراضاً، وإنما الأدب تسميته تأديباً وإرشاداً، كحال الشيخ في تربية المريد، فلا يسمى الشيخ معترضاً على المريد، فعلى الأَدَوْن أن يصمت عن كل شيء جَهْلُهُ، ولا ينكر على فاعله إلا إن علم حُكْمَهُ في الشريعة، ومتى أنكر على شيخه فقد أبطل أصل عقده معه والله أعلم.

ومن شأنهم: الصدق، فلا يتكلمون أبداً عما لم يذوقوه، خوفاً على أنفسهم أن يدَّعُوا مقاماً لم يبلغوه. ومن أصول طريقهم أنهم لا يتكلمون إلا بما يشاهدونه، وإذا سمع أحدهم شيئاً من أخيه لم يفهمه، فلا يجوز له الرد عليه، وإنما الواجب عليه أن يعلم فوراً أن ذلك من مشاهد أخيه الصحيحة، التي لم يبلغها هو، وأن أخاه أعظم منه مقاماً، فينبغي له التوجه بهمته إلى الله تعالى، أن يرزقه مثل ما رزق أخاه، أو يتَّلمذ له ويخدمه إن لم يكن له شيخ، كما جرى عليه أهل الطريق.

وهذا الأدب ما رأيت له ذاتقاً إلا قليلاً. وغالبهم لا يقدر على نفسه تنكيس، لأن يتَّلمذ لأخيه أبداً. ومن هنا قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمته الله: من أعلى أخلاق القوم أن يتَّلمذوا لأحد من أقرانهم، فإنها أحسن رياضات النفوس، وهو أصعب من الجوع والسهر والعزلة وغير ذلك، انتهى.

ويؤيد ذلك ما تقدم في وصية سيدي أحمد بن الرفاعي في مرض موته لخوَّاص أصحابه حين سألوه وصية موجزة، من قوله: من تمشيخ عليكم فاتَّلمذوا له، فإن مدَّ يده لكم لتقبَّلوها فقبلوا رجله، وكونوا آخر شعرة في الذنب فإن الضربة أول ما تقع في الرأس.

فإن قيل: إن أشياخ الطريق كاملون بيقين، وخرجوا عن رعونات النفوس، لا نرى أحداً منهم يتَّلمذ لأحد من أقرانه كما قلتم!

فالجواب: إن كلامنا فيمن تأبى نفسه القراءة على أقرانه، وهؤلاء الأشياخ بحمد الله لا تأبى نفوسهم ذلك كما هو معلوم من قرائن أحوالهم، فإياك أن تظن بهم في المريدين والله أعلم.

وكان الشيخ محيي الدين رحمته الله يقول: من شروطهم إذا دخلوا زائرين لأحد من أشياخ عصرهم أن يفرِّغوا قلوبهم من جميع ما عندهم من العلم، بمعنى أنهم لا

يقنعون بما عندهم، بل يطلبون الزيادة، فإن العلم لا قرار له، فيجب على كل زائر للأشياخ أن يفتح باب قلبه لما يلقي إليه ذلك الشيخ، ليخرج من عنده سالماً من الاعتراض، ومتى سمع من الشيخ ما لا يقبله قلبه رجع على نفسه باللوم وقال: هذا أمر لم أصل أنا إليه، ولا ينسب الشيخ إلى الخطأ البتة، ومن فعل ذلك مع شيخ فقد خرج عن قواعد الطريق والله أعلم.

ومن شأنهم: أن ينظروا إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الازدراء والاحتقار. وقالوا: الازدراء بشيء من العالم يرجع والعياذ بالله إلى الاعتراض على القدرة التي أعطت كل شيء خلقه، وذلك ينافي طريق الولاية والاصطفاء.

وقد تقدم في الأبواب السابقة أنه لا يجوز لأحد استصحاب المعصية على من وقع فيها، بل ينبغي أن يعتقد فيه أنه تاب من وقتها وندم، فمن سريره، أو يحتمل أن يكون ممن سبق له من الله السعادة، فلا تضره المعصية. وكل من ظن بنفسه أنه خير من أحد من المسلمين، فهو جاهل مخدوع، ولو أعطي من الكرامات ما أعطي.

وقد رأى سيدي عبد القادر الجيلي مرة شارب خمر يتمايل فخطر بباله أنه خير منه، فناداه السكران: يا عبد القادر، قادر ربي على أن يجعلني مثلك ويجعلك مثلي، فاستغفر سيدي عبد القادر وطأ رأسه. فأنكر يا أخي منكرات الشرع بحكم الشرع، واجعل إنكارك على الأفعال لا على الذوات، والله أعلم.

ومن شأنهم كلهم: إغاثة الملهوف^(١)، ويقدمون إغاثته على قراءة أحزابهم وأورادهم وكل شيء من نوافلهم، كما مرّ تقريره مراراً. ومن ادّعى الولاية وقلبه فارغ من تحمّل هموم العباد فهو كاذب في دعواه، وليتأمل تلقب القطب بالغوث يعرف أنه ما لقب بذلك إلا لكثرة إغاثته الملهوفين في الشدائد. وهذه الحقيقة سارية من القطب إلى جميع أهل دائرته عليه السلام.

فاعلم أن من جامع زوجته ودخل الحمام ولبس المبخرة ونام على الفرش الوطيّة^(٢) وأكل اللذيذ من الطعام أو بنى داراً أو غرس بستاناً أيام تكدر الناس،

(١) الملهوف: المكروب.

(٢) الوطيّة: اللينة الوثيرة.

فهو لم يشم من الغوثية رائحة، لأن حامل الهم لا يتهاى بمثل ذلك، ولا تميل إليه نفسه، فينبغي لمن لم يتحمل هموم الناس أن لا يخرج على من يتحمل همومه، بل يهتت نفسه ويوبخها، عملاً بحديث الطبراني مرفوعاً: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» انتهى.

ورأيت بعضهم لا يهتم بأمر المسلمين ويزعم أن ذلك من التسليم لله، وهو قصور، فإن التسليم لله لا ينافي الاهتمام بأمر المسلمين المأمور به والله تعالى أعلم.

ومن شأنهم: أن يجزموا بفضل كل من طلبوا زيارته من الشيوخ عليهم قبل أن يخرجوا لزيارته، ولا يخرجوا قط لزيارته على وجه الاختيار له، لأن ذلك يورث المقت، إذ الشيوخ لا يُختبرون البتة لكمالهم، وإنما الحق تعالى هو الذي يختبرهم، وأما الخلق فربما كانوا دونهم في الدرجة، فكيف يختبرونهم في مقام لم يذوقوه.

وقد دخل سيدي عبد القادر الجيلي ومعه اثنان على رجل كان يلقب بالغوث، وكان من شأنه أن يختفي إذا شاء ويظهر إذا شاء، فقال سيدي عبد القادر: نويت التبرك بهذا الرجل، فقال الآخر: أنا لا أعتقه إلا إن أظهر لي كرامة، وقال الآخر: أنا منكر عليه، فبينما هم جالسون إذ ظهر من بينهم فنظر إلى من قال أنا منكر وقال: أنت المنكر عليّ إني لأرى نار الكفر تلتهب فيك، وقال للآخر: أنت الذي تقول لا أعتقه إلا إن أظهر لي كرامة ستجراً^(١) عليك الدنيا إلى شحمتي أذنك، وقال لسيدي عبد القادر: أنت الذي تزورني للبركة سيعلو شأنك حتى تؤمر بأن تقول: قدمي هذه على عنق كل ولي لله ﷺ، تخضع لك أولياء المشرق والمغرب وتطأاً رقابهم، فكان الأمر كما قال.

وأما المنكر فسافر من بغداد ليناظر القسيسين ببلاد الروم ففعل وناظرهم فغلبهم فأعجب السلطان وقربه وطلب منه تزويج ابنته فقال: لا يمكن ذلك إلا أن تدخل في دينها فتنصر وتزوجها ومات على دين النصرانية، وأما الذي أوقف اعتقاده على إظهار كرامة فتولى مال بيت المال وصار من أوسع الناس في الدنيا

(١) ستجراً: تشجع.

لسواد به ذكره في كتاب البهجة والله أعلم.

ومن شأنهم: أن لا يطلبوا من مشايخ عصرهم الكلام على هواجسهم^(١) وإنما يطلبون منهم أن يعرفوهم بالأدوية التي يستعملونها لإزالة أمراضهم الباطنة، هذا هو جُلُّ مقصود الناس منهم، فإن المكاشفات^(٢) بأحوال بواطن الناس إنما هي أحوال المريدين، تقوية ليقينهم في الطريق، وتأييداً لهم، والعارفون قد تمكنوا في مقام اليقين.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمته الله يقول: يجب على صاحب الكشف أن يسأل الله ﷻ في زواله لما فيه من الاطلاع على عورات الناس، فهو من أحوال المريدين لا العارفين والله أعلم.

ومن شأنهم: أنهم لا يطلبون من الخادم أن يجري في خدمته لهم على وفق أغراضهم كلها، بل إذا أتاهم بما لا يوافق أغراضهم سكتوا ولم يعاتبوه على ذلك، إلا أن يكون الخادم تلميذاً للشيخ، فله أن يعاتبه ليعرف ميزان ذلك في المستقبل، وأما الماضي فقد وقع.

وقال السهروردي رحمته الله: وإنما كان من شأنهم ترك العتاب للخادم طلباً لتهديب أخلاقهم ورياضة لنفوسهم، كما أنهم في جميع معاملاتهم مع الخلق على هذا القدم، فيحتملون أذاهم ولا يقابلونهم بنظير ذلك، ويحملون عن الناس كُلَّهم ولا يلقون كُلَّهم على أحد، وينهون العصاة، وينبهون الغافل، ويرشدون الضالَّ، ويقودون الأعمى، ويساعدون الخادم، ويطحنون معها على الرحى، ويكنسون البيت.

وقال الشيخ محيي الدين: ومن الفقراء من صارت إرادته فانية في كل ما يريده الحق تعالى من الخير، فمثل هذا لا يرى شيئاً في الوجود يخالف غرضه حتى يتكدر لأجله لغيبته عن حظوظ نفسه، وفناء إرادته في إرادة ربه في كل ما يجري على يدي عباده في حقه.

(١) هاجس: خاطر.

(٢) المكاشفة: حضور القلب مع الرب بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل. ويكون أيضاً مع الحجاب بنعت القرب في مقام المراقبة وهو للعباد والزهاد.

وقد قالوا: من فني عن إرادة نفسه فلا نفس له، ومن لا نفس له فلا غرض له، ومن لا غرض له فلا مرض له، وذلك أن سبب الأمراض عدم موافقة الأغراض والله أعلم.

ومن شأنهم: إذا كُمّلوا في الطريق وتصدروا لإرشاد الناس وقضاء حوائجهم، أن لا يتخذوا لهم على أبوابهم حُجَّاباً إلا أن يكون في البيت عيال ولا مكان لهم يتوارون^(١) فيه، وذلك حتى لا يفقدهم أحد يقصدهم في حاجته. وقد كان سيدي مدين يتخذ على بابه ستارة، وكذلك سيدي علي المرصفي لأجل العيال دون أن يكون لهم حاجب.

وكان سيدي أحمد الزاهد يجلس دائماً في خلوته في الجامع، ولا يدخل على العيال إلا بعد صلاة الجمعة لا غير، ويخبر أن ذلك كان من خلق سيدي يوسف العجمي عليه السلام، فكان كل من طلبه وجده، فإن أنكر أحد على القوم في اتخاذهم حجاباً على بابهم قلنا له: وثبت في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان له حجاب من خدمه الأرقاء^(٢) وغيرهم كأبي وابن مسعود، وكان إذا جاء مثل عمر بن الخطاب يستأذن ذلك الخادم في الدخول فيستأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله ويفعل ما يأمره.

قال الشيخ محيي الدين عليه السلام: وهذا الخلق لا يكون لهم إلا بعد فراغهم من تهذيب نفوسهم، إذ تصدر لقضاء حوائج الناس عادة لا يكون إلا بعد ذلك. ومن كان عليه بقية علاج لأخلاقه الردية، فهي تجذبه إلى وراء، فلا يصح له التوجه إلى الله تعالى بكليته في قضاء حوائج العباد. ومعلوم أن كمال التوجه شرط في سرعة قضاء الحوائج، فكل من تصدر لقضاء حوائج الناس قبل الفراغ من تهذيب نفسه فهو طالب للرياسة وثناء الناس عليه وعكوف^(٣) الناس عليه، وكثرة ترددهم إليه، ومشيههم في ركابه.

وربما تلبس عليه النفس في ذلك وتقول له: إنك إنما تفعل ذلك محبة في الخير، وما أقامك في ذلك إلا الحق تبارك وتعالى فاشكر الله على ذلك، فإن

(١) توارى: اختبأ عن العيون.

(٢) الأرقاء: العبيد.

(٣) العكوف: الإقامة.

غيرك يتمنى أن يكون مثلك فلا يقدر فمثل هذا هالك، وهو يظن أنه ناج.

ولو أنه تَفَظَّن لدسائس نفسه لعدم تحريضها من ورطة الرياء، ومن أسره تحت هواه، ومن سخرية الشيطان به على قضاء جميع حوائج غيره بطريقه الشرعي، كما يجب على طالب العلم الإخلاص فيه والسلامة من محبة صرف الناس وجوههم إليه.

وفي الحديث: «ما من أحد يكلم في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله...» الحديث، فأخبرنا أنه ما كل من جاهد يكون مخلصاً لوجه الله تعالى، ولا كل من قتل بين الصنفين يكون شهيداً، فلينبته من يعمل شيخاً في النصف الثاني من القرن العاشر لمثل هذه الغوائل والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وكان سهل بن عبد الله التستري رحمته الله يقول: ينبغي للعبد أن لا يغفل عن تفتيش نفسه في عباداته، فضلاً عن معاصيه، قلَّ عبد يسلم من التقصير في طاعاته والغفلة فيها عن الله تعالى، فلا يقومون إلا تائبين، ولا يجلسون إلا تائبين، ولا ينامون إلا تائبين والله أعلم.

ومن شأنهم: التجافي والتباعد عما للنفس فيه غرض من سائر الشهوات، فلا يتغنى أحدهم في طلبه ولا يتمناه، بل إن جاءه ذلك من غير تعب في تحصيله ومن وجه جَلٍّ تخيَّر فيه، فإن شاء أكله وإن شاء تركه إلا أن يكون في مقام المجاهدة للنفس، أو مقام توفير اللذة إلى موطنها الحقيقي، فيتعين عليه ترك الأكل وفاءً بحق المقام، كما كان عليه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأبو ذر وأضرابهم من الأولياء.

وليس لمن هو في هذين المقامين أن يتناول شيئاً من طيبات الشهوات الدنيا. وقد ورد: «الدنيا حرام على أهل الآخرة»، وقيل: إنه من كلام أبي ذر وغيره، قلت: والمراد أن ذلك حرام من حيث الكمال في المقام ليوافق قواعد الشريعة المطهرة، نحو قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾^(١) والله أعلم.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.

ومن شأنهم: القناعة وهي وقوف النفس عند ما رزقت من غير تشؤفٍ إلى زيادة، إذا حصل بين يدي العبد ذلك الرزق من غير مزاحم عليه أكل بقدر ضرورته وترك الزائد لغيره، وليس بعد ذلك مقام في القناعة.

فاعلم أن من يكون له كل يوم ما يكفيه الكفاية الشرعية، ويسافر من بلاده البعيدة إلى السلطان ليرتب له شيئاً زائداً أو يسافر إلى بعض مشايخ العرب ليأخذ منه شيئاً من القمح أو العسل ونحوهما، فهو بعيد جداً عن طريق المريدين، فضلاً عن العارفين الذين يزعم أنه منهم لأن من شأن القوم الشكر لله تعالى على السراء والضراء. وذلك لأنهم يعتقدون أنه تعالى أعلم بمصالحهم من أنفسهم، فلا يطلبون زيادة على ما أعطاهم في يوم والله أعلم.

ومن شأنهم: ترجيح الخوف^(١) على الرجاء^(٢) لكونه أكمل وأجمل في حق العبيد، ولا يرجحون الرجاء إلا عند خوفهم أن يتحكم فيهم سلطان القنوط^(٣). وكذلك من شأنهم الانقباض في نفوسهم إذا رأوا منكراً في الشرع إشاراً للجنان الإلهي، وشفقة على الفاعل لذلك المنكر.

وليس لهم أن يقولوا هذا فعل الله فلا ينقبض منه لأنه جهل. فإن الكامل يسمّى أبا العيون، فعينٌ ينظر بها إلى فعل الحق فيجده في غاية الحكمة، وعين ينظر بها إلى مخالفة العبيد وعصيانهم لأوامر ربهم فيغار الله تعالى.

وفي الحديث: «أنه ﷺ كان يغضب إذا انتهكت حرمة الله ﷻ»، فعلم أن إنكار المنكر لا يقدح في مقام التسليم لأن كلاهما مأمور به شرعاً والله أعلم.

ولذلك من شأنهم غصّ الطرف عن فضول النظر والإسراع في المشي مع السكينة والوقار، فيمشون مثل الجمل الموقور حملاً، وقد كان ﷺ إذا مشى كأنه ينحط من صيب^(٤).

ولذلك من شأنهم إصلاح ذات البين، وأعظم أوقاتهم أن يطلع الحق تعالى على سرائرهم فلا يجد فيهم حباً لأحد إلا بإذنه، ولا التفاتاً إلى غيره.

(١) الخوف: الحياء من المعاصي والمناهي والتألم فيها.

(٢) الرجاء: إسكان القلب بحسن الوعد وهو من جملة مقامات الطالبين وأحوالهم.

(٣) القنوط: اليأس.

(٤) الصَّبَب: المنحدر.

ولذلك من شأنهم التعامي عن عيوب الناس وسترها ونشر محاسنهم إلا المبتدعة، فإنه يجب عليهم التحذير منهم، وذلك من باب الرحمة بالمسلمين حتى لا يزيد عذاب المبتدع باتباع الناس له في بدعته، ولا يآثم أحد بسببه.

ومن شأنهم الشفقة على خلق الله تعالى من ناطق وصامت بطريقه الشرعي.

قال الشيخ محيي الدين: ولقد حدثني الوجيه المدرس بمدينة ملطية أنه كان هناك والٍ بمدينة بخارى، وكان من أظلم الناس، فركب يوماً فرأى كلباً أجرب وكان ذلك في يوم شديد البرد، فقال لبعض غلمانه: ارفعوا ذلك الكلب إلى دارنا فرفعوه فتلطف به وأحسن إليه، فلما جاء الليل نودي الوالي في منامه يا فلان كنت كلباً فوهبناك بكلب، فهذه رحمة بكلب أثرت الرحمة للظالم. وفي الحديث: «في كل كبد رطبة أجر».

ووقع لسيدي أحمد الرفاعي أنه رأى كلباً أجزم^(١) وقد شعره والناس يزجرونه فحملة إلى البرية وجعل له ظله وصار يطعمه ويسقيه ويدهنه حتى عوفي فغسله بماء حميم ودخل به بلدة أم عبدة فقال له: أتعنني بكلب هذا الاعتناء فقال: خفت من الله تعالى أن يؤاخذني بعدم الإحسان إليه ويقول لي: أما كان في قلبك رحمة لخلق من خلقي؟ والله أعلم.

ومن شأنهم: أن يتصدقوا كل يوم عقداً بقلوبهم على جميع عباد الله تعالى بعرضهم ودمائهم وأموالهم، ولا يطالبون أحداً بحق الدارين إكراماً لمن هم عبيده ولمن هم من أمته ﷺ.

وأصول الشرع تقصد هذا الفعل، فإنه من باب العفو ومكارم الأخلاق، وإن كانت الأعراض لا تباح بالإباحة لو صرح أهلها بالإباحة، ولكن كلامنا في عفوهم عن الناس إذا وقعوا في عرضهم بحكم الاتفاق، وإلا فلم يبلغنا أن أحداً من القوم قال للناس: قعوا في عرضي أبداً.

وفي الحديث: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم، كان إذا أصبح يقول: اللهم قد تصدقت بعرضي على عبادك - يعني الذين يقعون في عرضي - تعدياً وظلماً» لكن لا يخفى أن التصديق المذكور لا يكون إلا في حق الآدمي،

(١) الأجزم: مقطوع الأنف.

فإنه بمثابة من سامح الناس بديونه. أما في حق الله تعالى فليس للعبد في ذلك تصرف.

وإيضاح ذلك أن معاصي الآدميين لها وجهان: وجه يتعلق بالله من حيث تعديهم حدوده، فذلك إليه تعالى لا لهم، ووجه يتعلق بهم فيصبح لهم العفو عنه والله أعلم.

ومن شأنهم: أن لا يقرضوا أحداً بقصد العوض، وإنما يعطون كل محتاج ما يروونه محتاجاً إليه من غير مطالبة بالعوض، وذلك لأنهم يشهدون أن جميع ما بأيديهم من المال إنما جعله الله تعالى عندهم للمحتاجين من عباده ولا يرون لهم مع الله ملكاً حتى يطلبوا العوض لأجله.

وكذلك من شأنهم: عدم الالتفات إلى خلف، وإذا التفتوا التفتوا جميعاً، وقد نادى شخص الشبلي رحمته الله مرة من خلفه فلم يجبه وقال: أما علمت أن الفقراء لا يلتفتون إلى وراء، ولا يجيبون من ناداهم من خلف القفا والله أعلم.

ومن شأنهم: التفاؤل والأخذ بالفأل^(١) الحسن النظير به، يعني بطريقه الشرعي، وقد قرع رجل باب الشيخ أبي مدين فخرج إليه، ولم يكن في نية الشيخ أن يخرج إليه أو لا يدخله في ذلك الوقت داره، فقال له: ما اسمك، فقال: أحمد الفائدة، فقال له الشيخ: ادخل فإن العاقل لا يطرد الفائدة إذا وصلت إلى باب داره وهو يطلبها.

قال الشيخ محيي الدين: وكان أحمد هذا من سادات القوم، انتهى.

ومن شأنهم: أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتحركون ولا يسكنون إلا عن ضرورة أو حاجة، وذلك ليثابوا على جميع أفعالهم ثواب الواجبات، لأن الإنسان إذا اضطر إلى مباح صار فعله واجباً، وثواب الفرض أعظم من ثواب السنة إلا في بعض المسائل عند بعضهم، كابتداء السلام مع رده في حق المتشاحنين فإنه رحمته الله قال: «... وخيرهما الذي بدأ بالسلام» فليتأمل.

ومن شأنهم: لبس الوسط من اللباس.. وهم في نيتهم على طبقات فمنهم

(١) الفأل: قول أو فعل يستبشر به.

من يلبس لآخرته وهو صاحب التمكين^(١)، ومنهم من يلبس لوقته، وهم دون ذلك، فإن الكامل من يكون الوقت حكمه، وبما هو تحت حكم الوقت ودونه من يحكم عليه وقته.

فالذي يلبس لآخرته هو من لبس ما يستر عورته ويقيه من الحر والبرد. وأما الذي يلبس للوقت فهو المتجرد الذي لا يشتري ولا يبيع، وإنما هو مشغول بحاله، وهو أنقص مقاماً من الذي قبله، وعلامة صدق هذا أن يتساوى عنده الثوب النفيس والخسيس علة حد سواء، ومن رجّح الثوب النفيس على الحقير فهو صاحب رعونة، ليس له قدم من اتباع السنة في ذلك. فإن في أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان لا يبالي بأي ثوب يلبس، وكان إن رأى ثوباً قطناً لبسه، أو صوفاً لبسه، أو عباءة لبسها، وصلى بها إماماً في المسجد، كما هو معروف في كتب الحديث والله أعلم.

ومن شأنهم: أن يقدموا الفقراء على الأغنياء في البشاشة والإكرام، لأن الله تعالى عاتب نبيه ﷺ لما كان يقبل على صناديد قريش، مع أن ذلك إنما كان طلباً لتمثيل قلوبهم إليه حتى يسلموا، ومن أوجع قلب فقير لأجل غني سقط من ديوان القوم.

وكان الشيخ محيي الدين يقول: ما عاتب الله نبيه ﷺ إلا لكونه أقبل على الأغنياء بحضرة الفقراء، ولو أن الأغنياء جاؤوه وحدهم لكان من كرم أخلاقه الإقبال عليهم انتهى.

وسمعت سيدي علياً المرصفي رحمه الله يقول: من الأولياء من أمر بتعظيم صفات الله، حيث ظهر العبد فيما بها، فيعظم الأمير على الفقير لظهوره بالتصريف في هذه الدار بخلاف الفقير، فإن من شأنه الذل والافتقار للذين هما ليسا من صفات الله قطعاً انتهى لكن جمهور الأولياء على الأول والله أعلم.

قالوا: وليس من شرطهم أن لا يكون لهم مال، ولكن منهم من يكون له مال، ومنهم من يكون فقيراً، ومقام الفقراء يجمعهم كلهم. وقد ذكر الشيخ محيي

(١) التمكين: هو مكان الرسوخ والاستقرار على الاستقامة وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال ويتنقل من وصف إلى وصف فإذا وصل واتصل فقد حصل التمكين.

الدين أن القطب قد يكون لا مال له فيخرج إلى بيوت أصحابه فيسألهم لطبيعته ما يقوم بها كالشفيع لها، ولا يقدح ذلك في كماله انتهى والله تعالى أعلم.

ومن شروطهم: أن لا يجلسوا في مقام المشيخة إلا إن أجلسهم أستاذهم أو نبيهم، من طريق كشفهم الروحاني أو يجلسهم ربهم بما ألقى إليهم في سرهم من طريق الإلهام الصحيح لأن الشيخ إذا لم يكن عارفاً بطريق السلوك ودواء المريدين وجلس يربي المريدين، بما يأخذه بطريق الكتب طلباً للرئاسة أهلك نفسه وأهلك من تبعه.

فإن سياسة المريد لا بد منها والشيخ إنما يسوس^(١) نفوس المريدين بنظير ما كان يسوسه به شيخه أيام بدايته من تأليف المريد بالكلام الحلو والإحسان إليه، ومسارقتها بالنصح شيئاً فشيئاً، حتى يميل بالمحبة للشيخ، ويصير والدلاً له في الولادة الطبيعية التي هي أول عمر الإنسان الحقيقي، فإن حكم المريد قبل دخوله في طريق أهل الله الحقيقية، لهو حكم الذي لم يولد، كما أشار إليه قول عيسى عليه الصلاة والسلام: لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين. وقد أشار إلى ذلك سيدي علي بن وفا بقوله عن المتمشixin في عصره بغير حق:

تمشيخوا من قبل أن يوجدوا	فعمرهم ضاع ولم يولدوا
حال عليهم حال إهلاكهم	من شاخ فالموت له مرصد
وهل همها وهمها	إلا بواد وهمها مبعد
مشوا مكبين على وجههم	عمياً عن العلياء لا يهتدوا
قد حسبوا الأرض سماءهم	فاستقربوا ما هو مستبعد
وكل ما مالوا بأهوائهم	قالوا صعدنا وهم أجلد
فاعجب لمن شاخوا على صغرهم	في أرذل العيش سواء يجهدوا
رضوا بأن يعتقدوا سادة	وهم لأذنى وهمهم أعبد
فلا تحاول طبهم إنهم	لكل من خالطهم يفسدوا
وقل سلام واعتزل أمرهم	وافقد عليماً فقداه أحمد

(١) يسوس: يقود.

إلى آخر ما قال، فعُلم أن من لم يكن عنده سياسة للمريدين وإحساناً إليهم، وصبر على تلويناتهم وتغييراتهم، لا يفلح على يده إلا النادر.

ولما أنفت^(١) نفس داود نبي الله ﷺ من مجالسة عصاة بني إسرائيل، غيرةً لجناب الله ﷻ وهجر مجالسهم، أوحى الله تعالى إليه: يا داود! المستقيم لا يحتاج إليك والأعوج قد أنفت عن تقويمه فلم إذا أرسلت؟ فتنبه داود لأمر آخر كان عنه غافلاً، وصار يطبخ لهم الطعام ويدعوهم، ويذهب إلى زيارتهم في دورهم، ويسارقهم بالمواعظ شيئاً فشيئاً، حتى اهتدى به خلق كثير من إسرائيل، فاعمل يا أخي على ذلك والله أعلم.

ومن شأنهم: هضم نفوسهم على الدوام، فلا يرون أن شيئاً من أعمالهم يرضي الله تعالى في ساعة من ليل أو نهار، بل يرون دائماً أنهم قد استحقوا الخسف والمسح لصورهم، حتى كان أبو يزيد ﷺ كلما يستيقظ من نومه يمسح على وجهه فوراً، فقليل له في ذلك، فقال: أخاف أن يكون الحق تعالى مسخ صورتني صورة كلب أو خنزير لسوء ما أتعاطاه.

وكان سري السقطي يقول: إني لأنظر إلى أنفي في اليوم كذا وكذا مرة مخافة أن يكون قد اسود وجهي، وأنا غافلٌ عن مراقبة الأدب مع الله، وكان كثيراً ما ينظر وجهه في المرأة لأجل ذلك.

وكان معروف الكرخي يقول: أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد خوفاً أن لا يقبلني قبري فأفتضح ويسئ الناس الظن بأمثالي.

وممن أركناه على هذا القدم سيدي الشيخ علي النبتيتي البصير، وتلميذه سيدي علي البحيري والشيخ محمد المنير، وسيدي علي الخواص، وشيخ الإسلام زكريا، وشيخ الإسلام نور الدين الطرابلسي الحنفي، والشيخ عبد الحلیم بن مصلح ﷺ أجمعين، فكان سيدي علي النبتيتي إذا قام من الليل يفحص ويكي كالطير المذبوح، ويقول: يا رب لا تهلك أهل هذه البلاد بذنوبي، وكان يقول: لو خسف الله تعالى بمصر وقراها بسبب ذنوبي لكان قليلاً انتهى.

فلا تظن يا أخي أن أحداً من القوم يرى أنه من الصالحين أبداً، وإن وقع أنه

(١) أنف: استنكف وكره.

رأى ذلك استغفر منه .

وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول: والله لو حلف شخص أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب، لقلت له: صدقت يا أخي لا تكفر يمينك .

وقد طلب بعض الفقراء وقوع كرامة من سيدي عبد العزيز الديري رضي الله عنه فقال لهم: يا أولادي وهل ثم... لعبد العزيز في القرن السادس أعظم من أن الله تعالى يبقي الأرض ولا يخسفها به، وقد استحق الخسف به من أزمان!

ثم قال: ما أرفع رجلي على الأرض وأردها إليها وأجدها، إلا شكرت الله تعالى على ذلك. وفي رواية أخرى أنه كان دائماً قلقاً فقليل له في ذلك فقال: إني أخاف من الخسف بي في كل لحظة .

وسمعت سيدي علي الخواص يقول: لا يستبعد الخسف به في هذه الأيام إلا كل مغرور، فقد خسف الله تعالى بقوم كانت ذنوبهم دون ذنوبنا بيقين، فروى الإمام أحمد والبزار مرفوعاً: «بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال^(١) فيهما، أمر الله تعالى الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وفي رواية: «بينما رجل يمشي في حلّة^(٢) تعجبه نفسه إذ خسف الله تعالى به الأرض، فهو يتجلجل^(٣) فيها إلى يوم القيامة».

قال ابن عباس وذلك بزقاق أبي لهب بمكة، وممن رآه حين خُسف به العباس رضي الله عنه.

وروى البزار ورواته رواية الصحيح مرفوعاً: أن رجلاً كان في حلّة حمراء يختال، فخسف الله تعالى به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

وروى الترمذي وغيره مرفوعاً: «بيت قوم من هذه الأمة على لهو ولعب، فيصبحون وقد مُسَخُوا^(٤) قردة وخنازير». وفي رواية الترمذي: «بيت قوم على لهو ولعب، فبينما هم كذلك إذ خسف الله بأولهم وآخرهم».

(١) يختال: يتكبر.

(٢) حلّة: رداء.

(٣) يتجلجل: يتحرك بشدة.

(٤) مُسَخُوا: حُوِّلَت صورتهم إلى أخرى أقيح.

وروى الإمام أحمد وغيره مرفوعاً: «ببيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب، فيصبحون قد مسخوا قردة وخنازير، وليصيبنهم خسف وقذف، حتى يصبح الناس فيقولون: خسف بدار فلان، وليرسلن عليهم حجارة من السماء، كما أرسلت على قوم لوط، على قبائل فيها وعلى دور، وليرسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عاداً على قبائل فيها وعلى دور، بشربهم الخمر ولبسهم الحرير، يمسخ منهم قردة وخنازير ليوم القيامة».

فانظر يا أخي بعين الإنصاف إلى هذه الأمور التي وقع الخسف بأهلها، تجدها دون ذنوبنا بيقين. فكم نظر أحدنا إلى عطفه^(١) حين لبس صوفاً جديداً مثلاً، وكم نظر إلى عمامته بعد أن عممها على رأسه من غرض شرعي! وكم يتبخر في مشيته رافعاً نفسه على أقرانه! وكم بات أحدنا على لعب وأكل وشرب ولهو، مُصِراً على كثير من المعاصي، وكم وكم وكم! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصاحب هذا المقام لا يصير له رأس ترفع بين الناس، وربما استحيى أن يجالس أحداً من المسلمين، لا سيما في المحافل، كالمحافل الدينية وختوم الدرس، فإذا أحضر في مثل ذلك ذاب خجلاً وحياءً، وتمنى أن الأرض تبلعه، كما يعرف ذلك كل من ذاق مذاق العارفين.

فاعذروا أيها الإخوان من دعوتهم من الفقراء إلى حضور محفل وأبي، فربما كان مقامه شهود نقائصه وعيوبه، وإذا جلس بين الناس كأن عورته مكشوفة، ولا يجوز لكم حمله على التكبر، كما بسطنا على ذلك آخر «المنن الكبرى»، والحمد لله رب العالمين.

وليكن ذلك آخر كتاب: «لواقح الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية» والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

قال مؤلفه: وكان الفراغ من تأليفه في عشر من ذي الحجة الحرام سنة إحدى وستين وتسعمائة بمصر المحروسة، والله أعلم.

(١) عطفاه: جانباه.

فهرس كتاب الأنوار القدسية

٥	ترجمة الإمام الشعراني
٨	المقدمة
١٧	بيان سند التلقين الصوفي
٢١	بيان آداب الذكر
٣٥	ذكر آداب المريد
٣٩	أركان الطريق
٤٢	مخالفة النفس
٤٣	التوبة الصادقة
٤٤	من شروط الشيخ معرفته بعلوم الشريعة
٤٥	شيخ السلوك لا يكون إلا واحداً
٤٦	قطع العلائق الدنيوية
٤٧	صدق الحال عند المريد
٤٧	الأخذ بالأحوط في الدين
٤٨	كتمان الأحوال
٤٩	الملازمة للشيخ
٤٩	طب النفس
٥١	واجب المريد بعد وفاة شيخه
٥١	امتحان المريد
٥٣	أكبر القواطع على المريد
٥٤	إعطاء العهد للنساء
٥٦	الشريعة والحقيقة
٥٦	أثر الولايم على المريد
٥٧	مجاهدة النفس
٥٨	حفظ العهد مع الله تعالى
٥٨	الخير كله في الاتباع والشر في الابتداء
٦٠	التباعد عن مجالسة الغافلين
٦١	المريد لا يتميز عن إخوانه
٦١	آفات القلوب

٦١	لا ذكر بعد المشاهدة
٦٣	متى تطوى مقامات الطريق للمريد؟؟
٦٤	تجنب الاعتناء بالظاهر
٦٨	الطريق لا تقبل الشركة معها
٦٩	المريد دائم الإيثار لأصحابه
٧٠	المريد الصادق
٧٦	إياك والادّعاء
٧٦	سرّ الطريق في أورادها
٨٣	الأصول التي يبنى عليها المريد أمره
٨٨	طهارة القلوب
٩٢	أضر الأشياء على المريد
٩٤	العبادة والفتح
٩٥	مراحل المريد
٩٦	أول أساس في الطريق
١٠١	من شروط المريد الصادق
١٠٤	بعض أمراض النفس
١١٦	الفقراء جواسيس القلوب
١١٨	حياة الأولياء في قبورهم
١٢٠	الذكر أفضل أوراد المريد
١٢٢	آداب المريد مع شيخه
١٢٤	أوصاف المحبين
١٣٥	من أدب الطريق استئذان الشيخ
١٤٥	الصوفي الحق
١٥١	من شأن المريد أن لا يقول لشيخه لِمَ؟!
١٥٢	آداب المريد مع شيخه
١٥٥	محافظة المريد على محبة إخوانه له
١٥٨	إياك أيها المريد ومخالفة شيخك
١٦٠	علامات فلاح المريد
١٦٢	أسلوب الدعوة إلى الله تعالى
٢٤٣	كيف يعامل المريد إخوانه؟
٢٨٥	خاتمة
٣١٩	الفهرس